

رسول درویش

دلمونیا



روایۃ

دارالمنثور

للدراسات والنشر والتوزیع

دلمونیا

عنوان الكتاب: دلمونيا
اسم المؤلف: رسول درويش
الموضوع: رواية
عدد الصفحات: 400 ص
القياس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعة الأولى: 500 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN: 978-9933-536-46-6

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دَارُ نَيْنَوَى
لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع



Ayman ghazaly



العمليات الفنية:

التضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى
الغلاف: منحوتة للفنان حسين عيسى / البحرين
تصوير: سعيد منصور
تدقيق لغوي: د. زهرة حرم

لا يجوز نقل أو الاقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر أو الكاتب.

رسول درویش

دلمونیا

روایة

2016

"غالبًا ما كان الناشرون يتزعمون المخطوط من يدي لأنني كلما أعدتُ القراءة عدتُ إلى التنقيح. لازلْتُ مؤمنًا بأن أيّ عملٍ أدبيّ هو عبارة عن نصّ غير مُكتمل، وأن الكاتب لا ينهي روايته أبدًا لكنه يتخلّى عنها".

ماركيز

المقدمة

٤

انقضت الحياة المدنية بمبانيها وشوارعها ومرافقها على أنجز مقبرة تاريخية في العالم، والتي تُعرف بـ "مقابر دلمونيا"، ولما كنتُ من سكان المناطق الذين يحيطون بتلك المقابر؛ فلقد وجدتُ علاقة ناطقةً بين الأحياء والأحيوات. لم يعد الأحياء فيها يُقدرون الخصوصية التي مُنحت لموتاهم؛ حتى أصبح اقتحامُ "ساكنهم" وقصُ مضاجعهم نوعاً من الحضارة المدنية. وضعتُ أجبرني على السير بين تلك المدافن والاعتذار بالإنيابة لقاطنيها، وخلال تلك الزيارات، وجدته عفوياً، لا ألتقط أنفاسي ولا أريحُ بدني إلا عند مدفون محددٍ يقع تقريباً على الطرف الغربي وسط تلك المقبرة العملاقة.

وكلما أطبق الصمتُ على المكان؛ أراني أصغي لذلك الصمت. وجدتُ أن الصمتَ لا يتنفس ولا يكون حياً إلا إذا أوقفَ العملُ بالحواس الخمس مجتمعة. هنالك تعلمتُ لغة جديدة، ونشأت حواراتٌ مختلفة؛ دفعتني لإزاحة الرمال والحجارة والغور داخل تلك التلة/ المدفن في محاولة لم تكن بائسة؛ للوصول إلى مصدر الحوار الجديد ولغته الحديثة.

تلقيتُ دعوةً مفتوحة من أصحاب المدفن لزيارتهم في أقرب فرصة ممكنة. قبلتُ الدعوةً وبلا تردد.. ولكن حينما أعودُ لناسي ولحياتهم الحاضرة، فإن ذلك الحوارَ يتلاشى ويظهر مكانه سلوكٌ إنساني متعال، سلوكٌ حيواني غوغائي يُطلقُ عليه اعتباطاً بالعصري والمدني وكذلك الـ "عولمي" .. نتيجة لذلك كله؛ صرتُ مطالباً من كلا العالمين بالبحث عن حقيقة تلك المدافن وعلاقتها، بل وتأثيرها المستمر على شعب جزيرة "دلمونيا" بأسمائها المتعاقبة والمتغيرة.

لراكن أعرف من أين أبدأ وأين أضع خطوتي الأولى، ولريكن لكائن - إنساناً أو جماداً - القدرة على أن يدلني نحو ذلك الطريق، أعدتُ الزيارة إلى

ذلك المدفن، وانتظرتُ أن يُقبَلَ حضرةُ الصمت، لريتأخر كثيراً، كأنه كان يتربُّ عودتي ثم قال: إنَّ أوَّلَ من اقتحم مدافنا رجلٌ أحمرُّ من بلاد الغرب يُدعى... آدم، استطاع أن يُفرِّقَ بين الحجرِ وطينه حتى استلهم روحَ المدفنِ فعاش إنساناً. دفعني ذلك كله للبحث والتقصي حول تاريخ الرّحالة الأوربيين للشرق الأوسط، خاصة أولئك الذين اقتحموا الخليج العربي وفكّوا طلاسم قلبه في "دلمونيا". وجدته - وربما وجدني - فسحني خلفه وأنا أدقُّ في محطّاتِ حياته، منذ نشأته في مقط رأسه، ثم نزوحه لمدينة أخرى في منتصف القرن الثامن عشر، وصولاً لرحلته الشاقّة إلى الشرق الأوسط بمحطّاتها وتعرّجاتها وأحداثها. بعيداً عن تلك الأحداث وقبل الغور فيها، فإنه لا يمكن في هذه المقدمة إلا أن أتوجه بجزيل الشكر وكثير من الامتنان إلى وزارت الإعلام والثقافة في كوبنهاغن واسطنبول والمنامة؛ لتبنيهم هذا العمل، ومحاولاتهم الدؤوب في تذليل الصعاب التي واجهتها كثيراً، كما أنحني شاكراً للمتأخفين الوطنيين والمكاتب العامة والخاصة؛ لحسن تعاونهم وصبرهم على تظلي وفضولي، ولا يفوتني أن أثنى باعتزازٍ على الجهد الذي بذله المترجمون واللغويون والأحبة المدققون في توفير النصوص الأصلية، ثم مراجعة ما كتب؛ بحيث لا تتجاوز الفكرة المترجمة حدودَ الفكرة الأصلية فتجهضها.

ختاماً، لقد استنزف هذا العملُ طاقة عامين أو أكثر، بذلتُ فيها ما استطعتُ من جهد، جمعتُ ودققتُ وترجمتُ الكثير من المخطوطات والرسائل والوثائق التي جاز الزمانُ على أكثرها؛ فمحا بعضها ومزق أخراها، وهو ما حاولتُ أن أكمله بأسلوبٍ وما يناسب السياق العام. أتمنى من القارئ الكريم أن يتجاوز بفضلِه عن النقص الملازم لأي عمل إنساني، وأن يتقبل هذا العمل البسيط، والذي يُسمى مجازاً بالعمل الروائي.. إليكم وردة و... "دلمونيا".

المترجم

2014/9/19

الإهداء

لأن الكاتبَ الفاشلَ هو الذي يصطادُ فوقَ الماءِ،
لم يجدز لسواك أن أهديه روايتي..

لك..

يا خولة

الفصل الأول

(1) المترجم

فبراير 1760

وقف التاجرُ أمام ثلاثة من أعيان البلد، الذين وضعهم العرفُ الاجتماعي التائد حكّاماً وقضاة. وقف كأسد جريح مهتمّ الكبرياء في مقابل غواصي متقاعدٍ بلغ من العُمُر عِتياً، فزاده ذلك بهاءً ومكانة في مجتمعه. تحدّث حينها كبيرُ "القضاة" المدعو بالشيخ الببول:

- السيدُ التاجر، يقف أمامك عميدُ عائلة آل جورٍ ممثلاً عن عائلة المتهم بقتل ابنك في البحر، وممثلاً أيضاً عن بقية البحارة الذين كانوا على متن السفينة، حين وقعتِ الحادثة وراح ضحيتها ابنك الشاب ناصر... سيدي الكريم، لقد انطلقت رحلة الغوص الموسمية الصيفية قبل شهرين، وقد رغبتُ أن يقوم ابنكم ذو الثمانية عشر ربيعاً بمرافقة الحملة؛ ليقف على كل صغيرة وكبيرة ويكتب الخبرة لإدارة رحلات الغوص في المستقبل، ولما كانت مشيئة الله نافذة على عبادِهِ، فقد وافته المنية هناك وقضى نحبهِ واستردَّ اللهُ تعالى أمانته. سيدي الكريم، لنتمتع إلى الشهود ونصل إلى نتيجةٍ وحكمٍ شرعيٍّ يرضي اللهُ ورسوله، وترضى عنه جميعُ الأطراف وفق شريعة الدين الحنيف.

أشار "القاضي" بيساره للحاضرين في مجلس القضاء التقليدي ذي اللون الأبيض، المبني على الطريقة المتعارف عليها بالحجارة والجير

"البحر"، فتقدم السبب للشهادة وسرد الواقعة. شاب في منتصف الثلاثين من عمره، ألقى حرارة الشمس بردائها عليه فصبغت ملوحة البحر بلون أسمر لامع؛ فبدلون وجهه كسائر جسده، ألمس الشعر إلا من خصلات متناثرة هنا وهناك، وكأنها حشائش موسمية لا تأتي في السنة إلا زائرة خجلة، تحدث له القاضي متسائلاً، فوقف بين الحضور:

- السبب يوسف، ضع يدك على القرآن الكريم وردد بعدي: "أقسم بالله العظيم أن أقول الحق".. تفضل بوصف ما حدث على ظهر السفينة.

- أنا السبب يوسف. كنتُ المستول عن الغواص أبي راشد، الذي كان متفانياً في عمله، يغطس عشر مرات كل صباح، ولما كان ناصر مندفعاً، ويريد التعلم؛ فقد طلب مني أكثر من مرة - وبالحجاج منقّر - أن يغوص لاستخراج اللؤلؤ، بعدما رأى وقدّر باندفاع شبابه أن الغوص ليس عملية صعبة أبداً. ينازل الغواص عمق البحر؛ فيسحب لقاعه حجر مشدود بحبل، وعندما ينتهي من جمع المحار ويحين موعد العودة للسطح، يهزُّ الحبل الآخر فأبدأ بسحبه.. هكذا وجد المرحوم ناصر العملية وقيمتها، وقد كرّر علينا طلبه ذلك منذ النزول الثاني، ونحن قابلناه بالرفض وحذرنا من مخاطر وغدر البحر، ولكنه كلما شاهد المحار ازداد شغفاً بالتجربة، وفي المرة الثامنة، رفض ناصر أن ينزل أبو راشد وأصرّ على أن يكون بديلاً له ولو لمرة واحدة، أرشدناه لما يجب فعله عند الوصول لقاع البحر فازداد إصراراً، ولما انقضت نصف المدة المقررة له بدأت أراقب هزة الحبل ولكنه لم يتحرك، فقمْتُ بسحبه لظهر السفينة من تلقاء نفسي.. ولكن وصلني الحبل خفيفاً فارغاً، فألقيت به ثانية لعل أحدهما يمسك بالآخر... ولكن... صرختُ فرعاً، فنزل الغاصة بحثاً عن ناصر، فما وجدناه إلا بعد مدة طويلة جثة

هامدة طافية على سطح البحر في الجهة الخلفية للسفينة.. قضاء الله وقدره،
إننا لله وإنا إليه راجعون.

اغرورقت عينا اليب، ونظر إلى الغواص أبي راشد أولاً، ثم باتجاه
القاضي والتاجر. طلب القاضي من الغواص الشهادة، فصادق على كلام
اليب ولم يحد عن الحقيقة كما كان يراها.

إبان ذلك، كان التاجر شارد الذهن مذهولاً. تسقط عيناه عشوائياً على
مكونات المجلس بكل زواياه. أصبح يعاين السقف وكأنها يعد "الجنديل"
البنّي وما فوقه من حصر صفراء مقوية، ثم يتقل إلى "الكوات"⁽¹⁾ والنوافذ
المغلقة والتي تسمى بـ "الروزنة". يعاين المساند الحمراء المخططة بالأسود
ويتقل بين الوجوه ويفرّسها، ولما التقت عيناه بعيني القاضي، لوح الأخير
بيمينه إليه فأيقظه من سباته وشروده.

توجه القاضي بالحديث إلى النوخذة الذي كان جالساً على يساره
بالقرب من التاجر. أعاد عليه صيغة القسم، وطلب منه أن يسرد الحقيقة
التي أدت لوفاة الشاب ناصر ابن التاجر، فبمّل واسترجع وقال:

- الحضور الكرام. كان المرحوم ملازماً لي طوال الرحلة، كما كان
الاتفاق مع والده قبل (طلعة) الغوص، وقبل وقت الظهرية توجه ليوسف
وجلس بجواره. لم أسمع حديثهما، ولكن كان يبدو أنهما اتفقا على أمرٍ
معين. توجه بعد ذلك للجهة الخلفية للسفينة، واختفى عن الأنظار، وحين
افتقدته، وطال به الأمد، بحثنا عنه على ظهر السفينة، كل يعاين موضعه؛
فلم نجده إلا بعد ساعة جثة هامدة فوق سطح البحر. إنني أشك أن
يوسف قد دبّر له أمراً.

1- جمع كوة، حرق أو فتحة علوية في الجدار تستخدم للتهرية والإضاءة.

توجه القاضي للحضور بكلامه، وقال: "الشك ليس دليلاً قطعياً يُعتمدُ به في إصدار حكم قضائي يراعي حكم الله وسنة نبيه، كما أن الحاكم لن يصادق على حكم بُني على الشك والظن"، ثم توجه للحديث ناحية العميد والتاجر لعلهما يتفقان حول القضية وحول المخرج الشرعي لها.. أفسح المجال ضمناً لهما، فتحدث عميد آل الجبور:

- بصفتي ممثلاً للغاصة ولعوائلهم، وحيث أنه لم يثبت بالدليل الشرعي ولا المنطقي عملية القتل العمد ولا غير العمد، وبما أن المخاطرة ابنة المغامرة، فإنني ودرءاً للفتنة وعواقبها الوخيمة، أقترح على التاجر المحترم أحد حلول ثلاثة: أولها العفو، فهو من شيم الكرماء عند المقدرة، وتعبيراً عن الشهامة والسماحة التي تربي عليها، وامثالاً لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُتَّضِعِّينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَتَّطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽¹⁾ أو أن يطالب التاجر بالدية الشرعية التي يرضيها كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾⁽²⁾، أما الحل الثالث، وهو بغيض علينا جميعاً؛ هو القصاص إذا ثبتت الجريمة، وذلك امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾⁽³⁾. صدق الله العظيم.

1- النساء: 98، 99.

2- النساء: 92.

3- البقرة: 178.

انتفض التاجر من مكانه وبرزت على وجهه خيوط الغضب واحمرت وجتاه، أبعده غرته البيضاء من على وجهه، فالتفت حول عقاله الأبيض، وتدلت على سترته المخملية المرصعة باللؤلؤ، ثم قال بصوتٍ حادٍ: أمّا أنا فأخبركم بين أمورٍ من ثلاثة لا رابع لها.

كاد الجلوس أن يشوا من مقاعدهم وقوفاً حتى خفت أوزانهم وألقى السكونُ بكل ثقله على أسماعهم. رفع التاجرُ سبّابه وأعاد مقوله وأطال: أمّا أنا فأخبركم بين أمورٍ ثلاثة يرضيني أحدها: أولها أن تعطوني القمرَ في يميني، وثانيها أن تعيدوا لي ابني حياً يُرزق. ثم صمت التاجر وأخذ يعاين الوجوه، وأشار إلى العميد وأردف: وثالثها أن أقطع رقاب عائلتكم كلها.

انفض على إثر ذلك مجلسُ القضاء المعين، وساد الجميعُ ترقبٌ خيف. المصائب معدن البشر، يتوجسُّ فيها الخصمُ انقضاض خصمه بفتنة؛ فلا يهدأ مضجعه، وإذا مرض الاطمئنان ماتت الكينة. بُعيد ذلك كله، حاول القاضي تضييد الجراح والوصول إلى برِّ الأمان.



(2) آدم

مارس 1760

انتشرت عمليات الزواج من الأرياف إلى المدن فيما عُرف لاحقاً بظاهرة الهروب الكبير؛ لذا قررنا ركوب الموجة وتبني رأي الجماعة. سلوك القطيع هذا يُقينا ملامة الوقوع في الخطأ، لم يؤخرنا غير مرض أبي والذئاب التي تنتظر الانقراض على أملاكه وتركته. كنا نطمح إلى التحول من الريف ثم الاختباء في ضواة المدينة. حينها تذكّرتُ أمي تاريخنا المحفور في كيائها بشيء من الألم، وتحذرتُ بكثير من القلق على مستقبلنا المجهول:

- كان هناك يا بني ملكٌ يُسمى ألفريد، حكم امبراطورية بريطانيا العظمى في القرن التاسع الميلادي، ثم ادعى بخدمه وحكمته أن الله خلق العالم على شكل مثلث. ضلعٌ يحكم باسم الأمراء، وضلعٌ يعبدُ باسم الكنيسة، وضلعٌ ثالثٌ أفقي يمثله الفلاحون خدمة للضلعين الآخرين، ويقف الملكُ بعد ذلك كله بجبروته على رأس المثلث الخارق؛ وعليه أُعطِيَ كثيرٌ من الأمراء الأراضي الوقفية للكنيسة؛ فأصاب الشراء الفاحشُ الأساقفةَ أنفسهم حتى تحولوا إلى أمراء يحكمون بدورهم، وكما تعرفُ فإن المال يصقل معادن الرجال. ثم قاموا بنزع العباءة الكنية وداسوها حتى قبضوا على الأموال قبضاً، مقابل توفير وظائف للعامة، وإصدار صكوكٍ غفرانٍ لمن يهب أراضي جديدة أو أموالاً. وكان بديهياً أن يطوَّعوا الدين، وتيحوا لأنفسهم المحظورات، ومنها الزواج المحرّم دينياً على الأساقفة. أما الفلاحون، ففقدوا حريتهم قرأ، وما عادوا يملكون غير حياتهم فقط، فكانت عندما تُباع الأرض يُباع كلُّ ما ومن عليها تبعاً لذلك.

ما أعرفه الآن، أننا نقطن منزلاً نراه متواضعاً، ويراه الآخرون
أرستقراطياً مخملياً، فالأمور - بديهاً - تعرف بأضدادها، يتوسط المنزلُ
بتاناً أخضر كبيراً تجوب المياهُ سواقيه بحرية مقيدة، وتناثر أشجارُ الكرز
متراسة، وتنمو مختلف أنواع الورود، تقتات على حشائشه بعض البقر
والماشية، يُحْدُ البتانُ أو المزرعة سياجٌ خشبي قصير، تتسلقه بعناد
شجيراتُ الياسمين وأخواتها، حتى صار الكثير يحمداً على هذه النعمة...
كان - حينها - والدي المقعد في نزاعٍ دائم مع المرض، كلما دنا منه الأجل؛
لطمه بعزيمته، فيقرُّ من بين يديه، ولكنه أخيراً، قرَّر أن يصافحه ويصغي
لصوته. طمع عزرائيلُ بالدعوة وأقبل فرحاً واستل روحه بلا مقدمات، هو
هو الموت، يُقبل سريعاً متشياً لمن يرحب به، ومباغتاً لمن يعانده. رحل
والدي ولم يكن ذلك غريباً بل أمراً متوقعاً، والمتوقعُ حدوثه يأتي على مهل
ويفقد عنصر المباغته.

ولما رحل العجوز، تنافس الإقطاعيون الطامعون فيما بينهم. تناقصوا
على الظفر بالأرض الزراعية الشاسعة التي تركها أبي لأرملته ولابنه
الوحيد. أرضٌ خصبة تم امتلاكها عبر قانون وضع اليد الوراثي، ورثها
الأبُّ عن والده فتحولت إلى جنة خضراء تؤتي ثمرها كل حين. وضع
والدي جُلَّ طاقته فيها، وسقاها من عرقه ودموعه؛ حتى أثمرت وأبنت
حُباً وحَباً. تقاسم العملُ وأمي فيها أمداً طويلاً، ولما درّت خيراً وفيراً؛ قام
بتوظيف بعض الفلاحين، واكتفى هو بدور المالك والمراقب.

لم تكن أُمِّي راغبة في مواجهة كبار الملاك في المنطقة، والذين تكالبوا
علينا مجتمعين، كانت تعي أن من يخشى المكاره يقع فيها. تطور حينها وبقوة
مصطلحٌ جديدٌ يُعرف بالاقطاعية؛ طبقة من كبار ملاك الأراضي، قويت

تدريجياً حيث صار الفلاحون يعملون في الأرض ويسكنون فيها، وتحولت بفعل فاعل إلى نوع من العبودية، صار فيها الفلاح نوعاً من الممتلكات الخاصة والشيئية. عليه أن يدفع فيها ضريبة على كل ما يملك وينتج طوال العام.

بعثت الكنيسة بذراعتها إلينا.. بدا مندوبها زاهداً في كلماته، ثرياً في ملابسه، مترفاً حدّ الفخامة، لم أستلطفه أبداً. هناك خيطٌ رفيع بين الفجر والليل، بين الصدق والكذب، إذا تخلصت منه ستبصر، وستستطيع اكتشاف محدثك بكل يسر:

- سيدتي، يوجد مشروع كني عملاق، يحفظ لكم الدنيا والآخرة، مشروع أخروي يكرس معنى خدمة مصالح البشر على الأرض وفي السماء، يحفظ حقوقهم في الدنيا والآخرة.

- كيف؟ أليست الكنيسة داراً للعبادة؟ محلاً لإقامة الشعائر المسيحية؟ ألا يجرمُ العبثُ بدور العبادة في كل الديانات تماماً كما يجرم هدمها؟ هل ستصبح مركزاً تجارياً؟ مصرفاً ربحياً؟

- التجارة الدينية أكثر ربحاً وأوفر حظاً أيتها السيدة. إنها تجارة خالدة مع الله، تخصيص الأملاك للكنيسة عملٌ وقفي لا تقف معه الحسنات؛ بل تتضاعف كلما تقادم الزمن ودارت عجلة السنين.

أثارني منطقته، إنه مبدأ الاتجار بالدين. قد يتعامل الإنسان فيه مع بني البشر فيصيب ويخطئ، ولكن التعامل مع الرب هو نوع من الجبر ليس للإنسان فيه غير الانصياع إذا أراد طوق نجاة.. يا إلهي، عمّ يتحدث هذا الرجل؟ هل هبط الوحي مجدداً وهل عاد المسيح؟ أكملنا الحوار معه بتهكم.

- لم أفهم! ولعلني لا أريد أن أفهم. البلاهة نعمة أكبر من الفهامة في مواضع كثيرة.

- ستهبكما الكنيسة صدك غفران كفيلاً بأن يُسقط عنكما الخطايا، تولدان معه يوم القيامة كيوم ولدتما على الأرض، أنتِ وابنكِ هذا تحصلان على صدك غفران يضمن لكما الدنيا ونعيم الجنة في الآخرة.

- وإن لم ندفع، هل سنعاقب؟ هل سيُصبُّ علينا البلاء قبل الموت أم بعده؟

- كما أعرفُ يا سيدي، فإن الكنيسة ستصدر في حقكما صدك حرمان. يدُ الرب تتحرك من خلالنا في الدنيا، نحن يد الله في الدنيا، وهو من ينفذ القانون ويطبق الجزاء في الآخرة.

إن حرب الإرادات أشد من حرب الأعصاب. بدأ الخوف والوجل يستشري في وجه أمي، لا أظنه ضعف إيمان ولكنه الحذر من عاقبة الأمور، ففي تنفيذ مآربهم تخل عن العقل والمال، وفي المواجهة خسائر لن نُحمد عقباها. كنا نعي بعضنا وكان المندوب يعي سرائرنا، فللكلمة معنى ظاهري ومعانٍ باطنية.

لم تكف الكنيسة بذلك، أقامت تحالفاً مع الاقطاعيين، تجني من ورائه ذهباً. ثم ترهبُ الناس وترغيهم. إذا دفع الاقطاعي والعبدُ عشرَ ما يملكان يحصلان على صدك غفران. ومن يرفض يُعطى صدك حرمان على ورق من البردي، الذي لا يهرم ولا يَفنى. له كل الحق أن يدفنه معه حين الموت، يُوارى الاثنان الثرى سوياً.

كنا نشعر تقلص أعداد الفلاحين بين يدينا. تناقص غير مبرمج، كان من المحال على بعضهم دفعُ عشر دخلهم. صار النزوح للمدينة سفينة

نجاه، ظنوا الراب بارقة أمل. أصبحنا نقتفي أثرهم ونتمنى اللحاق بهم. لم يكن بوسعنا الصمود في وجه كبار الملاك؛ فأميناً في هدنة غير معلنة. نسايرهم ونترقب ملاذاً آمناً. نترقب الفعل لترصد ردة فعلنا. هناك من المدينة تشرق شمس الحرية. نسمع عن عظماء من علماء ومفكرين، عن فلاسفة ومبدعين، تبدو حياة إنسان المدينة تستحق العناء. هكذا يتجلى الأمر، هناك روادٌ وفلاسفة يريدون فصل الدولة عن الكنيسة، هناك من يردد شعار: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. الرواد هم الفئة المتعلمة التي أخذت على عاتقها محاربة مثلث الرعب، حتى أصبح التعليم أبغض الحلال عند كل جائر، ثم أضحى ممى عصر التنوير شائعاً عند الطبقة الكادحة. هيمن حينها علم تفسير الأيقونات، وانتشرت التماثيل التي كان أحدها يمثل امرأة ذات وجهين. أحدهما ينظر للماضي والآخر يتطلع للمستقبل، والمرأة ماسكة كتاباً وريشة. أصبح للجميع حق التعلم، ولا يجوز أن يمن عليه أحد، للفلاح والصانع والبحار والنجار وغيرهم، للعامّة حق التملك، للعامل حقوق وواجبات، حُددت ساعاتُ عمل أسبوعية.. أصبح العاملُ وقد دُست إجازاتٌ بين أيام عمله، وقت فراغ للاسترخاء والترفيه.. أظني أحلم بحياة لم أكن أتخيلها، لا بد أن يكون للجميع - هناك - حقٌ وخيرٌ وساواة..



(3) المترجم

منتصف مارس 1760

اقتحم الأطفال فناء المنزل الرملي (الحوش) بضواضتهم المريحة في إزعاجها وشقاوتها، فهُم من يبعثون الحياة في ذلك البيت الطيني المائل للبيض، وفي الجدد المتهالك لعميد أسرة آل جبور، الذي تطرب كل خلاياه نبضاً بالحياة كلما أقبلوا عليه عائدين للبيت (العود). يدفعون الباب الرئيسي للمنزل، فيضرب صريره كل الأرجاء إيذاناً بالاقترحام الفوضوي الجميل. يترامضون حفاة متعلين الرمال البيضاء، والفرح يُجاور الطمأنينة في أفئدتهم. هناك في أقصى يمين الباب حيث الزاوية الجنوبية، توجد سدرة شائخة تعانق السماء بفخر واعتزاز وتخفي في ظلها بيت الخلاء، أما على اليسار، فيوجد المبنى العتيق ذو الطابقين، ببابه الرئيسي وسلّم الطابق العلوي، الذي يأخذك بعبأته الشمان عشرة غير المتوية، يأخذك للسطح ذي الجدارين المزدوجين المتوازيين؛ جداران من حجر (الفرش) المستخرج من مياه البحر الضحلة، أحدهما خارجي قصير يعمل كمصد للأمطار، وآخر داخلي أكثر طولاً وارتفاعاً، يعمل مصداً للهواء الذي ينحشر مرغماً بينهما؛ فيتقل بعفوية بلهاء لتهوية المبنى الأرضي في هندسة موازية للعلوم الفرعونية، ولكن بتصميم بدائي راق، يعتمد على فكرة اختلاف الضغط الجوي، فالضيق يولد الابتكار، أما الدور الأرضي فلا يمكن اقتحامه، إلا برفع ودفع أحد مصراعي الباب (الدروازة)، وكان من يدخل؛ يتأذن من المبنى لا قاطنيه. يتوسط (الليوان) الرملي بجدرانه البيضاء الباردة رغم حرارة الصيف، يتوسط أربع غرف متجاورة تطل عليه وكأنها تراقبه، وفي أقصاها - يساراً - يلتقي (العميد) على فراش قطني، وُضع فوق حصير صُنع من خوص سعف النخيل؛ هنا يلتقي الكهل

التسعينى بأحفاده، الذين يجتمعون حوله دائرياً؛ لينفثوا فيه من روحهم، فتدبُّ فيه نائم الحياة، وكأنها للأرواح لغة بلا حروف، فلا ندرك كنهها.

يحاول الأطفال الأربعة كمعادتهم إجلس جدهم، وإسناده على الجدار، قبل أن يأتي والدهم. يتعاون ثلاثة منهم على فعل الخير، ويبقى راشد يطيل النظر من على بعد مترين. يؤرجح نظره بين وجه جده وموضع رجله المقطوعة من أعلى الركبة اليمنى. يستخلص الجدُ إشاراتٍ خيرةً راشد فيقول مكرراً:

- هذه ضريبة الحياة يا بني.

- أي ضريبة وأي حياة يا جدي؟ تموت بعض أجزاءنا لنحيا بكلٍ مقوص!

- أي طفل أنت؟ تصدح بكلماتك دائماً. أتمنى أن يكون الغدُ لك ويُشرق بعنفوانك.

تمر اللحظات كإبقاتها، وتبقى الأسئلة حائرة في قلب الصبي قبل عقله؛ فأى حياة هذه التي يفقد الإنسان فيها شيئاً من جده ليقى فيها؟ يضحى بما هو مادي ليصلح أمراً معنوياً. الحياة التي تقف بنا تنذرنا بقدم خطر أكبر. يستنبط عميد آل جبور بفطته وخبرته تلك الأسئلة الحائرة في ذات الصبي راشد... قمة البلاغة هي أن تجيب دون سؤال:

- الحرية والكرامة يا بني.

- التضحية كرامة! النقص كمال.. هذه مفرداتك المكررة التي لا أفهم أمرها.

- ستدرك لاحقاً كيف تدفعنا الحياة لتقديم ديةٍ جريمة لرنرتكها، قربانٌ حسن....

ابتسم العميد حين تذكر هرطقات التاجر ونفاق النوخذة... ولكن.. العاقل من يضع مسافة بينه وبين المتلطف. تلك المحاكمة الصورية التي لا يمثلُ القوي لقراراتها، ويُذعن الضعيف لتداعياتها.

يقطع الأطفال ذلك الحوار المبهم، وبراءتهم يتسلق أصغرهم كتفي جده رغبة في الوصول للرأس. تلك القبة اللامعة التي تثار الصدا حولها، أما خولة التي قاربت العشرين ربيعاً، وبدأت تطرق باب النضج العقلي، فتجلس بجوار حضن جدها، فيما أوسطهم يحتضن صدر جده النحيل... وخلال ذلك المشهد العائلي، يقف راشد شاهداً وموثقاً للمواقف الأسرية الدافئة.. ولازال السؤال حائراً صامتاً حول من سرق ساق جده، وأي نوخذة منافق وتاجر سارق ووو..

تحاول خولة بفطرتها أن تشرب من معين المعرفة الواسعة والخبرة الطويلة من جدها. تكاد تجد كل الإجابات لأسئلتها واستفساراتها. تطرق باب الدين فتجد حلاً. وتطرق باب مجتمعا فيأتيها الجواب. أصبح الوقت ذا قيمة كبيرة بجوار جدها وأبيها.

انفضّ المشهد المعتاد على هدير صوت أبي راشد... دخل الرجل الأربعيني مهاباً، حتى تخرجت كل الحناجر، وكادت الأنفاس تخفت مهابة لمقدمه. رجل ضيق الكتفين بارز الصدر، له يدٌ نحيفة ملساء قوية. يعاين من يصافحه بقوتها وشدتها ويشعر بالأمان بعدها. غيرت الشمس بلهياها والبحر بملوحته من سحته، فأصبح ذا بشرة داكنة. استشرى تأثير المناخ على فروة رأسه الملساء. يتميز بحور عينيه، أما أنفه فهو كالصقر في حدته. يقف على ذقنٍ أمرد، تتأثر بقايا خصيلات شعر، كانت تعرف لديه يوماً ما باللحية.

دخل أبو راشد وانحنى على رأس والده مقبلاً، وكأنه يشمه ويستلهم الحكمة والصبر منه. ابتسم العميد ودعا ابنه لجواره، بالقرب من الرجل اليمنى المتورة. أقبلت خولة على أبيها، وقف لها تقديراً. قبلت رأسه، فقبل ما بين عينها. دعاها لجانبه، ثم ألقى الرجل نظرة خاطفة على الأحفاد فوصل مغزاها. العين أبلغ من اللسان. وصلت الرسالة كالبرق، فابتعدوا

إلى خارج اللوان، يتقدمهم الفرح وتضحكهم البهجة، أما راشد فوقف إلى جانب الباب يترقب ما سيفر عنه لقاء والده بجده وفي حضور أخته خولة؛ لعله يعرف سرّ تلك الرّجل المتورة.

دعا العميد أهله بالتمر والقهوة؛ سأرت خولة من مكانها وعادت بما طلب على عجل. كانت تتمتع بالحدس وحسن التوقع؛ لذا أعدت كل ذلك قبل مقدم أيها. جاءت الفتاة بما رغب وأراد، وقبل أن يبدأ العميد بطرح أسئلته، أخذ أبو راشد يرسم مستقبل ابنته خولة: كأني بكِ تحمليين وزرنا، وكأني أرى مستقبلك غير أقرانك. لم أقرأ كفاءة لك في عين أحد من قريتنا أو القرى المجاورة، فعين المرء عنوانه، لم ألتق بمن يستحقك بعد. الأب يبحث في عيون الشباب عمن يتمناه لابنته ويأمل خيراً.. ولكن، قطع العميد حبل أفكار ابنة وبدأ يطرح أسئلته:

- متى سيدأ موسم الغوص يا أبا راشد؟

- بعد صلاة الجمعة القادمة.

- وديوننا؟

- لنا ولها الله.

- ماذا فعلت مع التوخذة؟ هل ستقطع يده قبل أن يقطع رجلك.

- ربما يستطيع هو أن يقطع رجلي، فبعدها انفضت المحاكمة المشؤومة،

سيعمل التوخذة على إرضاء التاجر، وربما يصل الأمر للحاكم نفسه.

- كيف كان وقع المحاكمة على عامة الناس؟ سامح الله التاجر، وهدئ

الله التوخذة.

- كيف تدعو لهم بالخير بعد كل ما فعلوه؟

- اعلم يا بني، أن قوتي الإيمان لين القلب.

التقط راشد هذا الجزء من الحوار؛ مخمناً أن رجل جده المتورة، إنما كانت قبل أو بعد إحدى (طلعات) الغوص. هو الانطباع الأول، وعليه أن يكتشف السر. كان دائم التطلع للغد، كأنها روح أسلافه قد بُثت. استبشر خيراً حينما أدرك أنه قد أمسك بطرف خيط.

هنا انخفض صوت أبي راشد ووالده؛ فاللسان تنخفض حدته حين تضطرب القلوب، يستجيب لها بانصياع تام. سرد الرجل لوالده تدايعات المحاكمه، فاستعاذ بالله وتمنى أن تقدهم يدُ الله أو من ينوب عنها:

- أبي، في النائبات ولمواجهة الظلم نرغب حتى في عون الشيطان.

قاطع العמיד: إياك والقنوط من رحمة الله.

ما كان الحبلُ الذي يربط أبا راشد بوالده يمثل علاقة رجل بأبيه، بل كان يشبه رباطاً مقدساً بين جيلين؛ رباط صداقة قائماً على قيمة سامية، تمثل أمانة لا بد أن تنتقل بكل مقوماتها الإنسانية؛ بيتٌ حميمي تعوده المحبة، وترويه المعارف والثقافات.

انقضى اللقاء السريع، فنادى العמיד حفيده راشد؛ ليستكمل دروسه ومعارفه، ففي حضور خولة، كان يبه ما تجود به نفسه من علوم القرآن ومن معارف الحياة. يهته لغدٍ ربما يكون أفضل، أخذ راشد مع الوقت يميز حروف كتاب الله، ويقارنها بالمخطوطات القديمة المتراكمة في البيت (العود)، واستطاع بعدها أن يجو في القراءة ويدرك ما وراء الكلم؛ حتى استبشر العמיד فيه خيراً كثيراً، فيما كانت خولة في سباق مع فهم الحياة؛ بحلوها ومرها.



(4) جاكسون

ابريل 1760

قبضتُ على يدها مصافحاً ومواسياً في رحيل زوجها فاستلّتها استنكاراً.
سحبتُ يدها فبقي القفاز الأسود عالقاً فيما بين أصابعي. انحسر بعضُ
السواد عن جسدها فبان بياضٌ مُحمر. لم تأبه لقفازها، ولكن بدا الجمال
الناقص أكثر وقعاً. تحركتُ داخلي، إلا أن الأرملة رمقتني بعين مالحة،
فاستيقنتها بالحديث:

- أنا جاكسون، سمسار عقارات وصديق للمرحوم.

- يبدو أنك صديق للمرحوم عن بعد. لم يخبرني عنك مطلقاً، ولم ألتقك
أيضاً.

- ويبدو أنها أمور الدنيا، هي من تُعطي صفة الحميمة، ومن تقطعُ
جلبها، فعلى الرغم من صداقتي والمرحوم؛ فإننا لا نلتقي إلا نادراً.

- سرى إن كان ذلك حقيقة.

كان القدّاس على وشك بدايته، وما زال النعش موضوعاً في صدر
الكنيسة التي أتشع كل من فيها بالسواد، فأعطى اللونُ وقعاً للمكان.
اتخذتُ من الصف الأول مجلساً. صرتُ على يمين السيدة وأصبح ابنها على
يسارها. أظنُّ اسمه آدم. بدأ القدّاس بعزف ترانيم وصلوات كنيّة عمّ
خلالها السكون. أقبل المعزون لإلقاء النظرة الأخيرة على الراحل، ثم تقديم
التعازي لأسرته. صار من الضرورة أن أقف بجوارهما. ظننتُ أن ذلك
سيشعرها بالاطمئنان والسكينة، ستزول عنها فكرة التسلقين والطامعين في
السيطرة على أملاك زوجها، بعد نهاية مراسم الجنازة توجّهتُ معها لمنزل

الراحل. نوعٌ من قذف المحبة في القلوب، لعلها تجد صدئى لذلك. كانت السيدة تحاول أن تُظهر مشاعر محايدة. تحاول أن تكون سيدة حديدية أمام الغرباء وخاصة الطامعين. مَحَتَّ أغلب ملامح الحزن من على تقاسيم وجهها، إلا أن صوتها رفض الاختباء. كانت الحشرة باادية على صوتها. آثرت الصمتَ إلا فيما ندر، صار لزاماً عليّ حينها أن أرمي بنفسى عليها.

- سيدتي، هذه هي الحياة بين قادم وراجل، ولكن يجب تذكيرك بأن أملاك الراحل أصبحت في مرمى الطامعين من نبلاء ورجال دين. يجب عليكِ الحذر، أجدُّ أنه سيكون من المجدي بيع أملاك الراحل على مواجهة تلك الأطراف.

- أنت تتحدث عن ثلاثة محاور، أولها أن أواجه أطماع الكنيسة. ثانيها، أن أقف في وجه طبقة النبلاء، أما الأمر الثالث فهو أن أبيعك أملاكنا بسعر أنت تحدده، أليس كذلك؟

كان تعليقها أمراً متوقِعاً. أوضحتُ لها أن بعض المهمن خدشُ أنوثتها، ويصعب على كثيرٍ من النساء القيام به. ولما كان ابنها غَضّاً لَتِن العود؛ فإنه سيكون أمراً صعباً أن تقوم هذه السيدة الأرملة بإدارة أملاكها بنفسها. كيف ستابع عمليات الزراعة والحصاد، ثم البيع بثتى طرقها، وهي لا تفقه شيئاً في غابِ الزراعة والتجارة؟

دعنا السيدة إلى تناول وجبة الغداء في بيتها بعد يومين. كنتُ من المبكرين في الحضور ومن المترقبين لأمر أصبح يلوح في الأفق. حول المائدة الكبيرة، اجتمعت كثير من الشخصيات، فعلى يمينها جلس ابنها آدم، وإلى جواره فتاة تُدعى كارينا ووالدها، ثم رئيسُ المزارعين وبعجواره أحدُ السامرة المعروفين، وهناك اثنان من القساوسة. كنتُ أتوقِعُ أن تبدأ السيدة

بعد تلك الوجبة بالإفصاح عن أهدافها وخططها المستقبلية فيما يخص أملاكها.. ولكن..

- الحضور الكرام، نتقدم لكم بجزيل الشكر لما أبديتموه من مشاعر تجاه الراحل وأسرته الكريمة، فقد كنتُ أدركُ أن الأحران تجمع الفرقاء قبل الأعبة، وإنني في هذه المناسبة، سأحدث للجميع على الرغم من معرفتي لعاقبة الأمور. أتحدث للقساوسة كرجال دين، وللسماسرة كرجال مال وتجارة، ولأعضاء الأسرة والجيران كأفراد يجمعنا بهم الحب والتقدير؛ ثم نقرر ما سيحدث للإرث الذي تركه لنا المرحوم، فإن كان للكنيسة فيه نصيب؛ فيقوم القساوسة بأخذ نصيبها، وإن كان للسماسرة فيه حظ؛ فسيأخذون حظوظهم.

إننا لا بد أن نذكر أن الكنيسة ترى أن من حقها الحصول على الأموال لكي تُحرر للإنسان صكَّ غفران يأخذه للجنة يوم الحساب، وبما أن هذا زعمٌ كنيي؛ فإن هناك من يرى أن ذلك ليس من حقوق الكنيسة. هناك من يعتقد أن الإيمان بالخالق والعمل الحسَن هو ما يكافأ عليه الإنسان يوم الحساب، وهنا الكثيرون من يرون ذلك المبدأ.

استشاط أحدُ القساوسة غضباً، أراد أن يردَّ الحجرَ من حيث أتى:

- أيتها السيدة، هيئات هيئات أن تُفقد الكنيسة نفسها، إنما الأموال التي تُدفع للكنيسة هي في مصلحة الإنسان نفسه، في حياته وبعد مماته، ولكنني أجدُّ أن السيدة توشكُ أن تعيد ذات الأفكار اللوثرية المنحرفة⁽¹⁾، وهذا أمرٌ نرفضه بشدة، ويعاقبُ عليه القانون.

1 - يعد الراهب الألماني مارتن لوثر كينغ (1483 - 1546) أول من وقف في وجه صكوك الغفران الكنسية، وقد أدى ذلك إلى نفيه وعُدَّ ما جاء به هرطقة.

طلبت السيدة من القس أن يُفصح لها المجال للحديث، وأن لا يُفقد عليها زرعها:

- إذا كنت تريد أن تبني لي بيتاً في الجنة، فأبن لي بيتاً في قلب كل إنسان.
دع للناس حرية الاختيار في التعبد، فلو لا الخبز لما عُبد الله. أنتم تُشبعون الناس كلاماً، بينما يجب أن تؤدبوا الناس، وتدفعونهم للكنيسة بسيرتكم لا بلسانكم، فليس كل نصراني يحمل الكنيسة في قلبه. تدعون المقدرة على الدفع بالعمو الكني والعمو الإلهي للبشر، ولكن أين أفعالكم في خدمة الناس؟

أصاب الغيظ القس وامتلاً شراً. وقف مستمراً متوعداً. أخذ زميله ورحلاً معاً. إنها عقبة أزيحت من طريقي للوصول إلى أملاك السيدة. لم يبق معها غير ابنها والعاملين وبعض جيرانها. أراد زميلي أن يغتنم الفرصة؛ فتوجه بالحديث إليها. كنتُ أحفظه حقاً. يكاد الدمع الحامض أن يتساقط من شدة كذبه. كان يدرك أن الفارس حين الحزن يرسم ابتسامة تخلدها المرأة في ذاكرتها، وتبصق دموعه من ذهنها، ولكنه أصر على وقاحة الكذب. كان يراهن على أن للرجال قدرة على الكذب الساذج والمفضوح، وللنساء قدرة أكبر على الإيمان والتصديق به، خيانة طرفين تضفي صدقاً على العلاقة، كأنها كثرة الكذب تحمي القلب:

- سيدتي، نحن نريد أن ندير أعمالك، ونقف معك في وجه الطامعين جميعاً. إنك تجهلين أموراً عديدة في الزراعة والتجارة، ولا نريد أن تواجهي تلك المصاعب وحدك. من الصعب وقوفك فريدة في وجه الريح.

إن الفعل النظيف ينطقه الضمير الحي، بينما الإشاعة المفرضة لا تأتي إلا من الضمير المريض، هكذا لم تعطِ السيدة أهمية لكلمات السمسار، وأم

الزبدُ فيذهبُ جفاء. كان الصمتُ أقوى بلاغة من الدخول معه في متاهات الحديث، أعرضت عنه، وتحدثت للجميع:

- الضيوف الكرام، يرغب ابني آدم في الالتحاق بالتعليم في المدينة، بينما أرغب أنا في العودة إلى أسرتي الكبيرة التي افتقدتها طويلاً، وعليه قرّرتُ وبعد استشاراتٍ دقيقة أن أضع الأراضي الزراعية بين يدي جارنا والد كارينا لحين عودتنا من المدينة. إنه على معرفة تامة بأسرار الأرض، وإنسي على ثقة تامة بأنه سيرعى مصالحنا، كما أننا سنعلنُ قريباً خطوبة كارينا لآدم، وسيقام حفلُ الزواج بعد مراسم الحداد، وربما بعد عودتنا من المدينة في أقرب فرصة.



(5) أبو راشد آل جبور

مايو 1760

انطلقتُ مسرعاً بين الأزقة المتعرجة، حتى أنهيتُ الحى (الفريق) الشرقي ثم سرتُ شمالاً في محاذاته متجهاً إلى بيت النوخدة، وعلى عكس بقية البيوت، كان هناك سورٌ خارجي للبيت، وليس له أيُّ جدارٍ ملاصقٍ.. لعلها الرّيبة والخوف من الآخر. ما أعرفه أنّ الناس تجاور أمثالها والطيور لا تقع إلا على أشكالها. طرقتُ الباب المصنوع من شجر الـيدر الثقيل ولا من عجيب. تأملتُ النقوش المسهارية المرسومة على صاير الباب، فوجدتها تتكون من سبعة سلامين⁽¹⁾. أعدتُ طرقة ثلاثاً، وكنت على يقين أنّ من في الداخل يسمع الطرقة، فعندما يُسمع كلامنا تكرر أياً يصبح خفيفاً. تراجعَتُ خطوتين للخلف. دارتُ بفكري صورة رجل والدي المتورة، وحكاية ناصر، وما يمكن أن تكون تداعيات تاريخ دلويا؛ وضمن حلقات التربية الذاتية التي بدأتها مع والدي، استدركتُ ما أنا عليه، وجدتُني أعرض على شفتي السفلى من زاويتها اليمنى؛ ثم أرخيتها لعنني أبدو أكثر هدوءاً. صرتُ أترقب الفرج، وتمنيتُ أن يصبح قريباً.

فُتح نصفُ المصراع الأيمن على مهل ودون صرير، بينما نُبتَ الأيسرُ في القاعدة بلسانٍ خشبي يُسمى (إنف). أخرج الخادمُ رأسه وجزءاً من رقبة..

1 - السلامين ومفردها سلمان، الواحٌ خشية تُبثُّ خلف الباب، ويُعرف عددها من خلال معرفة عدد صفوف المسامير المدببة من الأمام.

- مَنْ؟

- أبو راشد.

- وماذا تريد يا أبا راشد؟

الأسئلة الحمقاء تقع خارج الهامش، استهلاكية مشيرة. تُستخدم عادةً لاختبار صبر السائل وإثارته. لستُ ممن يسهل إثارته. أصبحتُ في الغالب أُلجم وبقوة زمام غضبي. أثرتُ الكلام متروياً؛ فالغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍ...
- أريد لقاء النوخذة.

- اسمه السيد النوخذة.

- نعم أريد لقاء السيد النوخذة، فلا بد أن من يشعر بالنقص يتزين بالألقاب؛ كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد، أما المليء فهو في غاية التواضع.

- أي هراء تقول يا أنت؟ هو في لقاء طويل مع التاجر، ربما سيتهي حالاً أو بعد ساعات، سأخبره حينها، انتظر هنا ريثما أعود.

اخترتُ جهة الظل مجلساً واستندتُ إلى الحائط، متخذاً البخة المحيطة بالبيت متكأً؛ تاءتُ ونفسي كثيراً عن سنة الحياة على هذه الجزيرة الوداعة، الإلهية في صنعها، الشيطانية في شقها الإنساني. مَنْ وضع قانون الغاب هذا؟ من الذي يسيرنا فوق تراب وطينا، ولماذا كلُّ هذا الظلم الواقع علينا؟ ناوّهات تنازع الروح دوماً. أخشى أن تطبق هذه الآهات على روحي بجناحيها... آآآه، وللغوص هموم أخرى لا تنتهي.

يصعبُ عليّ أن أشكّ أو أتهمّ السيب يوسف بقتل ناصر. إنها كذبة ملفقة، وربما حادث أراد من خلاله النوخذة أن تزداد ثروته ويعلو سلطانه، وهو لا يزال تحت مظلي الحاكم والتاجر. لا بدّ أنه يخطط للبعد؛ فمن

ينظر للبعيد جداً يسقط في طول الأمل، ومن ينظر بين خطوته لاشك
يُصدم بالحياة. إن التاجر هو من يدير شؤون الجزيرة، ويُقي الحاكم فزاعة
في وجه الريح.

تفاجأت وأنا مغمض العينين بالخدام يربتُ على كتفي الأيمن، وأما
براسه أربعاً، ونفخ في فيه. استعجلني بالدخول لمقابلة النوخذة:

- العم النوخذة بانتظارك، تفضل معي.

- حاضر.

تقدم الخادم وأنا أسير خلفه كمن يمضي إلى قضاء محتوم. كان يرتدي
ثوباً قصيراً مائلاً للبياض، حاسر الرأس، أجعد الشعر، كثيفه. لمحتُ
المسافة الواسعة بين شعر رأسه وكتفيه، كان يضم وضاعة وخنوعاً يرسمُ
من خلالها غرورَ سيده. فتح الخادم باب المجلس، ووقفتُ جانب الباب،
اتخذ النوخذة من صدر المجلس مقعده، ووضع أمامه (مسنداً) أحمر
يستخدمه كطاولة مكتب، تناثرت عليه وحوله دفاتره الكثيرة. كان
النوخذة غارقاً بين حساباته يراجع كعادته ديون المُدانيين من الغاصة
والسُوب. كان يلبسُ ثوباً ناصع البياض، ويضع (غترته) المطرزة بخيوط
ذهبية على رأسه. لم تخدعني نظارته، فقدارة الإنسان في داخله لا في مظهره.
بدا قاطب الجبين، محمرّ العينين، متجهماً، متصنع الغضب، لعله يبثُ
الرعب في من مجاوره... بادرته:

- السلام عليكم.

رفع وجهه عابساً، وقد بدت الخطوط الأفقية العرضية على جبينه قريبة
من فروة رأسه. ألقى عليّ نظرة خاطفة كأنها يلمح الرجل الذي أمامه
ليعابنه، ثم أعاد نظره لحساباته سريعاً، كمن يختبئ عن عيني محدثه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

دعاني للجلوس بحركة من يده اليمنى، فاستويت للطرف الأيسر من المجلس، ودون أن ينبس بينت شفة، أخذ يستذكر ديونه ويراجعها في ذاكرته القوية التي لا تخطئ ظاهراً: "ثلاثة أكياس كبيرة من الرز الهندي. كيس سكر، وآخر قمح. خمسة كيلوجرامات من البهارات الشرقية. ثلاثة أكياس من الملح. خمسة أكياس من الجريش..."

ثم قطع قائمة كلامه فجأة، وسألني:

- هل أنت مستعد للبحر؟ سيبدأ موسم الغوص القادم قريباً؟

- نعم.

- وما سبب زيارتك؟

- أريد معرفة الدين الذي علي، ففي (الطلعة) السابقة من الموسم الماضي لم أجن أيَّ أشفية⁽¹⁾.

- كانت ديونك كثيرة، ولرتطع أن تغطيها في ذلك الموسم. اعمل بجد هذه المرة، فكلما زاد اللؤلؤ زاد دخلكم.

- وكم تبلغ ديوني الآن؟

- ذكرتها لك آنفاً، ولكن لا بأس في التذكير.

استل النوخذة - عشوائياً - من بين دفاتر حساباته دفترًا عتيقاً، مالت أوراقه للصفرة، وهو يعي جيداً أنها غير موثقة وبلا شهود. وجدته يتمم

1 - الأشفية هي عملة سكان جزيرة هرمز في القرن السابع عشر، وقد استُخدمت في الخليج على نطاق واسع مع عملات أخرى، كالمحمدية والروبية وطويلة الحساء وطويلة لار والقران الفارسي وماريا تريسا والكرونا.

وربما يشتم، ولعلّه يحمّد الله في السرّ والعلن، ولكني أثق بأنه يحمّد الله تعالى على عدم وجود رقيب ولا حسيب إنساني عليه. خالني لا أعرف غير تلاوة حروف القرآن الكريم، وخيلتة يتمنى ألا نقرأ القرآن؛ فهو مصدر تشريع سماوي واضح، يدفع الراغبين لتعلم اللغة العربية. يريدون القبض على كل شيء، وخاصة العلم، لذلك فإن احتكار السلطة المعرفية هو أقصى أنواع الظلم. يتمنى الحاكم وتابعوه أن يبقى شعبُ دلونيا بلا تعليم؛ لأن العلم سلاحٌ في خاصرة الظالم.

- ديونك يا رجل... أمم، نعم. نعم، خمة أكياس من الأرز، ومثلها من الملح والشعير والقمح و....
قاطعه بغلظة شاجها الحذر:

- ولكنني لم آخذ شعيراً أبداً. أخذت ثلاثة أكياس أرز و.... هذه القائمة لا تشبه القائمة التي ذكرتها سابقاً!

- اسمع يا أنت. لا أسمح لأمثالك بالتناول على ذمتي. إن أعدت ذلك مستقبلاً؛ فسأبيعك بدينك للنوخدة أبي فهد، وأنت تعرف أبا فهد حق المعرفة. تقتلون، وتسرَقون، ثم تطعنون في النعم الشريفة وتتجملون بالدين.

صمتُ وكنْتُ أعرف أنّ الصمت حمألٌ أوجه. وقع عليّ كلامه كالسيف في حدته وكالحنظل في مرارته؛ ثم استرسل في وقاحته:

- لقد كبرت يا أبا راشد، ويجب أن توصي قبل موسم الغوص الكبير. أنت تعرف أنه في حالة موت الغواص - والموت حق علينا جميعاً - فإنّ دينه ينتقل إلى أكبر أبنائه؛ فيحل مكانه في عمله، وبها أن أكبر أبنائك راشد ما زال

(6) السيدة

النصف الثاني من مايو 1760

قضى الرجل المكافح؛ فانقضت ثعالب البشر على أملاكه. كل يكافح على شاكلته، أحدهم يريد الشراء تلمياً وآخر يلقو أخباراً مفزعة. الأسلحة الكلامية تكمل الاستخباراتية، أما أقصر الطرق وأيسرها للوصول إلى قطعة الأرض تلك فهو امتلاك قلب مالكيها؛ قلب السيدة الوحيدة. إن العبث بقلب المرأة هو أسهل وأقصر الطرق لاقتناء أملاكها، وصولاً إلى جدها وما ملكت يمينها. تراهن جاكسون حوت الأراضي الزراعية الشرس وصديقه المنافس سمسار العقارات، تراهن وتنافس على اقتناص أرض المرحوم الزراعية، على الرغم من علمهما بما آلت له الأمور الظاهرية. كان جاكسون متأكداً من الحصول على الأرض بأسلوب الترهيب من السوق، والترغيب بالمال في الوقت ذاته لشراء الأرض، أما صديقه فكان متيقناً أن الوصول للأرض يمر عبر اختراق قلب المرأة وبشمن بخس حينها. كان الاثنان يعلمان أنه لا يمكن الحصول على الأرض في دولة يؤطر خطاها القانون، وعلى الرغم من أن القانون الوضعي ما صُمم وما وُضع إلا ليخترق؛ فإنه دليل على مدنية المجتمع لا غوغائيه.

لم يكن آدم حينها يمل الحديث عن المتغيرات الياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الأوربية، وكنت من خلال متابعتي الكثيرة والطويلة على معرفة جيدة بتاريخنا، معرفة تمنحني القدرة على قراءة الطالع، وتوقع ما سيلد الغيب بعد عر الحمل. الحياة أسباب ونتائج، مقدمات

البحر ومن عليه وفيه، إلى أي هاوية نسير؟ سيأتي من يملك السماء ومن عليها... آه حقاً، لا يُعاب الرجل بأخذ حقه يا أبا راشد، ولكن يعاب بأخذ ما ليس له.

خرجتُ مكمور الظهر، وقد تمّ الحط من كرامتي، وقصم إنسانيتي. تذكرتُ رجلَ والدي المقطوعة وأطفالي الذكور الصغار وابتي خولة التي لرياتها نصيبها بعد. تصبّتُ قهراً لا عرقاً.. سيكون آخر يوم في حياتي إن تجرأ على عرضي، ولكن ما عاني أفعل إن متُ وانتقل الدّين والعبودية لأبنائي؟ ومن من عائلتي الكبيرة يستطيع التغيير والمصيبة عامة على سائر الناس؟ بعض الموروثات تُبقي البلادة في المجتمع. كان ذلك ضرباً من العقاب الطبقي؛ طبقة حاكمة تجني الضرائب وتعيش بحد السيف، وطبقة التجار المنافقة، تدوس رقاب الكادحين، وتبقى قريبة من الطبقة الأولى، أما الطبقة الكادحة فهي التي تحرث الأرض بأسنانها ثم تغص برملمه وتموت محرومة. الحياة المضنية هي التي نعيشها لا التي نتخيلها، لا بد لنا من حركة تصحيحية؛ فالشخصيات المقودة هي التي تُبنى على ردود الأفعال، أما الرجلُ الحق فهو موقف، يقود التغيير؛ فكلما علا الهدف صغرت المعوقات.



بدو رحل أو عيد مرتزقة؛ فكُونوا نواة للمدينة، حيث التحق بهم لاحقاً بعض سكان القرى أنفسهم.

- كأنك تعين أن حركة النزوح التي نعيشها؛ هناك من يخطط لها على مهل ويريد أن يتغلها!!

- أنت من توصل لذلك مستجاً، كما ذكرت سابقاً، أن الثورات تكرر نفسها. هي تجارب إنسانية متلاحقة، من يقبل بالتغيير يسلم، ومن يرفضه يخسر الكثير. للتغيير يا آدمُ ثمنٌ، ولعدم التغيير ثمنٌ أكبر. نحن نريد النزوح أيضاً هرباً من هؤلاء السراق؛ تجاراً وكنسين، ولكن سنتظر الفرصة المناسبة.

اقترنا من غير ترتيب مسبق من بيت كارينا. قطعنا الحوار عليه، وسألته عن رأيه في الفتاة ووالدها، فقال:

- الفتاة جميلة، ولكني لا أشعر بفيض عاطفة نحوها. ربما تأتي المشاعر في مراحل متقدمة، أنت تعتقد أنها ستكون زوجة رائعة وهذا يطمئني، وتؤكد أن الحب يحتاج للعمل أيضاً. أما والدها؛ فهو رجل أمين. أتمنى أن تبقى بعض أملاكنا بين يديه، ريثما يحين موعد العودة. يمكنني أن أرتبط بها ريثما تنجلي الغبرة وتتضح الأمور. نحن بحاجة لمن نأتمنه على أملاكنا، لنرى إن كانت علاقة النسب المزمعة كافية لتزرع فيها الثقة.



ونهايات. كان ذلك يدفع آدمَ للمزاحمة في السؤال، وأصبح طبعه يدفعني للبحث والتحري.

أقبل عليّ ذات مساء وأنا أرتشف القهوة في الحديقة الأمامية للمنزل. هي منطقة خشية بنية تفصل المبنى عن الأرض العشبية. وُضع في محيطها مختلف أنواع الزهور ونباتات الياسمين. منطقة تغطيها جذوع الأشجار، أما أغصانها فتمنع أشعة الشمس صيفاً والمطر شتاءً. يتلوى من أطراف سقفها أعشاب من الفصيلة الخيمية لتكون ستارة عشبية. أقبل آدمُ يحمل كرسيّاً صغيراً صنع من عيدان البامبو. وضعه على الأرضية الخشبية الصلبة وجلس مواجهاً لا يتعد عني أكثر من قدم واحدة. اعتاد آدم أن يضع مسافة أكبر إذا أراد الحديث عابراً، ولكنه إن أراد تفاصيل كثيرة وعميقة؛ فإنه يقترب جداً. هي صفة متأصلة فيه منذ صغره. اقترابه يعني إلحاحاً، توقعتُ سيل أسئلة منه ونقاشاً طويلاً. شاركني في شراب البابونج ثم بادر مباشرة في نقاشه.

- هل تعتقد والدتي أن الحركة القائمة - حالياً - في المدن ستنتقلنا لما يُسمى بالمدينة الفاضلة التي نادى بها الفيلسوف الشهير أفلاطون.
- باختصار، لن يحدث ذلك يا بني أبداً.
- وكيف لا يا أمي؟

- المدينة الفاضلة أو المجتمعات التي تخلو من الخطايا هي مجتمعات وهمية. الإنسان مخلوق وسطي يقبع بين الفضيلة والرذيلة، أما المدينة الفاضلة؛ فهي مجتمع لا يختص بالإنسان، إنها تُعنى بالملائكة الذين جُلبوا على فعل الخير فقط. الحياة الحقّة هي التي تُبتلى بها لا تلك التي نتمناها، كما أنّ المجتمعات تكرر تجاربها، فتولدُ عنها المعرفة التراكمية. قد يتكرر مجتمعٌ

يافعاً؛ فلاني أقترح أن تُزوجِ ابنتك خولة العشرينية سرّاً للتاجر، لعلّه يُؤجلُ دينك، وإذا كبر راشد، واشتدَّ عوده، واستطاع أن يحل مكانك كفوّاص، وأن يعيد كلّ دينك؛ فإن التاجر يطلقها حينها. أنت تعرف أن النساء يتزوجن بعد التاسعة، ولا يتأخرن إلا اللاتي..

- اخرس، الناقص هو من يدفع بنقصه وتهمه للآخرين. شرفنا وعرضنا لن يُدنه أمثالك، ولا أمثال سيدك. أموالكم لا تُجيز لكم استعباد الآخرين، ولا أن تطعن في شرفهم، ولكنها نقیصة جاءت من ناقص فلا حاجة للملامة. لا أشكُ بعد الآن أن مقتل ناصر جريمة من تليفك أنت، ومن تدبيرك وتنفيذك. نعم أنت من المؤزمين الذين يجنون الأرباح خلال الأزمات. يحاولون تسيط كل حلّ ودي وجذري. أنت من فئة الطبالة الذين يتغنون بدفوفهم حين الأزمات.

- حاذر لما تقول، فكلّماتك جرائم متراكمة.

وقفتُ متصبّ الهامة، أستصغره وأستبجح النظر إليه. أيقنتُ ضرورة البحث عن مخرج لهذا القانون المتوارث. إنهم يستخدمون سلطتهم لفرض واقع الجهل، ولعدم الخروج من الأمية. إنّ التعلم سيفضحهم. صار حالنا صعباً حقاً. كم تميتُ لو أنني لم أسأل عن ذلك الدين أبداً، ولكن هل يمكنني البقاء عاملاً كعبد مملوك لدى سيده النوخذة بكامل التسليم؟ استدركتُ أن المطالبات والحقوق يجبو ويخفو ضوءها بالتهاطل، ولكن قسوة التجارب تصنع الإنسان، كما تصنع الحرارة الكعكة اللذيذة، وأن أغلب الأمور التعية، هي نعمة في شكل نقمة. ولكن، ماذا يسمى هذا النوع من التجارة؟ تجارة يظل فيها العاملُ عبداً مملوكاً من المهديك اللحد. بعضهم يمتلك الأرض بمن عليها، وأصبح لدينا من يملك

والعاملين والكادحين بتأثير من القيادات. المعارضة تعني رفض النظام القائم، فإذا تمّ وأدها تتحول لحركة ثورية، وهنا يأتي دور من يستغل هذه الثورات. لا بد من وجود داهية يُنظر ويتحدثُ باسم هذه الجماعات. هذه الفئة من البشر - وأظنك قد سمعت بها - عُرفت باسم البورجوازيين؛ فئة تتحدث نتيجة إحاسها بمظلومية الفئة المهمّشة، ثم تتخاطب باسمها، يقولون إنّ للعامل الهارب من الريف والقرية وغيرهما كلّ الحق في الحصول على نقابات تمثله، وعلى ساعات إجازات، وعلى تأمين اجتماعي. تلك هي المطالب، وكانت تلك أصواتهم.

وقف آدمٌ وطلب مني أن أراققه شيئاً. أمسك يدي. صداقة دافئة تكسوها روح أمومة. كنتُ أعرف أنه يعشق التنقل بين الأمكنة، ولا يستطيع البقاء مدةً طويلة في المكان ذاته، رافقته سيراً..

- وأين وجه الخطأ في كل ذلك؟

- أصبحت هذه الفئة التي تعرف بالبورجوازية⁽¹⁾ غير متجة أبداً. تقنات وتعيش على فائض قيمة العُمال. طبقة مهيمنة وحاكمة في المجتمعات الغربية. استطاع منظروها أن يضعوا مبادئ حياتية - قال عنها والدك - إنها عُرفت لاحقاً بالراسمالية والاشتراكية. إنها الطبقة التي أطاحت بالبلاء ورجال الدين في تلك الفترة.

- سؤال بديهي يطرح نفسه يا أمي. ما الفرق هنا بين القرية والمدينة إذا كان إنسان القرية هو من أتس المدينة؟

- لا بد أنك تعرف أنه في الحقب القديمة، كانت الزراعة هي عصب الحياة وفيها استقر الحضر، أما المدن فهي خليطٌ لمن لا أصل له، تكونت من

1 - اشتق لفظ البورجوازية من لفظ Bourg الذي يعني المدينة بالفرنسية.

ما فكرة أو أيديولوجيا حياتية، قد يفشل وقد يخالفه الحظ والنجاح، وحينها تحاكيه وتقلده مجتمعات أخرى. العلوم الإنسانية - يا بني - متداخلة وقائمة على مدى الاستفادة من تجارب الآخرين.

- يبدو أنك تتوقعين الفشل لحياة المدينة ولطبقة العمال الكادحة.

- بني، إن عملية النزوح الجماعي التي نعيشها الآن ليست وليدة الساعة. هناك عمليات نزوح جماعية حدثت في مجتمعات سابقة؛ نزوح كبير من الأرياف والقرى، وكانت نتاجه ما عُرف لاحقاً بالمدن. كانت هي الأسباب المباشرة لقيام نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة، لنعود للوراء يا آدم، ونأخذ العبر من الماضي؛ فقد عانت المجتمعات الأوربية ظلماً واستعباداً كبيراً لطبقات العمال الكادحة، وكلما زاد الضغط والظلم؛ أصبح الانفجارُ أوشك وأوسع.

- كأنك تحدثين عن بركان مقبل!

- نعم نعم، المجتمع النائم بركانٌ راكد، لا بد أن يتقظ، إن كان الموتُ ليس أبدياً فكيف بالنوم؟ متى ضغطتَ عليه يصبح قابلاً للانفجار خاصة مع وجود لهب قريب. هذا اللهب لا يكون هو السبب في ثورات التغيير، ولكنه الشرارة التي تُوقدُ الخلايا الإنسانية النائمة داخلنا.

- وهل حدث نزوح بشري من قبل أدى لتغيرات وإلى ثورات؟

- حدث في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ما يشبه نفس الحالة التي نحن الآن عليها. عجلة التاريخ تعيد نفسها، فعندما كبرت طبقة العبيد طفق الكيلُ منها. اشتعلت ناراً تأكل الأخضر واليابس. لم يكن لهذه الطبقة مفكرون وفلاسفة ومنظرون أبداً، فلما تحركت عاصفتهم لم تكن لها أهدافٌ محددة، لا تعرف ماذا تريد. المعارضة عادة تنشق من الفقراء

(7) السيب يوسف

مطلع يونيو 1760

كانت مهمة تغسيل الأموات من الأعمال التي ورثها عرفاً عن والدي، وكان لموقع بيتنا دوراً رئيسي في ذلك. إن منزلنا المبني من حجر الجير البحري، ومرافقه المبنية من جذوع النخل وسعفه يقع في الجهة الغربية من المقبرة، فما إن تخرج من المنزل وتنظر يميناَ إلا وتجدُ المُغْتَل على يمينك في مدخل المقبرة. لا يفصلنا عنه غير أمتارٍ معدودة. هذه المجاورة خلقت نوعاً من الألفة بيننا وبين من يتوسدون التراب، حتى أصبحتُ والأسرةُ كمن يعمل حارساً ومدققاً لأعداد الموتى. عرفتُ أن الموت سلسلةٌ سرمدية لا تنقطع ما دام الإنجاب مستمرًا. عالمٌ للقادمين والمغادرين، وصار رواد المقبرة المعتادون من زوار بيتنا أيام الخميس والإثنين من كل أسبوع، يعبرون بنا لشرب الماء والقهوة، وأحياناً يتناولون بعض التمور قبل مراسم زيارة الموتى. بعضُ الزوار أدمنوا البقاء عند قبور أسلافهم وأصبحوا يخاطبونهم. إن زيارة القبور في جوهرها تعكس رغباتنا في لقاء موتانا، أمسى الناس يتمنون الآخرة، ولكنتي أرى من الإجحاف أن تفكر فيما بعد الموت وتنسى ما قبله، خلال خروجهم من المقبرة، أتحدث مع الكثير منهم. زيارة من رحلوا تقهر الغرور البشري، وتُسمي خاصية التواضع لديهم.

اعتاد الأهالي أن يُحضروا موتاهم للمغتسل في أي وقتٍ وإن كان متصف الليل. يقولون إكراّم الميت دفنه. كثيراً ما وضعتُ أجساداً على المغتسل وهي لا تزال ساخنة، لا زالت دماؤها حارة، حينها يحمل الجسدُ صفات الأموات، غائب عن الحياة، بلا نَفْسٍ ولا حركة. في حقيقة الأمر، فإنني أظن أن

الأنفاس لا تتوقف، ولكننا نعجز عن ملامستها حين الموت. كنت أضعه على
المُغتَل، وأتحسُّ نبض قلبه. في مرّات قليلة كنتُ أستمع إلى بقايا نبض،
حينها أسرع إلى صبِّ الماء البارد عليه من الدلو. أقوم بتحريكه لعلّ الحياة
تدبُّ فيه من جديد، لا أبدأ في عملية التغيل إلا إذا توقّف القلب نهائياً عن
النبض، خلال المرحلة التي تباطأ فيها نبضات القلب تدريجياً، وصولاً
للسكون المطلق وللنهاية الأبدية، أطلبُ من الحضور قراءة القرآن بالقرب
من رأس الميت، ولكنهم غالباً يعجزون ويرفضون طلبي. كانوا يخرجون من
غرفة المغتَل لقراءة آيات من الذكر الحكيم.

إن المرحلة الزمنية التي يتهاوى القلب فيها للسكون تلقي بظلالها على
الحضور. هناك شيءٌ ما يصعدُ من الأرض للسماء. إنه ثقيلٌ في وقعه خفيفٌ
في وزنه وانتشاره. لا يمكنني الجزم أنها الروح التي يتحدثون عنها. كنتُ
أودُّ بقوة أن أصل إلى تفسيرٍ لما يحوم في السماء. طلبتُ مرةً من رجلٍ أن يضع
رأس والده في حجره لحين توقف القلب نهائياً عن النبض. ترجم لي
مشاعره بعد ذلك، قال إن شريط الذكريات يتجدّد وحده، حتى تلك
الأحداث التي تناسها تعود من تلقاء نفسها. نتذكر جميع الأحداث التي
مرّت علينا وربطنا بالمتوقِّن، كأنها إجماعٌ بأن أعضاءنا تستذكر كلّ ماضيها
بعد فراق الأحبة و... الموت.

اعتدتُ هذه المهنة منذ أحد عشر عاماً. كنتُ لا أتقاضى منها إلا مبالغ
بسيطة جداً. لم أطلب مالا نظير تغيل ميّ قط، ولكنّ بعض الأيادي
بيضاء بطبعها. كنتُ أعدُّ أكبر أطفالي لتعلم طقوس تغيل الأموات، فقد
صرتُ مجبراً على أن أفوض ذلك لشخصٍ آخر، خاصة عندما أكون في
موسم صيد اللؤلؤ. هناك الماعدون الذين لا يودون أن يحملوا المسؤولية
كاملة على عاتقهم.

ما زال حدثُ الجمعة الماضية حياً في ذاكرتي، فقد جاءني رجلٌ قومه أبو راشد أول الضحى. كان معه شابٌ في مطلع العشرين من عُمره. طرَقَ أبو راشد الباب بقوة وأخذ ينادي بأعلى صوته: يوسف، يوسف، يوسف. أيقظتني زوجتي من غفوة كانت تراودني وكادت تغزوني:

- يوسف، أبو راشد عند الباب يطلبك.

- لا بدّ أنها جنازة أخرى.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

- هذا ديدنها يا جميلتي، إن المقابر لا تنام، بل تبقى في حالة ترقب دائم.

توجهتُ للرجلين. أقيتُ التحية. طلبتُ منهما أن يأخذا الميتَ إلى المغتسل، وأن يقرأ البعض آياتٍ من الذكر الحكيم، ويقوم البعض الآخر بحفر قبر في المكان الذي ترغب فيه عائلة المتوفى. أخبرتهم أنني سأعود بعد بضع دقائق لحين توقف قلب الراحل عن النبض، ولكنّ أبا راشد استعجلني، واستدرك قائلاً:

- يوسف، لا نريدك أن تُدخلَ ميتاً إلى القبر، بل نريدك هذه المرة أن تُخرجَ ميتاً من قبره.

- لا بدّ أنك تداعبني يا أبا راشد. إنّ نبش القبور أمرٌ منهيٌّ عنه قانوناً، وحرامٌ شرعاً وأخلاقاً مهما كانت الأسباب. صحيحٌ أننا نسمحُ عمّن يقوم بنبش القبور، واستخراج رفاتهما؛ لمنع زيارتها أو الصلاة عندها، وحتى التبرك بها، ولكنّ ذلك ليس من الأديان في شيء. لا الإسلام ولا غيره يبيحُ ذلك. المعذرة أيها الصديق، لن أقوم بذلك الأمر.

وجدتُ التزائة مرسومة على وجه أبي راشد. أخذ يوجه أمره برقة لا غلّو فيها.

- يوسف، إنَّ القرارات المتعجلة غالباً ما تُوقع صاحبها في سوء الظن، وتردِّي العاقبة. عليك التريث قبل إطلاق الأحكام. سيخبرك الشاب عمّا شاهدته فجر اليوم في المقبرة.

تحدث الشاب وقد بدت علي وجهه سحابة رَيِّبٍ وعممة:

- عدتُ للبيتِ كعادتي بعد صلاة الفجر. بقيتُ مع أمي التي أعدت لنا الإفطار. وقبل شروق الشمس خرجتُ في طريقي للعمل في الحقل. مررتُ حينها على أطراف المقبرة. وجدتُ رجلاً ملثماً يحفر الأرض. أخفيتُ جسدي خلف شجيرة وصرتُ أراقبه. رفع طفلاً صغيراً ووضعته في الحفرة. لرتكن الحفرة أعدت كقبر مكتمل. أظن الرجل كان علي عجل ويريد التخلص من الطفل الذي أتوقعه وُلِدَ للتو. أهال الرجلُ التراب، ثم رحل من الجهة المعاكسة. لازلْتُ أُمَيِّزُ موقع القبر تماماً. توجهتُ بدوري مباشرة لمنزل أبي راشد وأخبرته بما حدث.

أصابني الحكاية بنوع من الدهشة. سألتُ أبا راشد عمّا يجب فعله، وما يريده مني. تريث قليلاً ثم قال:

- أعتقد والله أعلم، أنَّ الطفل المدفون حديثُ الولادة. ربّما يكون ميتاً قبل دفنه، وربما يكون قد وُثِدَ فيه. يجب علينا أن ننبش القبر، ونستخرج جسد الطفل، ونغسله ونكفنه على الطريقة الإسلامية، ثم ندفنه مجدداً، فنحن مساءلون أمام الله تعالى.

توقعتُ أن يكون الطفلُ ابنَ زنا، ولرؤد أبو راشد ذكر ذلك ترفعاً. نادرةٌ تلك الحكايات ولكنها مؤلمة. بعض المستحيلات من المُمكنات. لقد قرأتُ تلك الحكاية في تعابير وجهه. توجهنا نحن الثلاثة نحو القبر المزعوم. طلبتُ من الشاب أن يبدأ الحفر بالمِعْوَل، ثم بيديه، ولكنه رفض.

سألني أبو راشد أن أقوم بالمهمة فأبديتُ ممانعة. طلب أبو راشد عوضاً عن ذلك أن نقوم ثلاثنا بالحفر سوياً. لم نكن في حاجة لاستخدام المعول؛ فقد ظهرت قطعة قماشٍ سوداء على عمق ذراعٍ واحد فقط. تريت أبو راشد وهو يزيع الرمال عن القماش باتجاه الأطراف، حتى بان جانبه الأيمن. سحبه بطيئاً من جانبه، ووقف تدريجياً وهو يرفع القماش إلى الأعلى. تلقى من القماش جبلٌ رُبطت في آخره أوراقٌ وشموعٌ وبعض المصوغات النحاسية. جمع أبو راشد كل شيء ثم جلس بجانب الحفرة، وهو يعاين تلك الأشياء الغريبة، ويحاول فك طلاسمها:

- أظن أنه من أدوات السحر والشعوذة، والمعروفة محلياً بالعمَل.

اقترحتُ على أبي راشد أن نأخذها مباشرة للبحر ونلقيها في قاعه. هكذا تقول الأعراف (البحرية) من أجل إبطال مفعوله. اعترض أبو راشد على الاقتراح. طلب أن نأخذ كل ما وجدناه إلى بيتهم حيث العميد؛ لنرى ما يقول العقل والشرع في هذه الأمور. التريت حين المهات يُسطها.

توجهنا لبيت العميد، وهناك استقبلنا في مجله. وضع أبو راشد ما لديه أمام العميد، طلب من الشاب أن يبدأ بمراد الحكاية، ثم أكملها بنفسه، وبينما العميد كان مصغياً لهما، أخذ يعاين (العمل) بنفسه؛ وريقةً صغيرة رُسم عليها خطان مستقيمان متوازيان يتكونان من سلسلة من الدوائر، الخط العلوي فيه هرمان من الدوائر الصغيرة بينما الخط السفلي فيه ثلاثة أهرامات أكبر. قمم الأهرامات متنافرة وتتخذ الاتجاه العكسي. أمعن العميد مدققاً في الشكل الهندسي المرسوم بإتقان، ثم نظر للورقات الأخرى، يبدو شكل الكتابة الخارجي آيات قرآنية ولكنه لم يستطع فك حروفها وتحليل خرائطها ثم قراءتها. هناك طلاسمٌ أخرى ونمُسُ عقيدات

مربوطة بإحكام في نهاية قطعة القماش. كلها وقفت سداً منيعاً أمام خيال
وتفسيراته.

أخرج العميدُ شفّيه للأمام وضغط عليها. اتسع الخطُ الأفقي لضمه، ثم
دندن برأسه يمناً ويساراً حتى قطعَتْ عليه صمته:
- أرى أن أخذها لِقاع البحر كما تقولُ التقاليد.

- لا ضير، افعل ما بدالك، فالناسك والطقوس لا تعكس مقدار
إيماننا.

سأله أبو راشد.

- جئنا نألك عما يمكن فعله، ولكنك لم تعطنا إجابة محدّدة. ماذا نفعل
الآن؟

- إنني ومن خلال دراسة كتاب الله تعالى وتفسيره المختلفة التي وقعت
يدي عليها، ومن خلال مخطوطات السيرة النبوية الشريفة، تباعاً لتلك
المصادر كلها، لم أستطع أن أثبت شيئاً اسمه مفعول السحر وتأثير العمل
والطبوب. العقل يرفض ذلك حقاً، ولكن القصص والأخبار المتواترة من
الثقة تجعلنا في مأزق حقيقي حين ننفي ونُنفد تلك الأمور. يجعل ذلك
البعض في شيء من الشك والحيرة، وأرى أن الشك بما يحمل من أسئلة هو
طريق الحياة. ارموا تلك (الأشلاء) وتخلصوا منها كما تريدون، وسنلتقي
مساءً بعد يومين هنا، وسيكون ضيفنا شاباً من القرية تعرفونه جميعاً اسمه
كامل، لعلّه يكشف المستور، ويبرهن عن المحذور.



(8) كارينا

منتصف يونيو 1760

منذ بضعة أشهر وأنا أستشعر التغير في كلمات والدة آدم حين تحدثني، أبدت لين جانب فيه الكثير من دهاء الأمهات. للمرأة أذنٌ تختلفُ عن آذانِ الرجال؛ فأغلب الكلمات التي تُعبّرُ أذن المرأة تحمري باتجاه قلبها. كانت في أحاديثها تحشر مفردة "آدم" بين السطور. أن تعتاد شيئاً فإنك تألفه. صارت تُبرز محاسنه وتتغنى به كي تصل إلى مآربها. فبكلماتنا نبي قصوراً في عقول الآخرين، لقدت وجدت السيدة آذاناً صاغية لأهدافها، ووجدتُ أن آدم رجلٌ يستحق المحاولة والعناء. بدأتُ أرقبه وهو يكتب سطور مستقبله وبني شخصه المتقل. كان استدراجها لي محموداً، استشعره والذي يَغضُّ الطرف، فبعض السكوت تحاذل قد يكون محموداً، أما أنا فتمنيتُ أن يبني آدم بنفسه مشروع حبا وحتى زواجنا، علاقة قائمة بذاتها، بينما الوساطة مشروع فشل مؤجل.

لر يكن لآدم تجارب نوية سابقة، هكذا يبدو. لازال يافعاً على اقتحام عالم المرأة. أصبح لزاماً علي أن أمارس الغواية؛ فأسهل الطرق الموروثة للوصول لقلب الرجل هو العبور من بين فخذه. بدأتُ الحكاية.. مررتُ به منهمكاً، يذر مسامات التربة الحمراء في انتظار أن يغمرها ماءً، لعل السماء تُمطر خيراً وبركات وذلك بعدما أوكل إليه العملُ في الحقل، ومتابعة باقي العمال. أصبحتُ كاللحفاة في مشيتي، دعوتُ الله أن أستقر حين يقذفني في قلبه، سرتُ بين السواقي بطيئة حتى لم يعد يفصل بيننا غيرُ بضعة أمتار. رفعتُ قبعتي الخوصية يميني، أطلقتُ شعري حتى استشعرته

يداعب خصري، يتمايل مع خطاي ذات اليمين وذات الشمال. تطاير الغبار
من بين أقدامي فبقتي باتجاهه خطوات. رفع الرجل رأسه ملتفتاً، ولكنه
لرأبه بي، برود دم إسكندنافي.

كان آدم منهمكاً بين حرثٍ وبذرٍ، لا يأبه بالمارة إلا إذا أراد أن يريح
ظهره، فيرفعه ليستقيم أو إن رغب في تجفيف عرقه. كانت قبعته البنية تحمي
رأسه من حرارة شمس دافئة، أما كتفاه فتستقبلان ما تجود به الشمس من
فيض دفئها الصيفي. تروقي الرجولة الفاعلة، لقد تحول سرواله وحذاؤه
إلى ما يشبه الطين، فلا يكاد الناظر يميز بينهما. رفع رأسه هنيهةً، ينظر
للبعيد ويقس ما تبقى من مساحة تتظر ساعديه لهذا النهار. صار لزاماً عليّ
أن أحيل تمثيل التعب إلى حقيقة، كأنها انطوت عليه الحيلة؛ أقبل مسرعاً،
عرض عليّ رفع سلة الكرز الكبيرة والتي تبدو ثقيلة في حجمها:

- لا عليك، سألها وحدي للمخازن هناك، اعتدتُ العمل هكذا كل

يوم.

- دعيني أساعدك. يبدو الإجهادُ عليك. إنها ثقيلة بلاريب.

- أستطيع حملها، ولكن علي مهل.

- دعها.

يجب الرجل أن تعلق كلمته؛ صفاتٌ قوامية مزيفة. انحنى آدم دون أن
يُثني ركبتيه؛ وضع يمينه أسفل السلة واليسرى في مقبضها. كان يظنها
ثقيلة، ولكنه وجدها وعلى النقيض ممتلئة فراغاً وهواءً، أبدئ تعجبه:

- وهل للفراغ وزنٌ؟

- لا وزن للفراغ، إلا في قلب من تبحث عن حبيب.

لريدُ عليه التعجب، فنصف التعجب استنكار، ألقى السلة على الأرض دون اكتراث، وعاد لعمله ولر ينطق بنت شفة. الإهمال عدو المرأة، كانت عيناى تحمل غيظاً؛ حيلة مبتدئة لر تسعفني، فضاغ جهدي هباء. ناديته بحرة، فأعاد رأسه نحوي متمهلاً، لر يرغب في أن يضعني على الهامش، فعاد ثانية متكرراً:

- ما بك؟ السلة فارغة. إنها تشكو الر الفراغ

- تماماً. إنه الر الفراغ الذي يصيب القلب بالإجهاد.

- الفراغ أثقل وزناً من سواه، ولكنني أظن أن كثرة العمل أجهدتك.

أخذ ينظر إليّ بوجه جامد بارد، العيون العابرة فيها فضول، لا تتحرك فيها إلا حدقاته. كانت تقاسيم وجهه محايدة لا تشي عما بداخله؛ لعله ينظر إليّ بعينه، فيشعر وينظر ناحيتي ببصيرته... ثم يغفر. رمقه حين كان يتأمل ما خلفي؛ فقد كان يقيس المساحة خلفي بعينه ويتأمل المرتفعات والسهول، ألقى كلمة في بحر صمته؛ ليت ماءه يتحرك:

- أخبرتك أن ظهري يؤلني ويكاد...

لر يكثر آدم لكلماتي أبداً. مدّ رقبتة إلى ظهري؛ إنها البدايات، أخذ يعاين الخصر النحيف، خصر المرأة مقبضها. صار ينظر للملابسي؛ قميص أبيض تحت مريلة زهرية ضيقة فوق الحوض، واسعة ومتعرجة في أسفل منحنيات الوسط. ليته يفترسني بيديه فيصبح الوصول لقلبه أسهل. أف لك يا رجل. إنه لا يابه لتضاريس جسدي... قيل إن الرجل الذي تُسقطه امرأة بجسدها، لا تحمل وزناً له داخلها، أما من يتجاهلها فإنها تقاتل للوصول إليه. ظننتُ حينها ذلك. أثارني جهله بعلوم المرأة، وأخيراً حمل السلة في طريقنا لكوخ الحقل. سار إلى جانبي وهو يريد الحث في الخطى،

وأريد أنا الثاني. تمنيته ثرثاراً، وثمانى خرساء. أليس البشر كائنات لغوية؟
بدأته بأسئلة لعلها تكسر حاجز الصمت:

- في أي عام وُلدت يا آدم؟

- 1741.

- أظن أن أمك سويدية، أليس كذلك؟

- أبي بريطاني، وأمي دنماركية.

- هناك تفاوتٌ بين بريطانيا والدنمارك، هل أعجبتك الحياة هنا؟

الإجابات المقتضبة تبحث في سرعة عن نقطة نهاية سطر. لرُيعقب على
سؤالي. توقف سيل الأسئلة. لا تنطلق الأسئلة سلالاً، ما لم تجد حوضاً من
الإجابات يملؤها. طلبتُ منه أن ينتظر خارج الكوخ المستودع:

- إياك أن تنظر من خلال مسامات الكوخ، أريد أن أخلع قميصي
وأرطب جدي ماءً.

لرُيعقب، أهو إغراءٌ مراهق؟ قيل إن المرأة التي تسول الحياء لا حياء لها،
وأن كيدَ النساء في آخره مفضوح. كررتُ على مسامعه: إياك الاقتراب
والنظر... أطحنتُ بقميصي أرضاً في بطءٍ متعمد، وانحنيت حتى تجلجت
مفاتي... هكذا تظهر الأخاديد، وتستوي التلال. ارتديتُ ما تيسر من
ملاهي، وخرجت في لهفة إليه؛ لعل قرن استشعاره الجنني يقف متأسداً.
خرجت باشتياق كبير، يحدوني الأمل في أن يتصر أقوى سلاح للمرأة
في معاركها ونزاعاتها مع الرجل. سهم أنوثة ودرع تمنع. جئتُ وسلاحي
الذهبي يسبني. كنت أعرف أن الرجل سيقف مكسوراً أمام طيش رغبته
أني استُفِز، ولكنتي لم أر غير خُفي حين، لم أجد غير آثار قدميه في الجوار.
أصابني هذا الرجل بمقتل وجنون:

"أي رجل أنت الذي لا تحركه أنوثة ناضجة؟" المرأة التي تعجز أنوثتها عن اقتناص رجل، تشعر حتماً بلوعة الخسارة وجرح الكبرياء.. هكذا شعرتُ.

كان آدم حينها يمد جبالاً من المعرش حتى أكبر شجرة تقف داخل سياج البستان على بعد عشرات الأمتار. عاد فوائته يعاين المساحة، ويعمل على وضع قياس متري تقريبي للأراضي المأذوية، في عادة تقض مضجعه كلما وجد أراضي شامعة. كان لديه هوسٌ بالقياسات والحسابات الرياضية، واكتشاف الأراضي الجديدة بإنسانها، وكان له أيضاً، استخفاف بجسد ارتقى بين يديه. يبدو الارتباط بك مستحيلاً، ويبدو أن الزواج جملةٌ غير صحيحة إذا كان مبتداه وخبره رجل.



(9) العميد

يوليو 1760

بعد حادثة السحر أو ما يُعرف بـ(العمل والطبُوب)، أقيمتُ وجبة غداء بعد صلاة الجمعة. دَعوتُ إليها إمام الجامع، السيد يوسف، الشاب الذي شاهد دفنَ الطبُوب، ودعوتُ كاملَ ذلك الرجل المعروف محلياً بقدراته الخارقة. دعوتهم جميعاً للوقوف على حقيقة ذلك السحر، ولكنني لم أخبرهم عن حقيقة الدعوة. أشعتُ بينهم أنها وجبة غداء للالتقاء بالأحبة والأقربين، والتحدث في الشؤون العامة التي تعصف بالجزيرة عموماً.

كان كاملُ أول المدعوين وآخر الواصلين، وقف الرجالُ لمصافحته، ثم أقبل ناحيتي. رجل طويل القامة، ضخم الجثة، قوي البنية، وجهه دائري يحتوي على عينين صغيرتين، وأنفاً قصيراً مدبباً، كان كثيف الشعر، أما لحية الغليظة فتكاد تملأ كل وجهه فيما التقى حاجباه واشتبكهما مع بعضهما. صافحته فضع كفي في راحة يده العملاقة، رحبُ به فألقى عليّ السلام بصوته الجهوري الواثق.

جلس الرجلُ إلى يميني بجوار يوسف. أخذ يبتُ روح الدعابة في الحضور ويرزَع ابتساماته. ساد جوٌّ من السعادة والفرح. تحدّث الحضور حول ما يجري في دلمونيا. تنوعتِ القضايا بين أخذٍ وردٍ. هنالك ينسى الإنسان تحفظاته، وتسمو نفسه بين جنباته. اللسان مفتاح القلب ومترجم العقل. دار الحوار حول موسم صيد اللؤلؤ القادم، وقضية موت ناصر التي أضيفت لقائمة مآسي دلمونيا الطويلة. أطرق السيد يوسف ووضع رأسه بين ركبتيه. ربتَ الشابُ على كتف يوسف وابتسم حتى ظهرت أسنانه

اللامعة، نظر كامل إلى وجه الشاب، تناسى كل الحوارات ورمى بها بعيداً... ثم قال:

- يا لجمال أسنانك الناصعة، كأنها حبُّ الرمان.

دعاهم العميدُ إلى تناول وجبة الغداء ريثما يكملون حديثهم. كانت الوجبات المحلية لا تخلو من الأرز والأسماك والتمور، ثم يعقبها بعض الفاكهة. تناول الشاب فاكهة الرمان بعد الغداء. أخذ يمضغها. توقف فجأة. وضع إبهامه وسبابه على طرف شفثيه. وبمساعدة لسانه؛ أخرج شيئاً أبيض من فمه، ووضع على راحته وقال:

- هذه إحدى أسناني، حبة الرمانِ يا كامل، أعوذ بالله منك ومن عينك.

- دعني أراها.

- إمك، إنها لك.

انفض المجلس وأوشك الحضور على المغادرة. وقفتُ متكئاً أودعهم خارج باب المجلس. مرّت بجوارنا قطعةٌ منزلة المتكئة شحماً ولحماً. أراد كامل أن يركلها، فابتعدت هرباً منه، وهي تحدق فيه. تحدّث إليها وكأنها أصفت إليه...

- إنني أكره هذه الققطط الوداء، وخاصة تلك الممتكئة.

رحل الشابُ وتبعه كامل، أما يوسفُ فطلب أن ينتظر أبا راشد لحين عودته. عدنا للمجلس في انتظار الرجل. بدأ يوسفُ يفرغ ما في صدره:

- لا زلتُ أيها العميدُ لا أعرف لماذا يُصرُّ التاجر على أن يُلصق بي تهمة موت ابنه.

- إنها طريقة قديمة أفل نجمها وخفى بريقها لإلصاق التهم الجنائية بمن يطالبون بحقوقهم، يمكنُ حينها إزاحتهم عن الطريق.

- أليس من الغباء أن تحمل مشكلة ما عبر افتعال مشكلة أكبر؟
- بل قمة الخبث والدّهاء.

تواصل الحديث بينا لدقائق قبل أن يطرق الباب أبو راشد. ألقى تحية السلام واستأذن بالجلوس. رَحّب به يوسف، وقيل أن يردد حكاية (السكر) على مسامع أبي راشد، أوضحت أنه يجب أن تُفرق بين ثلاثة أمور؛ بين السحر والحسد والعين:

أوضحت أنّ السحر هو نوع من الخديعة والشعوذة، وهو القدرة على تصوير الباطل بصورة الحق. لم يمنحني السيب يوسف الوقت للاسترسال في الحديث....

- هل تريد أن تقول أن سحرة فرعون وعصا موسى كلها شعوذات؟

- لا. لا. لا. السحرُ يا يوسف أنواع، منها: خفة وسرعة، ومنها: احتيال؛ لأن المحتالين جعلوا آفة لكل صحة، وسُقماً لكل عافية، وحيلة لكل معنى، أما سحرة فرعون؛ فإنهم عملوا على الخداع البصري. أوحوا للناس غيرَ الواقع، ولذلك فهم أول من آمن بإعجاز عصا موسى، لما عرفوا أنها ليست خداعاً بصرياً.

كان لحضور ولدي أبي راشد أهمية بالغة. كان رجلاً فظناً شديد التعلم والاستتاج. أوضح أن الكتابات وما يُعرف بالرُقي والعزائم والنفث في العقْد ما هي إلا محض كذبٍ وافتراء، فكيف لأمة تعيش في القرن الثامن عشر أن تؤمن بهذه المقولات. إننا لا شك في آخر الزمان. إن ما وجدته الإمام في المقبرة هو أحاديث باطلة وخزعبلات، إذا لم نطع أن نُمحّها من عقول العامة فإنه سيهل على الحاكم والمستعير وغيرهما أن يعيشوا في الأرض فساداً. أن يفرضوا علينا الجباية والوصاية. الأمة التي تعجز عن

تصحيح مسارها بنفسها سهلة الانقياد، لذلك أوصى المشرع بإعدام الساحر؛ لأنه يحطُّ من قَدَرِ الناس وعقولها.

أبدئِ السبَّ استكاره لبعض ما سمع: إذا كنتَ تريد القولَ إنَّ السحر باطلٌ، وهو خداعٌ واحتيالٌ، فهل تعني أن الحمد كذلك؟

- بداية لا بد من القول إن الإيمان بالخرافات يُقينا وساوس الشيطان، ولكن الحمد - وكما تعرف - هو تمنى زوال نعمة الغير والحصول عليها، وكفيك من الحاسد أن يفتن وقت سرورك، ولكن ما يُعرف بالعين فهو أمرٌ مختلف. إنني لم أستطع أن أجدَ لذلك تفسيراً من القرآن والسنة، ولكن لا يمكن نفي ذلك مطلقاً، والحمد لله على ذلك، فبعض الجهل نعمة، وكثرة المعرفة نقمة.

أوضح أبو راشد أن لديه مخطوطاً قديماً للشيخ الرئيس ابن سينا. تحدث فيه الشيخ عن العين. يقول إنها تصيب وتؤثر، ويشترط لوجودها في نفس صاحبها أن تقهر مجموعة القوى الأخرى المجتمعة بين جنبيه، كالغضب والشهوة وغيرها، وإذا استطاعت تلك النفس أن تتجرد من تلك العوائق؛ فإنه يكتسب قوة روحية يمكن أن تؤثر في الآخر.

تهلّل وجه يوسف فرحاً: ها هو أبو راشد يخالف والده، ويعترف بوجود العين.

أجابه أبو راشد قائلاً:

- الكارثة أن يفكر الإنسان بأذنيه لا بعقله، فأنا لراقل مطلقاً أنني مؤمنٌ بذلك، لقد نقلتُ لك ما قرأتُ سابقاً، أجدُّ يا يوسف أنك تأخرتَ فعلاً، سألتفك غداً على الشاطئ عصرًا... ستجدُّ قطننا السمين مئةً مئةً خارج الباب. احملها بعيداً، قبل أن تُصبح جيفة!



(10) آدم

أغسطس 1760

قلب الأم لا ينام إلا إذا اطمأن. أرسلت في طلبي. السيدة تريدك في غرفتها حالاً. يحدث هذا نادراً. هناك أمرٌ أسري مهم. لا بد أنها الكنيسة أو السامرة مرةً أخرى. طرقتُ بابها، عادةً أجلس على الأريكة الخشبية حيث تستقبلني. الغريب والمفاجيء أنها كانت تنتظرنني بالقرب من الباب مباشرة. ابتسمتُ وأشارتُ بيسارها كعلامة ترحيب. تبعتها حيث أجلسني على طرف سريرها:

- هل أرسلت لنا الكنية مندوباً آخر؟

- أبداً.

- السامرة بأعمالهم الحمقى؟

- أبداً يا بني... الأمر يخصك أنت. يخص آدم وحده.

وضعتُ يدي اليسرى على ركبتيها، فأخذتها بين كفيها، ثم قالت:

- آدم، سنة الحياة تقتضي أن يرتبط الرجل بامرأة. أجد أنك صرت شاباً وسيماً. لن نسمح لمرضى العقول أن يخلقوا حكايات حول رجولتك. بقاؤك دون صديقة يثير ريتهم، وربما يضيفوا عليها صبغة دينية تجدها صديءٌ عند القساوسة، كما اعتقدتُ تماماً أن هناك إحداهن بين خافقك، أو أنك في فؤادها، ولكنك لم تشعر بذلك. بعض الحب يجبه التمتع ويفرقه عدم التصريح. لا يجدر بك إجمالاً أن تبقى وحيداً. النساء كالحور من

حولك، أأر تنجذب لإحداهن؟ أأا أأوءء. من أأربأ إلك بلطفها؟ من
أأفضأ لك جناها أوءءاً؟

أءركأ أينا أن للأم ناأوساً، أأقرع قبل الفأرح والأرأ. أمي أأعأني بها
وأهبأ من نبراس أمومة، أأبأها:

- نعم هناك كارينا، ولكأني لراعرها اأأاماً. لا أأيء يميزها
فيسأهويني. ربما أكون اأأامأني الأأأري أائلاً وعائفاً ءون أن أأأشف
نقاط أوتها وجمالها. أأءني أأأرأ بعألي وأولي رغبة في الأراسة، كما أن
رأيلنا المأوقع أأرباً، يرسم صورة للمءينة على سواها.

- آءم، هناك الكأأرات ممن يرغبن فيك، ولكن المرأة أأب من يأطرق
بأبها. أألب النساء أأرءن من يأأأم أأأأهن؛ فالمرأة لا أأع في أأ أأءما
لربعأر أوراأها. لا أأفيك أنني أأاول الأأ عن أأفك في عين
الأأربأ من أسأنا ومعارفنا وأأراننا، فما وأءأك إلا في عيني كارينا.

- كارينا؟ الأأاءة الأي أأبأ مني ماأءأها في رفع سلأها الأأوية.

- وهل أأرب أأأر من ألك؟ اللامأطق هو أول علامأ الفرام، إنها
أأاء أنا وءأية، لماذا لا أأرب أأأك معها؟ كما أنها سأأأني هنا مع
أسأنا بعد رأيلنا؛ يمكننا أن نأوءءعهم عقارائنا أأأني نأء انأراأاً لهذا
الأزمة الأي نمر بها.

بعء أأأأ نأأش أأيلة، أأرأأ وبمساأمة أوضأية من الأأيرة أمي
أن أءأل عالم المرأة وأطرق باب كارينا. اقأرأأ أن أزورها في أأها...
الأأأام سبء الأءلة. علم المرأة يأعأرض مع العلوم الأأيقية، ولكن لا
مناص. يجب أن أأأوبها، وإن لربضع الرب من أأبين في أوف رأل
واأء أءءاً. أوصأني أمي بوصايا لأأانية، لعلها أأعني عنء الواقعة الأي ءنا

اجلها. خرجتُ صباح اليوم التالي من البستان متوجهاً إلى بيت عائلة كارينا. سرتُ بين المروج الخضراء. اتبعتُ الطريق الضيقة الصفراء التي حفرتها أرجل المارة اعتباطاً فأصبح سيلاً. يجب ألا يكون أي شيء غير كارينا، ولكن لا ضرر إن تمنتُ عدد الخطوات اللازمة حتى أصل عندها. إن صدقَ حدسي فإنه فالٌ حسن. سرتُ أعد خطواتي. وجدتني بعد لحظات وقد غابت الفتاة عن فكري. خطأ متعمداً آخر يا آدم. اقتربتُ من باب الدار. عرفتُ أن حساباتي وتقديراتي كانت أقل مما توقعتُ بخطوتين، سيكون الطالع في أغلبه حسناً. طرقتُ الباب ثلاثاً كساعي بريد. فتح والدها مرحباً، هل يمكن أن أقابل كارينا؟ كتم قهقهته: إنها في الداخل، سأخبرها عن رغبتك حالاً... أقبلت بعد لحظات.

- مرحباً بك يا آدم.

- هل يمكن لنا أن نسير بعيداً، نحو ذلك الوادي؛ حيث الكهف المائي،
لدي الكثير لأحدث عنه؟

أصاب الخرس عينيها بعد لسانه، أخذتُ نفساً عميقاً، ارتفع صدرها
لأعلى:

- هل أنت آدم الذي أعرف؟

أسكتُ معصمها. خطوات سبع، وأحطتُ خصرها يميني. هكذا
يكتب الشهيد. توقعتُ الفتاة قُبلة خلال لحظات، وربما أكثر بعد دقائق.
أصبحت كلماتها ثقيلة. الارتباك عنوان العاشقين، أما الرجل فلا يعترف
بأي منطق عشقي غير شقي. نطق قلبها قبل لسانها:

- كأنك لست أنت.

- بل هو أنا.

لا بد أن هناك علاقة غوغائية بين الحب والهجران والصد. لا نكتشف
الحب إلا إذا أو بشك أن يضمحل، وكأن الإنسان عدو لكل ما هو مشاع ولا
يرغب إلا فيما ضنّ عنه.

- آدم، عاهدت نفسي منذ أمس أن أمحوك من قلبي، ولكنك عدت كما
أشتهي!

- أنت، دائماً في القلب، وأنا بين يديك. اسبقني نحو الكهف، من هنا،
وسأوافيك إليه من الجهة الأخرى.

- طلت كارينا من جهة المنطقة المرتفعة للتل، واتخذتُ الطرد - من السفلى
المضادة له. سبقني إلى الكهف وأراحت نفسها. استلقت عيني ظهرها، وما
إن وصلتُ حتى قالت: هيت لك.

- كيف أمكن لك الوصول للكهف أسرع مني؟ إن المسافة التي قطعتها
أنا كانت أطول، وهو ما يعني أن الجسم يظار على حالته الحركية؛ إما ثباتاً أو
حركة في مستقيم، ما لم تؤثر فيه قوة تغير من هذه الحالة.
ارتدت ملابسها سريعاً وأثناء احت بوجهها عبوساً و.... رحلت.



(11) التاجر

سبتمبر 1760

ذهبتُ لقصر الحاكم؛ وذلك لحضور لقائه الأسبوعي مع مجلس الأعيان المعيّن. طلبتُ من النوخذة أن يرافقني في هذه الزيارة. كنتُ أرى فيه ذراعاً يمتنى يمكنُ الاعتماد عليه، والاتكاء على كتفه حين الضرورة. صار لا بد أن يشتدَّ عودُهُ ويزدادَ خبرة من خلال التواصل مع الحاكم والمجلس من جهة، ومع العامة من جهة أخرى. الحياة الناجحة مجموعة من العلاقات المُتقاة. رَحِبَ بالفكرة ورافقني متهجاً. استقبلنا الحرسُ وأخذوا بأيدينا إلى حيث يُعقد ذلك الاجتماعُ المعتاد. أقبل الحاكمُ ولم تكن الابتسامة الدائمة مرسومة على عياه. هنالك أمرٌ جلدٌ أصابه باضطراب، وعلى الرغم من منصبه الأعلى؛ فإنَّ قراءة الحاكم من خلال تقاسيم وجهه سهلةٌ جداً. ألقى التحية علينا جميعاً باقتضابٍ، ورَحِبَ بنا وبالضيفِ الجديد. أخبرته عن النوخذة وعن حضوره الاجتماع كزائر مرافق، يُحتمل أن نستفيد من خبراته مستقبلاً. لم يُبدِ ممانعة وما كان مكثرثاً لحضوره أبداً. اعتدل في جلسته وتحدث:

- الإخوة الحضور أعضاء المجلس المعيّن. نرحب بكم جميعاً في مجلسنا العامر، وبدأ جلستنا هذه ببحث الأمور الخارجية، ثم توجه لمناقشة الأمور المتعلقة بالشأن الداخلي. لقد وصلت لقصرنا رسالة مختومة من حاكم جزيرة هرمز الفارسية، يطلبُ فيها أن نمده بالرجال المخلصين للعمل تحت قيادة الجيش في فارس، وبمباركة من قائد القوات البريطانية المرابطة في جزيرة قشم القريبة منها، ويبيدي الحاكم الهرمزي في رسالته

الرغبة المشتركة في بناء جيش فارسي إقليمي قوي قادر على بسط نفوذه، ويتكون قوامه من فرعين؛ قوات برية وأخرى بحرية، تكون قادرة على التصدي لمناورات ومناوشات الجيوش والقبائل المختلفة، وقد خصّ في رسالته المخاوف من تعاظم جيوش الأفغان وحلفائهم القادمين من الشمال، وكذلك القوات العثمانية وقوات الموحدين والقبائل الخليجية المتفرقة أيضاً. إننا ندرك أنّ القوات البريطانية في قسم لا تؤدّ دخول هرمرز حروباً مختلفة مع تلك القوات، ولكنها في الوقت ذاته، ترى أنّ بناء جيش قوي سيكون رادعاً لجميع تلك القوى من محاولة الاقتراب من حدودها وضرب مصالحها، كما أنها تؤكد عبر التحالفات المختلفة على رغبة التاج الملكي البريطاني في بسط نفوذه وفرض الأمن في الخليج عبر جزيرتي هرمرز وقسم؛ وذلك لكي تكون الطريق التجارية مع الهند وبلاد الشرق الآسيوي آمنة للتنقل والترحال؛ خدمةً لقوافل شركة الهند الشرقية البريطانية.

كنت وكعادي أول من يبدي مداخلتاً..

- نحن نعاني من نقصٍ حادٍ في الطاقات البشرية، وسيكون من الصعوبة علينا أن ندفع برجال القبائل للعمل في جيش أجنبي، ومن ثم؛ ستكون حكومتنا في الداخل دون غطاءٍ أمني ضد الفوغائين والمخربين.

أجابني الحاكم وقد توجه ناحيتي بكل جده: لقد أطلتُ الدراسة والتفكير كثيراً فيما تقول، ولكن لربّما لنا بعدُ معرفة ما سيقوم به الجيشُ هناك في مصالح الجزيرة هنا. هل سيمكّن نظام أمتنا الداخلي، ويتكفل أيضاً بالدفاع عن حدودنا الخارجية ضد أي قواتٍ غازية؟

توقف الأعضاء عن الكلام. كل واحد منهم يتحدث مع نفسه. يبني فكرةً إيجابيةً وأفكاراً مضادة؛ حتى يصل في قرارة نفسه إلى حقيقة مقنعة

يلقيها حجة على الآخرين. تحدث الحاكم مستطرداً، وذكر أنه بالإمكان إرسال بعض رجال البحر من غاصة وسيوب، وكذلك بعض المزارعين الحَصْر للعمل هناك، بينما نحفظ - نحن - بمقاتلنا القبليين البدو، فلا يمكن أن نرسلهم كي تصبح عظامنا هشة قابلة للكسر في وجه الريح. طلبتُ الحديثَ وأبديتُ قلقي ومخاوفي من المقترح. سألتني الحاكم عن الضرر في إرسال أهل القرى للعمل هناك.

- جلالة الحاكم، هناك مخاوف بعيدة المدى، فكما يرى مقامكم السامي توجد بعض المشاكل الأمنية المتعلقة في الداخل من قبل المزارعين والبحارة، فحين نرسلهم هناك سيعودون حتماً رجالاً مدربين على السلاح، وهو ما سيكون خطراً محققاً على أمن الجزيرة، فنحن لا نشق إطلاقاً بانتهائهم وولائهم لهذه الجزيرة وحاكمها، كما أن إرسالهم للعمل تحت أمره جيش فارس في هرمز وبرضى واضح من التاج البريطاني، سيوفر لهم غطاءً سياسياً ودخلاً مادياً يختلف عما يتقاضونه هنا. إنني أرى - ولتجنب أشد الضررين - أن نطلب من حاكم هرمز أن يرسل له بعض الرجال، بشرط أن نستلم المردود المادي والضريبي من قبلهم، ونحن من يقوم بتسليم ودفع رواتب رجالنا حال عودتهم لأرض الوطن. يجب ألا يختلف الدخل هناك عما يتقاضونه هنا. نحن بذلك نبقي أصحابَ اليد الطولى عليهم، ويمكننا أن نجردهم من السلاح والمال في حالة الخيانة والتآمر. أكرر أنه لا يمكن أن يكون دخلهم - حينها - أكثر من دخل العاملين في الداخل؛ فذلك حتماً سيضر بالأمن الوطني بناءً على تفاوت الدخل، ونحن في غنى عن تلك الطبقة.

تفهم الحاكم ما أرمي إليه، ولكنه أبدى مخاوفه من ردة فعل هرمز، ومن الاختلاف مع أهداف التاج البريطاني في قسم قبل أن يوضح:

- يمكننا الاعتذار لهم؛ بسبب عدم وجود الأيدي الكافية للعمل في ذلك الجيش المزمع بناؤه، كما يمكن للموفد البريطاني ومقيمهم السياسي هنا، أن يتحقق عن الأمر بنفسه، ويرفع تقريراً لهم بذلك، كما أننا نتعهد بفتح أراضينا للمحافظة على مكتب وكالة الهند الشرقية في الجزيرة، وإفراح المجال للوكالة التصيرية للقيام بأعمالها المناطة لها، وأيضا الموافقة على دفع الضرائب لهرمز، وفتح الموانئ البحرية لسفنهم حين القيام بالمهام القتالية البحرية، كل ذلك مقابل توفير الحماية للحاكم والمجلس المعين وبسط الأمن والاستقرار.

أبدئ الجميع موافقتهم لاقتراحات الحاكم داعين الله تعالى أن يزيل الهم والغم عن هذه الجزيرة وأهلها، ثم اقترح الحاكم أن يرسل ما توصل إليه من قرارات إلى المقيم البريطاني في قشم وللقائد الفارسي في هرمز.

انتقل الحاكم بعد ذلك للحديث عن الوضع الداخلي، حيث يفسح المجال للأعضاء لإطلاعه على أمور موسم الغوص والزراعة والتجارة، وكذلك ما يستجد في شأن الأمن الداخلي. تحدث:

- سمو الحاكم، كلما التقينا في مجلسكم العامر من أجل تيسير أمور الناس؛ يتبادر للعامة أننا بصدد لقاءٍ تأمري معتاد. إنهم يرون أنها لقاءات القوى الفاعلة؛ لقاءات مصالح مشتركة، وليست تشاورية فحسب. نحن نرغب في بناء الوطن، وهم يرون أن لنا أهدافاً مضمرة لتفكيك أنسجة مكونات المجتمع والسيطرة عليه. نحن نعمل على خدمتهم، وهم يجزمون أننا متبدون نفرض سيطرتنا وقبضتنا الحديدية على البشر والحجر.

- من الواضح أنها مسألة عدم وجود جورٍ ثقة. لا نريد أن نرصد الكثير من صور عدم الثقة تلك، بل نريد أن نردم الهوة مع الآخر. نرغب

في بناء جسر قوي من الثقة والتواصل. نتمنى أن تُبنى الأواصرُ بين الناس على الحب وتقدير الآخر. الكل له حقوق وعليه واجبات. أتمنى أن تردني أخباراً مفرحة في ذلك السياق. نريد من الجميع أن يتعايشوا بعيداً عن الاختلافات، وأن يفكروا في التشابهات المُتفق عليها ثم البناء فوقها. هكذا نشيدُ وطناً للجميع؛ لتعود دلمونيا دوحة للجميع وجنة ينشدها الناس من مختلف أرجاء الدنيا. كان الماضون يرونها جنة فردوس فلا بدّ أن تبقى التعميم الأبدي الخالد.

على الرغم من تحفظاتي لما يكرره الحاكم في مجالسه؛ فإنه أصبح خيراً لي أن أكون في صفه، وأعطيه موافقة لسانية وإن لم أفعالها حقاً. أن تكون مع التيار أسلم وأسرع للوصول إلى الشاطئ. إنَّ الشراء من علامات فن احتواء الحكام. استأذنته قبل إبلاغه بما أريد:

- سمو الحاكم، هناك خطة للقيام بعمل تجاري يصب في مصلحة دلمونيا كلها. سأقوم بعد الحصول على موافقتكم باستيراد البضائع من الشرق الآسيوي، من الهند وبلاد فارس وسواها، ثم طرحها في الأسواق هنا. من أجل ذلك، التقيتُ منسقاً خبيراً من وكالة الهند الشرقية. بارك لنا الأمر واشترط أن تحصل الوكالة على عمولة نتيجة للتسهيلات والتوصيات التي تساعدنا في العمل الجديد.

- وماذا طلبوا؟

- كانت مطالبهم بسيطة قابلة للتطبيق، وهي المساهمة في بناء الوكالة التنصيرية وإعطائها صورة رسمية، والسماح للسفن الفارسية، وتلك التي تحمل علم التاج البريطاني بالمرور في موانئنا نظير ضرائب مخفضة جداً. سمو الحاكم، إن ذلك سيساعدنا بلا شك على تمويل الأسواق بالبضائع،

وتمويل البوانيش والمراكب الصغيرة أيضاً. حينها؛ يمكنك أن تُحكم قبضتك على مقدرات السوق.

- بالطبع، ولا ضير أن نضع بعض البضائع الجديدة في الأسواق، خطوة خطوة، ولكن ألا تعتقد أن تمويل الوكالة التصيرية سيثير الناس؟

- الناس هنا طيون بالفطرة. لا فرق عندهم بين الأديان. دينهم المعاملة، لكل منهم شرعة ومنهاجٌ، ولكن لدي شروط طبعاً على النواخذة الذين يريدون العمل من خلال هذا الاتفاق، وضيفنا يدرك ذلك؛ يجب على النواخذة - حينها - أن يمتلك بانوشين (سفينتين) على الأقل، على أن تبحر لصيد اللؤلؤ مرتين في السنة. نحن نمول سفنهم، وهم يبعوننا مقابل ذلك نصف صيد محصولهم من اللؤلؤ، بحيث يمكننا تصديرها واستيراد تلك البضائع. لؤلؤ الخليج كما هو معروف هو الأكثر جودة على مستوى مناطق المصائد في العالم، وكما تعلم ففي بعضه ثمانية ألوان، وأحجامه هي الأكبر بين نظيراتها. سيسهل لنا الأمر تصديرها، ونحفظ بذلك حقوق البحارة ونصيبهم، وسيكون لنا الفائدة الكبرى.

- لك ما تريد.

كنت أدرك أن هذا الاتفاق الذي يكون نصفه عرفياً والنصف الآخر مكتوباً؛ هو في مصلحتنا سويماً. سيصب في مصلحة الحاكم ومجلسه، وفي مصلحة النواخذة وبحارته أيضاً، بشرط أن يبقى الخوف والقلق بين جميع الأطراف. للهاجس الأمني دورٌ كبير في سير العمل، كما أن أي خرق لأحد البوند؛ سيحدث شرخاً في علاقتنا التجارية، وسيصب في جانب البحارة من غاصية وسيوب وعمالين. فمهما كانت التغيرات، لا بد أن يبقى كل من فوق ظهر السفن مديناً للأبد. يأخذ البضاعة فرحاً، ويبقى يدفع دينة حتى

المهات. الرقّ المالي والترهيب بعضى السجن المحصور في يد السلطة؛ هما أهم الأوراق لاستمرار الحياة. إنها إحدى صور التجارة ولا أعرف لماذا يسمونها استعباداً؟ لا يفوتني أن أحمد الله كثيراً على غرق ابني ناصر. نعمة في ظاهرها نقمة، سبقني نلوح بعصانا، ونتهم بالقتل العمد كل من يقترح مطالبات جديدة للمشاركة في السلطة أو الرخاء، وهكذا تتمر الحياة.

انفض الاجتماع الأسبوعي، وخلال عودتنا، أفضيتُ للنوخذة بالكثير من الأسرار حول كيفية التعاطي مع الحاكم نفسه، ومع الأضداد المنافسين، ومع العامة. كي تنجح في حياتك لا بد أن تعرف الطريقة المثلى للتعامل مع كل إنسان على حدة. إن الاستقرار الأمني الذي يرغب فيه الحاكم سيكون في مصلحته نفسه، بحيث يستقر له الوضع ويأمن انتقال عرشه لأبنائه. إن قمة الحظ أن تُولد وفي فمك ملعقة من ذهب، أما مصلحة العامة فهي حين يشعرون بالرخاء، ولكنه لا يصب في مصلحتنا نحن فئة التجار والنافذين. إن عدم الاستقرار يدفع الحاكم للاعتقاد علينا في تيسير الأمور، ونحن نجني - من وراء تيسير ذلك - الكثير الكثير. هناك العديد من السبل التي نقوم بها، وهناك وسائل جمة لتحقيق تلك المآرب؛ ترغيبٌ مالي، ترهيبٌ من عدوٍ وهمي يقبع بينهم، تناحرٌ ديني، وأخطارٌ طائفية. تعددت الأهداف والفتك واحد. وبالمناسبة، ما زلتُ لا أعرف كيف وصلتهم هذه المفردات، وكيف صار لها صدئٌ كبيراً. أتوقع أنها مأساة القدرة على التواصل مع العالم الخارجي. التواصل كفرٌ وتأمراً مدمر، وهو يشبه معضلة وخطورة التعليم. ينقل لهم أفكاراً تدميرية، مخططات ومؤامرات خارجية. يقول أحد الجنود البريطانيين الذين التقيتهم في رحلتي الأخيرة: إن ما يمارس على أرضكم هنا؛ هو رأسمالية بدائية كانت ضاغطة وأصبحت تُمارس من دون تأطير

وبغير تنظير، وقال أيضاً: إن أغلب النظريات ليست مبتكرة في حد ذاتها، ولكن ينجح التاملون في وضعها ضمن قالب يحفظها فنسب لهم. إنها نظرية غاية بدائية تؤصل ظاهرة التميز بين الطبقات؛ فيزداد الغني فحشاً وثراءً، وتبقى الطبقات الدنيا هي الأيدي العاملة، وهي البناء ولكنها.. صفر اليمين! شعارات لرافهم منها شيئاً، جوفاء قد تناسب مجتمعاتهم، ولكن مجتمعا لا زال بدائياً يحتاج للمزيد من الوقت كي يحدد ويعرف مصيره بنفسه، ولكنني قلق من تلك المصطلحات. قد لا يفقهها الكثيرون، ولكن الكلمة الناطقة شعاراً ومطلباً و... ثورة.

في اجتماعنا الأخير، لم يكن الحاكم يستعجل النتائج التجارية، ولكنه أمسى قلقاً من المطلب الهرمزي الفارسي، وما سينشق عنه من قرارات وأفعال. كان لا يرغب في الدخول في مآهات سياسية وأمنية؛ فهو أميل للاستقرار والكيانة. أما بقية التجار وأعضاء المجلس المعين، فكانوا يضعون أهدافهم ولا يتمنون أن يخرج النظام القائم عن سطوة الحاكم وسيطرته؛ فوجوده يضمن بقاءهم. كل المعاملات تتم تحت مظلة الحاكم، وإن كان الأخير مجهل ما يدور في الظل، كما أن قصة موت ابني ناصر تبدو مؤثرة في أن يقض الخوف مضجع الناس؛ فالترهيب هو الخطوة الأولى لبط الهيمنة، ومتى ما خاف الناس تمكن من يملك القوة من فرض شروطه، في انتظار الإذعان والتسليم.



(12) المترجم

يناير 1761

بعد محادثات أسرية مطولة ومناورات مع الخصوم، قد لا تنهي رغباتهم أبداً؛ قررت السيدة بمعية ابنها آدم أن ترحل لكوبنهايغن؛ حيث بعض أهلها، وحيث تتحقق أمنية العيش باطمئنان. اختفاء مفاجئ في معطف رحيل. القرارات المفاجئة أسهل للتطبيق، كما أن الانتفاء لمسقط رأس الإنسان غريزة فطرية، يزداد تدريجياً كلما تقدم بنا العمر. يحن الإنسان حتى يُوسد التراب هناك بعد موته. حيث وُلدتَ ترغبُ أن تموت، ولكن السيدة أصبحت بين نارين، لقد تيقنت أن كارينا هي الزوجة المناسبة لابنها، وجدت فيها نبع حبٍ وحنان ربيما يقل نظيره، كما أن أسرتها تنتمي للطبقة المحافظة ذاتها بعيداً عن مثلث الرعب الذي خطه الملك ألفريد سابقاً. تمت كارينا لآدم، الأم لا تهب ابنها إلا للحضن ساخن تطمئن له. لم تفلح كارينا في محاولاتها الأنثوية ولكن أجادت الأم بحنانها لتحقيق الهدف المشترك. بدأ آدم يتوهم حبه الجديد، فالأوهام تتحول لحقائق مع تحاذل الوقت، أما الحبُ فهو جبلٌ أوهامٍ تزرعه الرغبات وتبنيه الأماني، وأما كارينا فعينها كانت بين نارين؛ نار الهوى ونار البعد الذي يبدو في الأفق المظلم. المرأة لا تُخلدُ الحب إلا إذا ارتبط بالهجر والحرمان، يبدو ذلك في علاقة عكسية تظهر حب السيطرة والتملك عند الإنسان حتى في مشاعره. من جانبه، لم يكن آدم مهووساً بغير الدراسة والمغامرة وإن تظاهر عكس ذلك. إن السفر بعيداً لكوبنهايغن يحقق الأمل؛ قد شغفه حباً العلم والمعرفة المزدهرة هناك. خطواتٌ علمية بسيطة ولكنها عملاقة في أهدافها. فمن يغير ما بداخله

يستطيع تغيير وتغيير العالم. كانت الأخبار القادمة من هناك تصيبه في الصميم. اتفق وكارينا أن يُبقيا خيطَ التواصل بينهما قائماً. التواصل بشري الترابط، ليكن البحث عن أنجع الطرق حينها؛ الرسائل البريدية كانت الأجدى نفعاً. تعاهدا على إبقاء رباط الحب ما داما أحياء، فقه الوعود قد يُقي على العهود.

- كارينا.

- نعم.

- لم نجد الوقت لينمو جناً ونسقيه من فائض مشاعرنا.

- لتكن وعودنا صادقة، سأنتظرك هنا.

- سأعود لكِ ريثما تهدأ العاصفة، خلال عام أو اثنين، سنبني أسرة سعيدة.

- وعدُّ لن نخلفه.

مرّ وانمحنى المشهد الجنسي الذي أعدته كارينا لآدم في الكهف خلال نزوحه وأمه نحو المدينة الأكبر. صاروا يحملون آمالهم ويستقوون بتأريخهم. المألُ قوة والمعرفة مجموعة قوئ. كان طريقهم مليئاً بالقوافل المهاجرة. شقاؤهم كان نيباً؛ فهناك من قضاوا في الطريق وهناك من فُقدوا وافتقدوا. بلغوا كوبنهاغن بعد مُرّ عناءٍ طويل، أرهق الأم وأسعد آدم بمطباته. كان يكرر أن الترحال متعة تستحق العناء، وبالمشقة والعناء يتوي الأحياء. القدر يُكتبُ على ناصية الإنسان، ولكنه غالباً ما يعجز عن قراءته، ويجاول بفضوله جاهداً معرفة أقدار الآخرين. بعد البحث والتقصي عن سكن ملائم والاستقرار فيه، قرّر آدم أن يُقي كارينا داخله، وأعلن مباشرة عن اقتحام معركة العلم، وعن مواصلة المعرفة والدراسة.

في الدنمارك، ذاع حينها صيتُ الفيلسوف الألماني كانت؛ الذي أسس وبعضُ الفلاسفة الآخرين مدرسة حياة جديدة، كما ازدهرت الحركة العلمية في عصره بشكل مطرد. أسس لنقطة نوعية عملاقة، جعلت الحضارة الغربية مزدهرة لقرون طويلة. كان من نتاج هذه الحركة العلمية خلق رغبة واسعة في اكتشاف العالم، والاستفادة من خلاصة حضاراته. قام على إثرها كبار العلماء بمخاطبة الملك الدنماركي فريدريك الخامس⁽¹⁾ والحصول على موافقته لتمويل حملة للشرق الأوسط، تستلهم من إبداعات تلك الحضارات، لترتكب النهضة راغبة في أن تبدأ من الصفر بل من حيث وصل الآخرون. وبعد الحصول على موافقة الملك، أُشيع وأُعلن عن رغبته في تكوين حملة للشرق الأوسط تتكون من خمسة علماء في مجالات مختلفة؛ هي: علم اللاهوت، علم الآثار، وعلم فك الخطوط الهيروغليفية، وعلم النبات الطبيعي، وعلم الجيولوجيا، بالإضافة إلى مرافقة خادم للحملة، يقوم على احتياجات العلماء. فُتح بعد تلك الرغبة الملكية بابُ الترشح والقبول لمن تنطبق عليه الشروط. كان الاختيار للأكثر كفاءة، ولم تكن المحسوبة دارجة مُفعلة، فالكفاءات تُركب نفسها وهي سرُّ النجاح.

توجه آدم لمجلس المدينة الواقع في قلبها يقدم أوراق اعتماده؛ لعله يحصل على الموافقة. تساءل قبل ذلك عن الفائدة المرجوة من تلك العلوم لدى رحالة يجوبون بلدان الشرق، ولكنّ الناس أعداء ما جهلوا. تبين أن توصيات الفيلسوف الألماني كانت⁽²⁾ صار لها اليد الطولى. إنّ إرسال

1 - الملك فريدريك الخامس ملك الدنمارك والنرويج (1723-1766).

2 - إيمانويل كانت (1724-1804) Emanuel Kant فيلسوف ألماني من أشهر ما قاله: إن الله تعالى لا يمكن معرفته بالعقل ولكنه يدرك بالضمير؛ لأنه خارج عن الظواهر الطبيعية.

متخصص في علم اللاهوت⁽¹⁾ للشرق يساعد في فك الارتباط بين هذا العلم وبين الكتب السماوية، وإن سكان الشرق يساعدون في ذلك ضمن مفهوم الفلسفة الجديدة؛ وذلك لأن العرب هم اللالة السامية الوحيدة الباقية في الشرق الأوسط، وكان من المصادفة المحضة، أن قبول آدم جاء بعد قبول العلماء والآخرين، ومن بينهم خادم متميز متعدد المواهب، أليس خادم القوم سيدهم؟

تبت الحكومة الدنماركية عملية الإنفاق على الحملة وتثبيت خطاها. أرسلوا من وقع عليهم الاختيار إلى جامعة غوتنغن⁽²⁾ من أجل تأهيلهم وتوضيح المهام الكبيرة الملقاة على عاتقهم. وفي مراحل القبول، كانت هناك مقابلة شخصية لآدم، تعرفوا من خلالها على تفاصيل حياته. سأله القائم على التسجيل عن أسباب التحاقه بالجامعة:

- ما الهدف من دراستك الجامعية؟

- دراسة الرياضيات والفيزياء والمساحة.

- حسب نتائجك في الامتحان الأولي، سيكون بوسعك دراسة ما تشاء.

- ذلك أمر جيد، لكنني أريد التخصص في الرياضيات.

1 - علم اللاهوت هو علم دراسة الإلهيات دراسة منطقية. اعتمد فيه المسيحيون على التحليل العقلي للدين، ومقارنته بالأديان الأخرى، وذلك من أجل الإصلاح وتسهيل نشر النصرانية والدفاع عنها. انقسم علم اللاهوت إلى فروع منها: اللاهوت العقائدي والفلسفي والأدبي والتاريخي والطبيعي....

2 - جامعة غوتنغن هي من أشهر الجامعات في ألمانيا. تأسست سنة 1734 وتخرج منها أو عمل فيها 45 عالماً حازوا على جوائز نوبل حتى العام 2013.

- اسمع يا بني، يمكنك دراسة ما تشاء ولكن... أنت بريطاني الأب، دنماركي الأم، فلماذا لا تفكر في الدراسة من خلال إحدى الجامعات البريطانية؟

- العلم يا سيدي كالماء، وكلاهما مشاعان لكل البشرية، يستطيع الإنسان النهل من معينها في كل زمان ومكان، وما دامت الأهداف العلمية سامية، فلماذا لا يتم التعاون مع الآخرين؟

أعجبَ المسؤول بشخصية آدم البديية وبمنطقه؛ فاستبشر به خيراً. طلب منه أن يلتقي رئيس الجامعة للتنسيق حول الدراسة، ومعرفة حيثيات الأمور الأخرى. لم يكن لدى آدم أيُّ عائق لقبول العرض والتعرف أكثر على النظام الجامعي، وكذلك التعرف عن قربٍ على شخصياتها، فكلها أمورٌ تبلور فكره وأهدافه الدراسية. التقاه في مكتبه بعد يومين. مكتبٌ مكتظ بالمخطوطات والكتب القديمة، تصطف على الأرفف الكستنائية في كل أنحاء الغرفة، بينما امتلأت زواياه بأوراق متناثرة. الفوضى الورقية تُظهر حبّ التوثب على ما تحويه من معرفة:

- صباح الخير.

- صباح الخير سيدي.

- كما أعرف فأنت شاب بريطاني/ دنماركي طموح، لديك الرغبة والإمكانات اللازمة لدراسة الرياضيات، ولكن الجامعة تعتزم القيام بحملة استكشافية للشرق الأوسط، وهي تبحث عن طاقات شابة لديها الرغبة الصادقة والذكاء المطلوب في القيام بواجبات ومهام تلك الحملة. إن الجامعة دائمة البحث عن تلك الطاقات؛ لتلبي الرغبة الملكية في القيام بتلك الحملة التاريخية. لديك أفضلية واضحة؛ لأنك تملك أكثر من لغة

تُهل عليك مهامك. هل توافق على أن تقوم الجامعة بتهيئة الدراسات
واكتساب المعارف العامة التي تمكنك من التعامل مع أنواع مختلفة من
البشر؛ بدو وحضر، عرب وعجم، ديانات ومذاهب مختلفة، تضاريس
مختلفة، بحار ومحيطات وصحار؟

توقفت عجلة التفكير واتخاذ القرار عند آدم، فكانها القرار جاء كماء بارد
صَبَّ عليه. طلب مهلة للتشاور مع عائلته؛ ليكون القرار النهائي المصيري
شورياً، ساهمت فيه كل الأطراف المعنية. التردد في غالبه رفض مؤجل، لم
يكن متردداً، ولكنه يواجه قراراً صعباً... استدرك:

- ما هي الأهداف المعلنة لاكتشاف تلك الأراضي البعيدة؟ نحن نقوم
بحملات استكشافية لمناطق لا تنتمي لنا، ولا ننتمي لها؟

- عزيزي، خلال الثورة الصناعية التي تمر بها أوروبا حالياً، يتجدد
التنافس بين الدول الغربية لاكتشاف أسواق جديدة تكون قادرة على
استيعاب صادراتها. نوعٌ من صراع الأضداد. إنها حرب انتشار الابتكارات
العلمية. نزاع بين الدول الأوربية من أجل البحث عن أسواق جديدة،
تثبت ركائز الصناعة لديها لتستمر فيها، ولتؤكد بقاء تلك المصانع
واستمرارها. الصناعة عرضٌ وطلب، والطلب هو الحافز الحقيقي
للتصنيع. رافق ذلك - يا عزيزي - رغبة تلك البلدان في الحصول على المواد
الخام، التي تقبع تحت أرجل العرب في مناطقهم. ثروات كامنّة تحت
أراضيهم لا بدّ للبشرية قاطبة أن تستفيد منها، فكما ذكرنا للتو أن الحق في
الماء والعلم متاح ومشاع للجميع، نضيف إليهم الثروات الطبيعية.. ويأتي
كل ذلك متزامناً مع اكتشاف جغرافية تلك المناطق للوصول للأسواق
العالمية البعيدة كالهند والصين.. أصبح السباق نتيجة لذلك محمواً بإرسال

البعثات الاستكشافية إلى تلك الأراضي.. تصدرت تلك الدول المتكشفة بلدان كالبرتغال، وأسبانيا والدنمارك. أما بريطانيا بدورها فقد سبقت الجميع، ووصلت إلى أقاصي الهند والسند.

- هذا كل شيء؟

- ليس كذلك، تعاني الدول الأوروبية - حالياً - نقصاً شديداً في سبائك المعادن النفيسة. كما تعرف فإن صناعة السبائك قائمة على الذهب والفضة. - آها، العملات المعدنية تُصنع من خام الذهب والفضة الموجود هناك.

- يضاف لذلك الصراع الممتد بين الأيبيرين والمسلمين. صراع قائم على أسس دينية. تعرف يا آدم أنه منذ أن سيطر العثمانيون على القسطنطينية⁽¹⁾ والنزاعات بين الشعوب مستمرة. إنها التداخيات الطبيعية للسامية. إذا أراد السياسي تثبيت أقدامه والتثبيت بالسلطة دون رقابة على ملفات الفساد في حكومته؛ فعليه أن يعزف على أوتار الأديان والمذاهب، حتى إن هناك حكومات قائمة على خلق نزاعات بين طوائف الدين الواحد، وعلى مختلف الأديان السماوية وغير السماوية. لا بد لك أن تخلق عدواً وهمياً، يمثل للجميع غولاً يتربص بهم.

- ولكنني لا أهوى الدراسات الاقتصادية، ولا السياسة....

- كما سمعتُ منك سابقاً، في حالة قبولك؛ فإنك ستكون ضمن فريق من خمسة علماء وخادم. معارفكم وعلومكم ستكون متقاطعة متداخلة. علمٌ وعملٌ تكاملي. ربما يُوكّل لك رسمُ المساجد ودور العبادة وغيرها،

1 - سيطر العثمانيون على القسطنطينية (إسطنبول) عام 1453، على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

وبما أنك تعكف على دراسة المساحة بناءً على علوم الرياضيات والفيزياء؛ فإن هذه العلوم ستتداخل مع الأديان. إن معرفة الأديان يضيف لك بعداً آخر عندما تشرع في رسم الخرائط هندسياً. ينطبق الأمر كذلك على رسم الخرائط العامة والطرق والمعالر لكل منطقة.

عرضت جامعة غوتنغن على الرحالة الجدد دراسة مكثفة استعداداً للحملة الأوسطية. كل حسب تخصصه. يلتحق الرجل منهم بدروسٍ أحادية في تخصصه، ثم يقوم بعرضها على بقية زملائه نهاية كل شهر. يتيح هذا النوع من التعلم القدرة على العرض واستيعاب الآخر. نوعٌ من التقويم التكويني والذاتي. التقى فيها حبُّ الدراسة لديه، مع رغباته الكامنة. كان يجب علوم الرياضة الفكرية، فأصبح مغرمًا بها لأنها دراسة تطبيقية تمسُّ الواقع والحياة. علمٌ لريكن قطُّ ترفاً فكرياً.



(13) أبو راشد

فبراير 1761

قرّر الحاكمُ بدءَ غوصِ المجني؛ وهو الخطوة الأولى التي تسبق موسم الغوص الكبير. غوصٌ استطلاعي يقف فيه الجميع على صلاحية السفن. التاجر يهتمُ بشؤون التموين. النوخذة يركز على القيادة. الغاصة والسيوب على القدرة والرغبة في الحصاد. وفي المجني تُختبر الصلاحيات والمسؤوليات. تسود روح الأسرة الواحدة، الحب هو حجر الزاوية في الحياة، ومنها القيام بالمهام البحرية. حبُّ الذات وليس الأنا حبُّ للعطاء والإيثار. هنالك على سطح السفينة طبّاخٌ ومساعد ربّانٍ ومستخلمين، كما تُحدّدُ في المجني المغاصاتُ والكواكب⁽¹⁾ القريبة منها. الكل يجاهد ويرغب في اللؤلؤ؛ فهو عصب الحياة، وهو المصدر الرئيسي لها؛ منه يأخذ الحاكم الضرائب، ويقوم بتسجيل السفن في رسالة مفادها: أن الحاكم بلا شعبٍ كمزارع بلا ماء لا تستوي حياته دونه. بعد أربعين ميل بحري ومسير يوم، حدّدنا عدداً من الهيرات (المغاصات) العميقة، قبل أن تبدأ رحلة العودة للوطن استعداداً للانطلاق الكبير.

وبعد شهرين أو يزيد من غوصِ المجني، ندخل بكل زهونا موسم الغوص الكبير، والذي يأتي في هيب فصل الصيف المشتعل، ويستمر مدة ثلاثة أشهر تقريباً. كأنه الأخ الأصغر للعيدين، تبدأ مراسمه بعد صلاة الجمعة، ويحضر فيها الحاكم بنفسه، ويتبعه التجار وعامة الأهالي، وتنطلق

1 - الكوكب هو عين الماء التي تتبع من قاع البحر.

المراكب فعلياً عند الغروب، ترحل وتراقصها أغاني البحارة، وأهازيج الفوص، والدق على الطبول، والمثات من الأيادي تودع رجالها، وتدعو ربها أن يعودوا سالمين.

ولكنني وجدت موسم الفوص كيحاً هذا العام. الخوف من المجهول الذي سطره التاجر بين الناس يقض مضجعهم. افتعال جريمة والعزف على أوتارها. يترقبون ردة فعله بعد موت ابنه ناصر. لا منام بلا أمان. تساؤل يفرض نفسه عليّ دائماً؛ لماذا تقف سلطة الحاكم كيحة إذا تعلق الأمر بالتجار والنافذين؟ أليس للحاكم سلطة إلا على المتضعفين؟ هل الحاكم مُنزَلٌ بأمر إلهي، أم تفوضه الشعوب ليدبر أمورهم و... يتسلط عليهم؟

خرجتُ من البيت يرافقي كل من في الأسرة؛ العميد مُسنداً، أم راشد، خولة وإخوتها الصغار، وهناك على الشاطئ اجتمعت كل الأسر فيما يشبه المهرجان الكبير. تزينت النسوة وكُسي الأطفال بأزهي الملابس، سواء كانت جديدة أم مستخدمة. صورة تناقض موعد العودة المرتقب حيث انتظاراً لأفراد الأسرة على الساحل، ترسم فيه الدموع على الشحوب آخر لمساتها. كان للطبول وقعٌ على الأذان والقلوب، كأنه إيذان بالحرب على البحر، وأخذ الغنائم منه. كانت السفن على أهبة الاستعداد للرحيل قبل مغيب الشمس. بلغ عددها في هذا الموسم أكثر من مائة وخمسين سفينة⁽¹⁾. انطلقت سفيتنا بقيادة النوخذة، وهي تزحف ضمن مجموعتها، ولن تتوقف إلا بعد الوصول للمغاصات المحددة سلفاً قبل أن ترمي مراسيها⁽²⁾.

1 - من أشهر أسماء السفن في الخليج: لتجة، جالبوت، بانوش، مركب.

2 - تُسمى المرسة محلياً بالباورة (anchor).

وقفتُ إلى جانب السفينة متأملاً. تسمرتُ وأنا أشاهد البوانيش منطلقة زاحفة خلف أمالها. أملٌ معقودة ناصيته بالمياه الخضراء. وجدته هذا الموسم يجر أذيال الخيبة والحسرة للغاصة والسيوب وبقية العاملين. سنة حياة تثبت أنه رَبُّ ضُرِّي لي خيرٌ لك. كان البانوش الخشبي يحمل بين جنباته مؤونة غذاء تكفيه شهراً واحداً، ومتى ما انتهت المؤونة نعود سريعاً لحمل مؤونة أخرى.

تقدم السفينة الشاب حسن (النهام). وقف في مقدمتها. كان فاتح البثرة جميل التقاسيم معتدل القامة، وعلى عكس بقية العاملين على المركب فإنه يرتدي (إزاراً) عمانياً مزركشاً و(فانيلة) بيضاء. اتخذ من مقدمة المركب مكاناً لصدارته. أخذ يفرد بصوته أهازيج الغوص الرائعة بألحانها ووقعها، فيما البقية يجدفون على إيقاعاته في انطلاقتهم نحو مصائد اللؤلؤ التي كانت تبعد ثلاثة أميال بحرية تقريباً:

يا الله بدينا، يا الله بدينا

هولو يا سيد المرسلينا..

هولو واشفع لنا.. هولو في حيناً..

يا الله بدينا، يا الله بدينا

في صبيحة اليوم الثالث، بدأت عمليات معاينة المصائد التي تم التحري عنها سلفاً. يذكر الغاصة في حكاياتهم أن اللؤلؤ لا ينمو إلا في المياه الضحلة، وأنه يعشق حرارة الشمس. آثرنا تبعاً لذلك أن نحج هذا الفصل الحار، وأن نبقي ثلاثة أشهر صيفية يكثر فيها المحار، ولكنه يندر في غوص البارد الذي يأتي شتاءً. غالباً ما يكرر البحارة حكاياتهم وأسئلتهم نفسها. تقدم أحدهم باتجاهي يسألني عن حكاية المحار:

يعيش المحار في قاع البحر، ولكنه يطفو على السطح حين المطر. يفتح ذراعيه، ويتزاوج مع الندى، وإذا أصابتها قطرة مطر ملائكية فإنها تنتج لؤلؤاً مكتملاً، وكلما قلت نسبة نقاء المطر أنتج لؤلؤاً أقل جودة، ولكن الشائع أن أغلب المحار يكون بلا لآلي. وقد يصل حجم المحار حجم طبق، كما أننا نجد في كل طن من المحار غير ثلاث أو أربع لآلي مكتملة. توقفت السفينة أول مرة بعد الغروب وألقت مراسيها. بدأت الأهازيج تعلق مجدداً خلف صوت النهام، وتم إنزال المرساة (الباورة) على أنغامها. أذن للصلاة؛ استعد الجميع لها، أدنى أغلبهم صلاة العشاءين فرادى والآخرين جماعة، ثم تناولوا عشاءهم وهو إحدى الوجبتين الرئيسيتين؛ تتكون الوجبة الواحدة من: فاكهة معلبة، قهوة، سمك، رز، تمر. وتزخر الوجبة بالليمون الجاف الذي يُستقوى به لمحاربة مرض ما يُسمى بالأسقربوط⁽¹⁾.

اتخذت وصديقي السيب الحدّ الأيمن من المركب مجلساً، وضعنا حصيراً صغيراً مترهلاً، واستدنا على جدار المركب. فضاءً بحري ورث فراغاً فكرياً، أثار قريحته عندما وجدني متجهماً على غير عادة. استخدام العين الزجاجية يسقطك على مشاعر الآخرين، حينها تحدث معي بشجون:

- ستعود لأهلك قريباً يا صاحبي.

- ولماذا نعود؟

- ولماذا هذه الغربة والتعب، إن لم نود العودة لأهلنا؟

- هل نعود لنورثهم الدين والذل والهوان؟

1 - الأسقربوط (scurvy) مرض يصيب البحارة، وهو ضعف الشعيرات الدموية، ومن أعراضه: ضعف المفاصل والأطراف، ونزيف في اللثة، وقد يؤدي إلى الموت.

- وهل بإمكاننا أن نغير سنة الحياة؟

- اسمع يا صاحبي، قيل أحسنوا نياتكم؛ فعلى نياتكم ترزقون، وقيل في الحديث، كيفما تكونوا يولّى عليكم. إنّي لأتمنى الموت على الرضا بهذه الحياة. فالمطيةُ تُمتطى، أي دين ودين هذا الذي يسمح للتاجر والنوخذة بأن يتحكم في مصائرنا ومصائر أبنائنا؟ حاكمٌ ظالم، أي حاكم هذا الذي ينام قرير عين والظلم واقع بين يديه؟ أتمنى ألا تغلبنى وساوس الشيطان فأقتل هذا الظالم وألقي به بحراً. ولكن البحر نفسه يجد الظالم علقماً. كيف نعيش ذلّ الدّين طوال حياتنا، ثم يرثه أبنائنا؟ لسنا رجالاً إن لم نورث الخير لأبنائنا، فكيف ونحن نعدّ لهم الشر، ولا نستطيع أن نجلب لهم السعادة. إنّي أرى الموت سعادة على هذه الحياة، ولكن قد يأتينا الخير من حيث لا نحتب. لا يُغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما أن الأيام دولٌ يا صاحبي. يُقال إنّ البرتغاليين يخططون للعودة والهيمنة على أرضنا مجدداً، وكذلك يحاول الإنجليز وربما الهولنديون بسط نفوذهم، وها هم العثمانيون واليعاربة أو القبائل العربية البدوية، كلٌّ يجِدُّ في محاولته. كلهم وبلا ريب شر احتلال، ولكن ربما نبدأ الحياة مجدداً معهم من الصفر لا من أسفله كما نحن عليه الآن. التعاون حينها مع الشيطان يكون مربحاً ومثمراً. فبعض الأمم تحارب المستعمر، وبعضها تراه طوق نجاة، وإذا التقت الرغبات حينها فإنه سهل الاحتلال، لقد قيل إنّ أغلب الاحتلال تواطؤٌ من الداخل.

سمعتُ خشخشة بجاني. التفتُ ناحيته. غطّ صاحبنا في نوم عميق، وعلا شخيره تدريجياً. بعض الأسئلة لا تستحقّ عناء التفكير والإجابة. نوعٌ من البلاغة اللاحرفية. توجهتُ بطرفي ناحية الأفق المظلم... وجدتُ رجلاً والدي المتورة، أطفال الصغار، وغالتي خولة.

"بدأ موسم الغوص سريعاً في الصباح الباكر. وعلى غير عادتي، لم أجد شهية لوجبة الإفطار. شعرتُ بمرارة و غصة. أريد اقتحام البحر سريعاً، عشر غطّات أريد إنهاءها. كنت في عجلة من أمري، وكان أمراً ما بانتظاري. كاني أسير إلى أمرٍ كان مرسوماً. أحت الخطي باتجاهه لعله القدر المحتوم، وربما تمنيه قدراً مخروماً، فكلاهما قدرٌ نعطيهِ مسميات وأسابياً حتى نقتنع أنفسنا بالغيب. وجدتُ صديقي السيب قد أعدّ عدة الغوص على غير عادته. سلّمني الفطام فوضعتُه على أنفي. ربطتُ حجراً بأحد الحبلين وأمسكتُ بالآخر. كلاهما ثقيلٌ هذه المرّة، قفزتُ للهاء، أمسكتُ بالدين⁽¹⁾ لما يقرب من سبعين قدماً. بدأ جبل الحجر يشدني لقاع البحر، بينما أمسك السيبُ بالآخر توقّعاً للهزة المرتقبة حيث يشدني للسطح. قرن استشعار لنداء الغواص. كان الغاصة كعادتهم خفافاً صغار الأجماد، يلبسون القماش الأبيض فقط حتى لا يثور عليهم سمك القرش وإخوته؛ الألوان مثيرة للإنسان كما هي لدئ البهائم، فلا غرو أن يُثارَ الإنسان حين يُمّح عقله. هبطتُ سريعاً وبفعل فاعل إلى حتفي.. إلى قاع البحر.. وجدتنني أرتدي سروالاً أحمر، لم آبه لسؤال السيب واستنكاره؛ لماذا تُصِرُّ على تحدئ القرش، واستخدام سروال أحمر بدلاً من أبيض؟ لم أكرث له، أخذتُ أتأمل أسراب الأسماك وهي في رحلات جماعية. انطلقت أكثر وأكثرت للعمق، هناك وجدتُ بعض أحجار الفرش متقاربة وإلى جوارها تلالٌ رملية صغيرة، يبدو أنها ناعمة رقراقة. أخذ الحجر يجري للقاع بسرعة مدهشة. عاينتُ المخار المتناثر فأدركتُ أنه مفاصٌ مثمر، عشر محاراتٍ وأعود، تَمَرْتُ في مكاني حين رأيتُ خولة بين تلك المحارات تلبس

1 - كيس قماش أبيض يحمله الغواص معه إلى قاع البحر ليضع فيه المخار.

فتان زواجهما الأبيض والأخضر وتلتقط المحاراً رأيتُ إخوتها يزفونها
عروساً إلى التاجر اللعين؛ أردتُ التوجه ناحيتهم ولكن.. وجدتُ قرشاً
عملاقاً يقطع الطريق، وقع أحدنا في الفخ حتماً. أغراه السروال الأحمر لا
محالة؛ جاء لينهي حياتي. وقف حائلاً بيني وبينهم. حركتُ الجبال يميناً
وشمالاً، ولكن لا حياة لمن تنادي. يبدو أن السيب تواطأ أخيراً مع القرش
الذي أقبل بلا هوادة وغرس منقاره في السروال؛ سألت أودية دماء أحالت
المياه للون الأحمر. دماء الإنسان محرمة، ولكنه لا يابسه... أخذتُ أعابن
الموت. القرش ذاته لا يفتأ يتعد، يدور بالقرب، يمعن النظر في عيني حتى
صار كمن يحدثنني وهو من يدير الحوار:

- من يُسلم عِرْضَه للمال لا يستحق الحياة. إن رَفَضَتِ الأَرْضُ احتضان
جد إنسان فهي ترفضه ب كله.

- لم أسلم عِرْضِي لأي إنسان.

- خنوعك لا يعطيك الحق في العيش والحياة. أرضك عِرْضُك،
فاحتفظ بها.

- كما للبحر قرشٌ فلكل يابسة قرشٌ أكبر.

لم يُعجبِ القرشُ سماعُ جوايي، اقترب مني بمنشاره، جريمة بسابق
ترصد، خلته ينوي تقطيعي لأجزاء مختلفة، رميتُ القفازين ولريقطا
أرضاً، أزلتُ الفطام من على أنفي، أردت الصراخ على السيب لعله
يرفعني. امتلا فمي ماءً؛ ولا ينطقُ من في فيه ماء، أخذتُ أردد صارخاً
وبكل قواي: حسن، حسن..."

أخيراً. استيقظ السيب حسن على صراخ صاحبه أبي راشد. أيقظني.
سباتٌ عميق بغيبض. النوم نقلة استشفاف للعالم الآخر. أخذ يوقظني

ويهدئ من روعي. وضع حداً لذلك الحلم البغيض. جاءني بكأس ماء وقد اقترب واجتمع طاقم السفينة، رفعني إليه ووضع رأسي بين كفيه، ثم حملوني إلى جانب مدفأة الجمر لمقاومة برد ليل الصيف في البحر. تحدثوا بينهم:

- أضغاث أحلام.

- أحلامنا تعكس مكبوتاتنا.

- اشرب الماء، واقرأ الفاتحة قبل أن تعود لتومك؛ فالصباح لا يزال بعيداً.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- من ينثر الحب يحلم به، ومن ينام وفي رأسه معاناة فإنها تأتيه وتقصُ مضجعه.



(14) آدم

مارس 1761

قرأتُ خلال هذه المرحلة الكثير عن نظريات كانت، ذلك العالم الألماني الفيلسوف الذي نادى بإخضاع التوراة والإنجيل للقياس العقلي، وإلغاء ما لم يكن خاضعاً للقدرات العقلية. كانت نظرياته الأكاديمية الرائدة تنطلق من محاضراته الجامعية، أما أقواله التي كانت دافعاً للحركات التغييرية وربما الثورات؛ فإنها تنطلق من الصالونات الثقافية، والمقاهي الشعبية العامة، حيث تجدد كلماته صدىً شعبياً واسعاً. وأما فيما يخصني؛ فكان الامتداد التعليمي الجامعي، لا تكتمل حلقاته إلا بنقاش مع أقراني والحياة أُمي. إثراءً فكريً طريئاً، تتبلور من خلاله مداركي ومعارفي. كأني أنفذ مقولة أن التعليم يبدأ من الأسرة:

- أُمي، هناك ثوراتٌ تغييرية وثوراتٌ تصحيحية. نزوح نحو المدينة، نحو عالم أفضل. يعي الجميع كل ذلك، ويعي أن الإنسان ناقصٌ، ولا بد من تقويمه عند الزلزل، ولا يوجد سياسي معصوم، أو سياسي نبي يأخذ تعليماته من السماء. ألا يمكن أن نستوعب ذلك؟ ألا يمكن للإنسان أن يتحرك باتجاه الأفضل دون إراقة دماء؟

- إن الثورات التصحيحية تبدأ تلقائية من الذات؛ بإبصار نفسك وحبها. إن من يجب نفسه ويبصر أخطاءها سيحاول أن يعدها عن الزلزل والوقوع في المكاره، ومن يمكنه الاجتهاد مع نفسه في تغييرها؛ سيتمكن حتماً من تغيير مجتمعه، وربما يساهم في تغير الإنسانية قاطبة، ولكنّ عصرنا

يا بُني هو عصر الآلة. العصر الذي نعيش فيه يدفعنا لتتخذ الآلة مثالا،
وربما إلهًا. إنه عصر قائم على آلتين اثنتين.

- آلتين اثنتين؟

- نعم، هناك آلة صامتة صمّاء كالمحراث والجرار، وهناك آلة ناطقة
تحوي بين ثناياها روحاً ناطقة. ذلك هو العبد والعامل اليدوي، وهو الذي
يصنع الحياة بيده. يحرث ويزرع ويعمل ويبني... هذا هو السبب الحقيقي
وراء الثورات. احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، والنظر للناس نظرة دونية
أو فوقية من قمة هرم. يُوصَى الإنسان ألا يكون كقمة جبل يرى الناس
صغاراً فيراه الناس صغيراً.

- هذا دور عصر التنوير. نعم هو دور الفلاسفة الآن، دور العلماء.
يقولون إن العمل الجدي هو الأصل، والعامل هو صاحب الدور
الأقوى، أما صاحب الدور الفكري، فيأتي في مرحلة متأخرة.

- لا أظن أن ذلك سيمتد أيضاً. الأيديولوجيا ليست مطلقة.
الأفضلية بين العالم والعامل نسبية. لا يمكن لأحد أن يحقق مآربه وأهدافه
دون الاتكاء على الآخر. هي عملية تكاملية نحو حضارة إنسانية.

- الظلم أياً كان نوعه، لا يعبر عن الاستقرار المجتمعي أو الطبقي. يقيه
في مرحلة الغليان، أي أنه يظل دائم البحث والتحري عن الاستقرار.
الثورة التي لا تحقق أهدافاً سامية للبشرية تطيح بها ثورة مضادة، إحقاق
الحق يعني الاستقرار، أما إخفاق الحق فهو محنة وأزمة متواصلة.

وضعتي النقاش معها في حيرة جديدة. عندما ازدهر المثلث البغيض؛
ازداد الغني غني، لدرجة الفحش، وتحول العامل إلى آلة حدياء، وعندما

أصبح العاملُ صاحبَ أولوية وصدارة؛ أبدت أمي تحفظها على الوضع القائم. لا يمكن إنكار دور الفكر والمفكرين. كيف لعمال مصنع أن يمارسوا عملهم، ويتجوا بتقنية عالية دون علماء يهتمون بالجانب الفكري؟ أتمنى أن أجد في رحلتي للشرق إجابات مختلفة عن كيفية التعايش بين الفكر واليد العاملة، بين النظرية والتطبيق، وكيف يستطيع الإنسان أن يحافظ على حق التملك الشخصي دون تهميش للعامة والفتة الكادحة؟ كيف يحافظ البشر على حق التملك الفردي في موازاة حفظ الجماعة؟

كانت مؤمناً عندما أعاد نظرية الوجود للغيب. قال إن الغيب هو العلم الذي يؤسس ويتجاوز كل العلوم الممكنة، وأنه لا يوجد في المعرفة عقل خالص مطلق، كما أن الغيب في ذاته ليس غيباً مطلقاً، بل هو وجودٌ غير مرئي للعين البشرية، أما المعرفة فإنها تتكون من مادة يتولد عنها صورة في الذهن البشري، وعليه فإن الكون هو المادة وصورته في فكرنا هي المعرفة، وعندما يُطبق ذلك في عالم ما يُعرف بالحب والغرام؛ يكون تبعاً لذلك أمراً سهلاً. إن المرأة - عموماً - ومنها كارينا هي الأصل وحبِّي لها هو المعرفة. إنها مادة حقيقية أصبح لها صورة متخيلة في نفسي، صورة معرفية تقرّبها من النموذج الذي أصبو وأرمني إليه. هل أعدّ حبِّي لها ليس متعلقاً بما تحمله هي في ذاتها بل في تركيبها الفكري؟ نحن نرى الحبيب ونكوّن له هالةً حسب الصورة التي نرغب في أن يكون عليها شريك حياتنا. نتعلق بهذه الصورة ونوهم أن ذلك ما يسمى الحب. أراني أتصور كارينا هي المرأة التي يمكن أن تمدني بحنان أمي. هي التي تدرك احتياجاتي ومتطلباتي. أي كارينا، هل ذلك حبك؟! أجد الحب كالدين في بعض أجزائه لا يخضع للعقل.

- أمي، هل تحبين كارينا؟

- بالطبع.

- هل تحبينها لذاتها، أم وجدتِ فيها ما يحتاج إليه ابنك؟

- أنا أحترمها كثيراً، ولكنها لن تعني لي شيئاً إن لم ترتبط بك.

تيقنتُ - عقلاً ووفقاً للمقياس الكائني - أن الحبَ دينٌ لا يُقاس

بالعقل. هو نوع من الغيب نبي عليه فكراً ومعرفة، من خلال رؤية نحتاج

إليها ونتمناها. وعدتها بحبٍ أبدي نبي من خلاله أسرة!! أظنني أخدع

نفي وأخدعها.. ربها.



(15) عميد آل جبور

مايو 1761

عادة ما تخلو الديار من رجالها خلال موسم الغوص الكبير، لا يبقى فيها غير كبار السن والعجزة والنساء والأطفال، يضاف إليهم أصحاب المهن الثانوية؛ كالمزارعين والتجارين وسواهم. تُقدر السفن التي تخرج من دلمونيا خلال موسم الغوص بمائة وخمسين سفينة، وعندما تخلوا الديار؛ فإن الحاكم ورجال مجلسه من تجار وغيرهم يُنفذون مآربهم وأهدافهم المؤجلة. يحاولون ترميم الأصنام التي بداخلهم عبر النيل من كل من يقف في وجه تحقيق أهدافهم، أظنه نظامٌ شمولي متلط، يعمل على التآزيم الاقتصادي والمعرفي والسياسي والاجتماعي. بديهياتٌ كلها تجعل الوضع القائم متعباً ومرهقاً لجميع الأطراف؛ ففي صباح الأحد - أي بعد يومين فقط من بدء الغوص - أقبل رجال التاجر يطرقون بابنا طرقاتاً عشوائياً مستمراً تنقبض له الروح. فتح لهم راشد:

- نعم، ماذا تريدون؟

- نريد جدّكم عميد آل جبور.

لم ينتظروا حتى يُفصح لهم راشد الطريق، فاقتحموا البيت، حتى أقبلوا داخل المجلس، وبلا تحية أو سلام.

- أيها العجوز، أنت مطلوبٌ للمثول أمام القضاء.

لم يصبني حضورهم ولا طلبهم بالصدمة، ولأن الظالم لا ينام قرير عين؛ كنتُ أتوقع زيارتهم التي تأتي بتخطيط سبق أحياناً، ولكن - في غالبها - عشوائية متخبطة.

- وما هي التهمة الموجهة لي.

- لا نعرف حقيقة الأمر، ولكننا نعتقد أنها تهم متعددة، ومنها: تهمة التحريض على عصيان الحاكم والمجلس المعين، وتهمة اختراق الأمن الوطني. نحن لا نملك الصلاحية للنقاش حول ذلك. تفضل معنا لمجلس القضاء وهناك ستعرف التفاصيل كلها.

حاول راشد أن يساعدي على الوقوف والمشي معهم، لكنه لم يستطع. حملني رجال التاجر وربها كانوا من رجال الحاكم نفسه. لم أستطع أن أميزهم. يرتدون ملابس محلية لا شيء فيهم مختلف غير الهراوات والبارود. حملوني للعربة الخشبية التي يجرها حمار أبيض. وتحت أعين الجيران ووجومهم، سرنا باتجاه مجلس التاجر. أصاب حدسي هذه المرة. أدخلوني مجلسه متكئاً عصاي وأحد الحرس العتاة. وجدت التاجر يجلس على كرسي خشبي عريض، وعلى يمينه ذات القاضي، بينما جلس كاتب العدل على يساره. ألقى التحية وجلت على يساره. رفع التاجر صوته بغلظة:

- كما تجد أمامك المدعي واقفاً، فإن عليك الوقوف أيضاً أمام القضاء كمدعى عليه. الناس في دلمونيا سواسية كأسنان المشط أمام القضاء.

أقبل أحد الحرس ناحيتي. ساعدي على الوقوف من جانبي، وقفتُ كما طلب مني، ثم تحدث القاضي:

- يتهمك أحد المزارعين بسرقة بتانه وبيط نفوذك عليه دون وجه حق. إن المزارع يقف أمامك مع شهود الإثبات، وفي حال ثبوت الإدانة عليك؛ فإنك ستقضي بقية عمرك خلف القضبان. أنت كما تدعي تعرف القصاص في قضايا السرقة، والتي قد تصل لحد قطع اليد.

نظرتُ إلى المدعي، فلم أتذكر أبداً أنني رأيتُه من قبل. عاينتُ الشاهدين فبدأ وجهها مألوفاً. لا يحضرنى أين رأيتهما ومتى كان ذلك. عرفتُ أنها مكيدة؛ بحيث يكون أبو راشد في البحر ووالده في السجن؛ فتخلو الساحة

للتاجر من أي صوتٍ معارض، ثم تُفرض قرأ حالة الوضع القائم. توجه القاضي بسؤال المدعي:

- هل تهم هذا الرجل المدعو بعميد آل جبور بسرقة بستانك؟
- نعم، لقد سرق بستاني. ولديّ شاهدان على ذلك، وسنُقيمُ جميعاً متى ما طلبتم ذلك.

- ماذا تقول أيها العجوز؟

- حضرة القاضي، نعم أنا وضعتُ يدي على أحد البساتين، ولكنني لا أعرف صاحبه. لنذهب جميعاً - ومن وقتنا هذا - إلى ناحية البستان المذكور، فإن كان هو البستان الذي وضعتُ يدي عليه فهو لهم، يعيده القضاء لهم وأنا أقرُّ وأجزم بالموافقة على ذلك، وإن لم يكن ملكهم؛ فيجب على القضاء أن يهبه لي حالاً.

تساور القاضي مع التاجر، وأدركتُ حينها أنها غواية مدبرة، وأنها سقطا في الشرك الذي أراداه لي؛ طلب القاضي تأجيل القضية لحين دراسة ملبساتها. أعادوني مرة أخرى للبيت. استقبلتني خولة وراشد والبقية بالدموع، هدأتُ من روعهم، طلبوا بدافع الفضول معرفة ما جرى في المحاكمة، الفضول في بعض جوانبه محمود، وهو الباب الأول للمشاركة، آثرتُ ألا أخبرهم وأن أغوص في باب آخر يستفيدان منه مستقبلاً. أخبرتهم أنني أريد أخذ قسط من الراحة، وأردفه بالصلاة شكرًا لله.

وبعد سويعات، أحسُّ بالوحدة مجددًا، فعدتُ إلى خلوتي لأفكر. شعرت كالعادة بالمسؤولية التي يجب أن تُبقي التاريخ موثقاً في وجدان العائلة. أجد تدوين أحداث دلمونيا ضرورة، لعل أحدهم يستطيع أن ينشرها لكل العالم مستقبلاً. إنني أعتقد أن التاريخ حمأل أوجه حسب المؤرخين؛ فكل يدعي مطلق المعرفة، ويختزل العلم والحق إلى جانبه. أما من يدرك

ثقافة التعدد فإنه يقبل بالتوافق. ما إن يفند الناس بعض أوجه التاريخ، إلا ونجد من ينادي بإعادة كتابته. هناك نوعان للتاريخ؛ تاريخ كتاب يمكن تزويره، وتاريخ تراب كالأثار والتواتر، حيث لا يمكن التلاعب فيه، لذلك كان لزاماً علينا أن نقله مكتوباً ومتواتراً؛ ليكتب مصداقية أكثر.

حينها طلبت من راشد أن يشاركني الحديث، ويوثق في ذاكرته البيضاء تلك المصائب التي رسمت أحداث بلاده، وغمرت بدمائها أجداده. أقبلت خولة بمعيته إلى مجلسي. أدركت ما أريد فأجبت الاستماع وأتقت فن الإصغاء..

- نعم يا جدي.

- اقترب مني أيها الحبيب. كما تعلمت القرآن، فإنه يجب عليك أن تتقن القراءة والكتابة، تماماً كما فعلت قبلك أنتك خولة. في الغرفة الكبيرة هناك، تكدرس كثير من المخطوطات والكتب التي عليك أن تقرأها متقبلاً، وتتخلص العبر منها.

- سأفعل يا جدي، سأفعل ما تريد.

- سأشي لكما اليوم بتاريخ أجدادكما.

- عفواً يا جدي. إنني أريد معرفة سير رجلك المقطوعة، وما حدث لك صباح اليوم.

- سيخبرك عن أمر رجلي والدك، وسأخبرك قريباً عما حدث صباح اليوم، ولكن الأكثر أهمية أن أخبرك الآن عن جدي أنا.

- جئك؟

توقفتُ هنا لفترة، أريد فيها ترتيب أفكارني التي حفظتها لكثرة مراجعتي إياها. إن توثيق الذاكرة متعب حقاً، ولكنّ البوح به يفرغها من

حمولة زائدة. قررتُ أن أسرد بعضها لأول مرة، ولا بد أن أكون دقيقاً من أجل حفظ التاريخ.

- لقد كان جدي هو الحاكم الفعلي لجزيرة دلمونيا قبل دخول البرتغاليين إلى أرضنا واقتحامها بالقوة، فبعد أن استقروا في هرمز لما يقرب من خمسة عشر عاماً، قاموا بغزو دلمونيا عام 1521 ميلادية. كان جدك الكبير هو قائد المقاومة. المقاوم الحق هو الذي لا يستصغر سلاحه على بساطته. أصبح يؤمن بالقدرة على المواجهة، أقبل جيشهم علينا فيما يقارب من 400 جندي برتغالي متمرس. يساعدهم 3000 هرمزي مدرّب. واجههم في القلعة الشيخ مقرن آل جبور وساعده الأهالي الذين قُدّر عددهم بـ 11000 مقاتل. تحصنوا في القلعة الكبيرة الواقعة شمال الجزيرة. عمد البرتغاليون إلى محاصرة القلعة بذخائرهم الحديثة والكثيرة، فيما كان الأهالي يستخدمون أسلحة بدائية وباروداً نفذت كميته مع الوقت. لم يعفهم الوقت، فقد كان يستغرقهم أسبوعاً للوصول شحنة جديدة.

- وماذا فعل جدنا الكبير مقرن؟

- لما نفذ البارود، استعصم جدنا بالقلعة وانخذها حصناً له، وأبى أن يُسلم رقاب قومه للغزاة. أطلق القناصةً عليه وابلأ من الرصاص، فأصابته ثلاثٌ في كفه، وبقي يتزف وقتاً طويلاً على أسوار القلعة حتى وافته المنية⁽¹⁾.

- وماذا أراد البرتغاليون يا جدي؟

تريثتُ مجدداً؛ فالسؤال جوهرى، وكنتُ أخشى ألا يستوعبني راشد. لقد كان النظام السائد حينها ثلاثي الأبعاد، يصعب استيعابه والقبول به؛

1 - تم قطع رأس مقرن آل جبور، ورُسم رأسه، وأرسلت صورته هدية للملكة البرتغالية، ولا زال يُحتفظ بالصورة في أحد المتاحف هناك. (المترجم).

فقد مثل البرتغاليون في هرمز أرستقراطية قديمة متأصلة، وقادوا نظاماً رأسمالياً مستبداً، في مقابل نظام قبلي قائم هنا، يتزعمه مقرن آل جبور، بينما كان البدو الرُّحَّل يترقبون ما ستسفر عنه المواجهة⁽¹⁾.

- وهل كان البرتغاليون عرباً كأجدادنا؟

- كانوا أوروبيين غزاة، يقطنون جامبرون وجزيرتي هرمز وقشم. ذلك الساحل الذي كان العرب أيضاً أغلب ساكنيه. كان الفرس الصفويون يقطنون في الداخل، أما الساحل فصار للعرب الذين تحولوا مع الغزاة للساحل الغربي.

- وماذا يريد الأوروبيون من أرضنا؟

- ذلك يا بني ما يُعرف بالغزو. كانوا يريدون اختبار قوة آل جبور، ومدى قدرتهم على الصمود والمقاومة. أرادوا استعباد الناس وتحصيل خيراتهم. فرضوا نظام الضرائب على المنتجات والمحاصيل القادمة من الأرض والبحر. إن استعمار البرتغاليين في تلك الحقبة يُعدُّ من أسوأ ضروب الاستعمار؛ فقد كانوا يأخذون الضرائب على كل شيء؛ بدءاً باللؤلؤ ومروراً بالزراعة والمواشي، حتى وصل الأمر لفرض ضرائب على روثها، ولكن كان الخوف نديماً يلازمهم دائماً؛ فقد خافوا أن يتحالف آل جبور مع الأتراك العثمانيين، ويقوضوا سلطانهم ويخربوا دخلهم الضريبي، أو يعلنوا عن اتفاقيات مع الموحدين والقراصنة وغيرهم.

تدخلت خولة بسؤالها:

- وهل أذعن أهلنا وأسلافنا للوضع القائم حينها؟

1 - تمّ تحوير الكلمات والجمل في الرواية بما يناسب ذائقة القارئ في العصر الحالي (الترجم).

- لقد تحصن البرتغاليون في القلعة خوفاً وجشعاً. لم يغادروها إلا لجمع الضرائب. لم يخالطوا الناس أبداً. ولربما كان لهم تدخلات في النظام القضائي أو غيره، ولكن أهلنا جمعوا شملهم وقاموا بعد ثماني سنوات بحركة تمرد واسعة النطاق، غير أن الحركة قُوِّضت بسبب الخيانات والمؤامرات الداخلية، فهناك من العرب من ارتضى في حضن العدو طمعاً في نصيبه وخوفاً من وصول بني قومه للحكم. هناك من الجبناء من يتأثر بالوضع القائم، فلا يفكر إلا في مصالحه الشخصية على حساب المصلحة العليا لقومه ووطنه. هم العرب يا بني، يتحالف الأخ مع الأجنبي ضد أخيه رغبة في مصلحة آنية، ولكن حين الحساب، تصبح الخسائر فادحةً عامة وتعمُ الجميع.

- وكيف انسحب البرتغاليون يا جدي؟

- إن الثورات المضادة، والحركات التغييرية التي قامت على تراب هذه الأرض الطيبة، كانت تُضرب من الداخل، ولا يأتي التغيير الفعلي إلا من الخارج. هذا الوضع القائم هو نتيجة حتمية للتركيب السكاني والنفسي لأهالي هذه الجزر. لقد جاءنا الفرج حينها من عدو الأمس الذي شارك مع الغزاة. جاءنا من بلاد فارس نفسها؛ فقد قتل البرتغاليون أخ القائد المعروف ركن الدين القالي الهرمزي، فطالب الرجل حينها بالشار والقصاص لدم أخيه. اشتعلت الحربُ هناك بمساندة الإنجليز والفرس، ثم سقط البرتغاليون، حتى أعلنوا انسحابهم النهائي عام 1602. كان تاريخنا ضارباً بجذوره في هذه الأرض المعطاء، وكان نورُ الإسلام يشع من مشهَدٍ ومسجد دلمونيا الذي يُعرف الآن بمسجد الخميس.



(16) المترجم

سبتمبر 1761

انطلقت الرحلة على متن سفينة غرينلاند من ميناء كوبنهاغن، في صيحة يوم الأحد من الأسبوع الأول لشهر سبتمبر عام 1761. رحلة لاقتحام المجهول وكشف الغموض. كانت السفينة كبيرة من نوع الغليون، التي تتميز بمؤخرة بارزة شبه مربعة، ولها حصانان؛ أمامي وخلفي، وسطح مقوس، يمتد من الأمام يُعرف باسم (الدقل)، ومقدمة نحيلة طويلة تُسمى (القنة)، تشبه رأس كبش، كما أنّ لها أربعة صواري، أولهم أمامي، وثانيهم رئيسي كبير، ثم جانبيان يمتدان للخلف. ولم يكن في السفينة غير مدفعين جانبيين، يتخدمان للحماية وقت الضرورة فقط، فتطلق السفينة نيرانها من كوات جانبية في جد الغليون الذي يبلغ طوله خمسة وأربعين متراً، وعرضه خمسة عشر متراً تقريباً.

تحتل السارية مركز السفينة، وتتوسطها كالسهم الساقط من السماء على القلب، وتحمل شراعاً عملاقاً يأخذ شكل أشعة مثلثة متجاورة، وكلما عانقت الهواء؛ انطلقت السفينة الخشبية الحمراء مندفعة بحشاً عن آفاق جديدة وآمال سعيدة. كان لحضور الملك إبان الانطلاق والإبحار وقعٌ عظيم على الجانبين الرسمي والأهلي، رافقه رجالٌ ساسة ودين يمثلون الحكومة والكنيسة، كما تشرفت الحملة بحضور أساتذة جامعات وجمهور شعبي كبير. يشعر المراقب أنها ليست رحلة عادية، إنما هي حملة استطلاعية استشرافية للمقبل. قراءة طالع، وحظ أو كف. خطوة متفتح الآفاق البعيدة. كأن السفينة خيلٌ بحري معقود بنواصيها الخير. اتخذت الطريق

المُعَدَّة لها بدقة سلفاً. بدأت انطلاقها من بحر الشمال مروراً بالقنال الإنجليزي، ثم التفافاً حول المياه الإقليمية لاسبانيا والبرتغال حيث شواطئ المحيط الأطلسي، ومروراً بمعبر مضيق جبل طارق، ووصولاً إلى مرسيليا الفرنسية مركز الاستراحة الأولى.

أرخت السفينة أشرعتها بعد شهرين على سواحل فرنسا، حيث ميناء مرسيليا القابع على الساحل الجنوبي المطل بدوره على البحر المتوسط. عُرفت هذه المدينة بحصونها الدفاعية. كانت في ترقب دائم مرهق، فانتظار البلاء أشد وطأة من الولوج فيه. اشتهرت المدينة بموسيقاها وبالأغاني الثورية (لامارسيز). تقع المدينة على شاطئ هلالي نصف دائري. لريكن مقرراً سلفاً أن يمكث الرحالة في مرسيليا غير أسجوع واحد للراحة. تتخلص السفينة خلالها من بعض المسافرين، وتحمل على ظهرها آخرين، ثم تزود بالذخيرة وتعيد ملء مؤونة أخرى. واستغلالاً للوقت المتاح؛ طمع الرحالة - حينها - في زيارة كنيسة روتردام دي لا جارد للصلاة فيها والتبرك بها. كان العامة منهمكين في حياتهم، ويتطلعون لتغيير بيدل أوضاعهم. التطلع للهدف خطوة أولى لنيل المراد، ولكن الترقب كان ديدن الناس، والحديث المتوهج عن التغييرات السياسية والاقتصادية يمثل هاجساً لأهالي المدينة.

غادرت الحملة مرسيليا عبر البحر المتوسط؛ البحر الذي يتوسط قارات العالم القديم. توجهت إلى حيث تلتقي قارتان في مدينة واحدة لا يفصل بينهما غير مضيق يُدعى البوسفور. إنها إسطنبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية. حطت الرحلة رحالها هناك بعد شهور طويلة من التنقل والإبحار. استقبل الرحالة وفدٌ رسمي يمثل السلطان العثماني. البروتوكولات تمثل الانطباع البدئي والصورة الحضارية للدول. نُقل

الرحالة إلى قصر السلطان الذي وعدهم بتقديم يد العون والمساعدة لتطلبتهم، ثم أمر مساعديه بأخذ الرحالة لمشاهدة معالم المدينة. دخلوا مسجد السلطان أحمد وآيا صوفيا وبعض ما تفخر المدينة به وتشتهر. خُطت من أجل نقل الصورة الحضارية للدولة العثمانية، وتوثيقها في كتب التاريخ. لبثوا في ضيافة السلطان مصطفى الثالث الملقب بالباب العالي، وهناك عاينوا بعينهم ما يعرف بالبردة الشريفة والقضيب وسيف ذي الفقار⁽¹⁾.

دعا السلطان أعضاء الحملة لوجبة غداء على شرفهم في الباب العالي، وبحضور كبار رجال الدولة وممثلي السفارات الأجنبية، ومنهم سفير الدنمارك والنرويج، كما دُعِيَ كبارُ قواد الجيش وبعضُ الأعيان والتجار. خرج الرحالة بمعية الحرس. ذهب أحدهم لإحضار آدم، فلم يجده. توقعوه قد سبقهم إلى الباب العالي. بدأ الاحتفال بكلمة للقصر وترحيب بالضيوف، ثم اعتلى رئيس الحملة المنصة شاكراً السلطان وكل الحضور. شرح طريق الرحلة ومساراتها الفرعية ومدتها وأهدافها، ثم شرع في شرح أهداف الرحلة التي ستصب في مصلحة البشرية جمعاء. كانت عيناه في بحث دؤوب عن آدم الذي لم يكن بين الحضور. أنهى كلمته، جلس إلى جانب المائدة، لم يستطع أن يأكل، تسلل إلى السلطان، وأسرّه عن اختفاء زميلهم.

أمر السلطان رئيس القصر بالبحث عن الرجل المفقود. أغلقوا أبواب القصر، فلم يعبر أحدٌ للداخل أو الخارج إلا بعد تحقيق وتمحيص. خرجت مائدة الطعام بعد ساعة، ثم بدأ المدعوون مغادرة القصر. استشعروا حالة طارئة، حتى أصبح الأمرُ علناً: اختفاء أحد الرحالة في قصر السلطان،

1 - البردة الشريفة هي بردة النبي محمد (ص)، وتوجد حالياً في متحف الباب العالي في إسطنبول.

والبحث جارٍ عنه. في المساء، انتهى البحث في كل أرجاء القصر، ولم يجدوا له أثراً. حينها أعلنَ البحثُ عن الرّحالة في أرجاء إسطنبول تحت شعار: البحث عن ضيف السلطان المفقود. أمرٌ غير متوقع قد يقوِّض الرحلة ويقض مضجعها، ويغير خططها وأهدافها.

انتشر الأمر في أقاصي المدينة، وانقضت ثلاثة أيام، ولم يجدوا أثراً أو ذرة غبار تدل عليه. أصبح لزاماً على القائمين الإعلان عن اختفاء ضيف سلطان الدولة العثمانية بعد صلاة الجمعة في جميع مساجد إسطنبول. صار واجباً على بقية الرّحالة عدم التحرك إلا بحرّسٍ أمني، وبتصريح من رئيس العس الذي تحدث إليه رئيسُ الحملة:

- نريد أن نحضر صلاة الجمعة التي أعلن عنها السلطان.

- لكم ذلك، ولكن بشرط أن تكونوا في حماية العس.

- اقترح الرّحالة أن يحضروا خطبة الجمعة، والصلاة في مساجد مختلفة، لعلهم يأخذون فكرة حول الهندسة العمرانية للمساجد، وكيف تمّ تحويلُ بعض الكنائس إلى مساجد.

أخذ رئيس العس على عاتقه توزيع الرّحالة إلى مساجد مختلفة، ولم يبق معه غير رئيس الحملة والخادم. قرّر أن يأخذهما إلى جامع السلطان أحمد، والمعروف بالجامع الأزرق. قرّر رئيس الحملة أن يقوم بجولة داخل معالمة قبل أن يجلس في الخارج أثناء الصلاة، ويقوم برسمه. حينها جلس الخادم في الفناء العملاق. التقت عيناه عيني رجل يرتدي عمامة بيضاء، تدلّ على وجهه وتغطي حاجبيه. يرتدي ديباجاً عثمانياً، يتكون من قمماش الحرير، ويدخل في نسجه خيوطٌ ذهبية وفضية، تميز بروعة ألوانه وجمال زخارفه التي تبدو فوق القماش. بدت أشكال النجوم والأهلة وخاتم سليمان

تميزة. كان الرجل يتأبط نعليه، وعندما بدأت خطبة الجمعة؛ أصبح الحضور متوجهاً إلى خطيب المسجد، وكلما نظر الخادم باتجاه الرجل؛ وجده يترق النظر إليه. توجس خيفة، وأصبح يبحث بعينه عن رئيس العسس، ولكن لم يجده. ازدادت نبضات قلبه عندما اصطف الجميع وبدأت الصلاة.

- إنها فرصة سانحة للحركة مادام الجميع يصلي. لا أظنه سيتبعني بعينه، أو يتقدم باتجاهي.

وبعدما بدأت الصلاة، وركع المصلون جميعهم، استدار الخادم جهة الرجل، فوجده واقفاً. صدره باتجاه القبلة، ووجهه في اتجاهه. بان الخُرْجُ الذي على ظهره ممتلئاً. أوجس خيفة، ماذا يحمل هذا الرجل على ظهره؟ "السلام عليكم ورحمة الله". فرغوا من صلاتهم. أخيراً وجد الخادم رئيس العسس ممسكاً بيد رئيس الحملة، وهما يتجهان للبوابة الجنوبية. نظر الخادم خلفه فوجد الرجل يسير على بعد ثلاثين متراً منهم. ركبوا العربة الأولى التي يجرها الخيل. وقفت العربات أمام القصر. نزلوا. وجد الرجل ينزل - أيضاً - من العربة الثانية. اقترب منهم. أزاح لثامه ورفع عمامته، وقال:

- نجحتِ الخطوة!

صرخ الثلاثة بصوت واحد.

- آدم، أين كنت؟ إسطنبول تبحث عنك.

- لم يكن بإمكانني رسم هذا المسجد العملاق، إلا بالبقاء فيه أربعة أيام كاملة. إن المبنى الحجري هو واحدٌ في تصميمه وهيكله، ولكن هيكله يختلف عند وقت الأذان أو الصلاة. هناك حياة تنبض في الحجر قبل البشر. لم يكن ممكناً رسم المسجد خالياً من المصلين؛ لأنه يختلي من روحه أيضاً.

أخرج الخرائط من الخُرْج الذي على ظهره. وضعها أمامهم.

- انظروا، هنا السور الخارجي الذي يحيط بالمسجد من ثلاث جهات، وهنا الأبواب الثلاثة الخارجية التي تقود لصحن المسجد، وهنا البوابتان الداخليتان المؤديتان للمسجد ذاته. يلاحظ في الصحن هذه القبة القائمة على ستة أعمدة، أما المسجد ذاته فتغطيه قبة كبيرة تقوم على أربعة أنصاف قب، لها منافذ للضوء، وهنا تقوم المآذن الست العملاقة، التي تجعل المسجد في تكوينه خليطاً بين الحصن والمسجد. يطلُ محراب المسجد على البحر، وهو ما يعطيه مساحةً مفتوحة، ويعطي المصلين فضاءً يُشعرهم بالآلآ نهائية، وأن الصلاة ترفعهم لعالم السماء.

أبهر الرسمُ رئيسَ الحملة وأشاد به وأخذهُ الذهول عن معاتبه زميله. أما الخادم فأشاد بقدره آدم على التنكر في اللباس العثماني الذي تمكن به من التحرك بحرية وعفوية لإكمال المهمة. بدأ الإجهادُ على جسد آدم نتيجة للفر الطويل، وللمهمة التي قام بها مؤخراً. اقترحوا عليه الراحة في انتظار الرحيل بعد يومين.

لم يُشفَ آدمُ من الإجهاد؛ فأصابه المرض. بعث السلطانُ طبيه الخاص لمعايته. أصيب الشابُ بمرض ضيق التنفس. نصحه الطبيب بالراحة ومتابعة العلاج؛ فتقرر بقاء الحملة في إسطنبول لشهرين. بعد أن اطمأنوا على وضعه الصحي، وأوشكوا المغادرة ومواصلة الطريق، دعاهم السلطان لقصره مرةً أخرى. سأل السلطانُ آدمَ حول أكثر ما شدَّ انتباهه، وحدث له خلال بقائه أربعة أيام في المسجد:

- وجدتُ الناسَ يجتهد في صلاتها. وكما في المسيحية، أظن أن الصلاة معراجُ الإنسان إلى ربه. الصلاة الصادقة تعرج فيها الروح والفكر والضمير والقلب، وهنا وجدتُ الخشوع عند بعض المصلين؛ حيث ينسى المصلن

جسده وينتقل إلى عالمه الرباني. يكون في اتصال مع المعاني الكبيرة الممتدة في رحاب خالقه. تفتح روحه على الأخلاق العظيمة، وترفع عن القضايا الصغيرة؛ عن الأمور التي تثير الصغائر؛ فتضعف الإنسان أمام الضغوط والإغراءات، وحينها ينسى خالقه ويقوى الشيطان. هذه قيم كل الأديان، ويجب أن يعلم الناس جميعاً أن الإنسانية في كل دين.

أوما السلطان برأيه ثلاثاً، نظر في عيون الحاضرين. أصبح الصمتُ سيد المكان. وضع إصبعيه السبابة والوسطى على أعلى جبينه، كأنها يحك بهما مصباح عقله، أمعن الحضور النظر في السلطان، بدت العمامة البيضاء أكبر من رأسه حدّ الضعف، وُضع فوق العمامة ريشة طاووس عملاقة، أقرب للون الذهبي، أما لحية المائلة للبراد، فبلغ مقدار أربع أصابع، ويلتف فوق فمه شارب ضعيف، كان معطفه الأبيض مزركشاً بخيوط ذهبية، ويخفي تحته بطانة بنية اللون ضيقة عند المعصمين، كان في صمته مهاباً، انتظر الحضور كلماته حتى قال:

- قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽¹⁾. يمثل الصبرُ الموقف القوي الذي يحكم الإنسان من خلاله على نفسه، منطلقاً من إرادته ومن إيمانه، أما الصلاة فهي سلوك حركي وإيماني يذكر بالله تعالى. ترتفع الأرواح خلال الصلاة إلى خالقها، فيعيش الإنسان في أجوائه، ويسبح في أطافه ونعمائه. تكون الصلاة على غير الخاشعين عبئاً ثقيلاً؛ فتصبح واجباً جامداً وفريضة مفروضة. تلك هي الصلاة، التي امتشعر معناها آدمٌ دون أن يبارس طقوسها. أرنار سوماتك للمسجد يا آدم.

1- البقرة: 45، 46.

وضع آدم الرسوم بين يدي السلطان. أخذ يعاينها. سأله إن كان يحمل أدوات للقياس، أجاب آدم بالنفي، وأوضح أنه اعتمد على الفطرة في تقدير القياسات، أطرى السلطان على قدرات آدم وتبأله بشأن كبير وأحلام ممكنة.

بعد ذلك اللقاء التوديعي والاطمئنان على شفاء آدم وسلامة الحملة، أعطى السلطان وصاياهم. نصحهم بأن يرتدوا الملابس العربية من ساعتها؛ بحيث يمكنهم اللجوء إلى مثلي وولاية الدولة العثمانية في الشرق. أفاض السلطان عليهم بكرمه ودفء أخلاقه؛ حتى امتشعروا بتبنيه للحملة، ورغبته الشديدة في نجاحها.

رحلت القافلة صوب وجهتها القادمة. ساروا متقلبين بين بحر وبرز، على ظهر دابة وظهر سفينة. وصلوا بعد شهر إلى بحر إيجه؛ حيث وطأت أرجلهم جزيرة بكرأ. جلية الداخل رملية الشواطئ، بلورية المياه تُدعى ساموس⁽¹⁾. تقع هذه الجزيرة في اليونان، وفي الامتداد الساحلي غير البعيد عن إسطنبول، ثم ساروا باتجاه رودس. اقترح الرئيس أن يبقوا ثلاثة أيام فيها، في ضيافة الوالي العثماني. سمعوا عن تمثال أبولو رودس الذي يعد من عجائب الدنيا السبع، فقد كانت تُشعل عيناه بالنار؛ ليكون دليلاً للسفن المبحرة ليلاً. طلب رئيس الحملة من آدم أن يرسم ما بقي من تمثال أبولو رودس. توجه في الصباح الباكر ناحيته. وجد عدداً كبيراً من الناس قد التفوا حوله، فيما تعلق التمثال من الداخل بعض العمال لتغيير الشعلة الليلية. باشر في رسم التمثال ولما نزل أحد العمال سأله:

1 - جزيرة يونانية شهيرة توجد في بحر إيجه. وُلد فيها عالم الرياضيات المعروف فيثاغورث.

- ما الذي يميز هذا التمثال؛ ليُعرف ويصنف على أنه من عجائب الدنيا السبع؟

- الماديات عادية في مجملها، ولكنّ الكيفية التي ننظر بها للمادة تعطيها صورة متخيّلة. وإذا توقف الخيال عن الامتداد وشعر بالشلل؛ فحينها تكون المادة من العجائب.

- هل أنت عاملٌ أم فيلسوف عالم؟

- العالم الذي يرى غضاضة في العمل هو جاهل.

- وهل تعني أنه خلال بناء التمثال لم يكن يتوقع له أن يكون من عجائب الدنيا؟

- نعم، قبل الإنشاء تكون هناك صورة فكرية لما سيكون عليه التخييل، فإذا كانت النتيجة مقاربة للمتصوّر سلفاً؛ فإنه يكون عادياً، ولكنّ هذا التمثال أصبح نهاية الخيال.

أعاد كلامُ العاملِ الفيلسوف آدمَ للوراء: إنّ كارينا فتاة طبيعية عادية، إذا تخيلتها في صورة تقترب من الخيال يُولد حينها إعجابٌ، هذا الإعجاب يُدعى الحب.. وربما يكون الحب التقاء روحين تهفوان لبعضيهما. لا أشعر بذلك معها. أشعرُ أنّ روحي تهفو للشرق. ربما هناك سحرٌ يلتقطني، هل يكون ذلك حينها هو الحب المنشود؟

طبع آدم التمثالَ في مخيلته، وواصل رسمه ومخططه إبان طريقهم الطويلة في البحر المتوسط باتجاه ميناء الإسكندرية؛ تلك المدينة الممتدة طويلاً على ساحل البحر المتوسط. ذكّر رئيسُ الحملة زملاءه بعدما أوشكوا أن يبلغوها:

- كما تعرفون من خلال دراساتكم؛ فقد سُميت هذه المدينة بالإسكندرية نسبة لمؤسسها الإسكندر الأكبر الذي اتخذها عاصمة لمصر، وبُنيت فيها منارة الإسكندرية التي تعتبر من عجائب الدنيا السبع المندثرة. ثم بنيت مكانها وعلى أثارها قلعة قايتباي الشهيرة على يد المماليك. استخدمت القلعة للوقوف في وجه التوسع العثماني الإسلامي، وكذلك التوسع الأوروبي، والذي يطلق عليه في الشرق بالتوسع الصليبي. علنا دراسة أهم معالم المنطقة؛ كلُّ حب تخصصه، ثم توجه جنوباً باتجاه بحيرة مريوط، قبل مواصلة مسير القافلة ناحية خليج أبو قبر.

تمكن آدم من زيارة قلعة قايتباي ورسم أشهر معالمها. تحيط المياه بالقلعة من ثلاث جهات. يتميز البرج بقدرته على اكتشاف القادمين من بعيد. هناك سور خارجي وسور داخلي لاستراحة الجنود، ومخازن للأسلحة وأخرى للمؤونة. القلعة المربعة في شكلها قائمة على ثلاثة طوابق، وفي كل زاوية يوجد برج نصف دائري، يتيح للرماة استخدام وتوجيه سهامهم. استخدم الطابق الأول كمسجد، والثاني كممرات وغرف داخلية، أما الثالث؛ ففيه حجرة كبيرة للسلطان نفسه، تمكنه من رؤية السفن من على بعدٍ مسير يوم واحد، وإلى جوار الغرفة هناك فرن وطاحونة؛ لإعداد الخبز⁽¹⁾.

بقيت الحملة في مصر بضعة شهور، ثم أبحرت عبر النيل في طريقها إلى شبه جزيرة سيناء. كان مخططاً لها زيارة جبل سيناء، الذي يقع وسط المثلث المحصور بين خليجي العقبة والسويس، ثم المبيت في سفح جبل موسى. بدأ رئيس الحملة يفضي لهم بمعارفه ورواؤه:

1 - تمكن الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت من السيطرة على القلعة والاسكندرية ثم جمع مصر عام 1798.

- متوجه غداً إلى جبل نبي الله موسى؛ حيث كلم ربّه عند الشجرة العليق وفقاً للديانات السماوية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والاسلام، ويقال إنه تلقى الوصايا العشر. يوجد بالقرب من جبل كاترين في الوادي المقدس طوى؛ حيث يحوي كنيسة ستزورها هناك، كما يوجد في المنطقة مسجدٌ صغير، وحسب المصادر التاريخية والدينية؛ فإنّه في مقابل هذا الجبل، كان يوجد جبلٌ آخر. انهار هذا الجبل بعدما سأل موسى ربّه كي يراه، فأمره بالنظر للجبل الذي اندك أرضاً حين تجلّى الله تعالى فوقه، كما أنني رأيتُ في نومي البارحة بحيرة جديدة يصب فيها بحران بعيدان جداً عن بعضيهما. رأيتُ في المنام التقاء رأس الخليج العربي⁽¹⁾ وبحر الشمال وتكوّن بحيرة جامدة بينهما.

استلقى الرحالة ماءً تحت سفح جبل سيناء. أراحوا بعضاً من حجارتهم. افترشوا رمال الأرض. الاستلقاء على الظهر والنظر إلى قمة الجبل ينقلك للسماء. تحدث الرئيس مجدداً وبدأت المداخلات تتعاقب تدريجياً، حتى أصبح الرئيس يصدح بصوتٍ دافئٍ قريبٍ في خشوعه من المناجاة والاستغفار، بوحٍ من النفس للنفس:

- لكل فعل عظيم إشارةٌ تبقيه، قد تكون حليماً أو رؤياً، وقد تكون تيهياً أو حدثاً. هنالك تيهات وإشارات تدفعنا للنعيش الحياة دون تفاصيلها. هذا الجبل العظيم إشارة لكل الإنسانية. مرّ من هنا الكثير من الأنبياء، عبر من هنا إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق وهارون، وعاش به موسى الكليم وغيرهم كثير، إنه إشارة على وحدة البشرية وعالية الكون، وأن الناس إخوة متشابهون، لهم من الحقوق كما عليهم من

1 - يُعرف في بعض الخرائط الرسمية باسم الخليج الفارسي.

الواجبات، إن وحدة الأنبياء تعني وحدة الخالق ووحدة البشرية. وإن الغور في التفاصيل يخلق الاختلاف، يجب البحث في المتشابه وتقوية أواصر الحب مع الغير، ومن لا يفقه ثقافة الاختلاف تضيق به الدنيا فيفند الآخر وينفيه. يبحث في خلاف ديني وخلاف مذهبي ولا يبحث في المتشابه الذي يقودنا لتعدد الديانات السماوية، ووحدة الخالق.

تحدث إليه أحد زملائه، وقطع عليه تجلياته:

- مناخ سيناء بيئة متوازنة، كأنه الأمثل للعيش. يُقارب ارتفاع هذا الجبل أقل من ثلاثة آلاف متر، وبعدّ مثلث سيناء ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا. لقد أظهرت دراساتي أن معنى سيناء الهيروغليفي توشريت أي أرض العراء، كما سميت حوريب في التوراة وتعني الخراب، بينما نقوش سراييط⁽¹⁾ لا تظهر اسماً محددًا.

- يا إلهي، كأنه يتوسط العالم، وكان الخالق يثر تعاليمه لتصل إلى أكبر عدد ممكن من البشر. إنها نقطة التقاء مركزية، وكأنّ الموت في سفح الجبل بقاء للروح على قمته، تحوم حوله لتنعّم بالحب والسلام.

تقطعت كلماته وخفّ صوته حتى اختفى تحت سطوة نوم عميق، أشعره براحة سرمدية.



1 - معبد سراييط الخادم لحتحور يوجد في غرب سيناء، وفيه أندراما تركه قدماء المصريين.

(17) الطواش

مايو 1762

خلال جولاتي المتكررة في عرض البحر، كنتُ أجوبه كما يجوب البدو الرُّحَل صحاريم، اقتربتُ كثيراً من بانوش النوخذة، لعلِّي أستطيعُ شراء اللؤلؤ الذي غنموه قبل عودتهم إلى اليابسة. هناك سيقتم عملية البيع والشراء كثيرٌ من التجار، ونقَعُ تحت سطوة المزايدات والمناقصات، وبذل كثيراً من الجهود والأموال. اقتربتُ من السفينة حتى وجدتُ - وعلى غير العادة - جلبة ارتفعت فيها الأصوات، وعلت الحناجرُ، وشُقرت السواعدُ، واقتربت من بعضها. مشهدٌ تمثيليٌّ غيرٌ معتادٍ من بحارة يجمعهم الوُدُّ على ظهر سفينة في موسم الصيد الكبير. هكذا أصبح الحال خلال العامين الأخيرين، بينما كان المؤلفُ هو بروزُ روح الأسرة الواحدة والمترابطة على ظهر السفن، ولكن هذه السفينة أضحت مختلفة، إنها عدائية في سلوك بحارتها. خشيتُ أن يمّتها سوءٌ؛ فأثرتُ الابتعاد، ولكن نجاتهم رفع صوته بغتةً باتجاهي:

- أيها الطواش، أيها الطواش، مرحباً بك. نحن في أمس الحاجة إليك وإلى مساعدتك، أقبل علينا.

تريثُ وترددتُ طويلاً. لم يكن من اختصاصي وتجاري فض المنازعات القائمة في البحر ولا اليابسة. إنَّ وظيفتي التي ورثتها عن آبائي تقضي بأن أشترى اللؤلؤ وهو في عرض البحر؛ لأبيعه على اليابسة. عملٌ ورثته عن أجدادي. هو باختصار يُعنى بتعقب واصطياد السفن البحرية قبل عودتها من خلال مواسم الغوص وشراء مختلف أنواع اللؤلؤ، حتى أصبحتُ وبعد

سنين طوال قادراً على تمييز أنواع اللؤلؤ، ومعرفة الذين يسعون لشراؤه. إننا - معشر الطواوش - نفضل شراء اللؤلؤ وهو في عرض البحر على أن يعود به البحارة إلى اليابسة؛ فهناك سيقلون بأسعار أقل، وسيضطرون لدفع ضرائب أكبر للحاكم والتاجر أيضاً، بالإضافة لمساومات التجار المحليين والأجانب والتي تقلل من قيمة السلعة، وعليّ - أيضاً - أن أبيع الرز والسكر وسواهما إلى البحارة، بعدما يقربُ شهراً أو أكثر من إبحارهم، ولكن يبدو أنني سأقمص هذا النهار دور عبدالله الخطّاب⁽¹⁾، عسى أن تُحلّ مشاكل البحارة على ظهر هذه السفينة، جاءني الصوت ثانية....

- أيها الطواوش أقبل علينا. جزاك الله خيراً.

إنه من النادر أن أغادر سفيتي وأصعد إلى سفينة أخرى. من العادة أن تكتمل عمليات البيع والشراء على ظهر سفيتي، التي أعددتها خصيصاً لهذه الوظيفة. كنتُ أدعو النواخذة وبعض كبار الغاصة والسيّوب لتناول وجبة غداء في مجلسي هنا. لا ريب أن السفينة (الجالبوت) معدة لتكون مجلس ضيافة عربي أصيل. زوّدتها بمواصفات الرفاهية والشراء؛ فالمظاهر ليست في أغلبها خادعة، ولكنها في أمور كثيرة مساعدة على الإقناع. قمتُ بوضع سجّاد فارسي فاخر في مؤخرتها، وصففتُ على أطرافها المائد الفارحة. إنه مجلس ومضيف بحري يشبه المجالس الخليجية التقليدية. أدركُ جازماً أن المفاوضات مع النواخذة أصبحت تحتاج إلى كثير من الجهد والقدرة على المناورة والإقناع.

1 - عبدالله الخطّاب مؤلف قصة حلال المشاكل وأمازيجها، وهي من الموروثات الشعبية والدينية المتداولة محلياً.

أعاد النّهامُ دعوته للمرة الثالثة، لم أرغبُ في كسر سطوة الأعراف
والموروثات؛ فدعوتهم إلى مجلي:

- إنني أدعو النوخذة وكبير الغاصة والسيوب لتناول وجبة الغداء، ثم
نكمل بعدها ما الرّبكم، وإذا لم تكمل عملية البيع والشراء هنا؛ فأصعد
إلى سفيتكم حينها.

اقتربت السفيتان من بعضهما بعضاً. أقبل النوخذة يحمل البُرودة الحمراء
المعدّة سلفاً لحفظ اللؤلؤ. أقبل ومعه اثنان من البحارة:

- هذا الفواص أبو راشد ممثلاً لجميع الغاصة. وهذا السيّب حسن يمثل
السيوب.

- أهلاً بكم.

دعوتهم لتناول بعض الفاكهة المجففة والشاي والقهوة، وتناول الغداء
بعد الفراغ من المهام، ثم عرضتُ عليهم أمراً آخر:

- يُمكنُ أن نلبي طلباتكم؛ مما ينقصكم من الرز والسكر والملح وغيرها
من المؤن. سينقلها العاملون، فيما نكمل إجراءات الشراء، كما سنسعدُ -
لاحقاً - بنقل رسائلكم مكتوبة إلى ذويكم.

وضع النوخذة قائمة بها يحتاج إليه البحارة على ظهر سفيته، ثم أقبلوا
نحوي في صدر الجالبوت. اتخذوا مجلسهم في المنطقة المظلّلة. أحضر الخادمُ
المثقال والطوس⁽¹⁾، ووضع النوخذةُ محمولهم ملفوفاً بالسجادة الحمراء.
نثرتُ اللؤلؤ وبدأت بغربلته وتصفيته حسب حجمه ولونه وجودته. كان

1 - المثقال هو الميزان الحساس المستخدم لوزن اللؤلؤ. الطوس جمع طاسة وهي أربعة
أنواع، ولها ثقوب مختلفة لغربلة اللؤلؤ ومعرفة أحجامها.

أغلب ما في جمعهم صغيراً، يميل إلى اللون الأصفر والأبيض والرمادي، وكثير منه ذو أحجام صغيرة، تعرف بـ(السحاتيت). جميع محصولهم لريكن بالأمول والمرمجي. كان ذا قيمة منخفضة في السوق بسبب انخفاض جودته.

- أيها الرجال. لا أظن أن هناك صعوبة في معرفة أسعار ما تملكون لكي يلتهب الخلاف بينكم وتختلفوا مع السيد النوخذة الذي يعمل جاهداً على توفير الراحة لكم، وبث روح العمل والطمأنينة لديكم. سأشتري منكم كل اللؤلؤ، وسأدفع لكم سعره حالاً كي تقسموه بينكم، إن أردتم ذلك. إنني لا أعتقد أن خلافكم يدور حول هذا الأمر. ربما رمى أحدكم بـ(القراقير) بغية صيد السمك، أو أراد استخدام آلات حديثة، وقف النوخذة لها بالمرصاد فأحدث ذلك جلبةً.

لريابه الحضور لما أدليتُ به. أخرج النوخذة من تحت إزاره كيساً آخر، وضعه بعناية فائقة على السجاد وفتح برفق، صعقني بهاء ما رأيت، تسعُ دانات يميل لونها للأحمر، وسعٌ من لؤلؤ الحصابة الكبير. كانت قمة في الجمال والنقاء ورطوبة الملمس. إنهم جميعاً يعرفون أن هذا اللؤلؤ هو المشود. إنه ثروة كبيرة، ولا يمكن أن يكون لدي المال الكافي لشرائها.

إنني وبحكم سحر الخبرة، أستطيع التعرف على أي دانة أراها ولو لمرة واحدة. الدانات كالنساء، حتى ولو كنّ متشابهات؛ فإن لكل واحدة منهن صفات خاصة. السمات الحسنة قادرة على إخفاء سيئاتها. الرجل يُهَيَّرُ بالمرأة الجميلة، أما المحنك فينظر لما ورائها، وكما أن لكل امرأة ملابسٍ تُظهر حننها؛ فإن لكل لؤلؤة هيئة ولوناً يُظهر مفااتها، لذلك كله؛ صار من المتعارف عليه أن تُحفظ كل اللالكى في مناديل أغليها حمراء، كأنهن عروسات يُزفنَ فرحاً ليلة الدخلة. الدانات في الخليج متعددة الطبقات والأطياف، قد

يصل طيفُ الدانة الواحدة إلى ثمانية ألوان، وبما أن الدانة امرأة فاتنة؛ فلا بد أن تتزين حسب عين الرائي لها، ولذلك تُحفظ في درجات مختلفة، فيوضع بعضها في مناديل صفراء وذهبية أو بيضاء وسوداء، وأحياناً في مخامل حمراء ووردية، وهي الأشهر استخداماً للأعلى منها جودة.

- سأدفع لكم عُشْرَ مبلغ هذا الكتر، على أن يحصل النوخذة على باقي المبلغ بعد بيعه حين نعود إلى اليابسة.

تحدث أبو راشد بصوتٍ هاديٍّ رزين، وكأنه يجرُّ آهاته:

- السيد الطّواش. هنا تكمن عينُ المشكلة مع صديقك النوخذة. أنت تعرف كما يدرك الآخرون أن ما تسميه بالكتر هو هبة من عند الله تعالى علينا، وإن هذا الكتر الإلهي يمثل فرصة مواتية لنا للتخلص من العبودية التي يفرضها التاجر علينا. إنها إشارة ربّانية تدفعنا للخلاص من القيود الظالمة المربوطة بإحكامٍ حول أعناقنا. إن السماء لا تهب مائدة، ولكنها تعطينا مكونات المائدة؛ لكي نعمل بجهدٍ للحصول على هذه المائدة.

- كأنك تتحدث عن لُغزٍ وترفض الإفصاح عنه. أين المشكلة في ذلك؟

- أيها الطّواش، نحن نعي وندرك كل الحقيقة. صدقُ يُفقدك أصدقاء خيراً من كذب يكسبك أعداء. نحن نعرف أن النوخذة يقوم بتموين سفيته (الجالبوت) من التاجر بالدين، وكلاهما يدينان البحارة طوال السنة، في انتظار موسم الصيد الكبير، ولما كان حصادُ هذا الموسم - كما ترى - كفيلاً بإنهاء أغلب ديون البحارة؛ فإن النوخذة أفتى بأن يأخذ الخُمسين تبعاً لذلك. إن نظام (الخمايس) في حد ذاته ظالم لنا جميعاً، ولكننا نعمل تحت مظلة مكرهين مجبرين، غير أننا لا نقبل أن يُزورَ في ديوننا، ثم يأتي النوخذة أو التاجر أو الحاكم نفسه، لا نقبل أن يأتي أحدهم بتشريع جديد، يتولى به

على الحُسين أيضاً. إنه ظلم مزدوج نرفضه جميعاً. أيها الطواش أنت تعرف أن جميع البحارة مدانون للنوخذة والتاجر قبل موسم الغوص، وأنه يحق للنوخذة أن يأخذ خمس المحصول فقط، أما الباقي فإنه حق للجميع، ويكون في هذا الفائض سهمان للغيص وسهم لليوب.

- وماذا تقترحون لما أنتم فيه؟

- نطالبه بأن يأخذ نصيبه فقط. الحُمس فقط لا غير، كما أننا نطالب بأن يصادق على الديون الجديدة اثنان من الغواصة كشهود لوقف التزوير ولإثبات الحق عند المحاكم وقضاته. هم يريدوننا أن نبقي عبيداً طوال عمرنا تحت طائلة الدين. الديون التي يقدمونها بإغراءاتها، ويقبل بها العامة نتيجة لحاجتهم الملحة هو استعباد نرفضه بشدة. الأمر من ذلك كله أن الدين يتقل ظملاً لابن البحار بعد موته.

طلبتُ أن نسمع للنوخذة؛ حتى نصل إلى حلٍ توفيقى يرضي الجميع. كان من الضرورة أن تهدأ النفوس؛ لأن أغلب النيران تأتي من صغار الشرر.

- نحن لا نختلف مع مطالب البحارة في شيء، سوى أنني أعتبُ عليهم، والعتبُ دالة المعزة. أتمنى أن يفهم الجميع أن من يزود السفينة بمؤونها هو التاجر، وأني إذا لم أستطع أن أؤدي الدين المفروض على السفينة بعد تموينها؛ فإنه سيتولي على السفينة مقابل ذلك. أطلبُ من البحارة أن يفهموا الأمر الطارئ في هذا الموسم فقط.

رفع أبو راشد وزميله صوتها يتعيذان من الشيطان الرجيم، ويضربان براحتيهما على بعضهما، حتى صاح اليب:

- ماذا تقول أيها النوخذة؟ أي قصة مبتكرة نسمع منك؟ إن ما يناسبك ليس بالضرورة مناسباً لغيرك.

كانت القضية معقدة في ظاهرها. اقترحتُ عليهم أن يكون التقسيم عند المحاكم ريثما يعودون، على أن أشتري منهم اللؤلؤ لمن يريد بيعه، فاقترح البعض أن يبقى اللؤلؤ معي لحين عقد المحاكمة، ولربيدُ القلق على أحدٍ منهم. إنهم يعرفون اللؤلؤة التي تمر عليهم ولو لمرة واحدة، كما أنهم يثقون بي وبيعضهم، وستودعون اللؤلؤ عند الطواووش، وحتى أصدقائهم دون وصل، فكيف إذا تعلق الأمر بطواوش مشهور؟ إنها الفطرة السليمة وحسن الظن بالآخر، توصلتُ لقرارٍ يُرضي الجميع:

- أحبتي، إن الشياطين ترحل حين تحتفل الملائكة. افرحوا الآن، قبل أن نرفع الأمر برمته للقضاء وللحاكم.



(18) الخادم

ديسمبر 1762

كان من مهام وظيفتي الرئيسية القيام بما يريح أفراد الحملة، من إعداد اللوجيات اليومية إلى تنظيف الملابس وغسلها. أصبحت تبعاً لذلك، أستيقظ قبلهم لأعد لهم وجبة الإفطار. كان المبيت في سفح جبل موسى موقفاً استثنائياً لا يمكن لأحداث الزمان وتعاقباته أن تمحيه من الذاكرة. لم تشرق الشمس بعد حين استيقظت. توسد أحدهم نعليه، وآخرون قطعة قماش، أما الرئيس فتوسد كومة تراب. كانت وجوههم باتجاه السماء. رجعتُ للخلف حتى صار ظهري على صخرة ملء لا أذكر أنني رأيتها قبل نومي. أخذت أعاين السماء، وانتظر بزوغ الشمس وشروقها. بدأت الزرقة تزاحم لون السماء الأسود. انزاحت النجوم تدريجياً، فبدت باهتة حتى باتت أشعة الشمس مخترقة صخور قمة الجبل. توجهتُ لأوقف الرئيس أولاً. وجدتُ عينه مفتوحتين، تمدقان في السماء، وضع يده اليمنى على صدره والأخرى إلى جانبه. حركتُ يدي أمام عينه، فلم يحرك رمشاً ولم يغمض جفناً. هل وصل به طور التفكير إلى الصباح فغاص فيه؟ ربتُ على كتفه الأيمن فلم يجيني. وضعتُ يده إلى جانبه وأغمضتُ عينه، وتحسّتُ جينه... لا يزال ساخناً. وضعتُ رداءه على كل جسده، واستلقيتُ ملاصقاً له، لعلني أرى النقطة التي كان يجدق فيها. لا شيء غير سرابٍ أبيض في شكل زوبعة صغيرة، يتصاعد إلى كبد السماء.

أيقظت باقي أعضاء الحملة كلاً على حدة. وَقَعُ الموت على الأحياء أكبر سطورة. الموتُ يلقي السكينة على الأجواء، ثم يفسده الأحياء بالجزع. هكذا كُنْتُ أيسرُ لكل واحدٍ منهم بمفرده. لا أريد أن أوقف الجسد الذي بجانبنا. أضع يدي على فمي في لغة تفهم المتيقظ بضرورة النظر والكون. نظر جميعهم لجسد رئيسهم ثم التفت أعينهم. إنها بداية التاقط التدريجي للحياة... للحملة.

أخذ أحدهم يد الرئيس يتحسس نبضاته، فلم يجدها. فحص معصمه، وريده، فمه... لا أثر للحياة. حسابات موجهة لم تكن ضمن مخطط الرحلة، بدأ سكون الموت يتزاح، تعالت الأصوات وبدأ أنينٌ، بكاءٌ ونواح. أين يمكننا أن نوارى الجسد في الثرى؟ هنا. هناك. بل هناك. ارتفع صوت أحدهم، ثم دار اللغظ بينهم:

- إنها أرضٌ للمسلمين.

- إنها أرضُ الأنبياء. أرض الرسالات. أرض الله لكل البشرية.

- وهب الله الحرية للبشرية، ولكنهم قيدوا أنفسهم.

- طبقاً لهذا الفكر الضيق، يجب دفن الميت المسيحي في أقرب مقبرة

للمسيحيين، في مقبرة كنية سانت كاترين.

كانت الكنيسة على بعد نصف ميل. طلبنا من أحد البدو العابرين أن

يمد لنا يد العون. أن يحمل الجسد في عربة خلف جمَلِه. تردد أحدنا خوف

أن يجرّم على المسلم أن يحمل ميتاً مسيحياً.

- إنه مسيحي أيها العربي، ونريد أن نأخذه لمقبرة الكنية.

- الإنسان في ذاته طاهر، لا تنجسه غير الخبائث.

أخذ باسكال وهو أصغر الرحالة عمراً ينظر إلى القبر بعدما حفرناه على عجل. أصابته عين الجزع في قلبه، أوشك على الانهيار، تحدث إليه آدم: عندما دَفَنَ النبيُّ موسى أخاه هارون؛ جزع من فراق أخيه وفزع من ظلمة القبر، فكلّمه ربه: لو أذنتُ لأهل القبور بالحديث؛ لأخبروك عن لطفي بهم، فربك لا ينظر لمعاصي الميت، بقدر ما ينظر لقلّة حيلته.

بعد الانتهاء من توديع رئيسنا، صار لزاماً على آدم أن يكون رئيساً للحملة؛ بوصفه نائب رئيس. قررنا مغادرة سيناء في الطريق إلى ينبع، لم يكن آدم مرحاً كما بقده الذي تعلو إبتسامته محياه كلما أشرق يومٌ جديد، الطبع غالبٌ على التطبع. لم يكن بيننا ودٌ مضمّر. الودُ فطرة تقرب المختلفين وتجذب القطيين، كنتُ أنفذ أوامره كألة صمّاء، فكثرة النقاش جدالٌ عقيم، لئو رحلتنا التي ستطول سنياً.

وصلنا ينبع بعد عشرة أيام، وعبرنا البحر مباشرة. لم نجد مشقة في نقلنا؛ للعملات الذهبية تأثيرٌ في النفس البشرية. وصلنا جدة حيث بقينا شهرين، الناس في هذه المناطق يختلفون في تكوينهم الجسدي والشخصي، إنهم أميل للقصر نسبياً، وأجسادهم تكاد تكون هزيلة، فيهم أعراق مختلفة؛ بدو وحضر، أفارقة وعرب. فيهم كرمٌ أصيل عابه لؤمٌ مخيف، توجهنا للحاكم هناك، وأبلغناه عن أهداف الحملة، أبدى تعاطفاً، وطلب منا البقاء ثلاثة أيام؛ لنسترد خلالها عافيتنا. أفرغوا لنا داراً، وقام الخدم على تلبية احتياجاتنا. خلال إحدى جلساتنا مع الحاكم، مازلتُ أذكر موقفاً جديراً بالتدوين، أحضر العسُر رجلاً قيل إنه لصٌ.

- هل سرقت؟

- دجاجة، وبعض حباتٍ من الفاكهة.

- اعترافٌ يؤكد الجريمة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَفَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾. نفذوا فيه حكم الله تعالى.

أخَذَ الرَّجُلُ إِلَى السَّاحَةِ الْأَمَامِيَةِ لِلْجَامِعِ الْكَبِيرِ، أَغْمَضُوا عَيْنَهُ، كَبَلُوا يَدَيْهِ، ثُمَّ بِالسِّيفِ قَطَعُوا كِلْتَا يَدَيْهِ؛ سَادَ الْجَزَعُ وَخِيمَ الصَّمْتُ عَلَى الْحُضُورِ. كُلُّ يَتِمُّ بَيْنَ مُؤَيَّدٍ وَرَافِضٍ. أَوْشَكَ قَائِدَ الْحَمَلَةِ أَنْ يَتَسَاءَلَ عَنْ مَشْرُوعِيَةِ قَطْعِ الْيَدِ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ وَصَايَا السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ: "لَا تَجَادَلْ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي دِينِهِ، بَلْ سَجِّلْ مَا تَرَاهُ عَيْنَاكَ فَقَطْ".

في اليوم الثالث، توجهنا للبحر الأحمر، ركبنا سفينة مليئة بالبضائع في طريقها إلى المخا في اليمن. وبعد الإبحار بقليل، صار للبحر لونٌ مختلف، وأطيافٌ برّاقة. يتغير لون الماء كلما تقدمنا، تحدث أحدُ الرّحّالة موضحاً ما نراه:

- ما ترونه أيها الزملاء ليس خداعاً بصرياً ولا سرايباً؛ إنها الشعب المرجانية، التي تزدهر في البحر الأحمر.

- لماذا البحر الأحمر دون سواه؟

- إن الشعب المرجانية تنمو عادة في المياه الضحلة النقية، واشترطوا ألا يزيد عمقها في الغالب على خمسين متراً، كما أنه من الضرورة أن تتوافر درجة حرارة معتدلة لتمكن من النمو. إن الشعب المرجانية التي ترونها، عبارة عن ترسبات كربونات الكالسيوم، والتي تتغذى أساساً على الطحالب والكربوهيدرات، وتنمو حولها هياكل مرجانية بأشكال وأنواع مختلفة. هكذا شرح علماء الحملة.

1- المائدة: 38.

- أعضاء المجلس المُعيّن الكرام... بعد مداوولات ثنائية، فإنّ التاجر يقترح أن نعهد إليه إدارة شؤون دلمونيا الداخلية، ريثما تنتهي من المباحثات الأمنية مع هرمز، فهل يُدلي أحدكم باقتراحاتٍ حول ذلك الموضوع؟

- نقترح مبدئياً أن نخبرنا التاجر حول خططه الأسبوعية المُزمع عقدها، وكذلك اطلاعنا على منجزات الأسبوع السابق.

واقترح آخر أن يُعيّن الحاكمُ قاضياً مدنياً لفض المنازعات المتعلقة بأمور البحارة والمزارعين والتجار وسواهم، وأن يكون هناك قاضي آخر، يقوم على فض الخصومات الشرعية.

- في الحقيقة، إنني عاقد العزم على أن تُقسّم محاكم الشرع إلى فرعين؛ أحدهما محكمة الفروض والأخرى محكمة الأمور الجنائية. كنتُ أرى أن الشرع مصباحٌ ينير طريقنا، ولكن أيهما أكثر أهمية المصباح أم الطريق؟

أسعد القرازُ التاجر، وأقسم متعهداً على خدمة دلمونيا وشعبها والعمل آناء الليل وأطراف النهار على راحة مواطنيها. أما باقي الأعضاء، فأوكلت لهم أدواراً مختلفة، يُكوّنون من خلالها مجلس شورى عند الحاجة، وكذلك يعملون على متابعة الأحكام التنفيذية الصادرة عن الحاكم والقضاء. طلبتُ بعد ذلك النزوح إلى الخبرات وتركية بعض رجال الدين القادرين على إطلاق الأحكام القضائية، وما يتوافق مع الأحكام الشرعية الواردة في القرآن والسنة، على أن يُراعَى الوافدون والمقيمون من الديانات الأخرى، وتُفضّ نزاعاتهم وفق دياناتهم؛ فهناك أقلياتٌ مسيحية، ولن يكون من الخيال أن تستقطب هذه الجزيرة مستقبلاً عائلاتٍ من دياناتٍ أخرى.

جاءت مداخلة من أحد الأعضاء، يوضح فيها أن أكبر مأساة للحاكم هي الجمع بين الحكم والتجارة، وهو أمرٌ منهي عنه شرعاً، وقد استدلّ على

(19) الحاكم

يناير 1763

إننا نعي تماماً أنه ليس لدلونيا ذنبٌ وجريرة في وضعها الجيوسياسي^(١)؛ لأنها تقع بين شرق هرمزي وغرب بدوي صحراوي، وبعد رفضنا للعرض القادم من هرمز لا يزال داءُ الترقب يوقف قطار أفكارنا ورؤانا حول الاستثمار والنهضة التي يترقبها شعبُ دلونيا. إنَّ الرغبة الهرمزية حول بناء جيش بري ضخم، يوازيه تشيدُ إسطول بحري عملاق قادران على وقف المخاطر التي تحيط بالخليج من كل حدبٍ وصوب، ولكنه في ذات الوقت، يثير هواجسنا وتخوفاتنا متى تحولت أهدافه المعلنة من دفاعية إلى توسعية سرطانية. نحن وضّحنا بعمق عجزنا عن المشاركة بالرجال في الجيش المزمع بناؤه، ولكن سكوتهم حمّالٌ أوجه، وهو ما يدفعنا حثيثاً لتحسين العلاقات مع إمارات وممالك الجوار، ومع القبائل البدوية التي بدأ فيها انتشار دويلات المدن. إنَّ تحسين العلاقات معهم جميعاً ومع مملكة هرمز خصوصاً، يصب في مصالحنا الأمنية والتجارية التي تنطلق من جمرک جمبرون^(٢)، كما أنّ ثبات واستقرار الشأن الخارجي كفيلٌ بأن يدفع الحاكم لزيادة سرعة العجلة التغييرية والإصلاحية في الداخل؛ ولذلك عرضتُ على التاجر وبمبادرة شخصية منه، أن يقوم بإدارة شؤون البلاد الداخلية، ريثما أنتهي من تداعيات الالتزامات الخارجية، وها نحن نضع الأمر برمته بين أيدي الأعضاء في الاجتماع الأسبوعي للمجلس المُعين:

1 - إن الكثير من المفردات هي تعبير عصري مواز لما ورد في المخطوطات. (المترجم).

2 - يُعرف عربياً؛ ببندر عباس.

وقف آدم في مقدمة السفينة، أطلال نظره ثم أشار إلى جزيرة زاهية الألوان، يوجد داخلها بحيرة باهتة الزرقة. سمعته يحدث نفسه: هل يمكن أن تكون هذه إشارة أخرى لقدرٍ يجوب في الأفق؟ فكما ذكر رئيسنا الراحل: الإشاراتُ لغة الأقدار.

تقرر أن تقترب السفينة من الجزيرة، أُلقيتِ المرساةُ؟ عمل الرحالة كخليفة نحل، كلُّ حسب تخصصه. هناك من يرسم، ومن يقطع شعباً مرجانية يفحصها، وهناك من يصطاد أسماكاً يعاينها. انتهى كلُّ من مهمته، وقررنا الرحيل بعد الظهر. أردنا سحب المرساة، فلم نستطع، اجتمعت السواعد كلها ولم تُفلح. رفع آدم صوته: إشارةٌ أخرى إلى خطر قادم. نزل اثنان من البحارة لعمق المياه، علقت المرساة في الشعب المرجانية، توجب علينا البقاء لصباح اليوم التالي؛ لتمكن من الرؤية، وفلك (المربوط) والمرساة.

تحركت السفينة بعيداً عن السواحل باتجاه اليمن السعيد. اقتربتُ من آدم، وهو يجلس القرفصاء في مقدمة السفينة:

- تفضل سيدي وجبة الإفطار وبعض السوائل الساخنة؛ لعلها تغير مزاجك.

طلب مني الجلوس بحركة من يده اليمنى، ثم أخذ ينظر للبعد:

- هناك جزيرة تنتظرنا في الأيام القادمة. في رحلتنا هذه، ربما تغرينا من الخارج، ولكننا سنغرق فيها. سنبقى فيها أمداً طويلاً، قلبُ الجزيرة يصعب الوصول إليه، سيكون من المحال معانقته حقاً. هكذا وجدتُ الطالع؛ حكايات طريق لا بد منها.



ذلك بقصة الخليفة أبي بكر الصديق (رض)؛ فلما انتخبه الصحابة حمل أثوابه ليبيعهما، فسأله الصحابةُ إلى أين؟ فأجابهم أنه متوجهٌ للسوق، فدعاه الصحابةُ إلى أن يجلسَ في بيته، وفرضوا له نصيباً من بيت المال.

امتعض التاجر، ثم أكد أن عمله تكليفٌ لا تشریف، وأنه امثال للواجب وخدمة للوطن، ثم إنه لا ضير من عرض الإشكال برمته على القاضي الشرعي؛ لنرى إن كان أمراً مباحاً، وإن كان بمقدور القاضي الشرعي أن يُفتي بحليّة ذلك، وعليه اقترح التاجرُ الشيخَ سعد البلبول قاضياً شرعياً رسمياً؛ وذلك لماله من خبرة وقبول حسن بين الناس، وأن تُناط إليه جميعُ المسائل الخلافية، وتكون أحكامه نافذة، بشرط أن يصادق عليها الحاكم نفسه، أو من ينوب عنه.

لقي الاقتراحُ أصداءً رحبةً لديّ ولدىّ المجلس، ثم أشرتُ على الحضور أن تردني أخبار البلاد وأموورها، كلٌّ حسب المصادر التي يستقي منها، فتحدث أحدهم:

- إن الأخبار الواردة من سفن صيد اللؤلؤ تبشر بالخير الكثير، يبدو أن البحر فاتحٌ ذراعيه كرمياً، ولكن بعض المنغصات التي تستبدل روح المودة بروح الكراهية بين البحارة قد تجعل البحر يصدّهم؛ فيضنّ عليهم، وحينها سنشكوا لله بخله.

- إن الاختلافات بين مكونات الأسرة الواحدة قائمة غالباً، فكيف برجال بعيدين عن أسرهم، وهم في عرض البحر؟ إنني أراه أمراً طبيعياً، بل حتمياً.

- سموّ الحاكم. إن الأخبار الواردة من الطوّاش، تفيد بوقوع نزاعات كبيرة بين بحارة السفينة التي يتزعمها أبو راشد وبين النوحدة. إنها المرة

الثانية، نتمنى ألا تكون خلافات دموية. لقد اختلفوا فيما بينهم حدّ النزاع حول نظام الخمائس المعمول به.

- الاختلاف في صلب هذا الموضوع مرفوض؛ فالقسمة عبر ذلك القانون واضحة جلية لا لبس فيها. للتوخذة الخمس والباقي للبحارة، للفيص سهان فيها، وللسب سهم واحد، ويدفع جميعهم الضرائب. مَنْ يقفز على القانون فهو مخالف، وعليه يقع تطبيق الحكم.

تحدث التاجر حينها كمن يُفزي عما في داخله:

- سموّ الحاكم، أعضاء المجلس المحترمين، إنّ قضية المدعو أبي راشد آخذة في التصاعد والانتشار؛ فمذ الاتهام الموجه لصديقه اليب يوسف، في قضية مقتل ابني ناصر، وهو يثير المشاكل بين العامة والخاصة. إنه يطعن في القضاء العرفي، وها نحن نغيره لقضاء شرعي، وهو يرفض القبول بنظام الخمائس السائد من عقود طويلة، كما يرفض الضرائب التي يدفعها المزارعون، ولن يكون غريباً أن يطعن في شرعية بقاء سمو الحاكم نفسه على كرسي الملك، ولكني وبعد الاستئذان من سمو الحاكم، أعلنها صراحة؛ أنه يجب التعامل بحزم مع أبي راشد؛ ليكون عبرة لمن لا يعتبر، ولو أذ الفتنة في تربتها، إنّ التجمّل بالفضائل سيأخذ الجزيرة إلى نهاية مظلمة.

ولأنني أدرك جيداً أن المتغيرات الداخلية والخارجية تخلق الخطاب السياسي، وأن أسباب أي أزمة سياسية هو اختلاف وجهات النظر لحل قضية ما أو تُضج رؤية مجتمع لوضع قائم؛ أمرتُ أن تعاد محاكمة السبب يوسف عند القضاء الشرعي الجديد، وأن يُنظر في مظالم الغاصة والمزارعين للوصول إلى حلٍ يرضي الشريعة، ويرضي جميع الأطراف؛ بحيث تبقى دلوينا أرضاً للمحبة والسلام.

ما إن انفضَّ المجلس، حتى تعقبتُ بنفسي الأخبار الواردة من عرض البحر، بلغتني تفاصيل مغايرة لما حدث بين البحارة بقيادة ممثلهم أبي راشد آل جبور وبين النوخذة، شعر خلاله العامة بالظلمة الواقعة عليهم، ولكن ما عاني أفعَل؟ لقد وضعتُ قانوناً يفترض فيه أن يراعي مصلحة الجميع. ينص القانون على أن يأخذ ممثل الحاكم الضرائب من الجميع، على التجار والنواخذة، وعلى الغاصة والسيوب على حدٍ سواء، ولكنَّ التاجر أخذ يعوض الضريبة التي يدفعها بأخذ ضريبة أخرى على الغاصة والسيوب أيضاً، وأما النوخذة فلا يحق له أن يخالف القانون؛ بحيث يأخذ ضريبة على البحارة كذلك. لا بد للقانون أن يُحترم ولا يُحترق، وُضِعَ بمشاركة ومعية التجار. من بنود القانون - أيضاً - أن يحصل العاملون فوق ظهر السفينة على مقدار خمس اللؤلؤ. لقد اتهم البحارة النوخذة بأنه زور في حساباته ومديونيات العاملين. أصبح يشتري منهم اللؤلؤ قبل عودتهم، ثم يبيعه بثمن أعلى ليحصل على فوائد جمة من ذلك، بينما يظل البحارة مدينين، فلا يستطيع اللؤلؤ تغطية ديونهم التي تنتقل إلى أبنائهم حال الوفاة... سرى ما سيقوم به القاضي البلبل.

لقد دعا أبو راشد قومه إلى إضراب عام، قبل الموسم القادم للصيد الكبير، هنا تكون الخسارة أكبر لجميع الأطراف؛ إضراب سلمي يأمل منه المضربون أن تُرفع بعض المظلومية الواقعة عليهم. إضراب لا يستخدم العنف تعبيراً عنه؛ لعلَّ الرسالة تصل لمجلستنا ومن تحته؛ فنشعر بالحنة الواقعة عليهم. لقد بعث أبو راشد مندوبيه وخاصته الثقاة إلى المناطق المختلفة، كما بعث ابنه اليافع راشد مرافقاً لبعض المندوبين للقري الساحلية، هناك حيث يشتكي المزارعون من ظلم آخر، يظنون أنه واقع عليهم.

كان المزارعون - من جانبهم - يدفعون الضرائب على كل منتجاتهم،
وينص القانون المتوارث أنه إذا عجز الفلاح عن دفع الضريبة تُؤخذ أرضه.
لقد بلغني قيام موظفينا وفي كثير من الأحيان بضم الأرض بمن عليها
لأملأكتنا، على الرغم من مقدرة الفلاح على دفع الضرائب؛ فيكون - وطبقاً
للقانون - الفلاح ومزرعته تحت أيدي الحاكم، أو من ينوب عنه. حقيقة لا
أعرف ماذا يريد المزارعون والبحارة من إضرابهم! القانون لم يخرق إلا في
جزئيات بسيطة وعبر تجاوزات فردية، نستطيع بالحوار والمفاوضات أن
نتغلب عليها، ونجد لها مخرجاً.

إن الإضراب الموعود سيضر بمصالح الجميع، ولا يمكن - حالياً - أن
أعوّض البحارة والمزارعين بغيرهم من مناطق أخرى، موقف وضعني حقاً
بين المطرقة والسندان. صار أمراً مقضياً أن أستمع لتظلماتهم حول الفصوص،
وأستمع للمزارعين أيضاً. لا بد من برنامج إصلاحي يبر طريقهم، ويجعلهم
يصرون مستقبلاً مشرفاً؛ برنامجاً يشارك في وضعه الجميع، ويطبقه الجميع.

كنت عازماً كل العزم، وراغباً بصدق وأمانة في أن أضع قراراً يرتضيه
الجميع. اجتمعت في البداية مع أعيان البلد، من تجار ونواخذة وأصحاب
قرار، لقد رفض هؤلاء تغيير النظام القائم؛ لأن المقترحات الجديدة
ستقوض من سطوتهم وأرباحهم. بعد سلسلة الاجتماعات تلك، قرّر
المجلس أن يعلن أن أبا راشد ورجاله طامعون في الحكم، هكذا يمكننا أن
نقف في وجه التغيير؛ بعث المجلس إلى القبائل المجاورة يطلب المساعدة
ويغريها بالمال والحصاد.

كانت القبائل البدوية هي الأسرع في قبول الدعوة، أبدوا تعاطفهم
معنا، وعرضوا المساعدة علينا وقت الشدة والحاجة، قمنا بعقد اتفاقية

معهم؛ أن يمدونا بالرجال والسلاح إذا تطلب الأمر، في مقابل أن نوفر لهم الماء من الكواكب البحرية ومن العيون، وكذلك أن تُعفى سفنهم من الضرائب لعشر سنوات، وذلك حين يقومون بالغوص واستخراج اللؤلؤ فيها.

أُعلن عن هذه الاتفاقيات الثائية والجماعية، لعلها تُرعبُ عامة الشعب، ولكن القلق والخوف لا زالا مسيطرين؛ فالبدو لا يستطيعون تعويض المزارعين والبحارة في أعمالهم. اقترح عليّ أحد التجار جلب أيدٍ عاملة خارجية بحيث لا تكون سطوة الإضراب متاحة عند المزارعين والغواصين مرة أخرى. ذهب في بحثه إلى اليعاربة، الذين وفدوا سريعاً وبأعداد كبيرة، وتعدى ذلك إلى جلب مزارعين من اليمن وبعض الفرس والأفغان عن طريق حاكم فارس نادر شاه، ولكن لم تكن تلك الأيدي تنتمي للوطن الجديد، إذ ظل انتهاؤها الروحي لبلدها الأصلي، ورأس مالها يُرفع لمسقط رأسها.

ظل الوضع متأزماً وباعثاً على القلق والخوف، لا بد أن تستقر الأمور، كان ضرورياً على المجلس أن يبحث عن حل توافقي يرضي جميع الأطراف ولا يتقص من هية الحاكم والمجلس. أرسلت بعض المساعدين في مهام خاصة تبحث عن عقليات تساعدنا على الخروج من هذا المأزق وتحفظ هية البلد، فلعلّ الفرج قريب.



(20) آدم

مايو 1763

أبحرنا باتجاه مضيق باب المندب؛ فتوجب علينا المرور بميناء المخا اليمنية. أصبح الخروج من عنق البحر الأحمر باتجاه بحر العرب غير ممكن ما لم تمر السفن بالمخا، كأنها ولادة قسرية، وضعت الدولة العثمانية قانوناً بفرض الضرائب على كل السفن في الاتجاهين. أبرزنا لهم التوصية المختومة من السلطان العثماني، كما فعلنا في المحطات السابقة. قدموا لنا تسهيلات للعبور وعرضوا علينا المبيت ثلاث ليالٍ للراحة قبل مواصلة الطريق، ولكن المرض يرفض الرحيل؛ إذ أصابت الحمى عالم الطبيعة باسكال. بقي للعلاج في ملحق الميناء، نزاعٌ بين الجسد والروح، انتهى كالعادة بانتصار الأخيرة. قضى الرجلُ نجه سريعاً في اليوم التالي. ضربني الارتباك وشيء من الخيفة والحزن، الحزنُ عدوى سريعة الذوبان. حالة وفاة ثانية، ما هي خطوة ملك الموت القادمة؟ ثم... مراسم دفن جديدة، أين يمكننا مواراته الثرى؟

- هل توجد مقابر للمسيحين هنا؟

- نعم.

- كيف؟ هل مرَّ أحدُ الرحالة هنا ولقي حتفه، فتناثرت القبور حوله

بالتقادم؟

- نعم، رحالة أوروبي يدعى لوبو. مات بعض مرافقيه، فدفنهم هنا، ثم

زادت أعدادُ الموتى؛ كلما مرَّ غيرهم، منذ بضع سنين فقط.

أصبحت أرى نذير شؤم. اتقاء البلاء خيرٌ من الوقوع فيه. كيف ونحن سنقى في هذه المدينة ليومين؟ مدينة فيها الكثير من المواقع الأثرية. ثممي ساكنها بسور كبير، تمتد من خلاله أبراج مرتفعة، وعلى امتداد البحر توجد قلعتان مزودتان بالمدافع الثقيلة. قلعة تُدعى الطيَّار، وقلعة أخرى تُسمى عبد الرّب، أكثر بيوتها من سعف النخيل، ويبرز من بينها - بشموخ - مسجد الشيخ الشاذلي.

صار لزاماً علينا اتباع أسلوب التغذية والحياة لأهل اليمن كي نستطيع المحافظة على صحتنا وحياتنا. غادرنا المخا في أسرع وقت ممكن. تنفسنا الصعداء ونحن على ظهر السفينة. الحمد لله.. لا زلنا أحياء، ولكن الكارثة أننا قضينا ليلة واحدة في البحر ثم عدنا أدراجنا. أصيب رَحالةٌ آخر بأعراض الكوليرا. عدنا بسفينة مجدداً إلى المخا، وأصاب المرضُ أنفسنا قبل أجسادنا. قضى الرجلُ على مهل، ودُفِنَ في مقابر الأوروبيين؛ نتيجةً غميمة للأمال؛ ليريق معي غيرُ الخادم، وزميلٌ آخر.

أعدنا المشهدَ الساخرَ مرة أخرى، وخلال أقرب فرصة سانحة، غادرنا بحر عدن وصولاً وهروباً لبحر العرب. الولادة من رحم البحر الأحمر كانت عرة جداً. يقال إن أُر الولادة دليل السلامة. صارت السلامة في هذه الرحلة أمنيةً. كان مخططاً لنا أن نسير إلى مومباي الهندية، وخلال الرحلة، توالى المصائب والأحزان ونازع آخر الزملاء، مات متأثراً بالكوليرا أيضاً. وليريق غير خادمي وأنا. بعد أداء المراسم الكنيسية على جسد زميلنا ألقيناه في البحر. بقي الكيس الأبيض لحظات طاقياً. تغفل الماء في ثناياه. توجهت الروح إلى السماء، ورحل الجسد إلى عمق البحر. الاتجاه العكسي يعني نفوراً مبيّثاً. لاعلاقة بين النور والتراب. نهاية صداقة وبداية علاقة.

أصبح الفناء هاجسي. صار جُلُّ همي إيصال مذكراتي، وما دونه زملائي من معلومات علمية قيمة، وما رُسم من خرائط للندنهارك. كنا في الطريق إلى مومباي، ومنها سنذهب شمالاً إلى سورات ثم الصين. شعرتُ بأعراض المرض ذاته. إنها النهاية، كان الطالع يقول إنني ذاهب إلى جزيرة، ولكننا على أطراف المحيط الهندي فقط. لعلها تكون إحدى جزر شبه الجزيرة الهندية. الرؤيا الصادقة لا تحتاج إلى مفسرين؛ شارحة لذاتها. لا بد من القتال من أجل الحياة. ألزبي المرض، وظهرت طلائع أعراضه. من يعاني من الموت البطيء؛ فإنه يدخل في معركة الدفاع عن الحياة. التزمت طريقة غذائية صارمة؛ تناولتُ خلالها الأرز المسلوق، والفاكهة المجففة. شربتُ الماء الفاتر بعد غلبي. ربما لا أستطيع مواصلة كتابة هذه المذكرات، ولربما يكتبها على لساني شخص آخر، مترجمةً أو منقحةً في لغتها الأصلية. المرض قد يكون هجيناً فيتضح في الجسد، ولكنه لا يندثر، ولا يموت. تبدو استحالة الوصول للهند والعيش فيها. لم يبق إلا مسير يوم واحد، حين اقتربت منا ظهراً سفينة قادمة من الهند. استقبلناها بصوت مدفع يُعرف عند الملاحين بطلقات الطوارئ. اقتربت منا، إنها قادمة من الهند، في اتجاه جزيرة هرمز الواقعة في عنق الخليج. لم أتوان، عرضتُ عليهم أن ينقلوني وخادمي هناك. الخيارات الكاذبة هي التي تبتناها من الآخرين، ولكن، كان لنا مرادنا وحق الاختيار، سألني الخادم:

- لماذا؟

- يجب ألا نخسر ثمار هذه الرحلة المضنية، ربما أسرقُ أو أقضي نحبي.

إن ما نملكه شعلة لانطلاق حضارة، كنزٌ ثمين.

توجهت السفينة الجديدة إلى مسقط، ثم بندر عباس، ومنها إلى جزيرة هرمز. قرأتُ الكثير عن تاريخها. تمنيت أن أزور خرائب

برسيوليس⁽¹⁾؛ حيث الكثير من الأسرار الأثرية المكتوبة باللغة المسهامية. كانت جزيرة هرمز قد سقطت منذ بضع سنين في يد الإنجليز والفرس. طرد البرتغاليون منها، وهناك كانت العدة على أشدها بتهيئة أسطول بمسمى فارسي؛ لعرض القوة، وإخافة القراصنة والقبائل المحيطة لجزيرة قريبة تُدعى دلمونيا، أو أرض الخلود. الهدف هو إخراجها من أطباع من حاولوا مراراً السيطرة عليها بعد اندحار البرتغاليين. تمتُّ الرحيل معهم اغتناماً للفرصة، ولكن للأمانة التي أحملها أحكاماً. لا بد من التوجه شمالاً نحو شط العرب والبصرة واستلام المبالغ المرسلة إلى الحملة من بلادي عبر القنصلية الهولندية هناك.

مكثتُ في هرمز ما يقرب من الشهرين. استعدتُ كامل صحتي، وأصبحتُ معروفاً لدى القادة والجنود الإنجليز وكذلك الفرس. اللغة الإنجليزية مفتاح مخمليّ ساحر. إنها من مظاهر القوميات القائمة على اللغات. كانت دلمونيا تقع تحت سيطرتهم منذ طرد البرتغاليين منها. أصبح ذلك الأرخيل نقطة العبور الأهم في الطريق التجارية التي تربط أوروبا بالهند. كوّنوا هناك شركة الهند الشرقية بعد القرار الذي صدر عن ملكة بريطانيا عام 1600م. سألتُ القنصل في هرمز عن إمكانية اللحاق بأي سفينة تأخذني إلى العراق كما كان مخططاً منذ بداية الرحلة؛ حيث يمكنني أن أرسل المخطوطات والخرائط إلى (غوتغن) قبل أن أموت، أو أسرق أو تضيع.

وعدني القنصل أن التحق بالسفينة المتوجهة للعراق، خلال الرحلة التي ستغادر بعد الظهر، خلال يومين أو ثلاثة، ولما وجدتُ الجنود على ظهر السفينة؛ عرفتُ أنها الرحلة المتظرة التي تستغرق ما يقرب من الخمسة

1 - مدينة فارسية بيت قبل الميلاد، وتقع على بعد خمسين كيلومتراً شمال شيراز.

أيام. قضينا أول ليلة على ظهر السفينة. تشبه سفينة الغليون التي ركبناها أول مرة في بحر الشمال. كان البحر هائجاً مائجاً؛ فتقنُ أن الرحلة ستكون عسيرة فعلاً، فكلما تقدمنا في عرض البحر ازداد تلاطم الأمواج. توجتُ من الكوارث المحتملة، وتمحستُ أوراقِي وخرائطي.

بعد الفجر، هدأت الأمواج التي تولدُ عادة من الرياح الشمسية والظواهر الطبيعية. لم يتبق منها غير أطراف ثوبها تتراقص فوق الشاطيء. ربما كانت وما زالت تخفي عاصفة هوجاء يُتوقع هديرها. ثم تلاشت الرياح تدريجياً، حتى حلّ السكون. بدأتُ الملح بزوغ الفجر في الأفق البعيد. توقعتُ أن تكون المياه زرقاء داكنة أو سوداء انعكاساً لعمق المياه الطبيعي هنا، ولكنها بدت خضراء دافئة هادئة، ثم بدت تنجلي الظلمة تدريجياً. أوقفتِ السفينة محركاتها، فبانت أرضٌ منخفضة على بعد ثلاثة أميال بحرية؛ سألتُ مرافقي:

- هل يمكن أن تكون هذه أرض العراق؟

- يُفترض ذلك.

- ولكن المير البحري للعراق يتفرق خمسة أيام تقريباً.

- ربما هو طريق مختصر لا تقلق، إن المتناقضات تدفعنا أحياناً للأمام.

- وربما هو الضياع البحري. ربما فقدت السفينة طريقها، أو يكون هناك

من يجزنا نحو حرب بحرية مع قراصنة القواسم.

- إنك تثير رعي وخوفي.

توجهتُ إلى القبطان الذي استيقظ من نومه للتو وبدت البهجة على

حياه كثيراً، كان يأمر العاملين بالتوقف التام، وانتظار القوارب القادمة من

الجزيرة... تحدثت إليه:

- لا أعتقد هذه هي العراق.

- لم تكن وجهتنا العراق حتى نصل لها!

- وما هذه الجزر؟

- إنها جزيرة دلمونيا الواقعة وسط الخليج.

انتظر القبطان في سفينته وصول القوارب الصغيرة التي أقبلت في خط شبه مستقيم، كانت تحمل على ظهرها أعداداً كبيرة من الجنود، بعضهم مرضى، وبعضهم الآخر سيعود لهرمز ليحل مكانهم جنود آخرون، أما المؤن والمعدات العسكرية فقد حملتها سفن شراعية أكبر، نقلتهم جميعاً لساحل دلمونيا.

- ألا تريد أن تذهب لهذه الجزيرة؟

- بل أريد الذهاب لأرض العراق؟

- لماذا؟ ألت من الرحالة الذين يريدون اكتشاف الجزيرة العربية؟

- نعم، ولكنني أولاً أريد إرسال جميع المخطوطات والرسومات التي بذلتُ وزملائي فيها جهداً مضمياً، أود إرسالها إلى كوبنهاغن عن طريق القنصل الهولندي في بغداد.

انتظرتُ على ظهر السفينة حتى المساء اللاحق حيث جاء وقتُ العودة إلى هرمز، وهناك بقيتُ أسبوعاً آخر أنتظر الرحلة إلى البصرة وأنا أرددُ: الحياةُ رحيل.



(21) السيب يوسف

يوليو 1763

عندما انقضت المحكمة الصورية، لم يكن هناك حكمٌ قضائي حازم جازم أمثل لأمره. كان ذلك سيثرنى ثم سيريجني حقاً. هو حكم قضائي، تُكَبَّلُ فيه الأيدي بالحديد، وتغلق فيه الأجفان تحت طبقات من الظلمات، يقع عليك بمرارته وقسوته، ولكن ينفُض تأثيره حين تألفه بعد حين، إلا أنني وِعوضاً عن ذلك، أُصَبْتُ بداء يعقوب، بَعْدُ الأمل الذي مَكَّنَه من البقاء في المنطقة المحايدة بين الماء والسراب. إن الوقوع في المكاره - بلا رب - أخفُ وطأة من انتظار البلاء. لا أعرف كيف سيكون الموقف غداً؛ هل يبعث التاجر معاونه للقصاص مني، أم يصبُّ جام غضبه على أحد أفراد أسرتي؟ أم أنه سيتقم من كبار المجتمع ورجالاتها، وعلى رأسهم أبي راشد، وحتى القاضي العرفي ومعاونه أنفسهم وإن تمّ تعيينهم رسمياً. في تلك الأمواج والأفكار المتضاربة تصيح بي زوجتي، كلما رأته شارداً الذهن، قليل الحيلة، خامل الجسد.

- يوسف، كيف صارت الأمور مع التاجر؟

- لم يطرأ أيُّ جديد، ولكنني أعرفُ أنه يتلذذ بتعذيبي هكذا. إنها ورقة ضغط يستخدمها عند الحاجة. الدهاءُ لا يفتحون أوراقهم كلها. ودون حكم نهائي؛ مُنعتُ من اللحاق بموسم الغوص بأمرٍ من التاجر، ولكنه مصادقٌ عليه من المحاكم. يمكنه أن يلفق تهماً أخرى، وينطقُ بالحكم وينفذه متى أراد.

- ما دمت تعرف هدفه وتستطيع تفسير شيطانه فلا تكثر له.

- بلغني أنه يتهمني بإثارة الفتنة، وأنني أحد زعماء الإضراب الذي نادى به أبو راشد. ربما يصادق الحاكم ومجلسه المعين على تلك التهم الملفقة، وحينها ينتهي الأمر بزواجك خلف القضبان.

- يوسف، إن ذئابهم لن تبقى بريئة من دمك حتى القيامة؛ سيقيم الله لك.

كنتُ على يقين أن كلمات المرأة ليست عابرة. قد يتهدى التاجر ويسرق الدواجن، وقد يضع يده على الدار فيتملكها. إن هذه الـ(قد) تشبه الـ(لو) في أحد نصفها فقط؛ حين تكتسي بخاصية الوجود. قد يسرق التاجر الحجرَ والحيوانَ، وتصلُ يده إلى العِرض.

أصبحتُ الأحداث متارعة منذ الإعلان عن الإضراب العام، والذي كان توقيته قوي التأثير. قبل موسم صيد اللؤلؤ القادم. توقيتُ وضع الكرة في ملعب الحاكم لاتخاذ قرارات حاسمة، ويصيب الجميع بالشلل، بل يجبر الكل على الخروج بحل يرضي جميع الأطراف. إنهم يتظرون انقضاء موسم الصيد هذا، ولكنهم يترقبون الأزمة في الموسم القادم، هكذا يعدو قطار الأيام.

كنتُ في هذه الليالي الصيفية أحب الاستلقاء والنوم فوق سطح المنزل، صارت العادة أن أراقب النجوم وهي تزين السماء. ها هي نجمة سهيل⁽¹⁾ تشرق على الجانب الغربي من سماء دلمونيا، ستبقى بازغةً حتى نهاية أغسطس، يبقى النجم منذ شروقه، ويبزغ حتى منتصف الليل، مائلاً للجنوب، يزاحم برونقه المخططات الهندسية لمجموعة النجم القطبي.

1 - نجمٌ أكبر من الشمس بعشرة أضعاف، ويستغرق وصول ضوئه للأرض 31 سنة ضوئية. سماه العربُ سهيل؛ لسهولة رؤيته، وشدة لمعانه. يُتبرر برؤيته في الخليج؛ لأنه دليل على انقضاء ذروة الصيف.

أخذتُ أراقبه وأنا أنتظر النعاس الذي فز من منامي بغتة. إنني أسمعُ جلبةً وطرقاً يأتي من كل أطراف البيت؛ أجزم إنهم حرس التاجر، أو ما يعرفون - محلياً - بخفافيش الظلام.

تقبل الخفافيش كعادتها بعد منتصف الليل أو قبل بزوغ الفجر. تلك الزمرة التي تعمل تحت إمرة التاجر والحاكم. أطبقوا سيطرتهم حول بيتنا المبنى من سعف النخيل وجذوعها المعروفة بـ(البرستي). استيقظ صغاري وأمهم على حركتهم داخل البيت، وما كدتُ أهبط من السطح، حتى لقيتهم أمامي أشباحاً تثير الشفقة قبل الرعب. إنَّ الجبان الخائف هو من يضع قناعاً حين يدعي تطبيق القانون، أما صاحب الحق، فلا يعمل إلا شجاعاً وفي وضوح النهار.

- اليب يوسف، أنت مطلوب عند الحاكم.

- سأذهب لمجلسه صباحاً.

- بل ستحضر معنا الآن.

- وما التهمة الموجهة لي؟

- تهمتك السابقة، وربما هناك جرائم أخرى. أنت تعرفها وتدرکها أكثر من الآخرين.

اجتمع الأطفال وهم يكون قريباً من الباب. أرادوا منعي من الخروج مع الخفافيش. اقتربت زوجتي منهم، رسمت كبرياءً وصموداً، فحبست دموعها، واحتبت أمرها الخالقها. صار هُمها أن تبعث الكينة في قلوب صغارها. سقط الخمار من على رأسها سهواً، فوقف الحرسُ أمام الباب من الداخل، كانت إحدى رجليّ رئيسهم في الخارج، استدار للداخل، وأعاد رجله معه، أزاح اللثام من على وجهه، إنه التاجر اللئيم بنفسه، نبي ما كان

عليه، وما جاء من أجله. أخذ ينظر للأطفال ويعاين أمهم، رفعت الحُرَّةُ رأسها فالتقط عينيها وأصابها، النظرة الزجاجية خادشة للحياء، أدركت مغزئ عينه وخبيث سريره. ربط لثامه، وأبقى على سهام عينه. تُلني رجاله خلفه، فأغلق الباب من الداخل.

احتشد الجيران حول البيت وعلى قارعة الطريق. أراد بعضهم أن يُبدي احتجاجه، ولو بكلمة، ولكن غشيم الصمتُ عندما رأوا البارود موجهاً لصدورهم والهرارات تكاد تقع على رؤوسهم. رُبطت يداي وكُبلت من الخلف، صُمِدت عيناي على الرغم مني. كنتُ أعرف الطريق وأدرك اتجاه مقر القضاء، ولكنها المراسم المتأصلة حين الاعتقال. أظنه الخوف الذي يلف قلب الظالم ويخفق شرايينه. الهروب من عيني المظلوم أول شهادات البراءة، بينما لا يُغمض للظالم جفنٌ ولا فؤاد.

امتطى التاجر ظهر فرسه، وركب حرسه على ثلاثة حمير. كان آخرهم يجرنى بحبل رُبط في ذراعي. أميَّتُ أسرع في مشيتي؛ حتى لا أقع أرضاً، وأجرُّ كالشاة المذبوحة، أيقنتُ منذ تلك الساعة أن جمال زوجتي أصاب التاجر في مقتل. صار لزاماً أن أحارب من أجل براءتي ومن أجل أسرتي و... شرفي.

أودعوني زنزانة خربة تقع تحت الأرض. صرتُ أشم روائح مختمرة؛ رائحة الطين والعرق والحرية. أجد أن روحي حرة طليقة كلما أوصدوا الأقفال، وغلقوا الأبواب، ولكن قلبي يهفو نحو عدالة السماء، ولكن الصقر - أيضاً - لا يترك صاحبه إلا إذا مات. لم أكن أعرف سبباً وجيهاً لسجني هذا. هل هو إثارة الناس على النظام القائم أم قتل ابن التاجر على مركب الصيد، أم جمال زوجتي؟!

دخل عليّ أحدُهم، كان ذا سحنة شبه حمراء، تقاطعُ غريبة لا تنتمي لتراب هذه الأرض. لون التربة يصبغ أهلها بملوحته. كان الرجل فارغ الطول، أحمر الوجتين، مكتمل اللحية التي كانت تميل شعيراتها للبني الفاتح. استجمع مفرداته، وتحدث بلكنة غريبة، بعربية عرجاء لا تشبه اللهجات المحلية الكثيرة هنا.

- "أنت فيه يبب يوسف؟"

- نعم.

- "هل جريمة إنت يعرفها؟"

ابتسمتُ، فشر البلية ما يضحك. ظننتُ أنه هرمزي، أو فارسي، وربما أفغاني.

- ما دخلك أنت بالجرائم هنا؟

- "فيه حاكم يقول إنت موت.. يعني إنت موت."

أغلق الباب خلفه فغاب شعاع الفجر الذي تواري خلف جدران السجن المزعوم. بدأتُ تاريخاً جديداً، تُكتبُ أولُ صفحاته في هذه الساعة. صرتُ أردد أن تاريخ سجن المظلوم مشرف، ولكن ما يرعيني هو ما سيحل بأسرتي. تذكرتُ مقولة للعميد: المرأة كالشجرة متى تعرت أصابتها النيران. كيف ذلك أيها الشيخ وزوجتي لرتتعر؟ أصبح لكل شاذ قاعدة كما كان لكل قاعدة شواذ. هل جلد الذات سينجيني من كُرتي؟ لا أظنه كذلك، يجب أن أتحملي بالإيمان والصبر؛ فالصبر الإيجابي هو توقع نتيجة سعيدة.



(22) المترجم

يوليو 1763

إن مغالطة الواقع محاولة للتمرد على القدر والهروب من الحقيقة، فإن أحرز الإنسان نجاحاً سُميت حركته ثورة تصحيحية، وإن أصاب فشلاً سُمي اجتهاداً؛ لأن الاجتهاد محاولة للوصول لحقيقة مجهولة قد تصيب وقد تخيب. إنها حكاية الشيخ سليمان رئيس قبيلة بني كعب التي تبسط نفوذها على أجزاء من البصرة في جنوب العراق. حكاية تنسحب على باقي أخواتها، بعيداً أو قريباً، قديماً أو حديثاً. كان مربوطاً بناصيته أن يحكم شط العرب بأهواره وجزره الرخوة، بامتداد أرضه شمالاً، قبل أن يعانق الفرات نهر دجلة، وحيث الوصول النهري لبغداد والبري لقلب.

لم يكن لقبيلته ولا لأجداده حق تقرير مصيرهم الجغرافي؛ فالبشر لا يختارون أماكن ولادتهم، ولا لبن أمهاتهم. صار للقبيلة موقع يجعلها على خط تماسٍ ومواجهة بين امتداد حضارتين، قد يجمعهما وفاقٌ سياسي فيتحدان، وخلافٌ فيتناحران، وتحت طائلة كل الظروف تكون القبيلة عرضة لنزاعاتهم وتوافقاتهم. القبائل كما الدول الصغيرة، ترتمي في حُضن جيرانها ارتقاءً تشي بالرغبة في التبرج، ومتى ما زال الخطر المحدق تعود الرغبة في الاستقلال. نوعٌ من المراهقة السياسية.

كان الصراع على أشده بين الدولتين العثمانية والفارسية. تمثلت العثمانية في واليها على بغداد، وتمثلت الفارسية في حاكمها كريم خان⁽¹⁾. الأول يريد

1 - كريم خان زند مؤسس الدولة الزندية في فارس (1705-1779).

بسط نفوذ إمبراطورته على المناطق المجاورة، والآخر عمل على السيطرة على المناطق المتنازع عليها، عن طريق بسط اليد وحكم الغاب.

تزامناً مع هذه النزاعات وتداعياتها، كانت رغبة آدم في الوصول لبغداد، وتلبيح مقتنياته الثمينة للقنصل الهولندي الذي يمثل المصالح الدنماركية. عليه أن يرسلها أو يموت سواها، وكذلك عليه استلام مبالغ مادية، ومساعدات أخرى مخصصة للرحالة. أخبره قبطانُ السفينة الإنجليزية بخطورة الموقف. قوة فارسية عملاقة، وقوة عثمانية هائلة، وبينهما قوة الحق الواقعة والمتمثلة في قبيلة بني كعب العربية، وكأن الحقَّ جُبل على أن تذرره الرياح:

- هل ستمكن من الوصول لبغداد بعد كل هذه المعوقات التي ذكرت؟

- علاقاتنا جيدة مع الشيخ سليمان. يسمح لنا بالمرور دائماً وبلا منغصات.

- وأين المعضلة إذًا؟

- المواجهات العسكرية القائمة، فإذا تزامن وصولنا معها فإننا لن نتمكن من المرور.

خلال الشهر الماضي، استقبلت القبيلة وفداً رفيع المستوى من الوالي العثماني في بغداد، والذي هدّد بفرض الجزية: إما الجزية وإما المواجهة. وقفت القبيلة على جبل من الخوف والقلق. برز الشيخ سليمان بحنكته ودهائه بينهم: قبيلتنا تقدرُ أشقاءها. مصيرنا ومصيركم واحد مشترك. نحن لم نمتنع عن دفع الجزية للدولة العثمانية أبداً، فقد أرسلنا وفداً يحمل الجزية للوالي، ولكنّ قوة فارسية قطعت الطريق على الوفد، وسرقت

الجزية. هذا ما يفعلونه ويفأخرون به دوماً. نحن لا نملك القدرة العسكرية للوقوف في وجه الفرس. عليكم مواجهة جيشهم. القضاء عليهم، ومن ثم يصبح الطريق مهيناً لاستلام حقوقكم.

بُهِتَ الذي حضر. أصاب الشيخُ بجوابه الوفدَ في مقتل: إنه يجزنا لك حرب لا قيل له بها. خسائر الحروب دمارٌ تحمله أممٌ بأجياها. أثر الوفدُ الصمتَ والتمهل للوقوف على تفاصيل أكثر. عَضُوا أناملهم من الغيظ، أما أبناءُ القبيلة، فأدركوا أن السياسي الناجح هو الأقدر على الكذب والخداع.

اقتربتِ السفينة الإنجليزية من شمال الخليج، مسافة ميل بحري واحد. رآها رجالُ بني كعب من أعلى سارية سفيتهم. ألقوا عليهم تحية السلام المتعارف عليها. للمدافع لغة واحدة ولهجات متعددة. لهجة دينية وأخرى قتالية وأخرى تعني السلام! تبادلت السفينة الزائرة التحية واقتربتا من بعضهما. انتقل أحدُ البحارة العرب للسفينة:

- الشيخ سليمان رئيس قبيلة بني كعب يلفكم التحية، ويرحب بكم من على سفينة "البصراوية". بدعوكم أن تفضلوا بالسلام عليه في سفينة. أعاد القبطان التحية. أمر اثنين من طاقمه أن يرافقه. نظر إلى آدم الواقف بجواره: كُن معنا، ربما تزداد مدوناتك بمعرفة القبائل العربية، وربما تتمكن بعدها من زيارة القنصلية في بغداد. رافقهم بلا تردد، أغلب التردد في اتخاذ قرارٍ ما هو رفضٌ مؤجل. وطأت أرجلهم ظهر السفينة. وجدوا مؤخرتها مفروشة بجاد أحمر وجلسة عربية أصيلة تنم عن فخامة صاحبها. تقدم الشيخُ يصافحهم فرداً فرداً. رحب بهم ودعاهم لمجلسه، جلسوا على يمينه، في مواجهة سفيتهم، وصار آدم رابعهم. أخذ يحدق في الشيخ ويحزنُ في ذاكرته:

- رجلٌ أميلٌ للطول، قوي البنية، بارز الصدر، عريض الكتفين، دائري الوجه، عينان لوزيتان برّاقتان، أنفٌ دقيقٌ وطويل، لحية كاملة الاستدارة إلى ما قبل العارضين، تناثرت عليها بعض الشعيرات البيضاء. حاولتُ التحديق في عينيه فوجدتها كماء راكد، كلما أمعنت النظر فيه لا تجد إلا نفسك ولا تقرأ إلا أفكارك. الماءُ مرآةٌ خادعة. كان يتحدث بصوتٍ واثق يعكس نفساً متقرّرةً، استشعرتُ الأمان عند أصحابه، وكأنها ملاذهم منه وإليه. أظن أن القائدَ والحاكمَ الحق هو الذي يجد العامةً في ضالتهم، فليس الحاكم هو من يتسلط على سواه، بل من يمثلهم رغبةً في سعادتهم.

سأل الشيخُ القبطانَ عن سبب رحلتهم هذه:

- نحن في مهمة إنسانية نبيلة؛ تمثل في توصيل هذا الرجل الرخالة إلى والي بغداد. عليه أن يُوصلَ مقتنيات رحلته وزملائه إلى بلاده، فهي شديدة الأهمية.

أوما الشيخ في وجه آدم ثلاثاً، فلقاها الأخير بفأل حسن، ثم استأذن القبطانُ الشيخَ في سؤاله:

- سيدي، هل ما زالت الرسوم الضريبية للعبور في شط العرب ثابتة؟
- نحن نتقاضى ثلاث عملات محمدية⁽¹⁾ على السفن الصديقة، كالبريطانية وغيرها، وسبع عملات على من يدينون ديننا ومذهبنا، واثني عشر محمدية، على من يختلفون عنا مذهبياً. تفضلوا... تفضلوا.. فقد وصلت المائدة، لتشعروا بأنكم بين أهليكم.

استغلَّ آدمُ انشغالَ الحاضرين. اقترب من القبطان يُرّهُ بما فيه:

1 - إحدى العملات التي كانت متداولة في منطقة الخليج، بالإضافة إلى الطويلة والأشرفية والكرونا وغيرها.

- لماذا أنتم ثلاثُ عملات فقط؟

- للشيخ سليمان نظرة بعيدة المدى. لا تأتي الرمية دون رام. لا تأمن جانب صديقك كما عدوك، ربّما يطلبُ يوماً ما أن ترسو السفنُ الإنجليزية في أحد موانئه. وتتخذ موطأ قدم لها في الخليج.

- وما الذي سيَجنيه؟

- الدول الصغيرة مدنٌ تبحث عن الاستقرار. إن قبيلته تقع على خط النار بين الفرس والعثمانيين. الأمم الكبيرة غالباً ما تكون جبانة، فلا تواجه بعضها. تبحث عن مسرح حرب على أرض غيرها. يتوقع الشيخ أن تكون أرضه مسرحاً للحرب أو نزاع قادم بينهما، لا يخسر فيها المتخاصمان ولكن تخسر ساحة الصراع بينهما. يريدنا الشيخ أن نتخذ مواقعنا على أراضيه. نحن نحصل على تسهيلات في العبور بين الشرق والغرب، ونشري تجارتنا وقوتنا عبر شركة الهند الشرقية، كما يريد أن تقوى شركته بناء، كأننا فزاعة يرفعها في وجه من يريد بهم سوءاً، إن اتفاقيات الدفاع، واستضافة القواعد العسكرية، لا تدع الخيار السياسي بيد الحاكم.

- يا إلهي، ولكن لماذا يأخذ ضريبة مختلفة على من يتماثلون معه في اللغة والدين؟

- المهاجس من الآخر. هناك في نفسه عدوٌ وهمي. هو لا يُسأل عنه، ولكن الثقافة التي تربى عليها وتشرب منها تنمي فيه هذه المهاجس. قد يخاف الإنسان ممن يماثله، وقد يرتعب ممن يختلف معه.

قطع حوارهم الجانبي الشيخ سليمان بطلبه المفاجئ من القبطان:

- كما تعرفون حتماً، فإن كريم خان حاكم فارس يطالبنا - بدوره - بالحصول على الجزية والمشاركة معنا في الحصول على نسبة من ضرائب

السفن التي تمر عبر شط العرب. سيصل حتماً وقد يمثل حكومته للتفاوض حول ذلك. نحن - بدورنا - نرفض سلفاً أن يضم مناطقنا لدولته، كما نرفض أن يشاركنا دخل الضرائب ودفع الجزية، ولكن لا نستطيع رفض المطالب كلها، إما أن نكون ضمن دولته، أو ندفع له الجزية؛ نترقب مساعدتكم..

- كيف يكون لنا دور وساطة في مساعدتكم وحل الأزمة؟

اقترح الشيخ سليمان على القبطان أن يكون الاجتماع مع الفرس عبر طرف ثالث وفوق أرض محايدة؛ عبر الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وفوق السفينة (لوبين) التي ترفع علمها. ستكون المفاوضات تحت راية وسيط ثالث، لعل الطرف الأضعف يحتمي بالأقوى، ولعلّ القوي يجد من هو ندله.

وصل الوفد الفارسي إلى شمال الخليج كما كان مرتقباً، فانتقلوا إلى السفينة البريطانية المعدة للتو لاحتضان المفاوضات:

- جلالة زعيم فارس كريم خان يهديكم تحياته، ويبلغكم أنّ دفع الجزية حق دولي وإنساني؛ لأنه يدافع عن أراضيكم وأنفسكم في وجه الطامعين. أنتم ومن حيث لا تشعرون تقعون تحت حمايته.

- نحن لم نبخل على حاكمكم بالجزية، ولكن القوات العثمانية تعقبنا من الشمال، وتصطاد الجزية المرسلة لكم، وتقتل الجنود المرافقين، عليكم بقطع يد العثمانيين، حتى ننعّم بالأمن وحتى تصلكم حقوقكم كاملة.

غادر الوفد الفارسي السفينة والبرق يسطع من عينه. لم يعلقوا ولو بنت شفة. فطن الشيخ سليمان للخطوة القادمة. كان يعرف ويتوقع هذه النتيجة الحتمية. طمأن قومَه وأصحابه وطلب من القبطان العودة إلى

هرمز، أو البقاء على بعد خمسة أميال بحرية: نحن نعرف أن الخائن أرسل سفنه لنا، سنتقبله في الأهوار. الحرب ليست قوة فقط ولكنها مكيدة. من يخطط لها يجني ثمرها، سيصلكم رسي قريباً. أثق بأنني سأوصل مقتنيات الرحالة إلى بغداد، إذا ما وافق آدم أن يلمني إياها. كلها أو بعضها، على أن أدعوه مجدداً، وبعد انتهاء الأزمة مع فارس أن يعبر شط العرب وصولاً لبغداد بنفسه، كما منطلب منكم أن تتخذوا موافعكم قريباً من شط العرب.

تمالك الوجلُ آدمَ متردداً. اختار من مقتنياته بعض رسومه الخاصة. تلك التي خطها بيده، ويستطيع أن يرسمها سريعاً من مخزون ذاكرته، لن تغيب عنه ولن تتعصي عليه، سلمها للشيخ وهو يضغط على يده. ذكره بقيمة الأمانة المعنوية والمادية. شكره الشيخ على حسن الثقة.

لم تمض سوى ليلة واحدة حتى وصلت السفن الحربية الفارسية إلى منطقة الأهوار. أطلقت نيرانها على الشواطئ القريبة. لم تكن قوات الشيخ قادرة على صد الهجوم، ولا الوقوف في وجه الغزاة. البون شاسع بين البارود والمدفع. اكتشف الشيخ أن السفن الحربية الكبرى ثلاثاً⁽¹⁾، ولكن الصغيرة زاد عددها على العشر. أمر قواته بالانسحاب من الجزيرة الأولى؛ فاحتلها القادمون الذين واصلوا زحفهم للجزيرة الثانية، وأعاد الكرة مع الجزيرة الثالثة، كلما تقدمت قواتهم أمرَ قواته بالتراجع وعدم المواجهة. أصبحت مياه الأهوار أقل عمقاً تدريجياً، وصارت حركة السفن بطيئة، حيث بدأ قاعها يجتلك بالرمال والوحل.

1 - لم يكن لدى الفرس - حينها - غير ثلاث سفن حربية فقط، هي: بريبول، سوسة، المظفري - د. عيسى أمين.

ولما جنَّ الليلُ، انتظروا الجَزَرَ اللَّيْلِي، فلما انحمرت المياه أصابَ الشَّلل السفنَ تماماً. أمر جنوده بالتحرك إلى السفن التي كانت في المقدمة. وبهدوء تام، وصلوا للسفن، ورموا جبالهم باتجاه فوهات المدافع، وسحبوها بقواربهم الصغيرة باتجاه الأرض. شعر الفرس أن سفنهم صارت في متناول قوات الشيخ سليمان. أصبحت المواجهة رجلاً لرجل. هنا تفهقر جيش الخان، وتراجعت سفنهم الكبيرة، وانسحب ما بقي من السفن الصغيرة. بعد العجز عن الحل العسكري، أديرت عجلةُ المفاوضات من جديد، ولكن بحسابات مختلفة. وافق الفرسُ على استقلال الإقليم مقابل السماح لسفنهم التجارية بعبور شط العرب ودفْع سبع عملات محمدية لكل سفينة، بشرط أن تشتري السفن في طريق عودتها كميات محددة من التمور البصرية. وصل الخبرُ بدوره إلى والي بغداد، الذي توقف - من جانبه - عن مطالبه السابقة.



(23) خولة

يوليو 1763

أقبلت امرأة السيب يوسف وأطفالها يتحبون مما أصابهم؛ فأفحنا لهم الدار، واقترشنا الأرض ورداً ومودة. استقبلها العميد مرحباً. كانت في بداية العشرينيات من عمرها. جمالٌ بلدي فاتن ببساطته. أمرٌ بإدخالها وأولادها إلى غرفة النساء. لم يكن ممكناً استقبالها في المجلس تجنباً لزيارات رجالية محتملة. سألني البقاء معها، ومعرفة أسرار زيارتها المفاجئة والفاجعة التي تبدو عليها. هذأتُ من روعها.

- سيدتي، لا يرد القضاء إلا الدعاء، واعلمي أنه لا راد لقضائه إلا هو.

- ونعم بالله.

- ما وراؤك؟

- لا أظنُّ أن الأمر وصلكم حتى الآن، لعلَّ الخبر تأخر كثيراً؛ لأنكم تقطنون أطراف القرية.

- ما الخطب؟ لقد ضربت الهواجسُ فؤادي.

أوضحتُ أن التاجر هجم برجاله على الدار، وأخذوا يوسف إلى جهة لا يعلم بها إلا الله. يقولون إنه تنفيذٌ لأمر قضائي وبموافقة الحاكم نفسه. لم يذكروا أن التهمة الموجهة إليه هي القتل العمد لابن التاجر المدعو ناصر. يقولون إن هناك قضايا أخرى. ذكروا أن يوسف هو الذراع الأيمن لأبي راشد، وأنه وراء الدعوات الاحتجاجية في كل مكان. يقولون إنه وراء النزاع بين البحارة والنوخذة في البحر، وأنه يقف خلف الإضراب المزمع في

موسم الصيد القادم، وأنه مع غضب بعض المزارعين؛ بسبب الضرائب المفروضة عليهم. أشعر بأنها تم ملفقة لإشغال قيل الفتنة.

تدخل العميد بإسلوبه الأبوي الذي يث الإيثار والصبر في قلوبنا:

- بنيتي، ما دام الأمر كذلك؛ فإن الوقت كفيلاً بأن يجعل الأمر حلاً، ويرشده إلى مخرج. أعرف أن المواجهة طويلة الأمد مع السلطة تنهي في الغالب لمصلحة الحاكم. إننا لا نختار طريق العنف سيلاً، سنقذف بصلاح الحب في قلبه؛ فالحب ماء الحياة، وهو السلاح الأنجع في المواجهات. لا بد أن نعي أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من حُب الدنيا، لذلك كله؛ يجب على كل مظلوم أن يُظهر مظلوميته، أن يطالب بحقه بشرط ألا تطفئ مصالحه الشخصية على مصلحة الجماعة؛ فهناك من يود الاستئثار بالسلطة ومغازلة النفوذ، وهناك عوامل تدفع المواطن للاقتناع بالخنوع والقبول بالتأزيم، وربما لجلد الذات؛ لأنه يبحث عن الاستقرار. تزداد حينها النعمة الذاتية ويضع أمل التغيير. تلك نتائج مواجهة القوة بالقوة، العنف والعنف المضاد. سيقبى صاحب السلطة أعلى شأنًا، ولكن بالحب نستطيع التغلب على كل ذلك. قمة الرضا أن تكون مسروراً في نعمتك كما نعمتك. نستطيع أن نتخرج الإصلاح بالدلو من قاع البئر المظلم، وإن كان قحطاً أصابه الجفاف.

- جدي، ألا تعتقد أن ما تقول هو ضرب من عالم المثاليات والقيم

المطلقة فقط؟

- إن المثاليات التي تحدثين عنها هي عالم السموات للكمال الإلهي. نحن

لن نصل للكمال المطلق ولكن يمكننا الصعود على بعض عتباته. ذلك يكفي ابتداءً، إن السير في ذلك السيل والتسليم به كفيلاً بفك العقد وحل

الأزمات. لقد عايشت الكثير من التقلبات والأوجاع على هذه الجزيرة، لم تستطع القوة مجابهة القوة والتغلب عليها أبداً. إن الحكم الذي يتمد رباطه جأشه من السلاح، يستطيع إراقة الدماء وحبس الأنفس، ولكنه لا ينام قرير عين. بعد عن السعادة كبعد المشرقين، أما منزع السلاح؛ فإن المجابهة والمواجهة معه تبدو في ظاهرها خاسرة، ولكنها في قرارها رابحة، لها الغلبة ولو بعد حين. منذ العام 1735 حتى الآن تغير الحكم ما يقرب عشر مرات، وتغيرت أنظمة الحكم على هذه الجزيرة مرات ومرات. أفرزت المواجهات الدموية خسائر لجميع الأطراف. خسر الحاكم سدة الحكم، وعادت عجلة التقدم بالشعب للوراء. على الأطراف المتنازعة - الآن - أن تمد أواصر المحبة، وتشد جسوراً من الثقة، وأن تغلب المصالح المجتمعية على الفردية... هنالك سبقي و... نفرح.

لرتقع المرأة بما سمعت، فلا مناص من مواجهة التاجر المجرم. أمكت بيدي واقترينا من العميد. استأذنته للجلوس إلى جواره والحديث معه في أمر خاص. لرتمانع في أن أشاركها الحوار. قالت:

- أيها العميد، إنك تعرف من خلال تجاربك السابقة، ومن الذي يُنقل إليك تواتراً، أن التاجر وأعوانه يعيشون في الأرض فساداً. يُقال إنها تجري دون معرفة الحاكم، ولكن هذا لا يمنع من أن كل مكروه واقع على هذه الجزيرة هو باسم الحاكم. المسألة الإلهية والإنسانية وحتى التاريخية ستقع عليه لا محالة. إن التاجر يعمد إلى الاستيلاء على أراضي المزارعين بالقوة، عندما يعجزون عن دفع الضرائب بسبب نقص المحصول. إنه يرق علف المواشي بالقوة. لقد دفع بعجوله مع أبقار المواطنين لتسمينها، وأمر - مؤخراً - جميع المزارعين بتقديم الطعام لأي عابر سبيل كما لرجال

وحرصه. أخبرني يوسف عن إجبار الفلاحين والصيادين على تموين مطبخ التاجر، ومطبخ الحاكم بالسّمك والتمر والخضروات، وأخبرني أيضاً....
تلعثت المرأة في حديثها، وتحشرت الكلمات في صدرها، حتى سألتها: وماذا بعد؟

- عندما جُرَّ يوسفُ فجر اليوم، خدش التاجر حيائي بوقاحة نظراته الزانية. هذا الرجل النحيف الأمدأ أبدئ رغبة حقيرة تدركها المرأة بسهولة عندما تجدها مرمومة على وجه أي رجل. هذه الرغبة الجنسية والدونية تتجاسر على وجه الرجل؛ فترسمها على تقاطيعه.

- ألا يمكن أن يكون إحساسك في غير محله ولا أساس له؟

- عندما يعثقك أحدٌ فإن شيئاً منه يتقل إليك، وقد تنفسه كلما طالك الصمت. أيها العميد، لقد هربتُ من البيت لاجئة إليك. لقد عرف يوسف بما يريد هذا النجس، وأيقنتُ رغبته الحيوانية. لا شك أنك سمعتَ عن سرقات الزوجات في كثير من الأرياف والقرى، ولا أريد أن أكون أنا ضمن سلسلة الحلقات القادمة. أتمنى أن أكون تحت طائلة الاغتيالات التي يقوم بها سراً على أن أهبه شرفي. أي حبّ تريدنا أن ندفع به في وجه هذه العصابة المجرمة؟

شرح العميد رأيه باستفاضة حول ما يجري من التاجر وأعوانه. أوضح أن الحاكم هو صوريٌّ في وضعه الراهن، أما من يملك السلطة الظالمة على الأرض، ويستأثر بها حالياً، فهو التاجر وحاشيته، وفي بعض المظالم تكون أدلة الاتهام هلامية غير جازمة، لا يمكن مواجهتها لأنها تحدث في الظلام. إن الحبّ الذي كان يرمي إليه ليس الحب الخانع، ليس الحب السليبي الذي يرضى بذلك، بل هو الحب الإيجابي وهو الذي يطفئ على المعاملات البشرية.

- نحن يا بنيتي، لا نقبلُ بالظلم وندعو لمجاہتہ، ولكن هناك بعض الأمور التي لا يوجد لها في القضاء الشرعي حكمٌ ظاهر.

- لرا أفهم ما ترمي إليه يا جدي.

- تعرفين يا خولة أن في القصاص حياة؟ فمن قتل يُقتل ومن سرق تُقطع يده، ولكن لو رمى رجلٌ رجلاً آخر بحجر على رأسه فأذهب عقله، هل يُضربُ الجاني على رأسه بحجر أيضاً؟ وهل نجزم بذهاب عقله حينها؟ هل هناك من يجزم بمثلية العقاب؟ ماذا سيحدث لو أعطيتَ حينها الجاني غصن ياسمين؟ سيكون تأثير ذلك كبيراً عليه. الدفع بالخير يهزم الشر ويعاقب الجاني.

أدرکتُ ما يرمي إليه العميد. قد لا تفهم بعقلك ما يذهب إليه، ولكن يمكنك أن تتشعر قصده ومآربه إذا وجد الضوء والخير منفذاً إلى قلبك. لقد قيل سابقاً إن الحكمة لا تدخل جوفاً امتلاً بالطعام، وقيل أيضاً إن من يقرأ القرآن جائعاً فإن روحه تكون أقرب إليه. ذلك المعنى المادي يستحيل فهمه ولكن المعنى الروحي هو الأقرب للاستيعاب. تلك هي الحالات التي يشعر فيها الإنسان بالقناعة والرضى، وإذا رضيت عن نفسك؛ فإنك تشعر بالجنة داخلك وحينها تشعر وتنعم بالسلام، ذلك هو العقاب الأنجع للظالم، فهو يود أن يسلبك أغلى ما يمكن، ولن يسلبك السلام والخير الذي تنعم به، سيكون في سباق محمود معك، يريد أن ينعم بالجنة التي تنعم بها أنت؛ ولذلك سيُشعر بالهزيمة. ذلك هو النصر الملائكي المنشود.

كانت الدروس التي يُلقى بها العميدُ في أسرته ومجتمعه سيلاً من الخير لا يتوقف. قد يحدنا عليها البعض، وقد يغبطننا عليها المحبون. وبعد يومين من قرار العميد بقاء زوجة يوسف وأبنائها في دارنا، تواصل فيضه

علينا. كنتُ كلما دخلتُ عليه لا أجده إلا صامتاً. من يجتلي بنفسه فإنه لن يشعر بالوحدة. يلتقيك بعينه فتفرج أساريره تدريجياً، حتى يعود لعالم المادة. من يجمله يظن أنه يكتُم أسراراً. كانت حالة استثنائية في حديثه هذه المرة، صار يحدثني كأمرأة ناضجة راشدة، في مفرداته المعتادة الكثير من الحكمة والفلسفة. إنها كلماتٌ نادرة حين قال: "أهلاً بجميكتنا الفاتنة". أعرف أن المرأة تعي أنوثتها حين العزف على وتر جمالها، وما كان العميد يركز إلا على جمال المرأة في دينها ورجاحة عقلها..

-- بنيتي، لا ريب أنك قرأت القرآن كثيراً.

- نعم.

- ولا شك أنك تُدركين أن الكتب السماوية جميعها ترفع من قيم الإنسان، ولكن الله خصنا بالقرآن الخالد، كما خصَّ غيرنا بكتبه ورسالاته، لذلك فالقرآن أقرب إلينا. اقتطفتُ منه آية لعلك تضيفين لي الكثير من معانيها التي غابت عني. أيتها الخولة الجميلة، ماذا تفهمين من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفِيدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)؟

- ربما يكون الفساد هو قطع الشجر والغور في المياه وقطع الأرزاق.

- نعم بنيتي. يضاف لذلك أهمية دعوته تعالى لعدم الفساد في المجتمع؛ فقد خلق الله الأرض على أنها دار ممر لا دار مقر. فبنظرة تكوينية أصلح الله حال البشر. أما الفساد فيحدث من عدم السير على هذا المبدأ.

ثم أسهب العميد، وأقبلت زوجة يوسف تحصد من ثماره الذي أينع منذ

دهر بعيد:

- الإنسان كائن ملوكي، عقلي أو غير عقلي، ولذلك أختلف الحكمُ على سلوكه، بوصفه إنسانياً، أم حيوانياً، وقالوا إن عقله نبي، ولكنه يمتلك الإرادة والأهلية في عقله، فصار لزاماً عليه أن يتحمل المسؤولية. هناك أمور خمة إذا صلحت صلح المجتمع. تحدث وهو يعدهم بأصابع يمينه: العقل، الدين، المال، النفس والعرض. العقل يا عزيزتي هو قوة تنظم السلوك، وهو وظيفة للمخ؛ ولذلك فأول شيء خلقه الله هو العقل؛ العقل عين التفكير، ثمرة وجود الإنسان. الدنيا تغيرها العقول لا الأجساد، والعقل هو ما يُعبد به الرحمن؛ ذلك الصانع الأول، فمن يستعمل الخمر والحشيش مثلاً، فإنه يريد تعطيل ذلك العقل، فيتم نتيجة لذلك؛ تعطيل الفرد والأسرة وصولاً للمجتمع، فلو طبقنا العقل على إحدى من الزواج مثلاً؛ فإننا نجد أن العقد - وهو أمر عقلي - يضي على العلاقة الزوجية قداسة: زوج بزوجة، زوج بزوجات في حالات استثنائية؛ كالحرب والمرض والعقر وحتى النشوز. ولكن، أصبحت الأسرة الشرقية تحن للتمرد في انحرافاتهما. هناك تيارات جارفة، والتيار غول وهمي يجب مقاومته لا الانصياع له.

- وثانيهما؟

- الدين يا عزيزتي. الدين هو المعاملات بفنونها وممارساتها. الدين يُحدد ويصلح العلاقات؛ فالأديان كاملة بينما علم الإنسان ناقص. هل توافقيني أنه بإمكانني أن أحوّل الإنسان إلى حيوان خلال لحظة واحدة فقط؟

- أعتقد أن ذلك صعبٌ بل مستحيل، ولكن.. كيف؟

- بصفة واحدة على وجهه يفقد الإنسان معها عقله؛ فيتحول إلى حيوان. قد تصفحه في ماله فيفقد عقله، كما أن المال هو ما يُتموّل به؛ يُشبع

الحاجات ويتنافس العقلاء عليه. ذلك هو الدين الذي يتحقق بالدعاء؛ حيث شعور بالنقص يقابله شعور بالكمال عند الله. قال تعالى في حديث قدسي: من أراد رحمتي فليرحم خلقي.

أما النفس يا بنتي، فقد وردت بلفظ واحد متعدد الدلالات، فجاءت بمعنى الجسد حين قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾⁽¹⁾، وجاءت بمعنى الروح في قوله: ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾⁽²⁾، ولكن مصطلح النفس يعني الإنسان الذي سخر الله تعالى له السماوات والأرض، وهو روح الوجود ونوره وأثمن المخلوقات، والله وحده أن يترد ما وهب وهو من سخر الحماية له، حتى قال: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾⁽³⁾، ولا تتحقق حالة الدفاع إلا عن النفس والمجتمع، لذا قال العرب: إن القتل أنفى للقتل.

قطع الحديث على حين غرة طارقاً بالباب. فتحه راشد، عاد مسرعاً: جدي، إنهم حرس التاجر.



1- آل عمران: 85.

2- الفجر: 27.

3- الإسراء: 33.

(24) أبو راشد

أغسطس 1763

خلال عودتنا من موسم الصيد الكبير، قصدنا المرور بأحد الكويكبات المائية التي تقع في الوسط الغربي للجزيرة الأم. كنا على بعد أمتارٍ قليلة من جزيرة فشتية نائمة، تعرف باسم "يعسوب". اتخذتُ شكل فاكهة الكمثرى التي نضجت واسودّ لونها ولم تُقطف بعد. نزل بعض البحارة بجرهم الجلدية إلى قاع الكويكب. دفعوا بالجراب إلى الماء الزلال المتدفق بقوة، بينما ظلت أرجلهم وسراويلهم ترفرف مستوية للأعلى، وكأنها النحل حين يراود بفضوله وردةً عن نفسها. امتلات الجراب جميعاً تزامناً مع دخول وقت صلاة الظهر. اقترح النوخذة التوقف استراحةً لأداء الصلاة، وتناول وجبة الغداء قبل مواصلة الإبحار شمالاً والعودة للوطن عصراً، أو قبل الغروب.

وأثناء توقفنا، صارت جزيرة يعسوب⁽¹⁾ قريبة جداً. إنها جزيرة جيرية مرتفعة خشنة في شالها ومنحدرة رملية في ذيلها. في وسطها يبدو أحدُ القبور أكثر ارتفاعاً وتميزاً. كان أمراً صادماً أن نرى رجلاً وحيداً يقطن هذه الجزيرة. أخذ الرجلُ يلوح بيديه. أخبرتُ النوخذة عن رغبتنا في الباحة إلى شاطئها، ومعرفة ما وراء هذا الرجل، لعلّه يحتاج إلى أن نمده يد العون والمساعدة. ربما يكون صياداً فقد قاربه ولجأ إلى هذه القطعة الضائعة. أبدى

1 - يعسوب هو أحد صحابة الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وقد دُفن وسط هذه الجزيرة.

النوخذة تفهماً لطرحنا ومرامنا. اقترح أحد الغواصين أن يرافقني سباحة إلى حيث الرجل الذي وقف على الشاطئ؛ ينتظر وصولنا.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- ماذا تفعل على هذه الجزيرة وحدك؟ لا بد أنك صائد سمك فقد قاربته. سرحب بك على ظهر سفيتنا التي ستصل الوطن عصر اليوم. يمكننا أن نأخذك معنا.

- أنا لم أفقد قاربي الصغير؛ فهو مربوط بمجدافيه على الساحل الغربي.

أشار بسبابته اليمنى وقال: هناك.

- وماذا تفعل هنا؟

ابتعد قليلاً، وتلثم قبل أن ينطق ببعض كلمات. لم يكن يعرفني ولا يعرف مرافقي. ذلك أراحه حين الحديث. أخذني إليه بجوار القبر القابع وسط الجزيرة تقريباً. طلب من مرافقي الابتعاد. أقسم عليّ أن يكون حديثنا هذا عابراً، وألا أسأل عن اسمه وعن عائلته أو قبيلته. أراد لنفسه أن يظل مجهولاً قبل أن يُفضي عما في داخله. كأنه يود القول إن للمجتمع قيوداً تفرض علينا أن نتبنى أفكاراً وسلوكاً معيناً؛ فحين نتخلص من الدور الرقابي للمجتمع، تبرز الحرية الشخصية، ويظهر الرقيب الداخلي فقط، حينها - إذا - يلمع معدن الإنسان الحقيقي. تحدث الرجل الخميني، وكأنها صار يفضي عما يجول بداخله:

- أنا مزارع أظن أحد أرياف الجزيرة الشرقية القريبة من جزيرة دلمونيا الأم. متزوج ولدي سبعة أبناء وثلاث بنات. كلهم أنجبتهم من الزوجة الأولى. تزوجتُ ثلاث مراتٍ أُخرى، ولكنني انفصلتُ بعد كل زيجة بعامٍ أو

عامين كحد أقصى. كنتُ أتمنى من خلال الأسرة، ومن خلال تعدد الزوجات أن أتوقف في وجه الرغبة الجنسية الجامحة التي تجتاحني كل يوم. صرتُ أمارس الجنس الحلال كل يوم، ولكنني لم أكف؛ بل ازدادتُ شبقاً. دفعني ذلك الثوران إلى ممارسة الجنس الحرام، فصرتُ أبحث عن اللذة بين اللعوبات والغلمان؛ متمنياً أن يهدأ بركان هذه الرغبة الجامحة، ولكنها صارت تلهيني كالنار، كلما أطعمتها حطباً ازدادت لهباً وشرراً. لم يكن لي خيار غير أن أخبر أسرتي أنني مسافر للحج؛ فقد كنتُ أعرف أنّ الحالة الجنسية التي أعيشها هي مرضٌ حقيقي، كما أكد لي ذلك أحدُ رجال الدين. آثرتُ الابتعاد إلى هذه الجزيرة النائية، والعيش هنا؛ كي أعيد تربية نفسي وأودبها.

وجدتني أردد:

النفس راغبة إذا رغبتها ومتى تُرد إلى قليل تقنع

سألته عن مائه وغذائه. كيف يبقى حياً على هذه القطعة الجيرية الضائعة. قال إنه مزارع يعرف سُبُل الحرث، وأنه كباقي سكان دلونيا، لا يصعب عليه الغوص واستخراج الماء من الكويكبات، وليس مستحيلاً صيد الأسماك التي يبيع أكثرها لبعض السفن العابرة، ويأخذ مقابلها الأرز وسواه. لقد بنى لنفسه في البحر حظيرة من عصي النخل وسعفه؛ ليقفات على صيد السمك.

- ومتى ستعود إلى أهلِكَ وناسك؟

- حين يتحقق الهدف الذي تركتُ الدنيا من أجله.

استمحته أن أتحدث معه بشفافية مطلقة لا تكلفَ فيها، وأن أبدي رأسي

بوضوح؛ فالكلام الذي يخرج من القلب يصل للقلب ولا يجيد.

- أيها الرجل، كما تعرفُ أنه قد زُنَّ للناس حبُّ الشهوات، ومن تلك الشهوات؛ حبُّ جسدي، وآخر اجتماعي، وآخر غذائي، وهكذا دواليك. إنَّ هذه الشهوات فطرية طبيعية، جُبل الإنسان عليها، ولا مناص من الابتعاد عنها أو حظرها. كل هذه الشهوات تعمل على حفظ النسل وبقاء البشرية، ولكن الاستغراق فيها كفيلاً بتدمير الإنسان نفسه؛ فقامة الرجولة أن تعصي هوى امرأة، وقمة الإيثار أن تعصي هوى نفسك، فمثلاً، لو تحول الحبُّ المتوازن للطعام إلى شرهٍ مادي؛ لأصبحت تلك الشهوة سلبية مدمرة، وكذلك حب الجنس؛ فهو وُضع لأهداف محددة، ومتى ما أُسرف فيها؛ فإنها تصبح مدمرة. إنَّ المائل الجنسي - أساماً - كفيلاً ببقاء النوع، فلو اعتاد الرجل الاستمراء؛ فإنه سيفرغ طاقته فقط، ولن يشعر بفيض العاطفة الجنسية.

- إنني حتى الساعة لا أعرف ما ترمي إليه.

- أيها الرجل، يمكنك أن تفهم الجنس في وضعه الطبيعي إذا أدركت أنه وسيلة وليس هدفاً إنسانياً في حد ذاته؛ فمتعة الجنس تكون آية لحظية، وبمجرد أن تنتهي؛ فإنها تصبح ذكرى، ومتى عرفت أن الإنسان نفسه إلى زوال، ولن تبقى منه إلا الذكرى؛ فالأحرى به ألا يستغرق في الجنس. إنَّ للحياة معاني مادية وأخرى معنوية. المادية زائلة، وتبقى الروحية المعنوية، كما أن الابتعاد عن المثيرات كفيلاً بوضع الجنس في قلبه الطبيعي. عليك الابتعاد عن المؤثرات الجنسية المادية. إنك مع ممارسة التمارين الروحية؛ ستصل حتماً إلى معنى السعادة البشرية، وذلك حين تتخلى عن عوالم الحياة المادية. هنا لا بد أن تتذكر أموراً ثلاثة: لا تحرم نفسك من الجنس مطلقاً، واعلم أن الجنس لحظة عابرة، وأن معنى السعادة هو أن يعيش الإنسان همَّ الرسالة البشرية من أجل الحياة؛ أن يعيش حياته حذراً؛ فالحذر لجام

النشوة. قد يكون ما أقوله أمراً صعباً، ولكن أكثر الأمور تعقيداً، هو أن تبحث عن شيء عندك؛ ذلك هو البحث عن الله.

كنتُ في حديثٍ مختصر في كلماته مسترسلٍ في معانيه، عندما سمعنا صوت طلقات بارود قادمة من البحر. بانث إحدى سفن الحاكم مقبلة باتجاه الجزيرة النائمة. اقتربت أكثر حتى أصبحت قريبة تزاحم سفينة النوخدة. دار بين أصحاب السفينتين حواراً لم يكن باستطاعتنا أن نسمع منه شيئاً. كنتُ أظن أنه الحاكم ورجاله يجوبون البحر للاطمئنان على موسم صيد اللؤلؤ. تحركت سفينة الحاكم باتجاهنا على شاطئ الجزيرة، ولكن أدهشني وقوف التاجر على مقدمة السفينة وهو يحمل باروده. نزل الرجلُ وثلاثة من رجاله على قارب صغير، وأقبلوا إلى الشاطئ:

- أظن أنك أبو راشد؟

- أنا أبو راشد، وهذا زميلي السيب محمد.

- ومن ثالثكم؟

- إنه صيادٌ، يبحث عن رزقه على هذه الجزيرة. ثبتَ حظيرة صيد

السماك هناك، وهو يعيش على ما تصطاد وتبه السماء.

توجه التاجر ناحية الرجل:

- هل حصلتَ على تصريح من الحاكم، أو ممن ينوبون عنه؛ لكي تنصب

حظيرتك هنا؟

- نعم لدي تصريح شفهي من أحد أعضاء المجلس المعين.

- اسمع يا أنت، إن والد الحاكم لم ينجب غير ثلاثة رجال فقط. أنجب

رجلين وقد رحلا عن الدنيا يافعين، وأنجب الحاكم ثالثهم، وأنا هنا من

يمثله، ولكنني لا أعرف أنه أنجب شخصاً رابعاً اسمه المجلس المعين؛

ليهب الصلاحيات والأمالك مناصفة معهم. إن دلمونيا بكل جزرها وبحارها، بمائها وهوائها ضمن أملاك الحاكم. عليك إزالة حظيرة صيد السمك، والعودة بقاربك إلى السيف، قبل أن نبيك هنا جثة هامدة.

تحدثت للتاجر مباشرة: أليس الوطن يعني الأرض والشعب؟ هذا الرجل يحمل حق المواطنة في أعماقه؛ فهو يتمي لقومه، كما يتمي لتراب الأرض التي وُلِدَ وعاش عليها، لريسطع التاجر إلا أن يوضح مقصده: أنت تتحدث عن الوطن، ونحن نتحدث عن السلطة التي تتكون من أمر، ومتلق، وعلاقة بينهما؛ على المتلقي أن ينفذ ما تأمر به السلطة؛ لضمان بقاء العلاقة في قالب قوي، يحمي جميع الأطراف.

اقترحتُ على الرجل أن نردف قاربه، وأن يصعد معنا على ظهر السفينة؛ لنعود إلى دلمونيا. هناك لقي الترحيب والبشاشة من البحارة. نصحته بأن يفرح بقرار التاجر اللعين، فبعض الأمور تكون نعمة، وإن كان ظاهرها نقمة.

خلال سويعات قليلة، بدت دلمونيا كعروس تتقبل زوجها بعد غياب طويل، وبعد أيام معدودات، سيعلن الحاكم نهاية موسم (القفال). بدا الساحل مختلطاً بألوانه الزاهية، ولكن سرق جماله ذلك الشحوب، وتلك الدموع المنقوشة على وجوه النساء والأطفال إبان فترة الانتظار الطويلة. إنهم لا يعلمون إن كان أحباؤهم أحياء على ظهر السفينة، أم غدر بهم البحر؛ فألقيت أجادهم فيه، تهافت عليها أسماك القرش وأخواتها.

حطت السفينة مراسيها على بُعد عشرات الأمتار من البحر. توجهت القوارب الصغيرة إليها. اجتمعت حولها؛ فأصبح المشهد - على بعده - وكأنه أنثى بطٌ احتشد حولها صغارها. كلُّ يراوغها من جانب مختلف،

ويريد الوصول لمراضعها. امتلأت القوارب الصغيرة بالبحارة، وأصبحت المجاديف تصفق في مياه البحر، فتحولته زبداً يعقبها حلقات أمواج متداخلة. جثمت السفينة خاوية في عرض البحر، كرجل افترق عنه أولاده وأحفاده، بعدما تقاسموا إرثه وتركته. لم تنطع النوة البقاء على اليابسة ومواصلة الانتظار. اقتحمت الشاطئ، وأبقين أطفالهن على اليابسة. بدأت كل امرأة تبحث عن مصدر صوت زوجها، فتركز نظرها ناحيته. بلغت المياه إلى ما فوق الرئة، ولم يشهين الماء، بل زادهن الشوق عزيمة وإصراراً. التقت الأذرع والصدور، كل يضم نصفه إليه ليتكامل. ابتلت الملابس بالمياه والوجنات بالدموع. اختلطت فيها ابتسامة الفرح بدموعها، حتى انفض المشهد المؤثر، وكل بين أفراد أسرته يبحث الخطى باتجاه منزله. أحاطت خولة وأخواتها بأبي راشد، هذا يقبله، وذاك يضمه، وآخر يضمه، أما خولة فاكتفت بقبلة من والدها على جبينها.

وصلت البيت، فوجدت بابه مفتوحاً على مصراعيه. هنالك العميد يحاول الوقوف ليستقبلني. أسرعتُ أحثُ الخطى مهرولاً جهته. أحسستُ لوهلة أنني لا زلتُ طفلاً أحن إلى حضن والدي. ضمته طويلاً وقبلته على رأسه وجينه. امتلأ البيت بدفءٍ لامت سخوته الهوائ والجدران وكل محتوياته، لكنني وجدتُ زوجة يوسف وصفارها في إحدى زواياه. رحبتُ بهم جميعاً. ابتعد الجميع، وبقيتُ مع العميد وخولة... كانت فاجعة ما سمعتُ.

في اليوم التالي، لم يسعني الوقت للاستمتاع بوقت أطول، مع أفراد أسرتي. هناك مهام أكثر أهمية وشمولية. أقبل بعض الأصدقاء، ودعوني إلى مائدة الشاي التي تقام على الشاطئ، عصر كل يوم. هناك البرستي الذي

تلف جوانبه جذوعُ النخل. يجلس الرجال عليها، ويفضي كلُّ واحدٍ بما لديه. صار كلُّ رجلٍ يحاول أن ينقل خبراً، ويتخلص ما حدث خلال موسم الغوص:

- ما وراؤكم أيها الرجال؟

- لقد قرّر الحاكم أن يكون التاجرُ ذراعاً الأيمن فيما يخص الثؤون المحلية الداخلية. أصبح التاجرُ هو من يجمع الضرائب مع حرمه. صار يحدد مساحات المزارع والبساتين، ويفرض مقداراً مادياً ضريبة على المحاصيل، أو يقطع عدداً من الأشجار والنخيل ضماناً⁽¹⁾. أصبح التاجرُ هو الأمر الناهي، وذلك بعد موافقة المجلس المُعين.

- ولماذا ذلك التغيير؟

- يقولون لحين انتهاء الحاكم من حلّ المشاكل العالقة مع دول الجوار، وخاصة حكومة هرمز.

أخبرني آخر عن اعتقال يوسف، واقتياده إلى جهة غير معلومة حتى الآن، وفرار زوجته إلى بيت العميد طلباً للحماية؛ حيث العميد وأنا. لقد انتشرت قصة رغبة التاجر في زوجة يوسف؛ فحميتِ الدماء، وزاد لهيبُ المطالب القادمة. هناك أزمة مفتعلة ينبغي مواجهتها؛ إمّا بعمل معلنٍ أو سري.



1 - الضمّان هو أسلوب اتبعه المزارعون؛ يشتركون خلاله أشجار النخيل وسواها من بداية الموسم، حتى نفاد الحصاد، ثم تعود الملكية للمالك من جديد.

(25) الخادم

سبتمبر 1763

بعد العودة من الرحلة غير الموفقة لبغداد، بقيتُ وآدمُ ما يقرب من الأسبوعين في هرمز. تعرفنا بصورة أكبر على الجنود البريطانيين. بدأتُ أطرح تساؤلاتي على آدم الذي أصبح مع تعاقب الزمان زميلاً، صديقاً، وربما منافساً. لا أعرف على وجه الدقة مشاعره، ولكنها بالطبع تغيرت عن ذلك الزمن الذي كنتُ فيه خادماً. أصبحتُ أؤدي دوري كخادم، ولكن أصبحتُ أطرح الاقتراحات، وإن كان بعضها خجولاً متردداً. كانت قرارات آدم - في أغلبها - مُعدة له، ولكنها أصبحت من بنات أفكاره كلما استجد أمرٌ أو تغيرت مسارات الرحلة. كان يقول إن القيادي هو من لا يسير مع التيار، بل من يخلق تياراً مستقلاً، ولكنه أصبح يأخذ رأبي، وربما صار يتأنس به؛ لأنني أصبحتُ أقرأه. المعايضة تُدركُ بالمسايرة. كنتُ أودُّ أن يعاملني كزميل لا كخادم؛ فقد أصبحت أعرف أسرارَ الرحلة، وأصبحتُ على دراية كبيرة بما يرمي إليه ويهدف. استشعرتُ بأن الأصدقاء المتشابهين في وحدة العمل والخطى نفسها تحكمهم الغيرة. كان يُحب أن يراني خادماً لا زميلاً. هناك أمورٌ معلقة، وأظن أن أغلب العالقاتِ معوقات.

اقترحتُ عليه أن نحاول السفر لبغداد مرة أخرى. بعد أسبوعين ستهدأ الأمور السياسية والعسكرية هناك. يمكننا أن نركب الطريق النهري وصولاً لبغداد. أخذ يطيلُ الفكر، وربما قرأتُ أفكاره. لم يكن راغباً في أن يكون قراره على لسان غيره.

- يتحدث الجنود البريطانيون والهنود هنا عن جزيرة دلمونيا القريبة، وكأنها أرض الخلود.

- سيدي. هل تُغيرُ سير الرحلة، ونذهب إلى دلمونيا عوضاً عن بغداد؟

- يُعتقد هنا، أن دلمونيا ستكون المقر الرئيسي لوكالة الهند الشرقية.

- وهل سيفادر البريطانيون هرمرز؟

- هذا متوقع. ربما يكون المقر الرئيسي في البصرة أو دلمونيا. سيكون من

الرائع أن نكتشف هذه الجزيرة التي توصف بواحة الشرق الخالدة. لا تزال

البشرية جمعاء تبحث عن إكسير حياة. أظن أنها من المستحيلات الثلاثة. لا

يشعر الإنسان بطعم الحياة ما لم يبحث عن المتحيل. تحققُ الهدف في ذاته، لا

يوفر إلا نشوةً آنية، ولكن مطاردة المتحيل، تبعث التجدد والرغبة في الحياة.

- هذا رائع جداً. سنجدُ إكسير الحياة في دلمونيا. يمكن لنا أن نقهر

المرض، وندحر الفناء. سيكون الموت من الماضي، لربما تصبح دلمونيا

الأرض المنشودة والموعودة.

ابتم آدم في وجهي ابتامةً لها طعم من يترفع عن فائض غداء. دعا

أحد الجنود الذين صاروا شبه أصدقاء، ثم تحدث إلينا آدمُ حول قهر الموت:

مررنا خلال هذه الرحلة بعدة مناطق؛ مناطق بحرية، وجبلية،

وصحراوية، وغيرها. كل قوم كانوا يتشبثون بالحياة ويرفضون الموت.

يرون أن سبب الموت بشري. يقيمون الحصون والقلاع. يثيدون السفن

الحرية. يبنون الأسوار. كل تلك الأساليب لمواجهة عدوٍ بشري يتوقعون

أنه يحمل لهم الموت. يظن أغلب البشر أن بقاءهم لا يستقيم إلا بفناء

الآخر. هذه فلسفة الحروب وأسبابها، وإذا استب الأمن وزال الخطر،

يُدرك الإنسان أن الموت ليس بيد البشر. عبرنا أرض مصر. قرأنا وسمعنا

حكاية الفرعون الكبير الذي أراد أن يبنى سلماً عملاقاً للسماء؛ لعله يصل

إلى خالقه، ويطلب منه الخلود.

أثارني حديثُ آدمٍ حول الموت فقلت: هل وصل فرعون بالفعل إلى خالقه؟

لم يكثر آدمٌ لمداخلي وواصل حديثه:

- لم يُدرك الفرعون إلا هواءً، فراغاً، وسكوناً. تفكّر أنه لا مناص. سيّد الأهرامات وأمر بحفظ المومياءات، أدرك في ذاته وجود إله يهبُ الروحَ ويستعيدها، أيقن أنّ ذلك الإله لا بدّ سيعيد الروح تارة أخرى من أجل حياةٍ مديدة خالدة، كان يستمع لصوت نفسه؛ فلكي تدرك نفسك، يجب أن تُصغي كثيراً وتصمت أكثر، لذلك أمر بحفظ جسده وعائلته وكل ما يملك.

سمعنا مداخلة أخرى من أحد الجنود: هذا يعني أنه لا خلود، أليس كذلك؟ لماذا تُدعى دلمونيا بأرض الخلود إذن؟

إنه العقل البشري؛ يحاول ألا يقف مكتوف الأيدي أمام الموت، أمام المستحيل. إنّ حقيقة الحياة هي في قلب الإنسان، في داخله، بالرضى تحلو الحياة، وبالحب نعطيها إكسيراً. لو لم يكن الموت موجوداً؛ لما أصبح الخلود مستحيلاً، ولما رغب الإنسان في البقاء، وكان سيبحث عن إكسيرٍ ينهي به الحياة. الموت لمن يعيه ويدرك كنهه سعادة؛ هو تخلصٌ من عوالم الحياة وردائلها. يكفي القول إن الموت كالحب لا يأتي إلا فجأة.

لم أعد أعني ما يقول آدم: سيدي هل تريد نوعاً من الطعام أو الشراب؟

- نعم نعم، اصنع لي إكسير حياة بنكهة الليمون.

أقبل باتجاهنا قبطان سفينة باتريك ستوارت. أخبرنا عن رحلتهم القادمة إلى دلمونيا، بعد ثلاثة أيام، ورحلة أخرى للبصرة بعد أسبوعين. استبشر آدمٌ خيراً.

- أظنك متصبر أسبوعين، وترحل لبغداد.

- بل سنذهب لجزيرة دلونيا بعد ثلاثة أيام.

أظنُّ أن دلونيا كانت خطة بديلة ولكنها أمست أولوية، كأنها هدفٌ كان يجري وراءه منذ زمن طويل. سألتُه:

- سيدي، ألا تريد أن تذهب للقنصلية؛ تسلمهم ما بقي من المقتنيات، ونأخذ أموال الحملة؟

تحدث بصوت منخفضٍ جداً. أمسك عصاة صغيرة ورسم بها خطين متوازيين على التراب، كنتُ بالكاد أسمعُه: إنني منذ ودعتُ كارينا وغادرتُ الدنمارك، كانت خطواتي تسبقني، تحدثني كلما تأخرتُ عنها. هناك ستجد ظلك، أنا لم أكن أعرف ذلك (هناك)، وعندما علقنا بجزيرة الشعب المرجانية في البحر الأحمر صار لدي رغبة في زيارة كل جزيرة نمر بها. هذه الجزيرة لرنعبر بها، هي التي تمر بنا الآن. الرجل عادة لا يبحث عن الحب، بل العكس عين الصواب.

أعددتُ أمتعتنا بيسر. صار على أهبة الاستعداد غداً صباحاً، أما أنا فأريد الرحيل من هذه اللحظة. كيف لي أن أنتظر الصباح؟ في تلك الليلة سلب (هواها) النوم من عيني آدم. لرينم، استلقني على ظهره في الخارج. افترش الرمال الباردة مساءً، وأخذ ينظر للسما، كمن يُحصي النجوم المتلألئة. يا إلهي، إنه ذات المشهد، رأيتُ ذلك حينما تُوفي رئيس الحملة في سناء؛ ليلة رحيل، سماءٌ تزينها النجوم، فيض مشاعر... أخذتُ أنظر لصاحبي مترقباً: لن أدع الموت يقتربُ منك، لن يمسك أذاه، سأحرسك حتى الصباح، لا للموت... لرينم آدم، وبقيةً أرقبه حتى طلوع الفجر. يمكن لعيني أن تقرّ الآن.

كانت السفينة باتريك ستيوارت ملاصقة لخامس سفينة راسية في الميناء. تصلها يجب عليك أن تخطو على ما قبلها كالعتبات. السفينة مصنوعة من الخشب الهندي الذي يميل لونه للسواد. قيل لنا إنها بُنيت على نمط سفن

(ناو بكوينا) التي تتميز بارتفاع مقدمتها بمقدار سبعة أمتار فوق سطح الماء، ومؤخرتها خمسة أمتار، أما في الوسط ومن الجانبين، فإن ارتفاعها متران فقط. لها ثلاث ساريات، أطولهم وُسطاها، وأكبرهم أولاهما. يوجد في السفينة ثمانية بحارة، وبعض الخدم، وجنود بريطانيون بأسلحتهم الخفيفة.

احتشد أغلب الركاب في مؤخرة السفينة، أما آدم فاتخذ مقدمة السفينة مجلساً، كأنه يحث الخطى. عندما استفرت منه عن موضع جلوسه، قال: الكسل الفطري يجلك في الخلف، والأمل يفرض عليك المقدمة. إنها سنة المقاعد. يبدو أنه يستعجل الريح كي يصل هناك. لم تستغرق الرحلة غير عدة ساعات، حتى وقفت على بعد ثلاثة أميال بحرية.

لم أشأ أن أكر خلوته؛ فنظرت إلى حيث ينظر. بدت الجزيرة منخفضة وطويلة جداً. كانت المياه المحيطة بها خضراء هادئة. بدت النخيل الخضراء تكسو الأرض وتترها، وبنات جزيرة أخرى في الشمال، تشبه في استدارتها سنام جمل، وما هي إلا دقائق حتى وجدنا القوارب الصغيرة تستعد لنقلنا. كنا ننحس الأهالي كلما اقتربنا. كانوا بثيابهم ناصعي البياض. ركبنا (النش) وأجلسونا في مقاعد عرضية ربطت بسارياتها. أخذونا وهم يجدفون لرصيف حجري أطلقوا عليه اسم (الفرضة)، واستقبلونا على قواربهم فرحين بضيوفهم. الفرحة بالضيف أصالة كرم، وسمو أنفس.

أخذنا المناظر نعاين الأرض التي سنطأها، ونستفر من الحاضرين عنها. كانت أغلب البيوت عبارة عما يعرف هناك بـ(البرستي). تناثرت بينها بعض البيوت المشيدة من الصخور البحرية المعروفة بـ(الفرش) والحجر، وهي عبارة عن طابق واحد أو طابقين، أما الأزقة فهي غير مستوية، بل ضيقة ومتعرجة، تناثر على جانبيها الدكاكين ذات البضائع المحلية، وإن وجدت فيها بعض البضائع الآسيوية والأوربية. بدت

الأسماك واللحوم تباع في فرشات مكشوفة لا يبعدها عن حرارة الشمس غير الظل، أما الخضروات المحلية، فكانت كثيرة ومتنوعة، مثل: الطماطم، والبصل، والبطاطا، والبقوليات، وغيرها....

اقتربنا أكثر. شاهدتُ مبنىً يعطوهم، ويختلف عنهم في التصميم، ولما سألنا عنه، اقترب منا أحد القاوسة المسافرين معنا على الرحلة نفسها، وقال:

- تلك هي الوكالة البريطانية، والتي يوجد بالقرب منها بيوت الإرسالية التبشيرية، وليس بعيد عنهم يقع مكتب شركة ما بين النهرين التابع لخطوط الملاحة الهندية البريطانية.

ثم اقترب الرجل أكثر: أنا أحد التابعين للوكالة التبشيرية. طلب الرجلُ منا الذهاب معهم. نظرتُ إلى آدم وقد بدت الحيرة والارتباك عليه. لربكن باستطاعته أن يرفض الطلب، ولكن كان يبحث عما وراء الكرم والابتسامة الدائمة للأهالي، الذين اتضحت وجوههم. بان من بين الحشد أحدهم وكأنه زعيمهم. كان يقف خلفهم على مكانٍ مرتفع، ولما وجد القس التردد في نفس آدم اقترح عليه مرافقة الأهالي، وذلك الرجل الذي ناداه بأبي راشد. أوضح أن بيوتهم قريبة من الفرضة، ولحل توافقي وسطي، تقرر أن أذهب أنا فقط للوكالة البريطانية، على أن نلتقي بعد يومين أو ثلاثة.

كان هذا أول فراق متوقع بيني وبين صاحبي منذ أن غادرنا الديار. خلال الطريق قال لي القس وهو يشير لأحد المباني: إن ذلك هو مبنى الجمارك، ويوجد حوله بعض المباني الأيالة للسقوط، ولكن فيها بعض الموظفين الهنود والآسيويين، وكذلك كان هناك ما يشبه المستشفى، وقد بدت فيه نعمة أسرة فقط، يمكن ملاحظتها من الخارج.



الفصل الثاني

(1) آدم

سبتمبر 1763

لا زالت الطريقة التي استقبلنا بها أهالي دلمونيا عالقة في ذاكرتي. كانوا يسعون للخير حثياً، يسعون سابقاً فيما بينهم دون انتظار حسنة. أدركتُ مشاعرهم ولامتها. وجدتُ أنها تخرج من القلب يستقبله قلبٌ آخر. الناسُ هنا في سباق فطري مع أنفسهم، ولكنهم في حياةٍ وجيلٍ وترقبٍ مع الحاكم وحاشيته. كلا الطرفين يريد أن يبرز صفاته الحسنة، كلاهما يريد الدنيا، أحياناً تفرض علينا الحياة تقمص دور الشيطان، وأحياناً نتجمل بخصالنا الحميدة، وبينهما الحمقى يتجملون بأوقحها. من بين هذا الجمع كله ونسيجه المعقد، برز رجلٌ ذو هبة في قومه، علامكائه وكبر شأنه. كان في استقبالنا على رأس الوفد الشعبي المرحب بالضيوف، كان الرجل يعتز بنفسه لدرجة التواضع ولين الجانب، لم يكن قاسياً بين قومه، ولكنه حازماً في أفعاله، صلباً في مواقفه. منحوه صدارتهم تزكيةً، وأبرزوا له مكانة خاصة بينهم، إذا تحدث أصغوا ولا ينطقون إلا بموافقة ضمنية منه. هو الأمر ذاته الذي يردده الكثيرون: يضعك الناسُ حيث تضع نفسك.

كان أبو راشد يرتدي قميصاً أبيض وإزاراً مزرکشاً، تداخل فيه اللونان الذهبي والفضي، ألقى بـ(غزته) على كتفه الأيسر؛ كتفٌ ضيق بالكاد

استطاع أن يحملها. تذكرت حينها الزبي الشعبي لأهالي المخا في اليمن، وبعض من قابلتهم من يعاربة عمان. تشابهت أزياءهم، ولكن أضافوا لها حزاماً وخنجرأ حول الخصر. لبسوه تهاياً بينهم. يبدو أن أهالي شبه الجزيرة العربية كثيرو التنقل والترحال. الملابس والهيئة واللهجات هي أكثر وأسرع علامات التواصل والتأثر بالآخرين. ظننتُ بل خلصتُ إلى أن هناك تفاعلات بين تلك الشعوب والأقوام قد يصل لحد التزاوج.

ما إن وطأت أرجلنا تراب دلمونيا حتى اجتمع الأهالي في حلقة دائرية حولنا. الكل يعرض مساعدته، ويمد يد العون بترحاب وبشاشة أصيلة، ولكنهم يرقبون زعيمهم خلفهم. أفحوا الطريق للضيف القادم حينها ليبدأ الحديث مرحباً:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كنتُ أتقنُ الرد عليها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وقع شيءٌ من الاستغراب على وجوه الحاضرين. قرأتُ تساؤلاتٍ رُسمت على وجوههم؛ كيف لرجل أحمر أن يتحدث العربية؟ إنها أسسٌ وبدايات تعلمي لهذه اللغة منذ مرحلة التهيئة في جامعة غوتنغن، ثم مروراً باسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، ثم الإسكندرية، وسيناء والمخا، وها أنا هنا أحط رحالي في دلمونيا التي قيل عنها في هرمرز إنها أرض الخلود. تعلمتُ أن اللغات تُتزع من أهلها بالممارسة، تكسوها اللهجات، ولكنها تُكتبُ أكاديمياً وتُهدبُ نحويًا. اللغات ألسن للتواصل، وليت حروفاً مطورة على الورق، وقيل إن اللغة هي التي نتحدث بها عن أنفسنا وليس الآخرين؛ ولذلك تفضحنا.

- أهلاً بك ضيفاً عزيزاً بيتنا. نتمنى أن نضع بين يديك كل ما نملك، من أجل أن تحقق أهداف رحلتك.

جاءني صورته الواثق فعقبتُ عليه: شكراً لحسن استقبالكم. لا يفوتني أن أعرفكم بزميلي. كان خادماً للحملة، ولكنه أصبح عضواً مؤثراً فيها. يُتقن فنون الطبخ، وله حاسة سادسة تتعلق بأشهى أنواع المأكولات. يقول إن لكل مائدة في العالم طعمٌ من ترابها، ونكهة من أهلها، ويردد دائماً أن مذاق المائدة يعكس لون تربة أهلها، ونكهة أمزجتهم.

تضاحك الجميع سعادة ومجاملة، ولكن غلبت عليهم التلقائية؛ فالابتسامة تكسر حاجز الصمت وخجل الغربية، ولكنهم اقتصدوا السعادة، وكأنها اختصار الفرح يقابله إيجاز في الحزن. بسطتُ يدي مصافحاً أبا راشد، وأرختها في راحته، سمراء ملساء ولكنها جامدة يابسة. هل تعكس الأيدي بعضاً من شخصياتنا أيضاً؟ أظن ذلك. انحنى الرجل ليرفع أمتعتنا، فتسابقوا عليها دون طلب مسبق منه. سرّني الموقف كثيراً، فوضعت يدي رابتاً على كتفه. لا بد أن يشعر بقيمة هذه الأمتعة؛ فمقدار ما تحمله من تجارب أكبر من وزنها. ربما يظن أن كل كثير زهيد، ثم أخبرته عن رغبة الخادم في زيارة الوكالة التبشيرية بناءً على طلب من القس الذي كان على ظهر السفينة، ثم قلت: أما أنا فأرافقكم شاكرًا وممتًا.

سرنا جميعاً بضعة أمتار حيث وصلنا إلى مربطٍ للحمير. كان أكبر الحمير حجماً بني اللون، يحمل عربة خشبية على ظهره. بدت إطاراتها ملساء مستهلكة وغير مجوفة. دُعينا لوضع الأمتعة وتكديسها في العربة، وامتطاء الحمير المرافقة. وُضعتِ الأمتعةُ هناك، ولكنني حملتُ الخرائط والرسومات أمامي، وأنا على ظهر الحمار. تزاورت أعينهم، والتقت ابتساماتهم، حتى انفجرت بعض ضحكاتهم دهشة مما فعلت.

تقدم القافلة بعضُ الرجال سيراً على أقدامهم، وامتطى الآخرون دوابهم. كأنه عرسٌ جماعي بهيج، أما أبو راشد فركب حماره إلى جانبي.

- سناخذك للإقامة في بيتنا. هناك يمكنك أن تحفظ أمتعتك بأمان، وأن تستحمّ وتستجم، وتستجمع قواك قبل مباشرة أعمالك مرّة أخرى.
- شكراً لكم يا أبا راشد. أظن أنني سأثقل عليكم.
ابتم وقال: البخيل فقط من يرى الكرم بذخاً.

سارت القافلة في محاذة البيوت الواقعة شمال الجزيرة الأم. إنها إحدى القرى المتناثرة والمتشابهة فيما بينها على سواحل الجزيرة. كل قرية عبارة عن مجموعات من البيوت المتعاقبة. مزارع بياج من سعف النخيل وبضع مساجد. تثار عبي أعطى جمالاً هندسياً. للصدف والبصرة سحر أيضاً. قيل إن الجمال ليس في الشيء ذاته، ولكن في زاوية الرؤية له. هكذا بدت القرى والأرياف. اقتحمت ممرات وزقاق ثعبانية ضيقة، تعرف محلياً بالدواعيس والزرائق التي تكون الفرجان، وبعد دقائق معدودة توقف الجميع أمام منزل أبي راشد؛ مبنى طيني طليت بعض أجزائه الأمامية بالجير والجص الأبيض، أما الجزء الخلفي، فقد بني بجذوع النخل وسعفها. علمت - لاحقاً - أن الغرفة الأمامية تُعرف بالمجلس، وفيها يُستقبل الضيوف عادة، أما الغرف الداخلية؛ فتُستخدم لمعيشة أهل البيت، وأما العريش أو ما يُسمى بد(الطيارة) فهو لتجمع العائلة خاصة في المساء. وحين تضعف قوة أشعة الشمس ويكوهها النعاس، هنا أيضاً تجتمع النسوة في المجالس النسائية ولكن في أوقات الضحى؛ لتحالك القصص الخيالية والبطولات الوهمية.

طلب مني أبو راشد أن أترجل. اصطف الأهالي لإلقاء التحية مودعين قبل مغادرة منازلهم. بدأ أبو راشد بتعريف بعضهم وتقديمهم شخصياً. يبدو أنهم الأقرب إليه، ومن خاصته. بعد ذلك، فتح الرجل قلبه قبل أبواب

بيته، وأدخلني إلى منزله عبر الباب الذي يُسمى بالدروازة؛ بابٌ كبير جداً، ولكنّ العبور يتم من خلال فتحة صغيرة فيه بحجم الإنسان. يوجد خلف الباب ممر طويل مكشوف يأخذك لقلب البيت، ويوجد على يمين الممر معبرٌ جانبي صغير يُقضي إلى المجلس، بالرغم من بساطة البناء إلا أنه أخذ رائق التصميم، فباب المجلس الخشي قصير وبمصراعين متلاصقين، أقفل أحدهم بصاير الباب. توسط البابُ البني القائم الجهة العرضية من المجلس، الذي تميز بمستطيلاته المتناسقة، والتي أخذت أشكال المتطيلات المتقاربة في جدرانها الداخلية. كان للمجلس ثلاث نوافذ في الجهتين الطوليتين المتقابلتين واثنتان في صدره. وجدتُ هناك رجلاً مناً، لم أميز فيه شيئاً غير جسد هزيل وتجاعيد بارزة على وجهه. السنون تفتت سمومها في شكل خطوط ونقوش على الوجه. جسد يعث على الانكسار. اقتربتُ منه، وجدتُ روحاً يافعة مرحة تختفي خلف تلك التجاعيد، وخلف ذلك الهيكل. ابتسم الشيخُ، فبان جمال روحه، وانزوى ضعفُ جسده.

تمتم الشيخُ: أهلاً بك يا آدم.

- كيف عرفتَ اسمي؟

- الخيرُ سبق الخيل. أهلاً بك بيننا ضيفاً كريماً. أتمنى أن تشعر بأنك في بيتك وبين أهلِكَ.

تقدم أبو راشد يُعرفني به: الوالد، عميد عائلة آل الجبور، ومرجعنا جميعاً. العمود الذي نستظل به في الأزمات، ثم قام الرجلُ يعرفني على أفراد عائلته:

- هؤلاء أبنائي الصغار؛ راشد وأخوته.

- تشرفتُ بمعرفتك أيها الشيخ، ثم استدرتُ ناحية الأطفال: وأنتم أيها

الأبطال.

تسمرتُ ساكناً، حين وجدتُ شابة خلف الأطفال، تُخفي نصف وجهها. كان لها طيفٌ يسرق الأبصار. تلعثمت فبقي ثغري شبه مفتوح، ولكن لم تنطلق منه كلمات. لا زلتُ أتذكر نظراتها الأولى. لها عينٌ لوزية واسعة تجملت بحورها. قمرية الوجه، ممتلئة الوجتين. كانت شفتها العليا كنسرٍ يخلق ويكاد يُطبق على الشفة السفلى. معتدلة القامة التي لم أر من تقاطيعها شيئاً أبداً. كانت تخفي جسدها وبعض وجهها بقماش يشبه الساري الهندي، وضعته من أعلى قمة رأسها إلى أخمص قلميها. التحديق في المرأة يرهقني؛ فالمرأة سائلٌ لا يمكن التنبؤ بشكله حين يتجمد.

استدرك أبو راشد الموقف: هذه ابتي خولة. أومأت إليها برأسي فردت التحية بإغماضة عين مطمئنة. بلعت ريقِي، وبللتُ شفتي برطوبة لساني. أحت - حينها - بالعطش. دعاني العميد للجلوس على يمينه، مقابلاً أبا راشد. تعجلتُ على أن أشكرهم لحسن ضيافتهم ووافر كرمهم، فابتسم العميد مجدداً، وأنشد أبياتاً، ودوّنتها لاحقاً:

أماوي، ما يفني الثراء عن الفنى	إذا حرجتُ نفسٌ وضاق بها الصدرُ
إذا أنا دلاني الذين أحبهم	للمحودة زليخ جوانبها وبرُ
وراحوا سراغاً يفضون أكفهم	يقولون قد دمتى أناملنا الحفرُ
أماويُّ إنِّي لا أقول لسائلٍ	إذا جاء يوماً حلٌّ في مالنا نذرُ
أماوي، إن المال غادٍ ورائحُ	ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

لم يكد ينهيها، حتى تقدمت خولة وراشد يُصفون إليه ويدنون ما يقول توثيقاً. شعرتُ بأن ما يقوله دررٌ واجبة التوثيق. لم أدرك ما قاله الشيخ، ولكن خولة سألته أن يشرح تلك الآيات. تحدثت الفتاة بلساني؛

فزدت إعجاباً به... وبها. يبدو أن العشق الأول هو أن تنظر في عين شخص
تشر بأنك رأيت من قبل، لكنني سأترث، وأبعد وساوس الشيطان؛
فالحب طرفان؛ المرأة فيه أول وآخر.

أوضح العميدُ مفصلاً: يُذكر يا ابتي أنّ حاتم الطائي كان علماً في الكرم
العربي خلال العصر الجاهلي، وينقلون عن زوجته ماوية حكاية رائعة،
تقول فيها: إنهم كانوا في ليلة شاتية قاسية البرد، يُسمع فيها صوت الريح
الباردة، وكان أطفالهم جوعى يثنون بلا طعام. استدركت المرأة الموقفَ
فأشعلت النارَ تحت قدرٍ فارغة لعل أطفالهم ينامون تحت وطأة الأمل، وإذا
بامرأة ترفع ساتر الخيمة، ومعها ثمانية أطفال تسأل حاتمَ أن يُطعمهم:

- يا أبا عدي، إن هذه الصبية تعاوى كالذئب من الجوع، وليس لنا
إلّاك معيناً.

فقال حاتم لزوجته: اعلمي أن شقبة الحياة ضرورة للتجديد. أعجلهم
لقد أشبعك الله وإياهم.

أقبلت الزوجة تسرُّ حاتم في أذنه: ليس في البيت طعام، وتعرف أنّ
أطفالنا ناموا يثنون من الجوع، فطلب حاتمُ أن تناوله السكين، فعمد إلى
جواده وهو كل حياته، جاءه في عنقه ثم سلخه ووضع لحمه فوق النار، ولما
نضج اللحمُ طلب منها أن تطعم المرأة وأطفالها حتى الإشباع، ثم تُوقف
أطفالهم ليأكلوا. بعد ذلك توجه بفائضه، يبحث عن جائع في الصحراء،
وما عاد إلا فجراً.



(2) التاجر

مطلع أكتوبر 1763

تزامناً مع الأزمة الوطنية المفتعلة التي نادى بها ونفذها أبو راشد وعصابته؛ بلغني دخول رحالة أوريين إلى أراضينا، وطأت أرجلهم دلمونيا - أرض الخلود. كان البحارة حينها وعلى عادتهم يتامرون عند الساحل المحاذي للفرضة⁽¹⁾، فقد اعتاد أغلب الأهالي قضاء الليالي الصيفية عند السواحل يطلبون نائمه، ولكنهم يقطنون منازلهم المتلاصقة بعضها بعضاً في الفرجان⁽²⁾ خلال الأشهر اللاحقة. ظننتُ أن الرحالة الشهير كارستن نيور⁽³⁾ الذي كان يجوب المنطقة قد وصل إلى دلمونيا مرةً أخرى. صار لزاماً على المحاكم والمجلس الوطني العرفي أن يتقبل الرحالة حتى يقطع على أبي راشد إمداد الضيف بمعلومات كاذبة مضللة للحقيقة. سيكون خطأ فادحاً أن يُوصل المعارضون أصواتهم ومطالبهم للخارج، ستحول الأصوات المعارضة حينها إلى ثورة، وستصبح سمعة الحاكم وعلاقاته في خطر دائم، وربما تكتب مطالبهم للتغيير والإصلاح صفة الحق والواجب، عندها فقط سيقع المحظور؛ سيُفتح باب التحقيق مع السجناء ومنهم السيب يوسف. إنها سلسلة من الأحداث المتوقعة وغير المتوقعة، لذلك؛ يجب وأدُّ كل ذلك في جحره.

1 - يُسمى أهل الخليج الميناء البحري بالفرضة.

2 - تعرف الأحياء الكنية بالفرجان.

3 - كارستن نيور رحالة دانماركي شهير قام بزيارة الهند ومنطقة الخليج.

فمُتُّ على عجلٍ بزيارة الحاكم في قصره صباح اليوم التالي بمعية بعض التجار والأعيان ورجال الدين. أن تُضفي مصداقية على أي عمل ما في مجتمع محافظ، يعني أنه يجب عليك أن تعطيه طابعاً دينياً. الكثير من الصامتين لا يرهبهم غير صوت الدين. نحن في حاجة إلى أن نزيد من قاعدتنا الشعبية المضادة. إنَّ وأدَّ الخلافات الرضية حلال. رَحِب الحاكم بنا في قصره العامر. استقبلنا في ديوانه المزدهر. نجحنا في تصوير الحقيقة وتصوير الخطر القادم كغول يريد تكسير كرسي حكمه، لذلك قرأتُ الخوف يتزايد تدريجياً في نفس الحاكم، استشرى في نفسه، إنَّ الألسن الخائفة تنطق مرتجفة؛ فتنتطق الكلمة بتردداتها... قلتُ:

- يتردد أن أبا راشد وجماعته استقبلوا الرحالة دون إذن مسبق من سموكم.

أجابني وقد أرخى جده في كرسيه: بلغني أن ذلك كان بناءً على رغبة الرحالة نفسه، أما خادمه فقد توجه للوكالة المسيحية بناءً على دعوة من القس المرافق له في الرحلة.

- بعد إذن سموكم، نعتقد جميعاً أنه يجب أن يغادر الرحالة منزل أبي راشد، وأنه من غير المنطقي أن يزور بلادنا أجنبيّ دون موافقة من الحاكم نفسه، كما أنه قد يُفضَى إليه بأخبار مزوّرة، وبدوره ينقلها الرحالة لبلادهم، ومن ثم تصل كالشرر للقوى الإقليمية، وربما يعقبها تدخلاتٌ عثمانية وإنجليزية وغيرها، قوى تُشد الاستمرار في المنطقة من أجل المحافظة على مصالحها، وعليه لن تنتهي مشاكلنا. أهل مكة - يا صاحب السمو - أدرى بشعابها. لا بدّ أن يكون حلُّ الأزمات داخلياً وتوافقياً بيننا، ونرفض رفضاً قاطعاً الإملاءات الخارجية، فكيف يمكن لرحالة أن يقتحم خصوصيتنا؟

وضع الحاكم يده اليسرى خلف رأسه، وبالقرب من أذنه. تلاعب بشعيراته وأردف: نعم، شؤوننا الداخلية يجب أن تبقى بيننا. يجب أن نُحَلَّ مشاكل البيت الواحد داخل أسواره. نرفض وبشدة التدخلات الخارجية، ولكن يجب أن نحدد ما هي المشاكل التي تواجه مجتمعنا، ونخشى أن يعرفها الآخرون؟

وضعني استنكاره لمعرفة الأزمة القائمة على المحك: هناك مطالب البحارة والمزارعين أيضاً من أجل إعادة تقييم الضرائب وتخفيضها. أقترح أن نوجه الدعوة للرجل وخادمه. الكرم والضيافة شيء من الإغراءات كفيلاً بأن يوقف الاتصال بهما. نخبرهم بخطط الحاكم السلمية، ورجته الصادقة في حفظ كرامة جميع المواطنين. إن نصف النفاق يجلب سعادة وربيع الحقيقة يجلب الحزن.

أعاد الحاكم مقولته الدائمة كاليفاء: المواطنون سواسية كأسنان المشط. انفض الاجتماع الأسبوعي بعد ذلك، وعدتُ للبيت بخفي حين. صرتُ أعيدُ شريط الأحداث. لقد استقبل أبو راشد الرحالة ثلاثة أيام في منزله، وربما تزيد المدة حسب الرغبة التي يبديها الرحالة نفسه، ويمكننا نحن أيضاً توقع ما ستفضي إليه تلك الدعوة والإقامة؛ فالعقول الفارغة سهلة الامتلاء، ستفيض حتماً بما سُملاً به. أرسلتُ أحد رجالي الرين لمحاولة معرفة ما يدور هناك، ولجس نبض الشارع ومعرفة ما ينوي الرجل ومضيفه القيام به، فإذا لم يعمل الضيف بما يخدم مصلحة وطننا؛ يمكننا أن نطلب منه مغادرة الوطن، لعله على اتصال بجهات أجنبية تريد الشر لهذا الوطن، وتخطط لتغيير أمنه واستقراره. إن الأخبار الواردة غير مطمئنة، لقد أبدى الضيفُ سعادة غامرة في ضيافة أبي راشد ومجلسه، وأصبح من

الضرورة الملحة التحرك قبل الحاكم نفسه. التسابق للخيرات واجب إنساني واجتماعي. السابقون السابقون.

أرسلتُ عصر ذات اليوم مندوبين آخرين لبيت أبي راشد وللوكالة المسيحية أدعو الضيفين الكريمين لقبول مأدبة عشاء تقام على شرفيها. لم يكن لأبي راشد وسواه القدرة على منع الدعوة، ولكن يُقال إن الضيف رفض قبولها قبل الاستئناس برأي أبي راشد الذي أعطاه الضوء الأخضر، ولكن الضيف اشترط أيضاً أن تكون الزيارة قصيرة، وأن يعود لبيت أبي راشد بعدها. قبل الرحلة الدعوة على مضض، أما الخادم فتقبلها بصدق ورحب. قبل الدعوة أخيراً وأقبلاً عصرأ إلى ديوان الحاكم. وصل أولهما بمعية أبي راشد، وجاء الآخر بصحبة أحد القأوسة. انحب القس وأبو راشد إلى مؤخرة المجلس، وأقبل الضيفان إلى صدره:

- باسمي وباسم سمو الحاكم المفدئ، يشرفنا أن نرحب بكما على أرض الوطن، ونتمنى لكما إقامة سعيدة.

أجاب الرحالة: نحن نشمن عالياً هذه الدعوة الكريمة.

قلت: كما يمكنكما زيارة الحاكم في قصره قريباً؛ لتشر حاله أهداف زيارتكما، بحيث نقدم لكما الخدمات المطلوبة، والتسهيلات الضرورية لتحقيق أهداف الرحلة.

- تهدف رحلتنا - أيها التاجر - لزيارة الأماكن الأثرية في بلادكم، ودراسة مصادر الدخل، والثروات المتوقعة تحت الأرض لنساعدكم على الاستفادة من الثروات الطبيعية لديكم، كما سننقل خبرات حكوماتنا ودولنا لمساعدتكم، فكما تعرفون، تُعتبر المجتمعات الشرقية مغلقة إذا ما

قورنت بالمجتمعات الغربية المتحركة. هناك ثورة علمية، وهنا تقاليد رابطة رابضة. يمكن للحضارات أن تمتد الخير من بعضها.

- نحن لا نريد العلم الذي يفتح القلوب والعقول على المفسد. علومنا قرآنية نستمدّها من كتاب الله وسنة نبيه. نحبُّ محي السنة ومُحيّ البدعة.

- الأديان السماوية جميعها إنما أنزلت لخدمة البشرية، وهي تدعو للعلم والعمل. إنها في مجملها تتفق على الفضائل. تكلف العقل وتحرم ما يحيط منه. الإنسان المتعلم خير من الجاهل. إنني لا أظنُّ أن الاختلافات بين البشر دينية، وإنما هي بشرية صرفة، ومن وضع الإنسان نفسه، لذلك يمكن للجميع العودة إلى مبادئ الأديان للتغلب على الصفات الحيوانية للبشر، تلك الصفات التي تبث على الكراهية وإقصاء الآخر. كل ذلك من أجل المحافظة على الحياة الكريمة لجميع الناس.

وقف أبو راشد في آخر المجلس، وطلب أن يُبدلي برأيه. أفسحت له المجال. أوضح الرجل أن هناك سوء فهم حاصلًا بيني وبين الرحالة حول ضرورة العلم. أشار إلى آية قرآنية تُسمى بعروس القرآن، أحدثت لغطاً بين جاهلية قريش وبين دعوة نبي الإسلام، فقال:

- قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. صدق الله العظيم. إن من صفات الخالق التي لا يشاركه أحدٌ فيها هي صفة الرحمن؛ لأن رحمته تسع كل شيء، وإن جميع عطاياه إنما كانت تطلقاً بعباده، وإن من صفاته التي جادت به رحمته تبعاً لذلك هي العلم، العلم الذي يعرف الإنسان به الكون. هناك بعض النظريات التي تقول إن عدد الأنبياء يصل إلى أكثر من أربعة وعشرين مليوناً. اختص منهم خمسة فقط برسائل سماوية عامة، ولكنهم كانوا جميعاً دعاة للحب

والتأخي بين الناس كلهم، كما دعوا للعلم والمعرفة. إن أسلوب القرآن وغيره من الكتب السماوية يعث على التعلم وعلى التعاطف بين الناس، أما أتباع الأنبياء فخالقوهم، ونادوا بالعداوة بين الأديان؛ لأنهم ابتعدوا عن العلم الحق. إنا نجد القرآن الكريم يقول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١)، ويقول ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾^(٢). لا شك أن هناك فرقاً بين الدين وتابعيه، بين الفكر والسلوك، وكل متعلم يعرف أن ليس كل مسلم يحمل في قلبه إسلاماً؛ لذلك كله، نتطيع القول أيها التاجر: إن العلوم التي تفتح القلوب والعقول تبعثنا عن المفسد، ولا تدفعنا لها. أيها التاجر، أدعوك بمحبة أن تبعد الخوف عن قلبك؛ فالخوف يحول الهاجس إلى مرض، كما أدعوك لعدم تهميش الآخرين واستثانهم.

- نحن لا نهمش أحداً أبداً.

- بل تفعلون ذلك. إن التهميش هو سرقة حق الاختيار من الآخرين، يندرج ذلك حتى على حق التعليم، هناك من يقول إن التعليم يجعل الشعب سهل القيادة، صعب التير، من السهل أن تحكمه، ومن المتحيل أن تستعبده.

كانت مداخلة أبي راشد وردوده حادة، وفيها كثير من التحدي للحاكم، ولكل أعضاء المجلس العرفي. وكان لابد من البحث عن وسيلة للتخلص منه؛ جسداً وفكراً.



1- الإسراء: 70.

2- المائدة: 82.

(3) أبو راشد

نوفمبر 1763

التقيت ذات مساء آدم في حوار جميل مع العميد في مجلسنا، حواراً هادئاً كساه العلمُ بهاءً. لقد عدتُ من المسجد بعد صلاة المغرب، فوجدتها كحمايم هامة. لم أكن على دراية بحدِيثهما، ولم أستطع أن أَسْترق السمع. لم يمعنا تحية السلام على الرغم من صوتي الجهور، ما إن رأني العميدُ واقفاً أمامه في المجلس حتى دعاني للمشاركة في حوارهما:

أخبرني العميدُ أن لآدم الكثير من الضباية التي تمنعه من التعرف على ما يدور في دلمونيا. إنه يود دراسة آثار الجزيرة، ولكنه يؤثر معرفة إنسانها أولاً. لقد مسته الأحداث المؤسفة بالضر. أزاحت من بين يديه السعادة التي يفترض أنها ثابتة في أرض الخلود. هناك الكثير من التساؤلات التي انبثق عنها انعدام الثقة بين الحاكِم وبطانته من جانب، وبين غالبية الشعب من جانب آخر.

أجبتُه بأننا لا نفقه شيئاً في أمور الحكم غير ميزان الحق والظلم؛ ميزانٌ جليٌّ وواضح، ولكن إن كان ما يدور هنا هو ما تسميه أنت شأنٌ سياسي، فلا ريب أن نتحدث عنه. إن نضج الحاكِم السياسي لا يكون بكمية الدماء السائلة، ولا بملء السجون، ولكن النضج يكون بتقليل المفارقات بين أطراف المجتمع نفسه وبين السلطة والمجتمع.

وضع آدم في مداخلته تعريفاً جميلاً لهذا الفقه المعروف بالسياسة، فقال إنه واقعٌ ما عليه الحكام في التعاطي مع الشأن الداخلي اجتماعياً واقتصادياً وغيرهما، فإذا كان الناس في حالة من الرضى الاقتصادي؛ قلن تجد هناك

من يهتم بشأن الحكام حتى في حال الترف. أما إذا أصبح الوضع الاقتصادي والمعيشي متردياً؛ فإن العامة تنتظر القشة التي تكسر ظهورهم، وتفتح أفواههم. يطالبون بعدها بتوزيع عادل للثروات، والمشاركة في الحكم والانتخاب لضمان ذلك العدل المنشود، وهناك وازعٌ آخر يُعرف بالبعد الاجتماعي، فإذا صار التمييز قائماً على أسس دينية وعائلية؛ فهو يكره قاعدة العدل الاجتماعي، وهو سبب كافٍ لزعة الأمن وإثارة العامة. إن الملكية الخاصة للأموال مثلاً؛ هي توظيف اجتماعي وليس تملكياً، فكما أنه ليس من حق الإنسان أن يقطع يده مثلاً، فليس له مطلق الحرية في أمواله الخاصة؛ إذ لا يتفقها إلا في خير.

أوضح العميد أن أحد أركان الأزمة في دلمونيا جاء نتيجة لسطوة النظام القبلي السياسي القائم، وهو نظامٌ غير قابلٍ لمعايشة الحاضر، في ذات الحقبة التي يرى الناس فيها أن الحراك السياسي إما أن يكون معلناً أو كسبياً صامتاً، يعتمد على التقية في صمته، وهو أمرٌ منبوذ ترفضه الكثير من الأطياف.

أثارني عَضُّ آدم على شفتيه، كأنها هناك ما يجول في ذاكرته، سألته:

- بسبب رحلاتك وخبراتك التراكمية يا آدم، هل تختص بعض المجتمعات عن غيرها بهذه الحركات؟ هل تُعتبرُ بعض الشعوب قاصرة على حقها في تقرير مصيرها؟ أليس لها الحق في الاختيار؟

- التجارب الانسانية يا عزيزي تنتقل من مكان لآخر، ولا تقتصر على فئة دون أخرى.

- ولماذا التهميش؟ أليس التهميشُ هو أكبر جرائم سلب الإرادة؟

اعتدل آدم في جلسته، صار كمن وقع تحت طائل ضرورة البوح. أوضح أن الناس متشابهون في الحقوق والواجبات، وأن هناك معطيات تشير إلى

نزاعات متوقعة بين الشعوب والحكام، وإلى حالات من عدم الاستقرار في العلاقات القائمة. هناك من يقول إنها وُلِيتْ عليكم لأتأمر عليكم، كما قال أحد قضاة شبه الجزيرة في قضية قطع يد السارق. إنه من الأجدر أن يُتبع الأسلوب العقلاني في حل الخلافات، والوصول إلى حلول مرضية الأطراف كافة، ولكن وكما تعرفون، فإن الحكم عقيم، يخشى الحاكم فيه أن يحتل أحد أعمدة كرسي حكمه؛ فيحارب سواه. الحاكم الأجدر هو الذي يزرع الحب في قلوب شعبه؛ فيجعلهم يبنون صرحه بأيديهم، أما إذا بنى الحاكم صرحه على دمانهم؛ فإنه حتماً إلى زوال. يوجد الآن في أوروبا وخلال الأعوام السابقة حركات هجرة غير طبيعية. الناس تهرب في هجرة جماعية من الأرياف إلى المدن، أي أن هناك تغييراً ديموغرافياً، يعكس حالة من عدم الاستقرار.

- ولكن ليس لدينا في دلمونيا تلك المدن التي تحدث عنها

- ليس بالضرورة أن يكون التغيير الديمغرافي مرتبطاً بالتزوح إلى المدينة، بل أيضاً، بالتزوح إلى خارج المدينة، وأحياناً بتغيير التركيبة السكانية للمجتمع بصورة عامة؛ بهجرات جماعية إلى الداخل أو الخارج. هذه التغييرات تعني عدم وجود الاستقرار؛ أي وجود حالة من الغليان الشعبي.

كان للعميد - هنا - مداخلة قرآنية، جالت في فكره. استشهد بقصة فرعون مصر، وصراعه مع موسى. أوضح أنه من المسؤولية السامية للإنسان النهضة في وجه الظالم والمتآله. إنه الوجه الجمالي للإنسان، ثم أبدى شيئاً من حته الأدبي، الذي يغلب عليه:

إن الجمال من الإله كرامة للراغبين طهارةً وسلاماً

لم يكن آدمُ قد انتهى بعد من سرد ما في جعبته، فقال: عندما مررنا بسيناء، وجدنا ذلك التاريخ محفوظاً في المكان. الأماكن تحتفظ بالأحداث وتؤرخها، فعندما تزور أي مكان؛ فإن كل الوقائع تكون هناك محفورة في مخزون ذاكرة، ستجدها بفكرك وتستشعرها بروحك، فالتاريخ لا يُرى بعين مجردة. الفكر والروح عيانان نقرأ بهما تراكمات التاريخ. في سيناء مثلاً، إذا كنت تستشعر النبي موسى (ع) فإنك تراه في كل ذرة تراب، وإن كنت تدرك جبروت فرعون وطغيانه؛ فإنك ستري أثره مع كل خطوة لك، ذلك الفرعون الذي لم يؤمن بالله، فأمر قومه أن يبنا له سلماً للسماء لعله يرى إله موسى بوازع من ذلك الجبروت البشري، وفي مقابل ذلك الجبروت، تجدد الضعف والخنوع البشري. يأمر قومه ببناء الأهرامات ليُدفن فيها مع أملاكه وأحلامه. كان لا يؤمن بالله طوراً، ولكنه يؤمن أنه سيبعثُ مرةً أخرى، فمن سيبعثه إذا؟ إنني وجدتكُم في دلمونيا أهل خير، ولكن هناك قلت. هناك أزمة ثقة وحلقة مفقودة. ترقبٌ ووجلٌ من الآخر. قرأت ذلك في عيون الناس، ووجدته بصورة أكبر في عيني الحاكم نفسه. من الطبيعي أن يكون هناك رأي، ورأي آخرٌ مضاد. في بلادنا نرى أن ذلك التضاد ضرورة حياتية، وهو شرعٌ إلهي، ولكنني وجدتُ الرأي المعارض هنا محاصراً ومحظوراً أيضاً.

تحدث العميدُ بصوت فيه كثير رضى وطمأنينة. نحن أيها السيد شعبٌ قليل في عدده كبيرٌ في آماله وطموحه. نعرف أنه كيفما نكون يُوتق علينا. نحن أميل للآمن والسلام، ولكن الإنسان موقف به يُجَلد. كيف نورثُ أبناءنا وماذا نورثهم؟ لنكون أكثر صدقاً وأمانة، لقد وضع الحاكمُ قانون (الخاميس) لتوزيع اللؤلؤ، وقد صادق عليه التجار والنواخذة والبحارة. إنه نظامٌ فاشل وظالم بحق البحارة، ولكنه قانوني حسب الاتفاق المبدئي.

يقضي النظام أن يحصل البحارة على خمس الصيد فقط، ويحصل النوخذة والتاجر والحاكم على الباقي. كان ينتظر حقاً أن يتأفف منه البحارة أنفسهم بعد حين وأن يطالبوا بتغييره. انظر لما حدث، أمر الحاكم من منطلق سلطته في الحصول على ضريبة من كل الصيد، ومن التاجر والنوخذة والبحارة أنفسهم، ثم قام التاجر - ولتعويض الضرائب التي دفعها للحاكم - قام بفرض ضريبة أخرى على النوخذة والبحارة، ذلك من جانب، أما من الناحية الأخرى، فإن التاجر يتعهد بتموين السفينة خلال موسم الصيد، بشرط أن يشتري اللؤلؤ بنفسه من النوخذة وبالسر الذي يحدده هو.

- إنه افتراء وظلم فاحش.

- لم أكمل لك الحكاية بعد. يُموّل التاجر جميع الغواصين بمؤونة غذائية طوال العام، على أن يبيعه البحارة كل صيدهم بعد موسم اللؤلؤ.

- لا ضير ولا ضرار.

- بل كل الضرر، بما أن أغلب البحارة أميون لا يقرأون ولا يكتبون، يقوم التاجر بكتابة المديونيات، ويصم عليها البحارة توثيقاً لذلك، فإذا زاد خمس المحصول على الدين؛ رفع التاجر منه، بحيث يظل التاجر دائماً دائماً، والغواص مديناً طوال عمره. هنا تدرك - أيضاً - فائدة الجهل.

- يا ربي.

- ليس ذلك بعد، يشترط التاجر وتوصية من الحاكم لكي يحصل على نصيبه؛ أن يتقل ذلك الدين إلى أكبر أبناء الغواص حين وفاته؛ فتكون المديونية أسرية خالدة. تكون تيمة معلقة على صدورهم.

أصاب التفاضيل آدم في مقتل. أبدى امتعاضاً كبيراً والمأ للتصحح الأخلاقي البشري، ثم تذكر ما كان يجري في بلاده: هناك حيث كنتُ أعيش

وأسرتي تسلط من نوع آخر. تختلف الأساليب البشرية، ولكن تبقى الحالة الشيطانية السلطوية واحدة. لا توجد هناك مهنة صيد اللؤلؤ، ولكن المهنة الأساسية هي الزراعة والصناعة. هناك تُفرض الضرائب على المزارعين، على كل المحاصيل وبشتى أنواعها، حتى الأشجار التي تثمر، ومتى أصاب القحط أو المرض وحتى الثلج، متى أصاب أحدهم المحاصيل بسوء؛ فإن على المزارع أن يهب مزرعته للحاكم أو الكنية، بشرط أن يعمل فيها هو وأسرته، فيظل الفلاح يعمل وأسرته في أملاكه، ولكن دون أن يملك غير قوت يومه. لا يملك أجراً ولا أرضاً ولا أي شيء. أطلق الفلاسفة والمنظرون على ذلك النوع من الظلم اسم: العبودية.

ابنم العميد وهو ينظر لابنه: إن الحالة تتكرر هنا، وبصورة مختلفة مع المزارعين. المزارع الذي لا يستطيع دفع الضرائب، ويعجز عن دفع دينه؛ فإن كل أرضه تكون ملكاً لأحد التجار أو الحكام. الديون هي إحدى أنجح الطرق للبقاء في الدُّل.

- نحن نسمي ذلك بالاقطاعية⁽¹⁾، وقد تحركت الكنيسة للاستفادة من ذلك؛ حيث عملت تحالفات مع الاقطاعيين تجني من ورائها عشر الدخل، أو تُعطي المزارع صك غفران، يضمن له الجنة بعد الموت، وإن رفض فتمنحه صك حرمان، تلك الحركة الظالمة والغبية هي التي دفعت الفلاحين للهروب إلى المدن قبل أن تستغلهم ويطرق ملتوية طبقة أخرى، تُعرف بالبرجوازية.

1 - الإقطاعية (feudalism) هي أعمال سُخرة جماعية للفلاحين، تقضي أن يدافع الفلاح عن المالك بروحه عند النزاعات، كما يمتلك من خلالها الإقطاعي الأرض ومن عليها.

تبدو الهموم البشرية واحدة في كل بقاع الدنيا. تتعدد الأوجه ويبقى الوجه البغيض للظالم مشترك. الأعقل هو من يضع عقول الآخرين إلى جانبه ويدرك الخطأ من تجارب الغير ليبدو الخير نعمة يرفل تحتها الناس كافة.

لم يكتفِ التاجر من تملكه ذلك، ولكنه أبقى عصاه مرفوعة في وجه من يرفع عينيه بوجهه. لقد رحل ابنه غرقاً في محاولة لتعلم الغوص. كان قضاءً وقدراً من الله، ولكن التاجر يجزم أنها كانت جريمة عن قصد. لقد وُضع اليب يوسف خلف القضبان، وانقطعت أخباره. إنه وترّ يعزف عليه التاجر وحاشيته في وجه من يطالب بحقه. إنني لا أستبعد محاكمة أخرى أُزجّ فيها في السجن بتهمة التآمر مع يوسف لقتل ابن التاجر. الناس تقف فوق رمال متحركة، وتطلب النجاة، ولكن بين هذا وذاك، يجب أن تستمر الحياة؛ فالإنسان كما يقول آدم لوحة فنية غير مكتملة تسعى للكمال.



(4) آدم

الأسبوع الثالث من نوفمبر 1763

بعد اللقاء الأول الذي جمعنا في بيت التاجر، كان مقرراً أن ألتقي خادمي مرة أخرى خلال يومين كما طلب منا وذلك لزيارة الحاكم. بدأتُ أشعر بأن الخادم أصبح زميلاً وربما منافساً مع تلاشي الحواجز وتخطي الأدوار. هناك حاجبٌ يبعدنا كلما تباعدت بيننا الأماكن. توجهتُ شمالاً برفقة أبي راشد واثنين من رجاله إلى الوكالة التبشيرية في المنطقة القريبة من الميناء. التقيتُ زميلي ولكن بدمٍ بارد، قرأتُ في عينه عدم الترحيب. كنتُ أنوي أن أخذه معي؛ فقد انتهت المهمة البروتوكولية التي جعلتني أبقيه في الوكالة هناك، ولكن الميجور الإنجليزي في الوكالة دعانا نحن الاثنين وبمعيته لزيارة الحاكم. استدركتُ وجود أبي راشد فسألته:

- هل توافق على مرافقتي للحاكم؟

ابتسم أبو راشد واقرب من أذني، يهمن فيها بلغة عربية لا تشبه تلك المتداولة بينهم. تمتعاً فيها خليط من لهجات وربما لغات، ولكنني استطعتُ استيعاب فحواها.

- عليك بؤاھم سابقاً؛ لتعرف إن كانت زيارتي للحاكم محل ترحيب

أم....

- أخبرني أنتَ أولاً عن رغبتك.

رسم ابتسامة صامتة على محياہ: نعم أريد زيارته.

قال الميجور: لقد أعطت بريطانيا الشرعية للحاكم في دلمونيا ليفض

الصراعات، فلا خير في مرافقة أبي راشد أو سواه.

بعد موافقة الميجور، انطلقنا خارج الوكالة، عبرنا شوارع تكسوها الرمال وتتناثر على جانبيها أحجاراً صغيرة، أما الطرقات والأزقة؛ فيغلب عليها الطابع الصحراوي. كانت أغلب المباني الطينية والجيرية متداخلة مع بعضها بعضاً، ولكنها تأخذ خصوصيتها وانغلاقها. أما ما يُعرف بالبرستي؛ فإنها مبنية من جذوع وسعف النخيل، وهي مفتوحة تسمح للهواء بالمرور كيف يشاء، وعند النظر إلى البيوت البعيدة من القرى المجاورة؛ فإنه يصعب تمييزها عن لون الأرض، كَوْنَتْ جميعها منطقة سكنية في شمال الجزيرة الأم. إنها مجموعة أحياء أو قرى صغيرة منها: رأس الرمان، البلاد القديم، والخميس حيث مسجد دلمونيا⁽¹⁾. كانت تلك المناطق على استعداد للتوسع والتلاقي مع بعضها بعضاً. نوعٌ من التوسع الجغرافي، بانت لنا بعد فترة من الزمن مناطق خضراء كثيفة النخيل، تداخل سعفها واشتباك مع بعضه، فأصبح يشبه الغيوم المخضرة. اتخذنا طريقاً بين تلك البساتين. بدت أنواع الأشجار مختلفة؛ أشجار النخيل بثني أنواعه، أشجار الليمون المحلي (الترني)، اللوز، الباباي وغيرها. أكثرها كان إما مزهراً، وإما مثمراً. بين تلك الأشجار وجدت أراضي واسعة منسطة مكسوة بنباتات خضراء، تحتوي على أنواع مختلفة من البقوليات، كما وجدتُ جدولاً تكاد المياه تفيض منه. أخبرونا أنه ينبع من عين عذراء لريمتها أحدٌ، بل تندفع المياه منها ذاتياً. تتجه المياه من العين شمالاً وشرقاً، وتتفرع منها جداول ونهيرات تُفرق المنطقة بوافر من المياه، قبل أن تلتقي بمياه البحر فتجود عليه بخيرها. يكونان (بحريناً) بطعم منفرد، لا يشبه في مذاقه كل مياه العالم. انقضت تلك الجنان الخضراء، ثم بدت معالم الصحراء التي اعتدناها في شبه الجزيرة

1 - عُرف المسجد في تلك الحقبة بمسمى المشهد، وكانت تقام عنده الأسواق يوم الخميس (المترجم).

العربية تغزونا من جديد. مررنا بسلسلة طويلة جداً من التلال الصغيرة؛ تلال متلاقية ممتدة، تبدو طبيعية التكوين والحلقة.

- يا للروعة، بعد المناطق الخضراء الشاسعة، ها نحن في منطقة كبيرة مليئة بالتلال الطبيعية. ستأتي بعدها مناطق جبلية، وأخرى رملية صحراوية.

- إن هذه التلال ليست طبيعية أيها الرحالة. في الحقيقة إنها تُعدّ قبوراً أثرية، تسمى محلياً بالطعوس.

- يا إلهي! أليست هذه تلالاً طبيعية؟ هل هي قبورٌ حقاً؟

- نعم، مدافن وقبور قديمة جداً.

لقد عبرتُ مساحات جغرافية واسعة، من أوروبا وصولاً لأفريقيا وآسيا، ولم أجد ما يشبه هذه القبور/ التلال. فاجأني أحد زملائي الراحلين بطيفه. كان متخصصاً في الآثار، متمكناً من فكِّ الرموز، مهتماً باكتشاف التاريخ، ولكنني وبالمزاملة تعلمت منه الكثير. تمنيت أن يسعني الوقت لأقوم برسمها وفحصها؛ فهي كنزٌ يحتفظ بالتاريخ بين رماله، ولا شك يريد أن يشي بأسراره. توجهت إلى أبي راشد والميجور بالسؤال:

- هل يسمح لنا الحاكم بحفر إحداها والتعرف على محتواها؟

أجابني الميجور: إنها عرضة للسرقة، ولكن يجب أن نتأذن منه خلال الزيارة.

سألته بشغف: ولمن تعود هذه القبور؟

لم يكن الميجور مهتماً بتلك الأمور. أهداف وجوده محددة؛ أهدافٌ سياسية وعسكرية، تتمثل في المحافظة على المصالح البريطانية، والدفاع عن من يمثلهم في هذه الجزر، رفع الميجور كتفيه دليلاً على حيرته. صمتٌ وهو

ينظر لأبي راشد لعله يتطلع مثلي لإجابة مقنعة. المعرفة تشفع للرجل
المسؤولة والمكانة التي وضعها الأهالي على عاتقه.

- تعتبر دلمونيا هي الأرض التي تتوسط الكثير من الحضارات؛ فهناك
حضارة ما بين النهرين، الحضارة في اليمن، فارس، شبه الجزيرة. وبما أن
الإنسان يتوق لما لا يملك؛ فقد كانت شعوب هذه المناطق تتخيل هذه
الجزيرة الجنة الموعودة بسبب العيون الطبيعية والآبار التي فيها، وكذلك
الحضرة التي تميزها عن سواها في منطقة صحراوية جافة. إنها قطعة خضراء
بين البحار والصحاري، متدرجة في تنوعها الجغرافي بين الشمال والوسط
والجنوب. تعدّ هذه الأرض ملتقى لكل تلك الشعوب، فمن أراد أن يخلد
في الجنة جاء مع كنوزه هنا؛ ليدفن إلى جوارها بعد موته، ومن أراد التجارة
جاء هنا، فدلمونيا معبر بين الشرق والغرب، ومن هرب من بطش الحكام
رحل أيضاً إلى هذه الجزيرة حيث يصعب الوصول لها بسبب البحر. انتقلت
إليها قبائل بدوية كثيرة؛ فأصبحت دلمونيا حاضتهم. ساعدتهم على ذلك
كله طبيعة سكان هذه الأرض. امتازوا منذ القدم بالسباحة، وحب الآخر،
وإيثار الضيف على أنفسهم.

قاطعته ووضعت يدي على كتفه رابتاً. عايت فقرأته. يمكنك قراءة كل
إنسان متى كانت عيناه شفافتين، تصل لفؤاده دون جهد يذكر. أثبتت على
الرجل وشكرته، فاسترسل أبو راشد في سرد حديثه:

- تعدّ هذه الأرض - كذلك - ملاذاً ومنطقة آمنة من البطش السياسي
والديني بسبب انعزالها الجغرافي عن شبه الجزيرة، فكلما تعرضت أسرة
لظلم سياسي أو ديني أو مذهبي؛ هربت إلى دلمونيا. هنا تعددت الأعراق
كثيراً، وتوعدت اللهجات بصورة هائلة فعلاً. أغلبها يمثل انعكاساً

للمناطق التي جاءت منها هذه الفئات، والتي كوّنت فيما بعد النسيج السكاني لهذه الجزيرة.

كان لحديث أبي راشد وقع السحر علينا جميعاً، حتى الميجور الذي تحفظ على مقدمه أعجبه الكم الغزير من التفاصيل المعرفية. لم تكن سلسلة التلال (الطعوس) قد شارفت على نهايتها إلا بعد ساعتين، حيث بدت غيمة سوداء تقفز من الأرض، وتلوح في الأفق. غيمة جائية فوق الأرض، ظننتُ أني سأضيف تلك الظاهرة إلى العجائب التي رأيتها في طريق رحلتي للشرق. تداركني أبو راشد مرة أخرى بتوضيحه: إنه أكبر جبل في الجزيرة، يتوسطها ويدعى جبل الدخان.

كلما اقتربنا أصبحنا نميز الخط الفاصل بين الجبل وبين السماء. كأن الدخان يحيط به من بعيد فيرفعه عالياً. توجهنا لصفحة الذي لا توجد فيه أي خضرة ولا بارقة أمل للحياة. حجارة مختلفة الأحجام، تتناثر هنا وهناك، وتزاح عن بعضها لتكوّن ما يعرف بطريق. شاهدتُ في نهاية الطريق الصحراوي مبنى يتيماً لا يجاوره أحد، مبنى مختلفاً عما شاهدته من مباني القرى شمال الجزيرة وسواحلها. كان لونه صحراويّاً، فلا يمكن تمييزه إلا بتدقيق قريب. قيل لي إنه قصر الحاكم.

تساءلتُ ونفسي: ولماذا أحب الحاكم أن يعيش بعيداً عن محكوميه؟ إنها إشارة أخرى ربهما تشرح طبيعة العلاقة القائمة بينه وبينهم. اقتربنا أكثر، حتى وجدتُ رجلاً فاردأً جناحيه كطائر أبيض رمزاً للسلام والمحبة. قال الميجور:

- انظروا إلى ذلك الرجل، إنه الحاكم يرحبُ بكم.

تساءلتُ مجدداً عن خَدَمِهِ وحشمه وخاصته. قيل إن الحاكم العربي يستقبل ضيوفه خارج القصر، ويرحب بهم وهم في الطريق. إنها إحدى

شيم الكبار. اقتربنا منه وقد ترك خدمه وأسرته في الداخل في عادة تعكس الأصالة العربية عند استقبال الضيوف. كان يرتدي ثياباً تنصع بياضاً، معطفاً أبيض من الحرير الفاخر يسمى محلياً بـ(البشت)، ووشاح رأس (غتر) عرف - لاحقاً - أنها كشميرية، أما العقال فكان ذهبي اللون. كان الحاكم يضع خنجراً ذا نصل جلدي مطرزاً بالحرير حول خصره الممشوق، كما لمحتُ خاتماً قانياً في خنصر يده اليمنى. أخذنا متسهماً مرحباً إلى مجلسه المفروش بالسجاد الأحمر الذي قدرت مساحته بيائة وعشرين قدماً مربعاً. كانت جدرانه رائعة مدهشة بزخرفات ونقوش فوق الجبس؛ زخرفات عربية تكووها وتجملها بعض الآيات القرآنية التي كتبت بخطوط عربية مختلفة، أما الأبواب والنوافذ، فكانت كثيرة لم أجد لها مثيلاً في القرى والأرياف التي مررنا بها. كانت مصنوعة من الساج الهندي، بينما كان السقف مشيداً من أعمدة الشجر وشبكة ذهبية متداخلة بصورة هندسية رائعة من خطوط الخيزران والحُصُر المزرَكشة، ثم وُضع فوقها الطين الجاف المقاوم لزخات المطر الشتوية. رأيتُ الناس يضعون شيئاً من الدنيا في بيوتهم، ووجدتُ الحاكم وقد وضع الدنيا كلها في يته.

جلس الحاكم فوق كرسية كبير؛ كرسي خشبي عليه الكثير من النقوش والأشكال الهندسية الذهبية. ساقاه الأماميتان منفرجتان، ويتجه المقعد ضيقاً للخلف حيث يرتفع منه عمودان على قاعدته الخلفية، أما المقعد ومسنده فكان محلياً أحمر. ساد المكان صمتٌ مهيب، ما كان الحضور يتحدث إلا باستشفاف موافقة سموه. رحب بنا مرة أخرى ثم قام رجل أسود يسمى بـ(الولد) بصب الشاي من دلة نحاسية ذات عنق طويل، ثم أردفه بصب القهوة من دلة أصغر وأقصر. أخبرني أبو راشد أننا بانتظار وجبة الغداء التي جاءت بعد دقائق في صوانٍ نحاسية، وُضعت

وسط السفرة على الأرض. غمنا أيدينا في إناء مرّره الصّبية. هممتُ بمد يدي نحو الطعام فوكزني أبو راشد: لا بدّ أن يبدأ الحاكم بتناول الطعام أولاً، ثم يدعوننا مرةً أخرى. بروتوكولات عربية بدوية الأصل. كانت الذبيحة تتوسط (الصّبية). تُسمى تلك الوجبة بالغوزي؛ حيث تكثر فيها المكورات. أبديتُ إعجابي بنكهة الطعام، وأنا أتحدّث مع الخادم، فوكزني أبو راشد مرةً أخرى: يُمنعُ الكلامُ أثناء تناول الطعام، وكما بدأ الحاكم افتتاحية الطعام فإنه أنهاها، ولما رفع يده همى بقايا الرزّ من يده على السفرة، ثم جاء الصّبة بإناء الماء لغسل الأيدي مرةً أخرى، ولكن تعطرنا هذه المرة بباء الورد، ثم قام (الولد) بصب الشاي والقهوة، من الدلة النحاسية التي لا تغادر موقد الفحم الملتهب.

انتصب الحاكم على كرسيه، كان طويلٍ الوجه، بأنفٍ دقيقٍ طويل، ولحية سوداء خفيفة مكتملة الاستدارة. وكان أبيض البشرة كعرب الجزيرة العربية. تحدّث بصوت منخفض ورحب بنا جميعاً ثم خصّني والخادم بترحيب أشد:

- تصل بلادنا رحلاتٍ مشابهة، ولها أهداف علمية وتجارية. نحن نرحب بكم وبارك خطواتكم، ونتمنى أن تطيب لكم الإقامة بيننا، وأن نمدّ لكم يد العون لتحقيق أهدافكم. نعي أن هذه الحملة الدنباركية كما سواها تعمل على نشر الخير والفائدة للجميع.

- شكراً لسموكم. تُقدر حكومة بلادي كرمكم، كما نبلغكم تحيات السلطان العثماني الذي بذل الكثير من أجل إنجاح هذه الحملة.

- سيكون لكما حرية القرار في اختيار محل الإقامة، وعلينا أن نمدّكم بالأيدي متى دعت الضرورة والحاجة إلى ذلك.

- سمو الحاكم، لقد اخترتُ البقاء بين عامة الناس، وفي ضيافة أبي راشد، فكما أن هناك دراسات تختص بالآثار؛ فإن هناك دراسات تختص بالإنسانيات وعلم النبات وغيرها؛ لعلي أحظى بموافقتكم الكريمة.

تحدث الخادم لأول مرة، فأثنى على الحاكم وكرمه وطلب البقاء في مطبخ القصر؛ ليقدم بعض خبراته التي تضيف أنواعاً مختلفة للطهي، وكذلك لمعرفة طرق جديدة يتعلمها.

وافق الحاكم على مطالبنا، ووعدنا بتقديم يد العون قدر المستطاع. توجه الخادم برفقة (الولد) لاكتشاف المطبخ الكبير، ولكن... استأذن أبو راشد للتحدث إلى الحاكم فأوما له موافقةً:

- سأكون في قمة الصدق معك أيها الحاكم. هناك عدة قضايا نود أن تكون بين يدي سموكم، وأنتم على قدر كبير من المسؤولية لاتخاذ الإجراء الأنسب للعامة. هناك حادثة زجّ السيب يوسف في السجن، دون دليل قطعي ثابت على دوره في غرق ابن التاجر، كما أن هناك الضرائب الإضافية التي فرضها التاجر على التوخذة والغواصين والسيوب. كلها أمور تحتاج إلى إعادة نظر من سموكم للوقوف على مشروعيتها.

وعدنا الحاكم مجدداً بالنظر في المطالب جميعها، على أن يكون في قمة الصدق أيضاً؛ لا تفلت، فأشدُّ القناعات تتج عن سوء فهم بسيط. ها هو الخادم يعمل في مطبخنا، وها نحن نمد يد العون للرحالة آدم، وسنبحث مع القضاة في مسألة السيب يوسف، وسنجتمع مع مجلس الأعيان العرفي للتباحث حول الضرائب جميعها.

خرجنا وأبو راشد يتمتم في أذني: الصدق أكبر وسيلة للخداع.



(5) الخادم

ديسمبر 1763

أمرَ الحاكم أن أكون ضمن فريق العاملين في قصره، وأن أشرف على شؤون المطبخ الرئيسي والباذخ لسموه. استقبلتني عائلته وكذلك العاملون في القصر بحفاوة كبيرة، حتى ظننتُ أنني لست مجرد خادمٍ وطاهٍ. كان تعاملهم معي فيه الكثير من فخامة التقدير والاحترام. أفردوا لي غرفة خاصة، كانت تُستخدم من قِبَلِ أحد أبناء الحاكم. أغرقوني بتواضعهم وإيثارهم وكرمهم، حتى أوشكت أن أنسى بأنني خادم في قصر سموه.

في صباح اليوم التالي، طلبتُ من الطهارة أن يساعدوني في إعداد وجبة مختلفة وجديدة لسموه. صاروا يعملون في خدمتي كخليفة نحل. أخذتُ بعض التفاصيل الصغيرة من الطاهي عن النكهة التي يجيئها الحاكم في غذائه. وجدته يفضل الطبخات الهندية والفارسية حيث تكون النكهة أميل للتوابل الحارة. حافظتُ على تلك النكهة ووضعتها في قالب مائدة الأورفا، وهي إحدى أشهر الطبخات العثمانية. انتظرنا وقتَ الغداء، فأعددتُ السفرة بيدي، وقدمتُ الطبق الرئيس وسطها. وجهتُ الدعوة بنفسني للحاكم للتفضل بتناولها. أغراه الشكل غير التقليدي في ترتيب المائدة. تناول قطعة من اللحم، ثم دعا أعضاء عائلته (للبسمة). تبسم ثم أومأ برأسه تليفاً ورضي. أسعدني رضاه وأفرحني كثيراً إطرأؤه. بعد ذلك، تذكرت ما قاله آدم من أن الإشادة تصنع أمة ناجحة، والتوبيخ يدمرها، فكيف بإشادة من سمو الحاكم؟

- يبدو أنك خبيرٌ في مجال عملك!

أجبهه بكثير من الاعتزاز والثقة: كل من يجب عمله يتقنه يا صاحب السمو.

- من أين لك هذه الوصفة الساحرة؟

- الترحال والتنقل بين البلدان يضيفي على الإنسان الكثير من المعرفة. وجدتُ أن الموائد تتغير بناءً على تغير البلدان وحتى المدن. هناك بلدان تشتهر بالتوابل، وأخرى بأطباق اللطعة، وأخرى بالبطاطس أو الأرز. وإذا انتقل الطهاة إلى أماكن أخرى، يمكن لهم أن يزاوجوا بين ذلك كله ويخلقوا أطباقاً جديدة ولذيذة.

فأجاني الحاكم بقراره التلقائي، أمر مدير مجلسه بإجزال العطاء لي، ودعاني مباشرة للبقاء في القصر حتى موعد مغادرة دلمونيا. أبدت موافقة وغبطة كبيرتين. تقدم الرجل ووضع في يدي صرةً من العملات المعدنية.

انسحب الحاكم إلى غرفة إحدى زوجاته، وطلب أن أنتظره لحين استيقاظه من قيلوته. إنها إحدى العادات السائدة في شبه الجزيرة العربية. ربما لحرارة الشمس دوراً في ذلك. يجتثون من سطوتها وقسوتها حين تكون عمودية في كبد السماء.

بعد ما يقرب من الساعة، أقبل (الولد) علي عجلٍ يناديني: سمو الحاكم يطلبك في الداخل.

لريدع لي الولدُ مجالاً للسؤال. توقعتُ أن يكون مريضاً. ربما يتهمني بتلويث الطعام وربما بمحاولة تسميمه. بدأت الهواجسُ تطاردني وأنا أحتُ الخطى خلف الولد. طرق بابَ غرفته الرئيسية. تفضل، فتح الولدُ الباب ودعاني للدخول، أغلق الباب من خلفي، وتركني وحيداً للأقدار. وجدتُ

الحاكم جالساً على طرف سريرهِ. كان حاسر الرأس منفوش الشعر، وضع رأسه فيما بين راحتيه وأصابعه في شعره. كانت عيناه حراوين. ضربني الرعبُ حقاً. طلب مني الجلوس على الأريكة القريبة منه، ثم قال:

- هناك أمرٌ جليلٌ أريد معرفة رأيك فيه.

قلتُ مرتبكاً: تفضل يا سمو الحاكم.

بدأ الحاكم في السير خلال المساحة الواسعة بين مقتيات الغرفة. ظننتُ أنّ الأمرَ جليلٌ ويبحث الحاكم عن طريقة للغور فيه. تحدّث بعد لحظاتٍ: بما أنك رحالة أوروبي، فلا بدّ أنك قطعت الكثير من الأراضي والبلدان والعديد من البحار والأنهار. تلك الرحلات جعلتك خادماً وطاهياً ماهراً، ولا بدّ أنها علّمتك الكثير من الثقافات، لذلك كله؛ فلا أشك أنها وهبتك قدراتٍ شتى، وربما تكون إحداها القدرة على تفسير الأحلام.

- الأحلام؟ أنا؟

- نعم أنت، وستخبرني عن تفسير الكابوس⁽¹⁾ الذي يضغط على صدري حين أنام. يحتم عليّ ويسلبي القدرة على الحركة، أكون خلاله يقظان نائماً. يعبر في رأسي شيءٌ كأنه الحلم.

نظرتُ إلى المخدة. قيل إنّ مخدة ريش النعام ليست مضادة للكوابيس... سألت:

- وماذا ترى يا سمو الحاكم؟

- أرا أقل لك أنك تعرف ذلك؟ نعم إنه كالرؤيا، أرى فيه قتيلاً يسبح في دمه على الأرض، وأرى شاباً وسيماً يخرج من رأس القليل، وهو يقول:

1 - يُسمى الكابوسُ في العربية بالجاثوم.

اسقوني إني عطشان. إن هذا الكابوس لا ينفك عني أبداً، ولرأجده
تفسيراً، وما هو الله يعثك لي لتخبرني عن تأويله.

لم يترك الحاكم لي مجالاً للتراجع. كان سيستقبل أي كلمة مني بصدر
رحب، وكأنه أمرٌ من المسلمات.

- قلتُ: إن هناك من يتربص بحياتك يا سمو الحاكم.

تراجع الحاكم للخلف ثلاث خطوات، وجلس على طرف سريرهِ مرةً
أخرى: هو ذلك بالضبط. هناك خطر الجيش الذي يُبنى في هرمز، والذي قد
أكون ضحية له، وهناك المطالبُ والاحتجاجات الداخلية المحلية التي
يقودها أبو راشد. أظنُّ أن كلاهما خطرٌ قادم لا محالة. أريدك معي كي
نبحث عن خلاصٍ من الخطرين كليهما.

وجدتُ نفسي وسط قصصٍ وأوهامٍ ليس لها أول ولا آخر. كيف لرجل
مؤول يمثل رأس الهرم واللمطة في الجزيرة أن يبني سياسته مع رعيتهِ
وجيرانهِ على أحلامٍ وتوقعاتٍ، بل و... هواجسٍ وخرافاتٍ؟ وهبني
الحاكمُ مكانةً مترعةً وكبيرةً في نفسه. لا أجدُ ضيراً أن أجنبي من ورائها
شيئاً من الثروة والجاه.

تحول الحاكم بعد ذلك إلى حديثٍ آخر. سألني بصورة مباشرة عما يخططُ
له أبو راشد وجماعته، وعن الدور الممكن أن يلعبه آدم في ذلك كله. كانت
علامات القلق بادية على عيائه وإن صبغ نفسه أحياناً بالطمأنينة. إنها فرصة
مواتية لتقزيم آدم، وفي مقابل ذلك الحصول غنيمةً على ثقة الحاكم، ولا
ضير في بعض الأموال؛ منافع عامة وأهداف مشتركة. أوضحت له أن
مطالب أبي راشد وجماعته تلقى صدرأ رجباً عند آدم. لقد بيّن لهم أن

مطالبهم عادلة، وأن لها ضرورياً وأمثلة في بلدان الغرب، ومتجدد لها أصداءً مختلفة إذا انتقلت إلى خارج الحدود. تُعرف هذه الحركات بحقوق العمال والكادحين. هناك تحركات وثورات تغييرية، تطالب بالإصلاح في مناطق مررنا بها. تلك المصالح تتعارض عادة مع الأنظمة القائمة، وتهدد بقاءها، إذا تغاضى الحاكم عن تلك المطالب فإنها قد تزيد من سخط العامة عليه، وإن وعد بالإصلاح فإنه سيجد صدر أرحباً لدى الناس..

أوضح الحاكم أن الوضع مختلفٌ وشتان ما بينهما؛ فالدول الأوروبية أصبحت صناعية منتجة، أما الشرق فلا زال استهلاكياً حتى النخاع، لا يعرف غير الزراعة، والصيد، وبعض الحرف البدائية.

نقلتُ له ما يتداوله البريطانيون في جزيرة هرمز. يؤكدون أن أسباب بقاء الوضع القبلي في جزيرة دلمونيا ناتجٌ عن انهيار القوة البرتغالية التي كانت متغلغلة وفاعلة في الخليج، يُضاف لذلك، انشغال العثمانيين بمحاربة الصفويين؛ ذلك الوضع أدّى لتأصيل النظام الأبوي، ويستخلص آدمٌ من ذلك كله تنامي الرغبة البريطانية في الانتشار على البحر والأرض.

انتفض الحاكم من مكانه فجأة وقال: ذلك ما تؤدُّ تفسيره أيها العراب. من هو القليل الذي يأتي في الرؤيا؟ وماذا تريد بريطانيا محديداً؟ هل تريد لنا وصايا أم وصاية؟

لريدع الحاكم لي مجالاً للتفكير مرةً أخرى. انقضَّ عليّ بحديثه، قلت: أظن أن القليل في رؤياك هو أحد ضحايا الاستعمار البرتغالي، وربما أحد ضحايا الأزمة القائمة على الجزيرة حالياً، أما ما تريده بريطانيا...

- الأزمة الحالية؟ وماذا تقترح حتى نجد حلاً لهذه الأزمة الطارئة؟

- يقولون إنّ التغيير سنة الحياة، ومن يرفضه يريد لها الفناء، وذلك الفناء لا بدّ أن يكتسحه قبل غيره. يجب أن تبحث عن مخرج لهذه الأزمة؛ إما بالبطش بأهلها وإما بتحقيق مطالبهم.

وجدتُ أن الحاكم قليل الحيلة، لئن الجانب، ربما غاب عنه الكثير مما يدور في بلاده. كان أكثر ميلاً للحلّ السلمي، والذي قد يرضي الجميع، ولكن خاصته ومنهم التاجر يصفون الواقع بالقول الذي سيدمر الأخضر واليابس، ويفرضون عليه تبني الكثير مما يخططون ويضمرون. إنّ الحاكم غارقٌ في وحلّ الأزمات المتراكمة عليه حتى أصبح يؤمن بالرؤى وتفاسيرها، ويبحث عن يدٍ تخرجه من الوحل الذي هو فيه.

قلتُ له: هناك العديد من الطرق التي يمكنك بها حلّ الأزمة القائمة، والتخلص من تداعياتها، أولها وأسهلها: تنفيذ مطالب الناس وإرضائهم، فالنبيل هو من يُصَفُ عدوه، ولكن ذلك سيتعارض حتماً وكما تقول مع رغبة أعضاء المجلس المُعيّن من التاجر والحاشية. ويمكنك نفي أبي راشد أو سجنه، وطرده آدم أيضاً إلى هرمز أو بغداد، وعليه أن يواصل مسيرته لكونها يغن بوصفه شخصاً غير مرغوب فيه، وذلك أيضاً سيثير شكوك الدول والحكومات المجاورة لما يدور هنا؛ الإنجليز يريدون موطن قدم، يريدون أرضاً صلبة آمنة؛ لتكون جزيرتكم مقراً رئيسياً لوكالة الهند الشرقية، وهو عامل اقتصادي مهم لكم، أما العثمانيون والموجدون والفرس؛ فهم يتربصون لما يدور هنا. إذا لم تجد حلولاً لهذه الأزمة فإنه سيسهل عليهم اختراق الحدود، والوصول لكرسي الحكم بسبب شرعية ومرجعية مطالب الناس، ولا ينسى سموكم القبائل التي تستوطن المناطق

القريبة، وكذلك القراصنة الذين يجوبون الخليج. إنَّ عدم الاستقرار
سيحفز تلك القوى للطمع في هذه الأرض وخيراتها.

وضع رأسه كعادته بين يديه، وقال: ذكر لي أحد العلماء هنا أن قمة
الغباء هو أن تهجر واقعك بمرارته نحو مستقبل حلو بأوهامه... إنَّ أمور
دلويا معقدة حقاً.

في اليوم التالي، طلب الحاكم الاجتماع في أسرع وقتٍ ممكن بالتاجر
والنواخذة والأعيان، وطلب بصورة خاصة الحضور الفاعل لرجال الدين،
كما طلب وبقوة حضوري الشخصي للاجتماع من أجل تقديم المشورة
والوقوف على حقيقة ما يدور هنا وهناك. صار يكرر ويقول: قمة الشجاعة
في المواجهة.



(6) خولة

مطلع يناير 1764

تواصلت الضيافة الأسرية للرحالة الأوربي في منزلنا، فكلما مرّ الزمان به؛ ازداد ألفة بنا وعظمت محبتنا له. بدأ - تدريجياً - يحتل شيئاً من قلوبنا. تميّز بلين الجانب وبشغره الباسم. كان ذا معرفة واسعة وإطلاع جم، دائم البحث عن كل غامض وجديد. وجدتُ فيه التواضع. فكلما زاد فكراً شعر بضآلة معرفته وضرورة السعي والتقصي وراء العلم. بعد يوم من عودته من زيارة الحاكم وبعد صلاة الظهرين، احتشد الناس تباعاً حول منزلنا، أقبلوا من المناطق البعيدة، كانت الجلبة قد وصلت الحيّ قبل عودة والدي مع ضيفه؛ ضيفٌ استثنائي حقاً. كان الضيوف فيما سبق عرباً؛ بحارة ورحالة، من أبناء الجلدة الواحدة والعابرين، أما هذا الرجل الكيان فمختلف عنهم! تاءلتُ إن كان يوجد بشرٌ بهيئات وألوان أخرى وراء هذه البحار والمحيطات الواسعة التي نسمع عنها، كنتُ أعرف أن أرض الله واسعة رحبة، وفيها شعوبٌ وقبائل مختلفة، ولكنني لم أكن أتخيل أن أعاين بأم عيني رجلاً يحل في بيتنا من تلك البلدان! عادة يرى الناس - هنا - أن الأرض منبسطة مستوية، تنتهي بنهاية اليابسة التي بعد بحرنا، ولكننا نسمع عن أراض بعيدة ومحيطات عملاقة، فكيف يكون أناسها؟ وكيف يكون العالم المنبسط لامتناهياً؟ تستبق الأسئلة المتضاربة كلّ أمر جديد. نقل لنا أبو راشد عن ضيفه القول: إن الأرض ليست منبسطة كما نعتقد، ولكنها كروية تدور حول نفسها، أما القمر فإنه تابع لها ويدور في فلكها. تضاربت هذه النظرية مع المعتقدات السابقة. يُقال هنا إن القمر لا يسقط

على الأرض لأنه معلقٌ فوق قرني ثور عملاق يمنعه من الحركة والانزلاق. أظن أن لآدم القدرة على توضيح تلك النظريات. صار لزاماً أن نعرف من علمه لتضح الحقائق، ويظهر العلم الحق.

منذ مقدم هذا الرجل الغريب، وقد دبّت الحركة في بيتنا بشكل مطرد، وتسارعت وتيرة الحياة. بُتت فيه روحٌ مختلفة. هناك من ينظف دائماً وآخر يطبخ ويُعدُّ الطعام. هناك من يعيد هيكلة المجلس، وآخر يُفصح مكاناً للاسترخاء والنوم. لم يكن أبي - وكأغلب الرجال - يأبه لأمر التدبير الداخلي برمته، كان راضياً قنوعاً بها وهبه الله؛ فأمي سيدة منزل دؤوب، أمٌ مثالية توفر الراحة والأمان لنا ولضيوفنا، أمٌ مسؤولة وربة منزل بألف كلمة؛ فالأم عَشٌّ والأبُ عِزٌّ. لم يسبق لي أن شاهدتُ رجلاً أوروبياً. كيف يتحدثون ويأكلون وماذا يلبسون؟ هل يتشابهون معنا كثيراً؟ لقد أصبح التخيل مستحيلاً، فكلما قالوا إن الضيف اقترب زادت نبضات قلبي، وكثر اضطرابي. ما خطبك يا خولة؟

أخيراً، سُمِعَت جلبةٌ وضوضاء في الخارج. الكل كان في الطريق الرملي أمام منزلنا. لرُتُّر الرمالُ غبارها كعادتها فقد بُلِّتت ماءً. وُضع بعض سعف النخيل الأخضر على جانبي الباب الخارجي، ونُشرت حباتُ الأرز على التراب. صعدتُ للأعلى، واتخذت من الكوة الموجودة في السطح نافذة. رأيت الضيفَ للتو ينزل من على بغلٍ أصهب. أصبح كتفه ملاصقاً لكتف والدي الذي يلازمه، لكنني أرى قفاه فقط، وعلى غير لقائي الأول به، وجدته الآن طويل القامة نحيفها؛ نحافة مصطنعة، تظهر هيكلًا لينة كانت قوية وممتلئة. كان يرتدي زياً عربياً، ربما أهدها إياه أحدهم قبل مقدمه. استقبل بابنا وأخذ يصافح الجمع حوله، كأنه عيدٌ صغيرٌ حلَّ بفتةٍ على

قريتنا. الآن وقد أصبحت أميزه وأراه بوضوح؛ رجلٌ بزي عربي، ولكنه
حتمًا ليس من العرب؛ فالزي مظهرٌ لا يغير الجوهر. وجه طويل به عينا نر
في لعانها. ذقن غير مشذب، يميل للون الأحمر، وأنف دقيق طويل. كان
يضع عمامة بيضاء على رأسه، ولكنها تنحدر على إحدى أذنيه. تبدو عدم
احترافية صاحبها، ينتم للجمع عند المصافحة.

أخذ أبو راشد على عاتقه مهمة تقديمه للجمع القادم من المناطق
الأخرى. كان يُعرفه بهم ويصفهم له؛ نوع من التقريب بين الغرباء وخلق
للألفة. أي لغة أم يتحدث بها هذا الرجل؟ كيف كان أبي يفهمه ويخاطبه؟
هناك عزفٌ غريب وإيقاعٌ جلل. أمرٌ مثير للدهشة يدفعني إليه بفضول.
فجأة، سُمِعَ صوتٌ إطلاق بارود. تطاير الدخان الخفيف من فوق أحد
المتازل المجاورة. إنه مصدر الصوت المدوي. سقط الضيفُ على الأرض
مضرجاً بدمائه ومنكباً على وجهه. ثارت ضجة من حوله. زاد اللقطة
والترقب. ابتعد الناس من حول الرجل واقترب منه أبي. أزاح ما كان يشبه
العمامة من على رأسه، قال دمٌ أحمرٌ قانٍ على التراب. لم يُعرف بعدُ مصدر
النزيف. ترقبٌ وانتظار لما سيفصح عنه أبو راشد.

حمل أربعة رجال آدمَ على وجه السرعة إلى داخل المجلس الذي أعِدَّ
ليكون موضع استقبال ودار نوم له. أصبح دار علاج أيضاً. اقتحمتُ
وراشدُ المجلس ننظر بترقب. غسل والدي موضع الجرح بالماء وطهره
وضمّده.

- إنه إطلاق رصاصٍ من بارودٍ أصاب قشرة الجانِب الأيمن من
الرأس، أعلى الأذن.
سأله إن كان آدم بخير.

- الجرح سطحيّ يا ابتي وليس غزيراً. ستوقف الدماء سريعاً. ولكنّ الرجل بحاجة إلى متع من الوقت كي يتعافى ويلتئم جرحه ويستوعب صدمة الحادث. علينا مساعدته على الاستشفاء.

توقّف النزيفُ فعلاً بعد دقائق ولا أثر له غير بضع قطرات حمراء على ربطة الرأس. بعد ساعة وُضِعَ ماءً بارداً على وجه آدم. أفاق الرجل من وقع الصدمة على مهل. فتح عينيه بيّطاً شديداً. كأنها بدتِ الأشياء ضبابية أمام ناظره من هول الصدمة. تتضح الرؤية مع الوقت، تحسّس موقع الأثر، فتساءل مباشرة عن السبب...

- هل سقط حجرٌ على رأسي، أم تعثرتُ فجأة؟

- ليس حجراً، بل رصاصٌ بارود، لريصب غير قشرة الرأس، الحمد لله كثيراً. ربما أخطأ هدفه ومسح على رأسك فقط، لريصبك بصورة مباشرة. إن الجرح ليس غزيراً. ربما كان الهدف أحدنا أو أنت فعلاً. لا نعرف الجاني بعد. لقد تعقب الرجال مصدر البارود وسيجدونّه حتماً. نعتذر لك جميعاً؛ للضيف حق وواجب الحماية.

خرج أبو راشد للجمع في الساحة الأمامية لمنزلك. عاد ثلاثة رجال حفاة وهم يجرّون شاباً، يرتدي إزاراً وملابس داخلية فقط. رفع أحدُهم البارود.

سألهم أبو راشد: كيف، وأين، وجدتموه؟

قال أحدُهم: توجّهنا لمصدر اطلاق الرصاص. وجدنا أثر سقوط الجاني من على الجدار، وقد جرح نفسه، ولشدة خوفه؛ فإنه خلع نعليه، وهرب حافياً. تتبع (أبو أثر) خطواته، حتى وجدنا الجاني يضمّدُ جرحه في إحدى المزارع. أمسكنا به ووجدنا هذه البارود معه يا أبا راشد. إنها فارغة من الرصاص.

اعترف المتهم أنه أحد أعوان التاجر والعاملين لديه. أمر أبو راشد رجاله أن يقيدوه في إحدى المزارع القريبة لحين البت في أمره، ثم طلب من الجميع أن يغادروا المنزل وساحته الأمامية: دعاؤكم لأدم بالشفاء العاجل، لا بد أن يبقى في منامه؛ حتى يستعيد قواه وعافيته ويستوعب الحدث.

افترق الناس خفاً. أوصاني والدي بمرادة المصاب والاطمئنان عليه: أكثرى دخول المجلس مع راشد، لعل المريض يحتاج طعاماً أو شراباً. لدي الكثير من الالتزامات صباحاً ومساءً. يمكنك أن تكوني عند حسن ظن الجميع. أتق بذلك. دعي جدك في الداخل، وسأوصي عليه أمك.

صارت وجبتا الغداء والعشاء من المهام الموكلة إلينا ضمناً، ولكن لم يكن لأبي أن يبقى طويلاً خلال النهار إلى جانب ضيفه المريض لضرورة متابعة أعماله في المزرعة، بالإضافة إلى أمور البحر. أوكل لي تقديم الغداء والماء وتوصيله في أوقات محددة. رافقني راشد حين قدمت أول وجبة غداء. كان آدم نائماً على جانبه الأيسر في صدر المجلس، توسد مخدعة من الصوف، ووُضعت حقيقته الجلدية التي لا تفارقه خلف رأسه. بسط آدم راحة يده اليسرى تحت خده. كان هادئاً هائناً في نومه. يصدر منه صوت شخير خفيف متناغماً مع شهيقه وزفيره. تميز جده بالطول الفارع وضعف ساقيه وعرض منكبيه. تدرج في الارتفاع عن الأرض من قدميه حتى كتفيه. سألتني راشد هامساً عن الموضوع الذي يجب وضع مائدة الطعام فيه، فاقترحت منتصف المجلس، حينها فتح آدم جفنيه على صوت الخشخشة، وبدأت عيناه تنفرجان. خلته يرى بغمام ومن غير وضوح، كأنه يعاين أشباحاً. تكلم فيما يشبه الأنين، كانت أول مرة أسمع فيها صوته منذ إصابته:

- هل أنتم أبناء أبي راشد؟

كانت كلماته عربية، ولكنها لا تشبه لغتنا في شيء، كالماء الذي يعلوه زيد. ماء لا يبدو ماءً بل مزيجٌ من ذلك كله.

- أنا خولة، وهذا أخي راشد أبناء... ألا تذكرنا؟

- أبناء.. أبو.. أبو.. راشد.

- نعم أبناء أبي راشد. جئناك بالطعام، فلا بد أنك جائع. نحن في الخارج، وما عليك إلا أن تطرق الباب إن احتجت شيئاً.
- لا تذهب. ابقيا هنا رجاءً.

حاول أن ينهض ويجلس، ولكنه استشعر الأكر في رأسه: أشعر بدوار. أسرع راشد لمساعدته، بينما اقتربتُ منه بالماء. اعتدل في جلسته، لكنه كان كالمعفة المنحنية، تمحن للأرض. وضع رأسه بين يديه، يتحسس موضع الأكر. أعطته الماء، فاعده راشد لي شرب منه حدَّ الارتواء.

لما رفع رأسه، لاحظتُ أنه كمن كان يراقبنا ويتفحصنا. أخذ يعاين زوايا المجلس وأبعاده. إنه لا ينظر فقط، كأنه بصور ويرسم كل شيء فيه. هناك سِرٌّ دفينٌ وراء هذا الرجل. سألتني:

- هل لأبيك أعداءٌ لدرجة أن يُطلقوا النار عليه أو على أحد ضيوفه.

- إنها المرة الأولى التي يتم فيها إطلاق نار. الناس هنا لا تمتلك البارود. لا يتم توزيع البارود إلا حين غزو الجزيرة حيث يتم تدريب الناس لمحاربة الغزاة. لا يمتلك البارود إلا الحاكم والتاجر ومن يعمل معها. ربما يكون إطلاق النار موجهٌ إليك لا إلى والدي. عليك أخذ الحيلة والحذر في كل حال.

قلمتُ له قمرتين، فانحشرتا ويدي داخل راحته. كانت قبضته كبيرة. استللتُ يدي حين أمسك بالتمر. إنها المرة الأولى التي تلامس فيها بَشْرِي جسد رجل ليس من العائلة. إنه أجنبي، غريبٌ... وقريباً

عاد أبي عصراً. دخل المجلس. اطمأنَّ على آدم. أحضروا العميد للمجلس أيضاً، ثم دخل بعض الرجال، وبين أيديهم المتهم. وقفتُ وراشدُ خلف الباب، نصفي للحديث الذي يدور في الداخل. بعد عبارات الاطمئنان على آدم، سأل أبو راشد المتهم:

- كما تعرف فإنك من رجال التاجر. هل أرسلك بنفسه لتطلق النار على الضيف، أم على أحد غيره؟

- لم يرسلني التاجر لأقتل أحداً أبداً. كنتُ أرغب في تفريق الجمع فقط، وعدم إصابة أي منكم. أطلقتُ الرصاص في الهواء ولا أعرف كيف أصاب ضيفكم.

تحدث العميد كعادته بإسهاب حول الحادثة ليستخلص الحضور منها العبر. الشرُّ كما الخير فيه ابتلاء للناس، قال:

- كان هناك عربيٌّ يجلس بعيداً عن قومه الرّحل على قارعة الطريق. وضع بالقرب منه ماءً وكراتٍ خبزٍ مبلّلة. أقبلت حمامة بقربه تقناتُ مما جاد به الرجل بعدما شعرت بالأمان. قذفها أحدُ المارة بحجرٍ فقتلها. غضب العربيُّ من ذلك. أقسم أن يُقاتل الرجلَ أو تُغيّرَ عليهم قيلته؛ فقد كانت الحماية آمنة في مضيّفه. كانت حمايتها وحماية الضيف من مكارم الأخلاق العربية. توعدده بحربٍ كحرب البسوس. تفاقمت الأزمة؛ فاجتمع شيوخ القبائل. قرّروا أن يدفع الرجلُ دية حُرٍ عوضاً عن تلك الحماية. إن ظاهرة حفظ الجوار من المبادئ الأصيلة التي أكدتها الأديان.

نلاحظ أنّ من يستجير بالكعبة المشرفة لا يُطبق عليه الحدُّ وإن كان مجرمًا. لا يُطبق الحدُّ عليه إلا إذا خرج من منطقة الحرم كلها. يمكن للناس أن يمتنعوا عنه الماء والطعام، ولكن دون المماس بأمنه.

تساءل أحد الحضور عجباً: اللجار والحيرة كل تلك الحقوق؟

- نعم. والضيف كالجار، فمتى ما أصبح لك أحدهما؛ فقد صارت له حقوق، وعليه واجبات؛ خلقياً وتكليفياً، حتى كان العرب يستعيون أن يأكلوا وجارهم جائع، وقال في ذلك الطائي:

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبي ينزل القدرُ

قال آدم مستدركاً: ألا يجب علينا أن نعفو عن هذا الجاهل بفعلة؟

أجابه العميد: كما أنّ التواضع في حضرة الغني مذلة؛ فإن حمل الرهبة في صدرك مع المجرم خيرٌ من حمل الرحمة. أوصيكم بالعضو عند المقدرة متى ما تمكّنتم من مواجهة التاجر بجريمته.

قال آدم: لربما اختلف معك أيها العميد؛ فالإنسان أخو الإنسان، أحبه أو كرهه. افرجوا عنه فذلك خيرٌ قضاء.



(7) العميد

يناير 1764

أقبل أبو راشد كعادته إلى الفناء المعروف باسم (الحوش) حيث أجلسُ
نهار كل يوم. كان يوم الجمعة تزينة إجازةً أسبوعية. خلال هذا اليوم تُعطلُ
الأعمالُ وتُؤجلُ؛ فالاستعدادات لصلاة الجمعة تجعل القيام بالأعمال
المعتادة أمراً عسيراً. يقوم الناس هنا بتأجيل أعمالهم منذ الصباح إلى ما بعد
الصلاة. تُستغلُّ هذه الأوقاتُ للزيارات الأسرية والاجتماعية، لذلك كله
قيل إن الجمعة خير الأيام.

دعاني أبو راشد لمرافقته أثناء زيارة ضيفنا المريض:

- يجب أن نقضي وقتاً أطول مع آدم من باب الضيافة والكرامة، كما
يمكننا الاستماع إلى حديثه والاستئناس بآرائه. ماذا تقول أيها العميد؟

لم أنطق بأي كلمة. كان الصمتُ أكثر بلاغة. أقبل بعيني على القيام، وما
إن رآه أبتأؤه يساعدي على ذلك حتى أقبلوا جميعاً. يُسعدني حقاً البرُّ
بالوالدين. إنها عادة إنسانية تسمو بالبشر. تُزرعُ في النفس منذ الصغر ولا
تُكتبُ لاحقاً. مدّوا يد المساعدة جميعاً كي أخطو للمجلس حيث آدم
هناك، ما إن سمع الضيفُ التحية حتى أعادها بأحسن منها. حاول الوقوف
لدى دخولنا عليه. أنهكه المرض فلم يتطعم. دعوته للجلوس، وقلت:

- ولا على المريض حرج.

يبدو أن السفر خيرٌ معلم؛ فيه تُختزلُ ثقافاتُ العالم في نفس واحدة،
ومنها تُعرف أنجع الخصال والقيم. لاحظتُ أن وضعه الصحي في تحسنٍ
مُطرد، وإن كان بطيئاً. أن يأتي الأمرُ على مهلٍ خيرٌ من ألا يأتي.

لربيفك آدم على تأكيد شكره وامتنانه لما يلقاه بينا. أجبته أن ما نقوم به يُعدُّ عملاً نكرة في بحر المعروف؛ فقد كان عدي بن حاتم الطائي يفتُّ الخبز للنمل على باب بيتهم لتجد قوتها ورزقها كل يوم.

استبق أبو راشد الجميع في الدخول إلى الواقع بعلقمه. تحدّث في حضرة الضيف عن مخططات المقايضة التي ذكرها النوخدة على لسان التاجر. تلك المقايضات الحقيرة التي تُقزم صاحبها.

يقول التاجر في رسالته الموجهة لي: "يمكن أن أسقط ديونك المترامية على عاتقك منذ سنين طوال إذا قلت بزواجي من ابتك خولة". هكذا وبكل دناءة نفس، يحاول الابتزاز. استفزاز شيطاني يراذمه زواج قسري! إنني حقيقة لا أعرف أن مفهوم الزواج والتعدد قائم على الإكراه. إنه حديثٌ يجرني طويلاً حول تعدد الزوجات، وزواج القاصرات.

كنتُ ألاحظ مبتسماً علامات الدهشة والغضب على وجه آدم. كأنه صاحب شأن، وأن الأمر يمسّه فعلاً. تغلب على أوجاعه حتى أخرج بضع جملٍ غاضبة، ثم تحدّث دون استئذان:

- أيها العميد، من خلال رحلتي هذه، شاهدت وعانيتُ شعوباً متنوعة. عشتُ بين قبائل مختلفة وفي بلدان شتى. هنالك قبائل هندية، مُحرمٌ تعدد الزوجات لرجل واحد كما يقره الدين الإسلامي، ولكنها تبيح تعدد الأزواج للمرأة الواحدة، لذلك؛ يستطيع الإخوة الزواج من امرأة واحدة، يدخلون بها مجتمعين أو مُخصّص ليلة لكل شخص. وهناك - أيضاً - قبائل تبيح التعدد المطلق للزوجات، بلا قيد ولا شرط، ثم تختار المرأة أفضلهم ليكون أباً لولدها، ولكنتي وبالرغم من كل ذلك اللَّغَط لمرأجداً زواجاً شرعياً وأخلاقياً كان قائماً على الإكراه. الإكراه نقيصة إنسانية، فقرُّ أخلاقي، يخالفه كل المبادئ والقيم.

- ضيفنا الكريم. ينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن الإسلام من جانبه لا يبيح ولا يفتح باب تعدد الزوجات على مصراعيه، وبلا موارغيات. لقد أباحه في حالات خاصة، في وجود زوجة مريضة، أو أخرى لا تلد، وأخرى ناشز. لقد ترك الله تعالى القيد لنفوسنا؛ فتعدد الزوجات محل مشكلة، ويخفي خلفه ألف مشكلة.

سأل أبو راشد: وهل لذلك علاقة بقضية وأد البنات التي كانت رائجة قبل الاسلام؟

- كان الرجل في الجاهلية إذا وُلدت له ابنة اعتزل الناس، وكان ذلك الاعتزال يعدّ تفكيراً معتدلاً. كان بعقله يرفض وأدّ ابته، ولكنه يقع تحت طائل تأثير نظرة المجتمع. يته بين عقله وقلبه، أما المتطرف؛ فيدفن ابته درءاً للفتنة والعار المتظر منها... كان يتوقع أنها (ربما) تقع في الرذيلة، أو لا يأخذها كفاء لها، وربما تُسبى في حرب ما ويُتهكُ عرضها. تزداد عنده الأخيلة والتبؤات السوداء. أصبح يعتقد أنه بواد ابته يجرز قمة الرجولة، حتى صار لتلك القضية تأثيرٌ على أدبهم وشعرائهم. فقالت إحدهن:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا تلد البينا تالله ما ذلك في أيدينا
ونحن كالأرض لزارعينا نبتُّ ما قد زرعوه فينا
فترد عليها أخرى:

وما عليّ أن تكون جارية تفعل رأسي وتكون الفالاية
وترفع الياقظ من خمارية حتى إذا ما بلفت ثمانية
أزرتها بنقبة يمانية أنكحتها مروان أو معاوية

أبدئ آدم رأيه فيما يخص المسيحية: إن ديننا كما تعرفون؛ يمنع تعدد الأزواج لكلا الجنسين كحل جذري، ويحرم الرأد ويقتض القانون من فاعله، لكني لا أعرف إن وضع الإسلام حلاً علاجياً لهذه الظاهرة الآفة التي كانت دارجة.

- نعم نعم، فقد قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾⁽¹⁾. وعليه تكون عطية الله هبة منه، ولا يحق للبشر أن يتدخلوا فيها، ومما يروى عن النبي (ص) أنه قال: "إذا جاء أحدكم داره بطعام فليبدأ بالإناث". إنها عملية - كما أعتقد - تدرج تحت التصنيف، وليس التقليل؛ فالجنسان متشابهان، وليس الفضل بينهما إلا بالتقوى، وقد يكون الابتلاء عكياً؛ فقد يحب الله إنساناً؛ فيتليه بالولد، أو يعطيه ذرية سالحة؛ ولبلونكم بالشر والخير فتنة.

ومن واقعا الحالي والتاريخي أيضاً، فإننا نجد أن هناك نساء حاقداً على القرآن الكريم، وعلى المفاهيم التي جاء بها، فيما يخص المرأة، فهن يفهمن قوله: ومن الحور العين فزوجنا، وكذلك القول: وزوجناهم بحور العين. يفهمن أن المقصود هنا هو علاج النزعة الجنسية عند الرجل، بينما المقصود هو جمعناهم مع الحور العين، والحديث من جانيه موجه للجنين، ولكن صفة التغليب الذكورية في اللغة العربية هي السائدة، وهنا قد يبدو القول الآخر موضعاً شارحاً: نأوكم في الجنة نأوكم في الدنيا؛ أي يصدق الله تعالى عليهن صفات الحور، وحب معرفتي القاصرة؛ فكل إنسان زوجته هنا هي زوجته هناك، ولكن يضي الله عليها لونا من ألوان الحورية.

1- الشورى: 49.

صَفَّقَ أَبُو رَاشِدٍ بِيَدَيْهِ ضَاحِكًا، وَقَالَ: لِذَلِكَ فَلِإِنَّ حَقُوقَ السَّحْرِ غَيْرُ
مَحْفُوظَةٌ لِلزَّوْجَاتِ.

كَانَ حَدِيثَنَا فِي غَالِبِهِ يَصِيبُ آدَمَ بِمَسِّ فَيْتِيهِ عَقْلُهُ إِلَى الْبَعِيدِ، كَأَنَّهُ
يَتَذَكَّرُ امْرَأَةً عَالِقَةً فِي ذَاكِرَتِهِ، رَبَّمَا رَبَطْتَهُ بِهَا الْأَحْدَاثَ وَعَوَاصِفَ
الْمَجْتَمَعِ، وَرَبَّمَا صَارَ يَفْكَرُ فِي سِوَاهَا. شُرُودَ الرَّجُلِ فِي أَغْلَبِهِ يَكُونُ نَحْوُ
قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الرَّجُلِ يُثْقَلُ ظِلُّهُ وَيُشَخِّنُهُ جِرَاحًا، وَلَكِنَّ عَزْفَ امْرَأَةٍ عَلَى أَوْتَارِهِ
يُجِيهِ مَتَى أَحَبَّهَا.

أَعَدْتُ دَقَّةَ الْحَدِيثِ بِرَمْتِهِ نَحْوَ التَّاجِرِ وَرَغْبَتِهِ فِي الْمَقَابِضَةِ؛ بَيْنَ دَيْنِ
وَالدَّهَاءِ وَالْفُوزِ بِخَوْلَةٍ. لَمْ يَكُنْ أَبُو رَاشِدٍ يَأْبَهُ لِهَذِيانِ التَّاجِرِ. يَرَى أَنَّهُ مَجْرَدُ
كَلِمَاتٍ لَشَحْنِ الْأَجْوَاءِ بِالْأَلْغَامِ. إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْعُجْبِ بِالنَّفْسِ، قَالَ أَبُو رَاشِدٍ:
- إِنَّ الْعُجْبَ عَرَضٌ زَائِلٌ وَالشَّهْوَةُ مُتَقَلِّبَةٌ. ذَلِكَ التَّاجِرُ يُعْبِرُ عَمَّا
بِدَاخِلِهِ. إِنَّهُ التَّعْوِيضُ الْمَقْرُطُ؛ نَوْعٌ مِنَ الْمَرَضِ، فَلِذَا شَعَرَ الْإِنْسَانُ بِنَقْصِهِ
وَعَاهَاتِهِ؛ أَظْهَرَ التَّكْبَرَ وَالْعِظْمَةَ وَالطَّغْيَانَ أَيْضًا.

كَانَتْ الْمَفَاجِئَةُ فِي رَدَّةِ فِعْلِ آدَمَ: إِنِّي أَرَى ضَرُورَةَ التَّصَدِيِّ لِذَلِكَ
الْوَعْدِ؛ فَأَغْلِبَ الْحَرَائِقُ وَالنِّزَاعَاتُ لَا تَبْدَأُ إِلَّا بِصَغَارِ الشَّرْرِ.

عَقَّبَ عَلَيْهِ أَبُو رَاشِدٍ فِي هَدْوٍ وَاضِحٍ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَلْعَبُ بِعُقُولِ الْبَشَرِ.
أَجَابَهُ آدَمُ سَرِيعًا: قَالَ الْعَمِيدُ سَابِقًا: إِنَّ بَعْضَ الْأَفْكَارِ حَمَالَةٌ أَوْجِهَ، لِذَلِكَ
فَفِكْرَةُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَفُوتِنَا تَرِيحَ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهَا بَعْدَ أَوْجِهٍ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
ابْتَسَمْتُ فَعَلًّا لِأَنِّي وَجَدْتُ أَفْكَارِي فِي كَلِمَاتِ الْآخَرِينَ!



(8) آدم

فبراير 1764

طرقت خولة باب المجلس استذناناً. كان وقت غداء. لا يزال والدها خارج المنزل كعادته. فهو لا يعود إلا عصرًا، أما العميد فإنه في (البرستي) إن لم تجده متلقياً، فهو يصلي لربه أو يتعبد مع أسفاره. أقبلت تحمل مائدة الغداء. المناطق الحارة تكون وجبتهم الرئيسية من الأرز - أساساً - ويحملها السمك أو اللحم. تهادت ساهية بعض خصلات شعرها وانحدرت على جبينها. ابتسامتها تحيل وجهها إلى بدرٍ مكتمل. وضعت المائدة على الفرة، وتاءلت إن كنت أودُ أمراً آخر. أثبتت على لطفها وكرمها. غادرت ورأسها للأرض حياة.

كانت كارينا تبدي زيتها فتنة وتجملاً، أما خولة فتبديها تعففاً وخجلاً. الستر أكثر إثارة وتأثيراً في الرجل من التعري؛ فالعين الجنسية تبحث عن الغموض، ولا ترى إلا في الظلام، أما التبرج فهو سلاح مفضوح. إنني لا زلتُ أشتاق - أحياناً - إلى رائحة النساء، على الرغم من ابتعادي عن وكورهن. أعرف أن البعد عنهن كفيلاً بوضع حاجز صخري على قلب الرجل، ولكنه - وبلا قانون طبيعي - يشاققهن كلما أزاح تلك الصخرة، وآثر الاستجمام.

دخلت خولة مرة ثانية للمجلس. حملت كأس ماء، وهمت بوضعه إلى جانب المائدة، وجدتني حيث مطرحي السابق، لم أبرح مكاني.

- ما خطبك أيها الرجل؟

- أريد أن أتحدث حول الفائدة المرتجاة للوشاح الذي تضعينه حول

رأسك.

وضعت يدها تلامس ما على رأسها: يُسمى هذا بالخمار أو الحجاب. ما به؟ ألا يعجبك؟

- ما الغرض من وضعه على رأسك حيث تختمرين به؟

سارعت خولة للإجابة التي كانت معدة في عقلها سلفاً: حجاب المرأة في نفسها، أما الخمار فهو رمزي في ذاته، وبما أن بعض الرجال يهيم بجسد المرأة؛ فإن الخمار صوت المرأة الذي يشعره أن خلف هذا الجسد إنساناً. المرأة لست ملاذاً للشهوة يمحو إنسانيتها؛ فُسلطُ النظراتُ عليها من كل جانب. نحن ندرك أن المرأة في عريها تشبه الشجرة بلا أوراق خضراء تحميها؛ حينها تكون عرضة سهلة للاحتراق والاختراق.

جواب طيفُ كاريتنا ذاكرتي. استدركتُ قائلاً: أليس ما يُسمى بالحجاب هو نقيض للعُري، وهو أقربُ صورة إنسانية للطبيعة؟ فالعُري يُلغي الفوارق الظاهرية بين الناس، يجعلنا سواسية، أليس كذلك؟

أردفت: أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿فَبَدَّتْ كَهَيَّا سَوَاتِمَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾⁽¹⁾؛ أي أن أبا البشر آدم - عليه السلام - كره لنفسه ولزوجه أن تظهر عوراتهما؛ فآثرا أن يسترأ سوءاتهما. إن فعلهما كان فطرياً، وهو على عكس ما أسلفت يا آدم.

قلتُ: ذلك أبو البشر آدم بعد طرده من الجنة!

- قالت: نعم. لكن ألا تعرفُ أن الرجل الذي لا يبحث عن جسد امرأة يحصد ملاكاً؟

1- طه: 121.

استرسلت خولة في حديثها. استشاطت دفاعاً عن قناعاتها. هنالك تسمرت مستمتعاً وأنا أصغي لها. صرتُ أراقبُ كيف تحدث، وأبحثُ فيما وراء كلماتها. أقارن بين فتنة العُري والـِتر. بين كارينا وخولة. بين وبين وبين...

أدركتِ الفتاةُ بعد لحظاتٍ أن الصمتَ شكلاً من أشكال الكلام؛ فانخفض صوتها وازداد جمالها تألقاً؛ فالألن هي الأكثر قدرة على البناء في عقول الآخرين. شعرتُ برغبة قد نسيتها عهداً طويلاً. كلماتها وقناعاتها تدغدغ مشاعري، تسحني لها سحباً. طلبتُ بغتةً أن أخرج للحمام.

- هل يمكنكِ مساعدتي على الوقوف، أريدُ بيت الخلاء؟

فتحت عينيها، ثم أخذتُ نغرها يتع بطيئاً حتى أصبح في حجم اتساع عينيها. أوماتُ لها فأقبلت. وضعتُ خمارها على راحتها. تذكرتُ قفاز والدتي الأسود الذي انسلَّ في يد ذلك الرجل الطمّاع. بسطتُ خولة يدها اليمنى، فالقيتُ يدي عليها. حاولتُ القيام فوضعتُ يدها اليسرى تحت كوع يدي الأخرى. حملتني رجلاي، ولكنني أحسّتُ بدوارٍ شديد. تميلتُ أنني سأسقط على الأرض. هياتُ جسدها متكأ، ولم تستطع المقاومة. انهار جسدي عليها؛ فوقعتُ على ظهرها، وأصبحتُ - أنا - فوقها.

أفقتُ من دُواري بعد لحظات. كانت تحاولُ بيديها إزاحتي. فتحتُ عيني، وبدأتُ أستعيد توازني. بدأت رائحة جسدها تغزو كل خلاياي. الحامسة السابعة هي القدرة على استشعار رغائب المرأة. خمدت قوة يديها. التقيتُ بيورة عينيها، فاخرقتها، ونشبتُ بشفتيها فالتهبنا.

داعبتُ ما يجب؛ فتهتُ فيها. لحظات... كانت صامتة، ولكن نهر عينيها يبيل بغزارة؛ يكاد يُغرقني ويغرقها. أشد البكاء حرقة هو الذي لا نسمع له نحيباً. أطريتُ على جمالها فزادت غزارة دموعها. رفعتُ رأسي متائلاً:

- لماذا البكاء يا خولة؟ نحنُ لا نُؤذي أحداً.

- إنني أحبُّ ذاتي كثيراً.

أصابني رُدُّها في مقتل. إنَّ أصدق الكلمات ما تنطقه عيونُ دامعة. استجمعتُ قواي؛ فصرتُ قادراً على الحركة بخفة ورشاقة، كأنها حلَّت بي طاقة إيجابية كامنة. ابتعدتُ عنها للمخلف. لملتُ نفسها، وسترْتُ ما ظهر من جسدها، ثم غادرت متكئة الرأس، شاحخة النفس. غمرني شعورٌ متضارب. إنَّ هذه الفتاة تُحبُّ نفسها، وإنَّ من يحبُّ نفسه لا يتمنى لها غير الخير؛ فحبُّ الذات يبعدنا عن الوقوع في المكاره والخطايا، ومن لا يحبُّ نفسه، ويخشى عليها لن يحبُّ الغير، ولن يحبُّ خالقه، ولن يخشاه أيضاً.

أمرٌ ما دفعني أن آخذ ريشتي، وأبوح بنفسي على بياض أوراقِي. أترجم ذاتي وتجاربي كلماتٍ وسطوراً. من هنا؛ وُلِدَت بداية عشقي للكتابة والتدوين. كنتُ أكتبُ ملاحظاتٍ حول الرحلة منذ انطلاقتها من كوبنهاغن، ولكنَّ هذه اللَّحظة الفارقة؛ دفعتني لأكتب واقعاً علمياً ممزوجاً بمشاعر وأحاسيس إنسانية، قد لا أستطيع أن أنشر كلَّ ما أكتب، ولكنني على يقينٍ أنَّ هناك من سيتعرقل في حياته (بي) ويمدُوناتي، وسيحولها إلى أدبٍ إنساني، تقرأه القلوب، قبل العيون. سيُحول كل ما أكتبُ إلى أدبٍ عالمي تَقَرُّ به الأنفس. لا عجبَ أنني كنتُ أواجه صعوباتٍ حين أحاول التعبير عن بعض الأفكار. قد يتعصي عليَّ بعضها، ولكنني أظلُّ أراودُ الفكرة عن نفسها حتى تطيعني. لا أعرف على وجه الدقة سببَ التغيير النوعي الذي انتابني في الكتابة، ولكنني أجزم أنَّ المترجم الجيد يكون مبدعاً متى صار عاشقاً. تلك ریحُ خولة، سأطلب من كلِّ مَنْ صادفته في حياتي أن يكتب بأسلوبه حكايته وحكايتي. لا عليه أن يكثرث بجودة التعبير واللغة المُستخلَّمة. إنَّ ذلك المترجم الذي أستشرفه فكراً وطيفاً؛

سيكون له مطلق الحرية في ترجمة الفكرة وتصويرها؛ لأنني على يقين أن مضاجعة اللغة تثمر أدباً، وهددهتها تهديك حكاية و... ورواية.

هكذا بدأتُ مدوّنتي ومخطوطاتي انتظاراً لمن سيرويه:

"إنني إنسانٌ وأحق من غيري على حب نفسي وتقديرها. إن الخوف من العقاب سببٌ عقيمٌ للابتعاد عن الخطايا، بينما حب الإنسان لنفسه وتقديرها هو الذي يرفعه إلى مصاف طهارة الملائكة. إنني أولئ من غيري بحب ذاتي، ودفع البلاء عنها؛ فحبُّ الخير أقوى تأثيراً من خوف العقاب...."

كان حبُّ خولة لنفسها يملؤها طاقة روحانية تدفع عنها البلاء. هذا النوع من الحب يعطي للوجه بهاءً وللجسد قوة وللروح عزمًا. كانت الطاقة الكامنة فيها تمبها الثقة على تحدي الصعاب، والتغلب عليها..... لا أجد مبرراً للطاقة التي اكتسبها جسدي غير هذه الطاقة "الحبّانية". ها أنا أروي تجاربي بتفصيل أكثر. أحاول أن أترجم ذاتي، وأن أهب نفسي للحب؛ كي أصبح إنساناً. قررتُ بالحب أن أجاهد نفسي وأسعدَ به الغير.

بعد الطاقة المكتسبة تلك؛ لرعد لتأنيب الضمير وقع عليّ. يمكنني أن أتسامى عن زللي وأخطائي. لقد قابلتُ كرمَ أبي راشد بمحاولة خيانية، وقابلتُ عِلْمَ العميد بجحود، ولكنني كنتُ أثق بتسامح خولة؛ البنتُ التي تحتزن طاقة إيجابية بين جوانحها لا بد أن تترفع عن الملامة. لا بد أن تُدركَ أنّ كلّ ابنِ آدمٍ خطّاء، ولكن المساحة الواقعة بين طبقتي الملائكية والإنسانية تجعل الإنسان متذبذب الفكر والشاعر. هناك قوّةٌ تشدنا للعلو والسمو، تقابلها قوّةٌ جاذبة للوضاعة والدونية. إن من يجب ذاته يجب عليه ألا يهرب من الدنيا أو يزهّد فيها، بل يجب عليه الترفع عن دناءاتها؛ فحب الله أسهل من حب البشر لأننا بالفطرة نحب الكمال دون النقص.



(9) السيب يوسف

مارس 1764

مرّ ما يقربُ من التسعة أشهر منذ أن رُجِّحَ بي في قضية موت ذلك الـ"ناصر". كانت محاكمة صورية، وقفتُ فيها ضدّ خصمي المُدَّعي، تبدو في ظاهرها محاكمة عادلة، قاضي يتوسط المدعي والمدعى عليه. القضاء في أصله مستقلّ، لقد أسعدني أنّ الخصم لريكن القاضي. فألّ حسن. ولكن، كان الخصم لا يأبه للقضاء، لديه سلطة أقوى نفوذاً من القاضي نفسه، تطالب الأعراف والشرائع بفصل السلطات؛ انفصلت السلطة المنفذة⁽¹⁾ حتى أصبحت أعلى مكانة وجبروتاً من القضاء.

في عزّتي عن الناس وانقطاعي عن العالم، يمر شريط الأحداث بصورة متكررة. من ينقطع عن العالم الآن فإنه يعاصر الأحياء عبر الذكريات، يعايش اللحظة التي مضت. مشهد إلحاح ناصر على الفوص، ونزوله للبحر عنوة، ثم.. ها هو البحر يجعله زبدًا طافياً ليذهب بعدها عن الحياة هباءً مثوراً.

صورة انتزاعي من بين أسرتي ذات فجرٍ لا أتذكر حرارته، ما السر الذي يدفع أن يكون الاعتقال فجراً؟ لماذا اللثام على وجه من يطبق القانون؟ لماذا يكسر العس ورجال الأمن لاعتقال رجلٍ واحدٍ أعزل؟ لماذا وُضع اللثام على عيني قبل الدخول إلى هذا النفق المظلم؟ لماذا، ولماذا، ولماذا؟ لا

1 - تعرف بالسلطة التنفيذية، وهي السلطة المسؤولة عن تنفيذ السياسات والقواعد التي يضعها المجلس التشريعي.

إجابات محدّدة. مجرد استنباطات.. ربما فزع الظالم من المظلوم؛ الظالم الذي لا تغفوله عين والمظلوم الذي ينأم قريرها.

لا يزال صدى نياح أطفالي وصراخهم مائلاً على مسامعي، وصورهم تجوب خيلاً أمام ناظري. القلق كان يملأ عيني زوجتي. خوف من بطشهم، وترقب مستقبل مجهول ومصيرٍ حالِك. تجمع الجيران على وقع الحدث. انتشارُ أمني كثيف في أرجاء الأزقة، وفي كل زاوية، عِصِيٌّ وهرافات وحتى بارود. ظننتُ لو هلة أن الأمر لا يعني أنا، ثم بدأتُ أشكُ أنني مجرمٌ، وأمسيتُ أعتقد أنني رئيس عصابة. هول المشهد الأمني يفرغك مما أنت فيه، ثم يصبُ فيك مآربهم. تلك اللحظة الحاسمة تحدّد عزمك وقوتك؛ إما أن تتسلم لما يرمون إليه وإما أن تتدرك الحق، وترفض تبني الباطل.

هذا الرداب الحقير - زنزانة كان أم سجناً - يحمل أسماءً مختلفة، ومعنىً واحداً. إنه فصل جسدي قري عن العالم، ولكنه منفىٌ روحي عن الحياة. الإنسان كائن اجتماعي بطبعه. أسهل طريقة لتعذيبه هو عزله عن الآخر. والتعذيب قمة الافلاس الأخلاقي، هنا لا أستطيع أن أُميّز بين الليل والنهار إلا إذا فُتح الباب الخارجي. بصيص نور أستدل به على الوقت بين نهار أو مساء، ولكن ما إن يغلبي النعاس إلا أدركُ أنه الليل، وأستيقظ على بوادر حركاتٍ وأصوات تأتي من بعيد. أُمسيتُ أعرف مكونات الزنزانة من خلال لمسها وتحسُّها. أصبحت حاسة اللمس هي الأقوى والأكثر تأثيراً. تحسُّتُ جدرانها وتواءات حجارتها، هنا حجرٌ أملس، وهناك آخرٌ مدبب. هنا الطينُ جافٌ يابس، وهناك هسّ لين. ارتفاع السقف لريكم متوازيًا ولا متوازنًا. إحدى زواياه مائلة، تكاد جذوع سقفه

أن تلامس رأسي عند الوقوف. أنحني يمينا واقف يارأ. مهَّدتُ التراب ونعمته في أحد جوانبه. أصبح موضعاً لنامي. صرْتُ على دراية بكل شبر فيه. ولكن، لم أستطع أن أؤمن موضع الجهات بعد، وبما أن الشمس تبرز شرقاً، حددتُ الجهة الشرقية؛ إنها موضع النور الذي يأتي من جهة الباب الخارجي.

منذ فجر اليوم الأول، أصبْتُ بمناعة الترفع عن ردة الفعل. أقبلوا وهم ينعنونني بصفات قل سماعها إلا بين أطفال لم تُهذب الجارحة اللفظية عندهم. لا يجدر بي استذكارها. رداءة اللفظ عنوان تصحر أخلاقي: يا ابن...، يا أخ...، أيها... بداءة تثير الشفقة؛ ذلك الترفع أصابهم بغم فوق غم، تحول إثره العقاب اللفظي إلى جسدي؛ عقابٌ بدائي مستهلك. طرحوني أرضاً، وربطوا رجلي بعصى الخيزران. كنتُ أصرخ الماء، وكلما ازدادوا خفَّ صوتي، فقدتُ الإحساس بالألم؛ فالألم يقبل إذا دعت أجسادنا. ورمَّ أحال قدمي إلى ما يشبه اللوح الخشبي. علاقة عكسية بين شدة الألم والإحساس بها. أوقفوني فلم أستطع الوقوف. ربطوا يدي في مقف الزنزانة. تحول العقاب إلى منطقة الركبتين؛ ضربٌ من جانب الركبتين ومن خلفهما. شعرتُ أن قدمي بُرتا. أصبحتُ بلا أطراف؛ جزءاً مربوطاً وآخر مبتور. مثلتُ فقدان الوعي لعلهم يتركونني حتى أستفيق:

قال أولهم: إنه فاقد الوعي.

وقال ثانيهم: عليكم بالماء البارد.

وثالثهم: لا تُغمضوا له عيناً، ولا تريحوا له جفناً.

أفقتُ من اللاغيبوبة قرأ. يا ابن ال... هكذا إذا؛ أطفوا جمرهم في ظهري ومؤخري. صرخت ببقايا صوت:

- ماذا تريدون؟

- احرص.

طُرِحْتُ على الأرض الرطبة، ولا أتذكر بعدها فصول العقاب. صحوْتُ من نوم عميق، أتمس في أجزائي وأعينها. أُللمُ نفسي طوراً وأبعثرها طوراً آخر. زحفتُ إلى حيث المنام الوهمي؛ بقايا تراب وطين ناعم. أصابني العطش والجوع. اقترب البيّنُ مني. رأيتُ وكأنها ملك الموت يحوم في الظلمة؛ فخاطبته:

- أقبل عليّ، أرحني.

- عقابهم يطولُ روحك لا جسدك. موتك لن يفك العقابَ عنك.

- أرحني.

- موتك سينقلُ العقابَ البدني إلى بني جنسك؛ ناسك، أسرتك وحتى أطفالك. عليك أن تقاوم؛ فالمؤمن يجعلُ زنارته مسجداً كما يجعلها الخمار مخمرته.

توهمتُ للحظات أن ملك الموت يعمل تحت إمرتهم أيضاً. لا فائدة تُرتجى منه. صرختُ بها أوتيتُ من قوة: أريد ماءً، أريد ماءً.

سمعتُ صرير الباب. تسابق شعاعٌ من الضوء فأغلقتُ عيني انقاء شرّه. فتحتها على مهلٍ. وضعوا شيئاً في الزاوية البعيدة جوار الباب. أغلقوه؛ فأطبقت الظلمة على المكان وعادت الرؤية. ساد صوت الصمت، وكى تسمع صوت الصمتِ يجب أن توقفَ وظائف الحواس الخمس مجتمعة. حينها فقط تسمع الصمت. صوتٌ يفرقك في الرهبة، وحينها يمكنك أن تسمع صوت ضميرك فعلاً، وإن خالفته سينقطع مباشرة. لم أكن أريد الحديث معه، لا لا، ليس الآن. بطني أولاً. زحفتُ باتجاه ذلك

الشيء زحفاً على البطن كالشعبان، وعلى أطرافه بطياً كالسحفاة. ماءً في وعاءٍ بحجم كف إنسان، ووعاءٍ آخر فيه جريش، ولا سواه.

اعتدتُ ذلك الطعام الذي يأتي كل يوم. أظنه لا يأتي إلا صباحاً. يكاد يسد رمقي دون الوصول للشبع، ثم صار للطعام مصيبة وابتلاء، على الرغم من تقينه فإنه يفرض عليّ قضاء الحاجة والتخلص من الفضلات. اخترت الزاوية المقابلة لموضع الطعام لقضاء الحاجة. أحياناً أخطئ الاتجاهات؛ حينها تتأوى درجات الظلمة، ولا أجهد نفسي في البحث والتحري. أجدني قبضتُ على ال... رائحة البراز تخفتُ تدريجياً بعكس رائحة البول، لكنني أصبتُ بمرض (الألفة)؛ فلم تعد الرائحة مقززة. يبدو أن حاسة الشم تعكس الحالة النفسية للفرد، تروق له رائحة الصحراء حين يُسجن، ورائحة عرق البحر حين تفتقده، ورائحة السماء حين يدفن.

تناوب السجناء على الدفع بما يسمى غذاء وماء. ويبب المناوبة والمداورة؛ أسقط من حساباتهم أحياناً، ربما سهواً أو عمداً. كنتُ حينها لا أجد ضيراً في شرب السائل الأصفر الذي يُسمى ترفعا بالبول. أصبتُ بأمراضٍ جلدية نتيجة لتجمع البعوض والبق والحشرات التي بنت لها مزارعٍ على ظهري؛ تلك المساحات التي لا تطولها يداي. كان حلكُ الجدار بالجلد حلاً مثالياً. أصبح الجدارُ نظيفاً، وظهري رقيقاً دامياً.

لم أعد أشعر بالأيام وعددها، ولكن؛ بعد أقل من سنةٍ على ذلك الوضع الإنساني، كما زعموا؛ بدأ التغيير يطراً تدريجياً. ألقى القدرُ بنزليين في زنراتي. يا إلهي، لم يعد سجناً انفرادياً. سألتني أحدهما مندهشاً وبعد طول تفحصي:

- هل أنت اليب يومف؟

- لست متيقناً، ولكن يبدو الأمر كذلك.

- يقال إن اليب يوسف ملقى في السجن ما يقرب من السنة أو يزيد.
نظنه أنت أو بقاياها!

قال الآخر: نحن فلاحان نعمل في مزرعة التاجر الذي يتهمنا ببيع جزء من المحصول لحسابنا الخاص، وعندما نفينا الأمر أمر حاشيته بالقائنا في السجن. لم نكن نعرف عن وجودك هنا. ما يُشاع أنك في بطن أحد سجون الحاكم.

منذ دخولهما السجن تغير النمط الغذائي، أصبحنا نأكل وجبتين كل يوم؛ رُزاً أبيض ظهراً، وتمرّاً وجريشاً مساءً، كما زادت جرعات الماء. وبعد ثلاثة أيام أو يزيد، عصّبوا أعيننا، وأخبرونا عن نيتهم تغيير الزنزانة، لم أكن حينذاك قادراً على المشي ولا الاستيعاب.

توعدني أحدهم: إن لم تمس مع زميليك فتظل هنا.

تطوع زميلاي بحملي رافّة. أصابهم الرعب؛ أصبحت مجموعة عظام مترابطة، ولكنها على مشارف التفكك والتباعد وحتى الانحلال. كنت خفيفاً عليهما. أخذونا للزنزانة طينة أخرى تحتوي على كُوتين، تسمحان بمرور الضوء وتغير الهواء. طلب الزميلان أن يذهبا لبيت الخلاء ثلاث مرات كل يوم، وأن يُسمح لهم بالاستحمام الدوري.

تغيراتٌ ضربتني بشيء من الحيرة. هناك أمرٌ طارئ. سمحوا - أخيراً - بمرور الضوء والهواء والماء والغذاء والبشر أيضاً. أخبرونا عن موعد جديد لإعادة المحاكمة لجميع السجناء. سيتم القاضي البلبول لكل الآراء وبحضور الحاكم نفسه، وستكون الأحكام نهائية لا رجعة فيها. يقول زميلاي إنني بقيت في السجن ما يقرب من العام. كانت تهمة ظنية،

سيصدر الحكم هذه المرة، ما أتوقعه إعداماً؛ فهو ما يعرف بقصاص القتل العمد.

تلك الأيام كانت رحيمة بي. صار بإمكانني - أخيراً - معرفة ما يدور في الخارج؛ أخبار أسرتي وقريتي، أهلي وعشيرتي. سألتهم عما يدور هناك:

- أخبروني بالتفصيل عن كل ما يدور في الخارج؛ عن قصص الواقع والخيال.

- لا عليك مما يدور في الخارج. عليك بالداخل، يقال إن الحاكم يريد تفريغ السجون وتبييضها.

- لماذا؟ إنها شقبة لأحداث الدنيا.

- يريد أن يضع برنامجاً إصلاحياً، يُحدِّد فيه قوانين الغوص والزراعة وغيرهما، وقد قام رجال التاجر بتقلنا من سجنه الخاص إلى سجن الدولة حيث المسؤولية المباشرة من قبل الحاكم.

- ولماذا أدخلوكم السجن؟

- السرقة هي التهمة الرسمية، ولكن ما أخبرنا به أبو راشد أنه يتوقع أن يُزج برجاله في السجن واحداً تلو الآخر. بدأوا بنا وربما يتهمون بأبي راشد نفسه. الأمر يتعلق بآرائنا تجاه مطالب البحارة والمزارعين. نحن لم نقم بجريمة وإنما نعاقب على آرائنا فقط.

جاء يوم المحاكمة الموعود. أمسك رجلُ أمن بكل سجين، وأمسك بي رجلان كي أقف على قدمي. كان الحاكم جالساً في مقابل القضاة الثلاثة، وحوله رجالُ الأمن وحاميته. كانت قضية ناصر هي القضية الأولى. تحدث القاضي:

- أنت السيب يوسف؛ المتهم في قضية قتل ناصر ابن التاجر؟

- نعم.

- القضية ثابتة عليك. كل التهم الموجهة إليك لا ينقصها الدليل. نحن نريد أن نوجه لك الأسئلة حول الهدف من قتل ذلك الشاب، وفي حال اعترافك؛ ستدينك المحكمة، ومثبت عليك التهم الموجهة إليك، ولكن وبرغبة من سمو المحاكم؛ فإنه سيعلن عن عفو شامل لكل السجناء؛ لتبدأ الحياة في دلويا بصفحة جديدة مباركة الخطى من قبل سموه.

أيقنتُ أن المحاكمة ليست إلا صورية فقط؛ اعترافات تضعك في مصاف الدونية. قررتُ أن أرفع راية الجنون؛ لأن الجنون قمة العقل وبه تُدرك الدنيا. وبناءً على التوافق مع المطالب الشعبية؛ سيقوم المحاكم بالإفراج عن المساجين تكرماً وتلطفاً منه، وفي حال فشلت المباحثات والحلول التوافقية؛ فإنني - بلا شك - سأبقى في ظلمة السجن. تجاهلت القضاة جميعهم. لريكن لهم غير دورٍ تمثيلي تكميلي عبثي. توجهتُ للمحاكم نفسه وأنا أستذكر دروس العزة من العميد:

- سمو المحاكم. ليس لي إلا أن أذكرك بأنه لا ينقضي عن المظلوم يومٌ من البلاء إلا وانقضى من ملك الظالم يومٌ من الرخاء، وما لسجني أو ملكك من دوام، وليس لي إلا أن أدعو لك بأن يُفرحك الله بها آتاك، ويُعلي كعبك؛ ولقد حكمتَ فقسطتَ.

لر ينتظر المحاكم قرار القضاء. قفز على العُرف، وأطلق حكمه بالسجن عشر سنوات مع النفاذ. أغلظ في عصاه، وأعطى أوامره لرجاله بأن يعيدوني إلى سجن التاجر حيث الحبس الانفرادي. لراكن أتوقع غير ذلك. بدتِ الدهشة على القضاة والحضور. تحدث القاضي البلول للمحاكم:

- أطل الله مقامك، ما الذي أعاظك من دعاء الرجل؟

- إنها تورية تعلمها من أبي راشد والعميد، لا تطوي علي أبداً. استخدم هذا اللعين دعاءً توجه به أحدهم إلى هارون الرشيد؛ ففي قوله فرحك الله بما آتاك، هو اشتقاق لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِهَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلُونَ﴾^(١). إنه يدعو عليّ بفاجعة موت الفجأة، ودعا الله كذلك أن يُعلي كعبي؛ أي أن أموت شقاً بلا هوادة؛ فالذي يُشقق هو من يعلو كعبه فوق الأرض، وقال لقد حكمت فقسطت؛ فهم يوازي في مفهومه ووضوحه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَائِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٢).



1- الأنعام: 44.

2- الجن: 15.

(10) الخادم

أبريل 1764

اضطرب الحاكم وأعرض عن تناول غذائه بانتظام. كانت لوجياته طقوسٌ يكسوها شيءٌ من القداسة، يجتمع في أغلبها بزوجاته وأبنائه جميعاً، يتقدمهم على مائدته، يأتي آخرهم ويغادر أولاً، يُطيل البقاء على السفرة التي تعمر بالخيرات، وتزدان بندرة كلماته وحضوره المهيّب. تنطلق الأحاديث بعد الفراغ من تناول الطعام، لا تجتمع الكلمة والطعام في موضع واحد؛ لمائدته هيئة الطقوس الجنائزية؛ ما إن يفرغ منها حتى تنطلق الأفواه، ولكن في حدود اللياقة العائلية، أصوات منخفضة في حضرته... ولكن خلال الأشهر الأخيرة أصبح إعراضه عن الطعام جلياً، تشقلت عاداته وتغيرت أحواله. إذا فزعت الروح استسلم جسدها. حتى في نومه صار زاهداً، تهاجمه الأحلام وأضعفها فتقضى مضجعه. إن العدو الوهمي يزورك في منامك. غزا السواد بهاءً وجهه وأينعت معالم المشيب قبل أوانها. بقاء الحال محال، فمن يعايشه يعرف أن الهمّ يغزوه ويهاجمه بضراوة. قد يتعالى عن إظهار الألم ويخفي أوجاعه؛ ترفع ظاهري لحفظ الذات وبث الطمأنينة في الأقربين قبل الأبعدين، ولكن المسؤولية في محصلتها ملقاة على عاتقه. هناك صوتٌ خفيٌّ يائله دائماً، يعاتبه ويفاجعه: "أنت المسؤول الأول عن كل ما يجري في بلادك". واجبك أن تحفظ إنسانية شعبك، وتُسخر خيرات أرضهم لصلاحهم. كان الحاكم في كنهه سامياً مرهفاً، يطلب المشورة دائماً. فإذا استحسن رأياً وقع عليه الخيار. ولما انتشرت الحالة الثورية والفوضوية، واحتدت المطالب الجماهيرية العامة؛ بدأ يداعبه تقلب

الحال ترقباً وخوفاً. قيل إنَّ الإنسان متعدد الأوجه والشخصيات يكون بلا شخصية محددة، وهو يبحث فيما بينها عن ذاته.

بعد مائدة يوم إثنين، لم ينطق فيها أحد بنت شفة. لم نكن نسمع غير أصوات الأوعية والأواني يتخللها صوت مضغ الطعام. عدنا إلى المطبخ ثانية. جاءني "الولد": الحاكم يريدك. أقبلتُ مرعاً. حدثني بسبابة يمينه أن أقرب منه فدنوت:

- أيها الخادم، بوصفك مستشاري الخاص، وبوصفك رحالة عبّر مناطق شاسعة على الأرض، ودرس شعوباً وقبائل كثيرة؛ فإن لديك من الخبرة والدراية ما يكفي لاستشارتك والعمل برأيك حينما نتحسنة، فكما تُعابن الأخبار بنفسك وتسمعها من مصادر مختلفة؛ فإن مطالب الناس ذات وجهين. البعض يتحسنها، والبعض الآخر يستقبحها، وأنا بين الفتين أجدني ممت الفكر ضائع القرار. يُقال إن مطالب الناس شرعية، وأنهم يجب أن يحصلوا عليها، فحين أمعنُ فيها؛ أجدها في قرارة نفسي مبررة، ولكن المجلس العرفي والمعين من تجار ومقرّبين وحتى رجال دين، كلهم يرون أنها المسار الأول الذي يُدق في نعش كرسي الحكم. إنها - كما يدعون - الخطوة الأولى في تفويض صلاحيات الحكم، وصلاحيات طبقة كبار الدولة. كيف يمكننا البحث عن حل يرضي جميع الأطراف، ويحفظ السلطة، ويبقي هيتها فوق رأس الجميع؟

- سمو الحاكم، تلك المطالب لا تختلف في باطنها عما وجدته في بلادنا، وفي مناطق مختلفة في الغرب والشرق. التضارب بين مصالح الناس يخلق الأزمات، ومن الصعب حل مشكلة سياسية دون التعمق في أسباب نشوء الحضارات وانحذارها. ستجد أن الأمور تتدفق في مجراها بانسيابية، وأنه ما

وُجدت مشكلة إلا وبجوارها حلٌ مستترٌ، على العاقل أن يصل إليه ويطوله. هناك عدة حلول للخروج من هذه الأزمة المفتعلة؛ حلول عايتها بعيني في كثير من البلدان، أولها وأسهلها البطش بقيادة الحركة الاحتجاجية؛ بقتلهم أو زجهم في السجون، وترويع أسرهم، وحرمانهم من دخل دائم.

- الاستقرار لا تغذيه الدماء، فكما أنّ من يس غصنه سهل كسره؛ فإنّ من تتحدث عنه ليس أنا.

- وهناك حلٌ آخر سهلٌ ممتع، يتمثل في تحقيق مطالبهم فعلاً.

- تلك المطالبُ تعارضها فئةٌ أخرى؛ يرفضها معظمُ التجارِ رفضاً قاطعاً، وكذلك حال المجلس العرفي والمعتين؛ المجلس الذي يرفض بشدة أن تتحاور مع المعارضين على القانون السائد.

وجدتُ الحاكم وقد استحسن كلمة معترضين. أخذ يكررها قولاً وكأنه قبولٌ ضمنّي بالرأي الآخر. أصبح لها وجودٌ وصدىٌ في نفسه، هنا - وحسب المعطيات - لا بدّ من تغيير لغة التخاطب. اقترحتُ عليه أن يبحث عن شريحة من الناس تعارض المعارضين أنفسهم؛ فليس من الحكمة أن يكونَ الحاكمَ مقابل شعبه. يجب أن يجد تياراً معاكساً للتيار الذي يطالب بتغييرات في القانون الوضعي، وبإصلاحات تشمل نُظم الغوص والزراعة والضرائب وغيرها. تياران متواجهان متضاربان، يكون الحاكم هو الفاصل بينهما وليس طرفاً في الأزمة؛ اقترحتُ عليه أن يكون فارساً حين تكون الحياة فارساً. أن يستخدم نفوذه ونفوذ التجار في تكوين تلك الجماعة؛ الإغداق بالأموال، والترغيب بالضيافة، والترهيب عند الحاجة. بعد ذلك، يدع الأمر بين يدي قادة الفصيلين؛ بشرط أن يبقى وسيطاً بين الطرفين، ويصادق على مقترحات الأغلبية.

كان نهار منتصف الأسبوع، عندما استقر الحاكم علي رأيه، وعزم علي فعل أمره. استمر معي في مناورات ومشاورات عدّة، حتى استقر رأيه علي خلاصتها. ظنتها خطة غير ناجعة، تعتمد في أغلبها علي القدرة والإبداع في تطبيقها؛ مغامرة في شكل مراوغة، يتبعها تسقيط، فغلبة لأحد الطرفين. تبقى الخطط علي الورق نظرية صرفة. القدرة علي المناورة أثناء التنفيذ هي الأمر الحاسم. طلب من أعوانه أن يخلقوا فصيلاً يعترض علي مطالب الفصيل الأول. أمهلهم شهراً لحشد الجماهير قبل إشعاره بجاهزيتهم.

في مطلع الأسبوع الأخير من ذلك الشهر الربيعي، أمر الحاكم أن يُشاع الأمرُ في كل مساجد القرى وأسواقها عن دعوته إلى صلاة جمعة جامعة، تكون في أكبر المساجد، فكان مسجد دلمونيا⁽¹⁾ هو الخيار الأوحّد والأفضل؛ ذلك الصرح الواقع جنوب قرتي البجوية وقصر البستان. قيمة تاريخية وقيمة دينية؛ محل تجمع لأكبر عمليات البيع والشراء؛ خاصة المحاصيل الزراعية القادمة من الباتين المجاورة؛ كبتان عروسوه وبتان أرض بكر. نوّدي عن رغبة الحاكم في أن يلتقي بالفصيلين المتنازعين.

احتشد الرجال والأطفال إلى المجد من كل المناطق. أقبل الناس من القرى الساحلية البعيدة قبل يوم كامل، وباتوا في باحة المسجد، وجاء البقية صباحاً. وصل عدد الحاضرين إلى ما يقرب الألفين؛ أي ما يوازي نصف سكان الجزيرة تقريباً. تحدوهم رغبة جامحة وأمل مشروع. توزعوا في كل أنحاء المسجد وساحاته حتى لاصقوا القبور الأثرية القريبة منه. أُعدت المنصة فوق حافة المسجد ناحية الجنوب. وُضعت مظلة من السعف وتحتها كرسيّ خشبيّ الجانين مخملي المقعد والمسد. بعد صلاة الجمعة، توزع

1 - يُعرف الآن بمسجد الخميس.

الناس - عفويًا - إلى فتنين. صار إلى يساره فئةٌ أبي راشد، يستظلون بالشمس الدافئة المتعامدة على رؤوسهم. وعلى يمينه وقفت فئةٌ أقل عددًا، يتوسطهم التاجر ويستظلون - جزئيًا - إلى مبنى المسجد والنخيل الباسقة الملاصقة له. تحدث الحاكم من على كرسيه فوق سطح المسجد:

أيها الناس، إن بلادنا تمر بفتنة تعصف بها من كل حدبٍ وصوب، أسباب هذه الفتنة تقف وراءها جهات لا تنتمي لهذا الوطن؛ هي دخيلة علينا في طبعها ومطالبها، ربما تكون هناك فئات مندسة في الجانبين، وربما تقف وراءها بعض دول الجوار الحاقدة على أمننا واستقرارنا، تقف بشراسة خلف المخربين، وتهدف إلى زعزعة الأمن والاستقرار على ترابنا. أيها الأحبة، من منطلق مسؤولياتنا الوطنية والشرعية والأخلاقية؛ صار لزاماً علينا أن نقف في وجه الرياح العاتية، وأن نواجه المشكلة جميعاً. لا نستحي أحداً أبداً؛ فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، إن الحاكم الإيجابي والفاعِل في مجتمعه يجب أن يبحث عن الحلول التوافقية التي تواجهه، أن يبحث عن سبل الرخاء والأمن لمواطنيه، لذلك كله؛ وبعد التوكل على الله، جمعنا الفريقين المتنازعين؛ لتجد حلاً وسطاً معتدلاً. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾⁽¹⁾. ها نحن اليوم نبحث عن حل يرضيكم جميعاً، وبما أن الاختلاف البشري سنة حياتية، وبما أن الاختلاف رحمة يُستفاد منها في تقويم المعوج من الأمور؛ لما فيه خير العباد؛ فإنني وببركة من الله، وبمساعدة منكم؛ أبحث عن ذلك الحل الذي يُخرج سفيتنا من ظلمات البحر وأمواجه المتلاطمة... آبائي، إخواني وأبنائي... إن الفتنة التي تقف على يساري، والتي يمثلها أبو راشد ورفاقه لها مطالب حقة، لا يمكن لعاقِلٍ أن يقف في وجهها

1- البقرة: 14.

وأن يرفضها؛ مطالب تعزز المعاني السامية للحياة الكريمة لأبناء هذا الوطن، وكما أن لتلك الفئة من المواطنين مطالب عادلة؛ فإن للجماعة التي تقف على يميني مطالب أخرى مُوازية، جديدة أن تؤخذ بعين الاعتبار، والاهتمش فئة على حاب أخرى، والآيضار فصيلٌ على آخر.

أيها المؤمنون، يختلف الناس في بلادنا على أمور تمس عصب حياتهم. يختلفون على مقدار الضرائب المفروضة على سفن الغوص وحصادها من اللؤلؤ والأسماك وغيرها. يختلفون على قيمة تموين السفن من قبل التجار، ويختلفون - أيضاً - حول الضرائب على المحاصيل الزراعية وطرق بيعها واستثمارها. هناك من يرى أن الضرائب والقوانين السائدة ظالمة، وهناك من يرى أنها مبررة في ظل ارتفاع الأسعار والمؤن المستوردة من بلدان المنشأ، إننا وبحكم موقعنا المؤل أمام الله ورسوله وعباده، سنقوم باختيار شخصين يمثلان الطرفين، نتحاور معهما أمامكم، وما يتج عنه يكون ملزماً للجميع. توجه الحاكم إلى جهة اليسار مخاطباً: عليكم أيها الناس أن تزكوا أحدكم. أن يكون خياركم يمثل مصالحكم، بلا خوف ولا تردد. وفي لمح البصر رفع الجميع أبا راشد على سواعدهم: نرشح هذا الرجل، ونرضى بما قسمه الله.

ثم توجه الحاكم ناحية اليمين، أشار إلى التاجر أن يجلس مكانه، فلم يرفع أحد يده، ولرئك أحد نفسه، قرر الحاكم أن يختار أحد الفلاحين البطء، الذين يعملون تحت إمرة التاجر.

دعا الحاكم الرجلين إلى حيث موضعه، ركب الرجلان سلم المسجد باتجاه الحاكم ومنصته، ثم قال:

- أيها الناس هذا خياركم؛ أبو راشد على يميني، وهذا الفلاح البسيط على يساري.

زاد اللَّغَط بين الناس، أغلبية موافقة في مواجهة أقلية متحفظة، رفع
الحاكم صوته:

- هل توافقون على الحكم الصادر أمامكم والتسليم به بعد استشارة
ممثلكم؟

صرخت الجماهير ثلاثاً، وبصوت واحد: نعم. نعم. نعم.
أعاد الحاكم كلامه على الحضور بترادفات أخرى؛ لعلّ المعنى يصبح
جلياً واضحاً لا لبس فيه:

- أيها الناس، إننى أرى أن هذين الرجلين يمثلان الطبقة الأكثر فقراً،
والأجدر أن تُصان حقوقُها، فإن وافقتم على هذا التحكيم ونتائجهِ؛ فلإنني
سأعمل به حالما يتهي هذا اللقاء. إن أبا راشد شخصية عامة، عالمة، غنية
عن التعريف، وجاء بناءً على ترشيحكم. أما هذا الفلاحُ الأميُّ الفقير فهو
أحد العاملين في مزرعة أحد التجار. من يختار أبا راشد مجدداً؛ فليرفع يده
اليرى، ومن يختار هذا الفلاح؛ فليرفع يده اليمنى.

أدرك الناس أن النتيجة محسومة سلفاً، لا مجال للمقارنة بين حنكة
الرجلين وخبرتهما. ارتفعت الأصوات بالتصفيق تعبيراً عن الرضا
والامتنان، ولكنني سمعتُ العميدَ يهمس في أذن أحد أقربائه: لا تأمنَ شرَّ
الجِهام، ولا تنسَ أن الطغاة يتزينون بلون الفراشات أحياناً.

اقرب أبو راشد وخصمه من المنصة المحاطة بالعسس والعيون، ثم
تحدث الحاكم:

- أيها الناس، هذا أبو راشد الذي يمثلكم أنتم، وهذا هو الفلاح الأمي
البيط الذي يمثل الفئة الأخرى. سنوجه لهما سؤالاً واحداً، ثم ندع الحق

للحضور كافة في اختيار صاحب الرأي الأكثر رجاحةً وصواباً ومنفعةً للناس؛ بحيث نعمل برأيه بناءً على رأي الغالية:

- هل توافقون؟

ارتفعت الأصوات وضجت الحناجر من طرف جمهور أبي راشد بالموافقة، وتعبيراً عن الامتنان، بينما جاءت الموافقة خجلة من الطرف الثاني. الآن سنحكم جميعاً، ستختارون مثلاً واحداً بينكم، وسأقرُّ بما يقول، ويتهي الخلاف بذلك، ويعمُّ الرخاء والأمن أرض دلمونيا.

طلب الحاكم من الرجلين أن يكتباً كلمة نخلة، ثم قال إن من يمتلك القدرة على الإجابة الصحيحة قادرٌ على إقناع الناس، وهو الأجدر بتمثيلهم. موافقون؟... نعم. نعم. نعم.

أيها الناس، لقد طلبت من الرجلين أن يكتباً كلمة (نخلة)، فإذا لم يتطع أحدهما كتابتها فإننا لن نأخذ برأيه، على أن تكونوا أنتم أنفسكم حكماً. هل توافقون؟

أبدئ أتباع أبي راشد ارتياحهم، يثقون برجلهم وممثلهم حد الجنون. أعطاهما ورقتي بردي. كتب أبو راشد: نخلة، ورسم الفلاح الأمي شكل نخلة. رفع الحاكم ورقة أبي راشد بيساره. أيها الناس: من يستطيع أن يعرف ما خطه أحدهما هنا؛ فليرفع يده اليسرى؟ لم يتطع قراءتها غير مئة أشخاص!

ثم رفع الورقة الثانية، أيها الناس، من يستطيع أن يعرف ما خط الفلاح هنا؛ فليرفع يمينه. وجد الجميع رسم النخلة واضحاً فرفعوا أيديهم ياراً ويميناً... حلّ تحاورتي، توافقي.



(11) آدم

مايو 1764

اعتدتُ في فترة ما بعد العشاء، أن يقبل أبو راشد ووالدّه، وهما يجملان موقفاً أو فكرة نتباحث حولها، رفضتُ تناول وجبة العشاء لأنني - وكما لاحظ أبو راشد مراراً - أصاب بفقد الشهية عند الهم والغم، وإتني على يقين - أيضاً - أن أغلب الحوارات معها تكون إضافة لرصيدي المعرفي في الحياة. إن حديثهما هذا المساء كان ذا طابع مختلف؛ فلازلتُ قلقاً أن تكون خولة قد باحت بأسرارها عما حدث بيننا. إننا نعرف أن الرذيلة إما لإشباع غريزة أو إشباع معدة، ولكن لريكن أحدهما دافعاً لذلك الزلل. المعصية - دائماً - نقطة حالكة في صفحة الخطيئة. ظننتُ أن أباه سيفضحني كلما اصطاد عيني. أشيخُ عنه هروباً وخجلاً، حتى صار رأسي في حركة دؤوب تشبه رأس حمامة في بدايتها وسرعة تلفتها. أدبرُ عنه كلما أقبل عليّ، حتى جاءت فطنة العميد في مكانها:

قال مندهشاً: أرى أنك تزمع القيام بتجربة استثنائية فريدة.

قلتُ مستدركاً: تلك طبيعة مهمتي التي عبرتُ الصحارى والبحار من أجلها.

بدأتُ أشعرُ بأن هذا المساء ليس كغيره، إنه يحمل في طياته رسائل غير مرئية، هناك حركة بخلاف ما نقوم به نحن الثلاثة، كأنه يحمل في جنباته إشارات مستقبلية، لا أعرف إن كان الطالع هو من يقرأ البشر أم أن البشر قارؤوه. بعض الإشارات تحمل توقعات لحوادث مستقبلية جمّة؛ حوادث تنتظر التحول لواقع. التريثُ - حينها - يصبح حكمة عالية.

كان العميد كعادته، سباقاً في استشفاف ما ينبغي الحديث حوله، سألتني وبلا مقدمات عن كنه الموت وماهيته، أصبح المكان الذي يفصلني عنهما فراغاً، هناك ظل حركة تصاحبها رهبة. أجبته:

- كنت عازماً على أن أجري مسحاً لمقبرة دلمونيا ودراسة مدافنها، فلربما أجد هناك معنى آخر للموت يختلف عن الفناء.

سأل أبو راشد: وهل تريد حقاً أن تجري مسحاً للطعوس في مقبرة دلمونيا؟!

أبدئ الرجل دهشة لرغبتني وعزمي، صار يحاول - مجدداً - أن يفرس في وجهي لعله يقرأ شيئاً قد خفي عنه؛ فالصمت المرضي يعكس صداقة حقيقية، لكنني تميتُ ألا يفسر ذلك هروباً، تدخّل العميد - أيضاً - بلطفه يفك الحصار. أخذ يخاطب الجانب الخامل في رأسي؛ تلك الكلمات التي تعطي العقل توهجاً:

- أجد أنك رحالة يضع على كاهله معرفة الإنسان أولاً، خليفة خالقه على الأرض وورثه، أما معرفة الجهاد كاليابسة والبحر وما فيها فتأتي ثانياً، خلقت من أجله، وهو القادر على تطويعها لخدمته، ذلك الإنسان المتباهي يبدأ نظفة وينتهي إلى حفرة آخر مطافه.

- جئنا بالمراد أيها العميد، تلك الحفرة التي تحتوي على الموتى هي عين ما أودّ دراسته على أرض دلمونيا، أعلم صعوبة المهمة، ولكنّ النجاح قطرة أمنية وبحر عزائم.

أبدئ أبو راشد رأيه متسائلاً حول الفائدة المرجّحة من دراسة الإنسان بعد وفاته. قال إنّ هناك نوعاً من المحبطين السلبين لا يرون عظمة الإنسان إلا بعد مماته، ولا يرون قيمة فعله ما دام بينهم؛ فمطرب الحي لا يطرب،

ندرسه في حقبة الموت، ولكن في حياتنا لا نعي ولا ندرك معناه ولا معنى الموت أيضاً، ثم كان للعميد إفاضة مدهشة حول الموت؛ تجرد في حديثه عن دَرَنِ الدنيا ووذائلها ففاض منطقاً:

يخاف الإنسان بطبعه من الموت لأنه لم يألفه، يراه جزءاً من الغير ولا يراه جزءاً منه بذاته. بالتفكير فقط نعرف أن الموت يصيبنا في كل لحظة، هناك أعضاء تموت فينا كالجلد والظفر وغيرهما، يولدُ بديلٌ لها كل حين؛ فالموت يصيبنا بصورة جزئية متالية، ولكننا لا نعتقد به إلا إذا ضرب الجسد البشري كله مرة واحدة، نعرف أن كل نفس ذائقة الموت، ونعرف أن هذه (الكل) تعدّ سورَ الموجبة الكلية، التي تتوعب كل ذي حياة، لا بد أن نعيه وندركه، الموت هو أكبر شيء يخافه الإنسان، فمتى اعتاد عليه أصبح خفيفاً أنيساً. أما من تجده ينطق الموت بكثرة فإنه يحارب من أجل الحياة.

استدركتُ متائلاً: وهل يجب على البشر أن يعتادوا الموت لكي يبقوا

أحياء؟

الإنسان وإن اعتاد الموت، إلا أنه يشعر تجاهه بالرغبة، هذا الشعور في ذاته ضرورة لبقاء الإنسانية. الموت واعظٌ مستتر، جديرٌ أن يكون حدّاً بذاته؛ فيمنع كثيراً من جرائم العودة؛ تلك الجرائم التي ما إن ينتهي سجنها إلا ويعود فاعلها لاقترافها. السجن إن كان رحباً يتحول إلى بيت ذي رفاهية، والدنيا لو كانت فضاءً مطلقاً بلا موتٍ لأصبحت بيتاً رحباً أيضاً. إن الحياة نهرٌ يا آدم؛ نهر متدفق، يجب الاستمتاع به وبإيقاعه؛ لأن الموت يتمنى من يرفض الغناء.

- ولكن كيف يُؤثِّرُ الموتُ على السلوك الإنساني ويُقوِّمه؟

الناس يتكالبون على الدنيا بينما الموت يذكرنا ويصدمنا بالحقيقة، أليس أولى للإنسان أن يخفف الغلواء، وأن يُغلب الطابع الأخلاقي؟ فالدنيا ليست غاية نتأخر فيها بالظفر والناب، ينهش قوياً ضعيفها. أليست مخالِب الإنسان أقوى من مخالِب الحيوان؟ ألا يكفي بالموت واعظاً؟ إننا في الواقع المعنوي نهش بعضنا، وفي الواقع المادي يأكل بعضنا بعضاً حين تتحلل الأجداد في التراب.

سألته مرةً أخرى عن طبيعة الموت، عن ذلك الغامض الذي نجهله من فرط ما نكثر تعريفنا له، فقال: ذكرتُ - مبقاً - أن كل نفس ذائقة الموت؛ أي أن كل روح تشعر بتخليها عن الجسد وفراقه، فلا غرو أنها بعد ذلك تمخ إلى جدها الذي لبته سنوات طوال؛ لذلك تحوم الروح حول القبر، يُقال إن الأرواح تجتمع وتلتقي، وتشعرُ بما يجري لدينا. تبقى الروح ليست من ذلك (الكل)؛ لأنها ليست من جنس الموات. إن مفردة الروح التي تأتي أحياناً بمعنى النفس، لا ينالها الموتُ أبداً، بينما الجسد تتكالب عليه أوضاعُ المخلوقات كالديدود وسواها.

- وماذا بعد الموت؟

- كما تُجمع البشرية أنه لو لم يكن الله موجوداً لوجب اختراعه؛ فالأديان السماوية تُجمعُ على أن الإنسان يوفى أجره بعد مماته؛ ذلك المبدأ المنطقي استتجه الأقدمون بفطرتهم وتفكرهم. هنالك المقابر الفرعونية، وهنا مقابر دلمونيا بمدافنها وأسرارها. أليس التجمُّل حين الموت يُعدّ طلباً للحياة أخرى؟ لم تختلف الديانات مع المعتقدات القديمة والموروثات الشعبية على أن هذه الحياة ليست نهاية الإنسان.

أثارتني حديث العميد فعلاً. زاد إصراري على أن أقوم باقتحام مدافن
دلونيا ومقابرها. دفعني النقاش مع العميد دفعاً إلى اقتحام عالم الموت؛
الموت الذي أيتمني؛ الموت الذي قَصَّ مضجع الحملة الأوسطية بدءاً
برئيس الحملة في سناء وبقية أعضاء الحملة في بحر العرب. أريد أن ألامس
فكرة الموت لعلني أعيشها وأصفها، أبيتُ عزمي على الذهاب إلى المدافن
القريبة برفقة من يرغب من رجالات أبي راشد.

قال أبو راشد: ينبغي أن نخبر الحاكم عن المنطقة التي ستبدأ فيها بالحفر
والتقيب.

قلتُ: أعطانا موافقة ضمنية ولا أعتقد أنه سيقيدنا بمنطقة محددة. الأمر
متروك لنا.

- ولكنه أخبرك أنه سيوفر لك معاونين.

- سنخبر رجالك بالأمر، وستجد الكثير ممن يريد أن يعمل معنا
متطوعاً. إن أراد الحاكم أن يبعث ببعض رجاله فأهلاً بهم، ولكن يمكنكني
أن أعمل وحدي!

- تعمل وحدك! في مقبرة أثرية مهجورة تقع في منطقة صحراوية؟

- لا أظن المقابر مقفرة ولا أحد فيها.

أطلتُ النظر في الرجل. أمعنتُ في خلقته كلها؛ الهيئة هي هي لأبي
راشد، ولكنه ليس (هو). بدأ يترسل في حديثه ويفضي من معينه: أظن أن
الحبَّ يوظفُ الموتَ لأجلِ الحياة. سنقتحم مقابر دلونيا معك غداً صباحاً.

أخبر أبو راشد بعض أصدقائنا؛ فقبل أربعة منهم مدَّ يد العون
والمساعدة. غادرنا - مبكراً - المنطقة المعروفة باسم حلة السيف التي
يجاورها الساحل الشمالي برماله الصفراء الناعمة؛ منطقة مليئة بالمياه العذبة

تفجر فيها المياه بحرّاً وبرّاً، يغوص البحارة لمنطقة تُسمى القصاصير، يُقي البحر جده في بحرٍ من الماء المالح وقربه تمتلئ من بحر الماء العذب. كونا بحرين متناقضين. أما من الجنوب فتدفق المياه من العيون الطبيعية وتصب في الأنهار وساباتها؛ أي جداولها، تروي العيونُ بساتينها الممتلئة بالنخيل الباسقة، والرمان، والأترج، (الليمون)، وغيرها.

غادرنا تلك المنطقة عبر تربتها الخضراء باتجاه الجنوب. الأرض ترتفع تدريجياً حتى تُظهر تقاسيمها العابسة؛ منطقة صخرية يابسة التربة. المدافن المعروفة باسم الطعوس تبدو من بعيد كقرب مرتفعة كبيرة إذا قورنت بتلك السلسلة الطويلة من المقابر التي مررنا بها في الطريق الصحراوي إلى قصر الحاكم. بدأت الرمال الصحراوية بالدوران. الرمال تُفسي بأسرارها حينما تتحرك. تبدو المنطقة برمتها بكرّاً. كأن الطبيعة - بنفسها - قامت ببناء المدافن. منطقة مُهابة شديدة الوقع على النفس. توجهنا للجانب الغربي منها، اخترتُ أصفر المدافن حجياً، وقررتُ بناء استراحة من السعف نتظل بها أثناء العمل الذي بدأ فعلياً في الصباح الباكر. كانت المهمة الأولى هي إبعاد الحشائش المتفرقة والأحجار الصغيرة، ثم انطلقت عمليات الحفر البطيء من الأعلى وصولاً للأسفل. قمنا بنقل الحجارة والصخور والرمال على بعد ثلاثة أمتار من الموقع. كان أبرز المعالم هو تحديد مدخل المدفن الواقع باتجاه الشمال، ومنه انطلقنا للداخل. صار العمل دؤوباً، لا يتوقف فيه الرجال إلا لوجبات الغذاء والصلاة، بالإضافة للقبولة والنوم.

بعد ثلاثة أيام من العمل الدؤوب، جاءنا الناعي. هكذا لا تأتي المصائب إلا فجأة؛ خبرٌ كالصاعقة. من طرق باب الموت ابتلعه. رسولٌ من الحي، غابت ملامحه واصفرّ لونه وأوشك صوته أن يتلاشى. بدأنا بالسلام، ثم استرجع:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

- من؟

- العميد، أعطاكم عمره البارحة. يتنظر المشيعون أبا راشد لإكمال مراسم الدفن.

هكذا تأتي النازلاتُ بلا مقدمات. يُعدّ رحيل فقد القيادة طامة كبرى، كثر حوله الناسُ حياً وميتاً. إن من يشيعونك هم قرّاء حياتك، ولكنني آثرتُ البقاء بين المدافن فقد عايشتُ الكثير من الوفيات. لا زال هناك خطبٌ يمنعي من المغادرة، قرأ أبو راشد تعابير وجهي حقاً، إن ما لا يُعبر عنه بكلمات لا يُقرأ إلا صمتاً. وصلت الرسالة. فهم رغبتني الشديدة في إكمال المهمة. أخذ أبو راشد قبل رحيله يكرر بعض أبيات الرثاء التي كان يرددّها والده في الأيام القريبة الماضية ويؤكد أن الشعر الفاخر يربي النفس:

ألا إنما الدنيا نضارة أيكبة إذا اخضر منها جانبٌ جفّ
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهبٌ

هكذا بقيتُ بين الموتى وحيداً، كان قراراً كنتُ تخيلته من جانبي، صارت حينها نفسي مغمضة. بعض القرارات تُبلي نفسها علينا؛ توهم أننا أصحابها، وندرك مع الوقت أن لا ناقة لنا فيها ولا جمل. هذه الجزيرة تحتوي على عشرات الآلاف من المدافن، لا أعرف لماذا اخترتُ هذه المنطقة العالية دون سواها. ربما وُضعت مدافنها مرتفعة وبعيدة عن الساحل حذراً وخوفاً من الانجراف، كأنها صروح. أعانني الأصدقاء - خلال الأيام الماضية - على حفر هذا المدفن، وصار لزاماً عليّ أن أكمل المهمة وحدي.

وجدتُ أنّ هذا المدفن يحكي سيرة بقية المدافن التي قدرتُ أعدادها بمائة وخمسين ألفاً. يبرز المدفن بارتفاعه الذي يصل لعشرين متراً تقريباً، وبعمق

يبلغ سبعة أمتار تحت الأرض. توجد فوهة المدفن ومدخله باتجاه الشمال الغربي. توصلت إلى الطريقة التي اتبعها القبارون في تشييد المدافن لأنني بدأتُ الحفر من حيث انتهوا. كانوا يبدأون العملية باختيار موقع جافٍ حجري، تُزاحُ القشرة الترابية حتى تظهر القشرة الحمراء، ثم تُحفرُ الأرضية - أيضاً - لعملِ غرف المدفن. بعد ذلك يوضع الأساسُ في صورة دائرية، وتُصَفُّ عليه الحجارة بدقة وعناية، وكلما ارتفع السور الخارجي تُردمُ المنطقة الفاصلة بينه وبين غرف المدفن حتى يصل إلى شكل قبة عملاقة.

قبل أن يمجنّ الليل؛ جلستُ على مدفنٍ آخر، متأملاً التل الذي حفرناه وبان هيكله. بناءً هندسي معماري يمكن الدخول إليه عبر قناة المخرج، ثم اتخذ النفق الذي يشبه حرف T اللاتيني. تكون غرفة المدفن هي الجنوبية وفيها يوضع الميتُ في شكل قرفصاء متجهاً للشمال. تصل ركبته لبطنه وكفاه لذقنه، كأنه لا يزال في رحم أمه، أما الغرفة الشمالية التي ينظر إليها الميتُ فتكون عبارة عن مخازن تحتوي على فخاريات، وأصداف، وحلي مختلفة وخرز، وحتى عملات معدنية ورماح.

كنتُ أعاين هذه المقتنيات عندما تذكرتُ ما قاله العميد الراحل عن الموت. زيارة القبور ومعابيتها ترقق القلب، وقال إن زيارة القبور تمنحنا الكثير من الطاقة؛ لذلك نشعر بقيمة الحياة بعد الزيارة. انتابني فكرة قد تكون مجنونة، قررتُ أن أدخل المدفن، وأن أعيد جميع المقتنيات إلى أوضاعها السابقة، ثم أستلقي داخل المدفن في موضع الهيكل العظمي. اجتأحني شعور متضارب، هل لا تزال روح المتوفى تحوم حول هيكله كما كانت تحوم حول جسده؟ هل يمكن لهذه الأرواح أن تخاطبني؟ أردتُ ملامسة الموت.

استلقيتُ في القبر على شكل قرفصاء، أغمضتُ عيني، وطردتُ الأفكار، ثم حاولتُ أن أبطئ أنفاسي. أو شككتُ أن... لا أعرف مشاعري حينها، ولكن شريطاً من المسُ أصابني. أصغيتُ إلى شيءٍ من حوار بين الـ(هي) التي توجد بين جوانحي وبين الـ(هو) الذي يخاطبها:

هو: ما هي أمانيك الآن؟

هي: أن أعود إلى الدنيا.

هو: تعودين للدنيا! لماذا؟

هي: شعرتُ بضرورة التكفير عن الخطايا، فمداينات البشر هي أكثر ما يُتعبني ويرهق الإنسان عموماً حتى في مماته. قد يغفر لك الربُّ أخطائك وزلللك، ولكن تلك المداينات تبقى دَيْنٌ عليك في رقبتك. القصاص لها يضيرك وعدم القصاص منك يتعبك أكثر.

هو: ولماذا تحملين مقتنياتك معك؟

هي: لا يحمل الإنسان معه بعد مماته غير صالحات أعماله، هذه مقتنيات مادية تمثل هاجسنا وقذارتنا الدنيوية؛ رغبتنا في توريث وتخليد أنفسنا، الرمح الذي تراه أحالني إلى عالم حيواني، أخال به أنني الحقُّ وسواي باطلٌ أحاربه، لم أكن أو من بالتعددية بين البشر بوصفها عملاً تكاملياً.

هو: وتحمل معك أموالاً وجلياً!

هي: نحن البشر نعطي لكل شيء قيمة مادية فانية، ونتناسى القيمة المعنوية الخالدة؛ قيمة الحب، قيمة توطيد التشابهات بيننا وتقزيم المختلفات وحتى محوها.

هو: وإن عدتَ للدنيا، ما الذي ستحرص عليه وتريد أن تحمله معك؟

هي: نثر الحب بين الناس كلهم، بالحب أمكّت خولة بعفتها وترفعت
عن العقاب، بالحب ألف العميدُ الفناء فانشرح صدره له، بالحب سيأتي
مقبلاً أحدهم إلى هنا، ويقرأ أسفارك ثم يكتبها. بالحب....

أخرجتُ صرخةً مدويةً هزّت أرجاء الظلام وقطعت جبل الصمت،
فتحتُ كفيَ الأيسر وإذا بدودةٌ لا تكاد تُمكُّ ولا تُرئى، بالكاد تحسّتها...
يا لك من إنسانٍ! جبلٌ من هواء.

استعدتُ الأنا البشرية المعتادة، لا أراي أقبل بعد اليوم على كثير من
النظريات، هناك من يقول إن الإنسان مجبور في سلوكه مع نفسه ومع الغير،
ننب أخطاءنا للشيطان لتربيع ضمائرنا، أجده تفسيراً إنسانياً ناقصاً لرفع
المسؤولية الملقاة على عاتقه. أدركتُ - الآن - أن الروح هي التي ترى،
وتلمس، وتسمع، وتتذوق، وما اللسان والعين والأذن إلا وسائلٌ لها.
الموتُ هو تفريق بين هذه الوسائل/ الوسائط وبين الروح. إنني أجزم أن
فكرة ملامسة الموت تبعث على معنى الحياة، وإنما بالحب نهزم أعداءنا،
وبالحب نألف الموت، وربما ندحره ونتصر عليه.



(12) آدم

يونيو 1764

استقبلني الأهالي بأهازيجهم الشعبية، وقد تناسوا بعد بضعة أسابيع فقط رحيل العميد عنهم للعالم الآخر. كأن استقبالهم كان حفل زفاف شعبي؛ أناشيد ورقصات فلكلورية، اجتمعوا خارج حدود القرية بالقرب من مدخلها الجنوبي حيث يتقاطع طريقان رمليان مع بعضهما، لا أعرف كيف توقعوا عودتي في هذا اليوم بالذات، لم أخبر أحداً حول ذلك القرار، حتى الرجل الذي عمل مراسلاً وأنيطت به مسؤولية توصيل الطعام والماء؛ لم أشعره عن نيتي في العودة. إن المفارقة واقعة في أنني لم أكن - نفسي - على دراية بهذه الخطوة. شيء ما دفعني لشد الرحال والعودة صباح هذا اليوم. تراجلت من على حماري أصافحهم واحداً تلو الآخر. هناك من يصرُّ على تقبيل وجنتي حتى جاء الدور على آخرهم، على أبي راشد نفسه. أخذني بشيء من البهجة وبعض من الحسرة، أظن بهجة استقبالي أنته بعضاً من حسرة رحيل العميد، سألته:

- من أخبركم عن ساعة عودتي مساء اليوم؟
- كنتُ أعرف أنك ستعود بعد أربعين ليلة منذ خروجك أول مرة.
- وهل أكملتُ - أنا - أربعين ليلة بين المدافن؟
- نعم، وإن مرتبة السعادة تكتمل في الأربعين.
- حقاً؟

كتم قهقهته فبدت ابتسامته مختنقة. ما إن اجلسُ مع أبي راشد إلا ويُرسمُ حبلٌ وِدٍ أشعر معه بالتناغم. وصل ذلك الأمر إلى حدّ توقع ومعرفة

بعض نيتي وتاريخ عودتي. دعاني للركوب على أحد البغال بينما يجز الحمارُ
أمتعتي. صاروا يمشون حولي، ذكّرني المشهد بالمدفن الكبيرة؛ قبة مرتفعة
وتلال صغيرة تفرق حولها. أخبرتُ أبا راشد عن ضرورة التواضع، وأن
أكون بين الناس مثلهم لكي أصبح أقرب إليهم.
- أريد أن أترجل وأسير على قدمي يا أبا راشد.

- لا تقلق. أنت كأحدنا، ولكن نحن نقدر تعبك وجهدك الساعة.

وصلنا إلى مجلس أبي راشد. اتخذت موضعي في العمق. هناك بين
الوسائد الحمراء ذات الخطوط السوداء. انفضّ الناس بعد دقائق وعادوا
ليوتهم. استشرُّ ذكرئ العميد ولكني لا أجد طيفه. أتذكر حضوره
ولكن غيابه بدا طبعياً. النور والظلام ضدان يُعرف أحدهما بنقيضه.
تذكرتُ بعضاً مما قاله العميد: الشيء يُعرف بنقيضه إلا الله تعالى؛ فلا يُعرف
من نقيضه لأنه ليس له نقيض، إننا نعرفه من خلال صفاته فقط، ومن
عظمته أن تكون المخلوقات كلها على صورته على الرغم من اختلافاتها.
وها أنا ذا أضيف لذلك: إن الموت ليس عكس الحياة أيضاً، فمن لم يدرك
الموت ويستوعبه يستشعر وحشته.

أقبلت خولة وأخواتها لإلقاء التحية مرحبين بحضوري بينهم. هذه
الفتاة تتسامى لأنها تشعر أن البشر خطأؤون، وأن من ينفذ غبار أخطائه
بلا رجعة لها هو الإنسان الحق. قوة الإدارة وثبات الإرادة يخلقان ملاكاً
بشراً. هذه الـ(خولة) امتداد مدرسة جدها وأبيها. تهب الحبّ لتحصد
القضائل. تذكرتُ حين رحيل والدي في كوبنهاغن. كان المعزون ذئاباً
طامعة، وكلاباً جائعة، ولكن المقارنة ظالمة. تحدثتُ إليها:

- أقدم تعازينا الحارة، ونشعر بالأسى والأسف لرحيل عميد أسرة آل
جور؛ الفقيه المدرسة، الذي ستبقى فضائله بيتنا نبراساً خالداً.

تدخل الصغير راشد: فضائل خالدة، أي آتة لريمت. أو مآت خولة برأسها. رسمت ابتسامة خجلى وانسجت للوراء، حتى خرجت والصفار خلفها. أدركت - يقيناً - أن الجزع الذي يواكب موت أحد البشر يتلاشى عندما نعي أنه لا خوف من الموت، ولكن الجزع هو الخوف على النفس. إنَّ حبَّ الأنا يوحى لنا أنَّ الفراق يلقي بمسؤوليات ثقيلة على النفس، ويخلق للمكان وحشة. بعد ساعة العشاء، شعرتُ بدفء المكان وأنا إلى جوار أبي راشد. الحميمية تأتي حين يفهم جملتك إنسانٌ بعد كلمة واحدة. لم أكن بحاجة لأسرد كلَّ شيء. صار يكفي بالعناوين الرئيسية، وما يلبثُ أن يستتج الفكرة. بدأ يسألني عن العبر والدروس التي استخلصتها من اعتكافي في المدافن الدولونية.

قلتُ: الموتُ - يا صديقي - ليس فناءً، بل ابتعاد الروح عن الماديات وخلع ثوبها الجسدي، لذلك فإنني أجد العميد حاضراً، كما أننا - كبشر - يمكن أن نتصر على الجانب المظلم من نفوسنا؛ أن نحب أنفسنا فنبعدها عن الرذائل والوقوع في الزلل، ومن يحب نفسه سيحب الآخرين حتماً؛ فخلق كل سحابة سوداء هناك ضوءٌ يجب أن نصل إليه. طغيان الشر لا يعني أن الخير عُدِم. قلتُ - سابقاً - إنه ما وُجدت مشكلة، وإلا وإلى جانبها حلٌ يسير. المعضلة هي أن يشعر الإنسان بأن هذه مشكلة لا متناهية. حب الذات بأنانية تبعث على الخوف من الآخر. إنه يُولد ما يُعرف بسوء الظن. يستشعر - حينها - ذلك الآخر أنَّ هناك من يود إسقاطه. بإمكان الخير أن يعم، ولكنَّ الجبناء هم من يرفضون شيوع النعم.

سألني أبو راشد حول خطواتي القادمة، فأنا رَحالة ولا بد أن أحقق أهداف الرحلة التي جئتُ بسببها ولأجلها. بينتُ أن الأهداف المعلنة استكشافية بحتة، ولكنني وجدتُ أهدافاً أكثر شموخاً وسمواً. الاكتشافات الجغرافية

والاقتصادية مهمة فعلاً لرخاء الإنسان، ولكن اكتشاف الإنسان لنفسه هدف أكثر رفعةً. هذا ما اكتشفته وأود أن أحققه على أرض دلويا، ثم أنقل هذه التجربة لبلادي. قد يكون التقدم العلمي والاقتصادي، وحتى العسكري والسياسي؛ قد يكون كل ذلك متقدماً عما يوجد هنا، ولكن العلم إن لم يرفع صاحبه فهو أضل سبيلاً. إن البساطة - هنا - تقرب الإنسان إلى الأرض وإلى فطرته التي خلق عليها. وجدتُ الإنسان يزخر بجانب أخلاقي كبير. هناك بعض التجاوزات التي يمكن تداركها إذا أشعنا الخير بين الناس، وجعلناهم يدركون أن مصدر الضوء والحياة قريبٌ وليس محالاً.

سألني: وهل تُريد أن تعالج القضايا المجتمعية هنا بإفشاء الحب؟

- نعم، الحبُ مبدأ سهل التحقق. إذا شعر الظالم والمتبد بحب المظلوم له فلا بد أن يتغير، ويكون قريباً منه؛ يشعر به ويؤاخيه، وإذا شعر المظلوم بحب الظالم له فلا بد أن يتجاوز عن أخطائه. حينها يقول إني غفرتُ لظالمي ظلمي. تريد يا أبا راشد أن تنزل لعامة الناس وخواصهم؛ نعائش الفقير، ونجالس الغني، ونشعر بالمرضى والمحتاج، ونحث المترَفَ على الإحساس بغيره. الحب دينٌ يبعث الحياة. سنطلق غداً إلى الحوارية والمساجد والساحات والأزقة، ثم ندخل على النوخذة والتاجر، وحتى الحاكم. كل قلبٍ وإن قسى وتجبر لا يمكن أن يخلو من فطرته وسجيته. العين تضيء طريق القدم، ونور المعرفة تضيء طريق الروح. من يرضى عن نفسه بفعل الخير فإنه يشعر بالجنة داخله، ومن لا يرضى عن نفسه فإن النار بكل صورها تحرقه؛ نار الحسد، والغضب، والشهوة، وسوء الظن، وغيرها. هذه النار التي تصيب الداخل فتأثر بها الخارج. ترى الهمَّ والغمَّ على وجهه.

كان أبو راشد - كما عهدته - تواقاً للخير ولو على نفسه. اقترح أن نذهب لأكبر الأسواق في دلويا؛ السوق الواقعة في باحة مسجدنا. هناك

تجتمع كل الأطياف. لن نتظر أحداً أن يقدم إلينا، بل سنقتحم حياة الناس،
ونعرف مواضعهم، ثم ندلهم بشيء من المساعدة على الطريق القويم.

توجهنا ناحية المسجد التاريخي في أحد أيام منتصف الأسبوع. تتحول
الساحة الخارجية إلى سوق كبيرة مفتوحة على مصراعها، تم فيها عمليات
البيع والشراء والمناقصات وغيرها. حركة دؤوب. كان دخولنا من الجهة
الجنوبية للباحة، ولكن لازال أبو راشد يُعدُّ شخصاً عامة، وزاد الأمر سوءاً
مرافقتي له. لم يكن من نلتقيهم على سجيبتهم وطبيعتهم. يتقدمون تجاهنا
للتحية، ويلبسون أحلى المفردات. الإنسان يتواضع مع أقرانه، ويتجمل مع
سواهم. أقبل أغلبهم لإلقاء التحية إلا شاباً واحداً؛ كان مقيداً كشاة بجذع
نخلة. ارتدى الشاب ملابس رثة بيضاء؛ فصبغها تقادم الزمن عليه بمأسبه.
وُضع الحبل في ساعده الأيمن. كان حليق الرأس، أمرد، نحيف الجلد، ذا
رائحة نتنة. وقفنا بضع أمتار إلى جانبه. تحدثتُ إلى أبي راشد:

- لماذا يُربط هذا الشاب كالحوانات الضالة؟

- هذا الشاب ينتظر دوره ليُربط داخل المسجد بضع ساعات.

- ولماذا يُربط البشر هناك؟

- يقال إنه مصاب بـ(عين). تفاقم أمره، واستعصت حالته ففقد عقله.

هذه العين تشبه المسّ والسحر.

- إنها فرصة نمر بنا لنخرجه من أوجاعه. ولكي نقدم له يد الخير

والمساعدة؛ يجب - أولاً - أن نحدد أسباب مرضه. إن معرفة أسباب

المشكلة تساعد على الوصول إلى نصف حلها.

استرسل أبو راشد من معين معرفته، واصفاً ما يُعرف ويُسمى بالسحر،

فقال: ذكر الوالد كثيراً أن السحر على أنواع، فمنه خفة يد سريعة، تسحر

العين وتبدي لها غير الواقع؛ فيمتد تأثيره إلى الجسم، وهو ما يعرف بتخييل الباطن، ولكنني - وبلا جدال - أراه تمويهاً ودجلاً، وأجده نوعاً من الخديعة والشعوذة، وتصوير الباطل بصورة الحق؛ لأن السحر أضعف وأعجز من أن يُغير الخلق، فلو كان للساحر قدرة واقعة لتمكن أن يدفع الشيب عن رأسه، ويبعد عنه المرض. ومنه احتيالٌ أيضاً، أما الكتابات والرقمي والعزائم والنفث في العقد؛ فإن أغلب العقلاء لا يذهبون إليها ولا يميلون لها.

قلت: لازلتُ اذكر حديثي - مرة - مع العميد حول السحر. ذكر أن البعض يرى أن الحكم على الساحر يكون بقتله. أي إنه اعتراف ضمني بأن للساحر يداً طويلة فاعلة.

أوضح أبو راشد: إن الحكم الشرعي في حق الساحر وليس في تأثير السحر نفسه، وذلك لأن الساحر أنكر ضرورة من ضرورات تدينه. أنكر أن الرب له ملكوت كل شيء. هذه الملكية الإلهية ملكية متأصلة للخالق، أما ملكية الإنسان فهي وقتية زائلة. إن منازعة الساحر ربه في هذه الملكية؛ تعدّ إنكاراً لإحدى ضرورات دينه التي تمتد لتشمل الشفاء من المرض، وإن كانت يد طيب ما.

اقتربنا أكثر من الشاب المسحور. بدت ملابسه رثة فعلاً. وجدتُ خيوطاً حمراء، وسوداء، وخضراء حول معصمه ورقبته وفخذه. ما إن اقتربنا منه؛ حتى بدأ بامتعاطنا؛ حيث يحث المحسنين عادة على العطاء والمساعدة، والناس - بدورهم - يرون أن مساعدة المسحور والممسوس بالجن تدفع البلاء. توجهتُ إلى أبي راشد مجدداً:

- ألا يمكن أن يكون قد أصيب بالعين؟ دعنا نرى ونختبر الأمور في بيتها.

تحدثنا للشباب المسحور عن اسمه، وعائلته، وقريته؛ فحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال. لم يجب ولم يعقب. أخبرته أن اسمه علي، وأنه من الدّير، فقال المسحور موجزاً: لا. لقد كانت إجابته دليلاً على قدرة استيعابه. بادرةٌ خيرٌ وأمل.

سألته: إن لم يكن اسمك علياً، فما هو؟

تحدث معنا تدريجياً وبدأ يالفنا. جلسنا معه على حصيره ودعونا له ليأكل معنا. أخبرنا بكلمات متقطعة أنه كان ذا أسرة، وأن هناك من زرع فتنة بينه وبين زوجته التي كرهته، وطلبت فراقه و... طلاقه.

كنتُ أكرر - دائماً - أنه لا توجد مشكلة إلا ويكون حلها متزويماً إلى جوارها. المميز هو الذي يترث صابراً، وينقب عن ذلك الحل. مشكلة أسرية، تخيل صاحبها أنها نهاية الحياة، وآخر العالم برمته. لم يستطع الشاب الحصول على ذلك الحل. تفاقمت المشكلة، وعصفت بحالته النفسية. رغب في ترك الحياة. ألقى بنفسه - مراراً - في البحر الذي رفض أن يتلعه. يأس من الحياة. توهم المرض، وأعرض عن الدنيا. إن أبسط المظاهر الاستعطافية هي تلبس الجنون والمس، والسحر، وغيره. يمكن لنا أن نبحث عن أسرته، وأن نزرع الحب والطمأنينة في قلبه. إن النفس على ضروب مختلفة؛ هناك النفس المطمئنة، واللوامة والمرضية، والأمارة بالسوء، والملهمة، ومتى ما ميزنا هذه الأنفس ومعاناتها، وعولجت بالحب؛ فإنه يمكن السيطرة على حالته النفسية. يمكن زرع الياسمين في قلبه ليعشق الحياة، وبعد الشوك عن دربه.



(13) النوخذة

أغسطس 1764

بدأت العلاقة بيني وبين البحارة تكتسي ثوب التازيم وتتجه نحو الجفاء. تعرّت الأنفُس فبدت سوءاتها، فمن جانبي؛ لطالما عملتُ على إرضاء البحارة مادياً ومعنوياً، كنتُ منصفاً معهم، أبحث عن استقرار وضعهم المادي خلال السنة، وأحاول الإغداق عليهم وإرضاءهم خلال مواسم الصيد. ولكنّ التاجر - يضغط من جانب آخر - بكل قواه التي كادت تخور، وجدته يرفض أن يصبح أيّ من البحارة مترفاً، يُصر على أن يبقى الكل في حاجة ملحة له وللحاكم، إنه يرى أنّ الطبقة سنة حياتية تُشيد قواعدها على المفارقات بين بني البشر. صار التاجر يبعث رسائله مباشرة: سأشتري كل المحصول من اللؤلؤ؛ شرط أن يأخذ البحارة أقل من ديونهم خلال العام المنصرم.

بعد (الطلعة) الشهيرة اشتدّ النزاع مع البحارة، ولم يتمكن الطوّاش - في عرض البحر - أن يجد حلاً أو مخرجاً يُرضي جميع الأطراف على الرغم من منطقية المطالب وإنسانيتها؛ فأنا أصبحتُ بين المطرقة والسندان؛ حتى صار الهُم يُجيم على حياتي، وظهرت بوادرها على علاقتي الأسرية؛ فالاستقرار النفسي ضرورة لا يتناق الحياة وتناغمها في الأسرة والمجتمع.

طرق بابنا أبو راشد والرحالة آدم. أصبحا بشهادة الجميع صديقين حميمين، يدفع أحدهما بالآخر دفعاً، جاء الأخير ليدرس ما تحت أرض دلونيا فصار يجتبر ويعاين ما فوقها باهتمام بالغ، صار نشر الخير وبثُ السعادة لبني دلونيا هدفاً مشتركاً بينهما، تبا زرع المحبة أينما رحلا، أدركا

أن النور وسيلة لقهر الظلام فهي تعطي وسيطاً ناقلاً للضوء والجمال. أقبلنا ذات مساء، فتحدث أبو راشد:

- جئناك ونحن نطمح في كرمك ونطمح إلى أن نصل لياض قلبك.

- ماذا وراؤكما؟

استأذن أبو راشد صاحبه ليتحدث فقال: نحن نعرف - بجلاء - الأهداف البعيدة والحقيقة للتاجر. إنه - بلا شك - لا يريد الرفاهية لعامة الناس، وكان الأمر برمته يضره، إنه يرى بأن الله تعالى خلق الناس في فئات وطبقات مختلفة ومتباعدة، وأن هذه الطبقة لازمة وضرورة لبقاء الحياة؛ فالدوني مع نفسه فوقي مع الآخرين.

عقب عليه آدم قائلاً: إن النظرية الطبقة هذه ليست وليدة خيال دلمونيا وإنسانها. ربما لا يعلم التاجر أنها قديمة ومتفشية كالسرطان في المجتمعات الغربية الصناعية، هناك من الفلاسفة من ينادي بها علناً، إنها تعكس ما يُعرف بالأمية الحضارية؛ فهناك الإنسان الطموح الذي يرغب في الانطلاق من الذرة إلى المجرة، ولكنه يبقى وحثياً همجياً في سلوكه. لقد قال الفيلسوف أرسطو إن الطبقة ضرورة بشرية؛ فليس من بشري الرقيق يكون معه على حدّ سواء، وهو المبدأ ذاته الذي دعا إليه أوغتين حين قال: إن من دعا للخلاص من الرق فقد دعا لعدم عبادة الله. فأوروبا تعامل البطء معاملة السيد للعبد، إنها طامة المراجع الفلسفية.

لم أكن أعرف تلك الأسماء التي تحدث عنها آدم، ولكن يبدو من رنينها أنها أسماء جبارة لصانعي حضارات وأمم. أخذ أبو راشد يكمل الحوار في خطٍ متوازٍ، ولكن ومن جهة مختلفة، قال: لقد قبّل النبي (ص) يدَ عاملٍ قائلاً: إنها يد الله في أرضه، وقال أحد الصحابة في السياق ذاته: إن الزراع كنوز الله في الأرض.

أبديتُ حيرتي بما يريد الرجلان. سألتها عما وراء حديثهما. أبدى أبو راشد الرغبة الملحة في مقاومة الطبقة، وما يطمح له التاجر من تأصيل مبادئها على أرض دلمونيا.

قلت: وما عاني أن أفعل؟ كيف لفردي بسيط أن يقاوم أمواجاً سوداء عاتية؟

قال: يمكننا بالتعاقد أن نساعد المحتاجين والفقراء؛ فحين نمد لهم يد العون، لن يتمكن التاجر أن يقف في وجه الحب والخير. لقد أوصى الله تعالى نبيه بدفع الصدقات، فقال: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ﴾⁽¹⁾؛ تزكية للنفس وتزكية للمال. لا يمكن لأحد أن يحصد مالاً من غير مجتمع؛ فلن يصلك مالٌ - أبداً - دون العمل في نطاق بيئة مجتمعية. لقد حفز النبي - مراراً - بتأكيده على أن من تصدق بالقليل في حياته خيرٌ ممن تبرع بكل ماله بعد وفاته. فالزكاة تعني حرمة التصرف في المال ما لم تُخرج زكاته حسب حق العين أو النعمة، وتكون مستحقة لمن عجز عن العمل وللمعوزين كذلك. لذلك يمكن للميسورين وأنت منهم أن يقفوا إلى جانب طبقة الفقراء فيرفعوا عنهم الحاجة والفاقة.

- قلت: أليست تلك ضريبة تشبه في مضمونها ما ندفعه على محاصيلنا

للحاكم وأتباعه، وما يدفعه الحاكم نفسه لبريطانيا ومن قبلها البرتغال؟

أوضح أبو راشد أن لفظ (من) تعني جزءاً من جنس المال، بينما قال آخرون: إنها للتبويض أي بعض الأموال، وفي كلتا الحالتين؛ فإنها تطهر وتزكي النفس. إن مائة دلمونيا قائمة على الخراج، والزكاة، وحق الحاكم، والعشور، وهناك من يرى واجب الخمس طبقاً لقوله تعالى: ﴿ وَعَلِّمُوا أَتْمَا

1- التوبة: 103.

غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ نُمُّكُمْ⁽¹⁾، ولكنهم اختلفوا في مدلول اللفظ في ظرفه العام والخاص، فرأى البعض أن الغنيمة تشمل كل ما ملك الإنسان، وليس ما غنمه في الحرب فقط.

قلت: وجدتك يا أبا راشد مكتملاً متكاملًا.

قال آدم: ليس كذلك أيها النوخذة، ولكن ينبغي على الإنسان أن يمثل وحدة متكاملة؛ فالأدب والسياسة، والدين، وغيرها؛ هي آفاق تكمل بعضها، فكيف لمتدين - مثلاً - أن يستطيع فهم بلاغة القرآن دون أن يعشق الأدب؟ ذلك ما تجده في هذا الرجل، في أبي راشد.

وجدتُ أن الحديث قد تشعب كثيراً وأصبح عميقاً. استدركتُ لأخبرهم عن واقعة أعايشها كل يوم. أخبرتهم أن هناك شاباً أراقبه وهو يضع العقبات أمام بيتي كل صباح. يضع حجارة، وجزوع نخل، وغيرها من القذارات؛ حتى أصاب الضرُّ كل عائلتي. تساءلتُ كيف يمكنني مساعدته وهو شابٌ سليم الجسم، قوي البنية، قادرٌ على العمل والكسب.

أوضح أبو راشد أن النبي (ص) كان والعمل توأمًا، وكان يرى أنه من النقيصة أن يمدَّ المرء يده إلى عرق غيره؛ حتى ألانَ الله للإنسان الحديد من أجل العمل، ثم قال: من الأجدر أن تواجه ذلك الشاب فتعرف ما يغيضه وبعده عنه الظلام؛ فأغلب أفعال البشر تُبنى كردود أفعال. عليك أن تبحث عن الفعل الذي دفعه وأوصله لذلك العمل الفاحش والمثين.

غادر الرجلان مجلعي، وقضيتُ الليل متفكرًا في حديثهما. هل ستضيء الأعمال البيطة طريق الخير وتثر الورد أمام من اتخذوا سُبيل القوة والبطش سبيلًا؟ هل يكون مفعول الحبِّ والخير أقوى من العصي

1- الأنفال: 41.

والبارود؟ أميْتُ أجهدُ فكري في اختبار تلك النوايا الخيرة والأعمال الصالحة. قررتُ أن أواجه غضب البحارة والمزارعين وسواهم بسلاح الحب.

استيقظتُ مبكراً، وانتظرتُ ذلك الشاب الذي اعتاد أن يضع الحجارة والجذوع والقذارات عند مدخل بيتنا. صار مقابلاً لباب البيت، يضع الحجارة بلا عجل، خرجتُ من الجهة الأخرى متللاً، أصبحتُ خلفه من الجهة المعاكسة، وضعتُ يدي على كتفه رابتاً، ألقىتُ عليه التحية والسلام مبتماً.

- السلام عليكم ورحمة الله.

لم تجرِ على لسان الشاب أية كلمة. نظر في عيني بحنق وغضب شديدتين. تنفس بعمق فامتلاً صدره شهيقاً. اتابني بعض الخوف من قوة جسده ولكنني استجمعتُ قواي. انتظرتُ كلماته. لم ينطق ببنتِ شفة، قلت:

- مِلْ علينا؛ فإن كانت لك حاجة قضيناها؛ فالناس للناس ومن يعن يُعن.

أزاح الشابُ يدي عن كتفه، وغادر المنطقة صامتاً. لم تبدُ علي مجاه أية ردة فعل. تلك الحالة التي تجعل الإنسان بين الترح والفرح. حالة تجعله غامضاً، ويصعب معها توقع ما ينوي القيام به. دخلتُ داري أنتظر وجبة الإفطار قبل مباشرة أعمالي اليومية. خرجتُ بعد ما يربو على الساعة. كانت المفارقة... أصبح مدخل المنزل نظيفاً سلساً بلا أية عقبات.



(14) الملقوط

فبراير 1765

لطالما وجدتُ تحقيراً وتعالياً من الصغير والكبير، من الأمي والمتعلم، من الفقير قبل الغني، من أطراف المجتمع قاطبة، ذلك المجتمع الذي يختلف في أغلب الأمور والمسائل، ويتفق في شؤوني وما يخصني، انهار عليّ جبلٌ من الحزن، حتى شعرتُ أنّ اللوعة هي الاختناق بالبكاء.

يدرك الجميع أن أبناء دلمونيا يختلفون في معظم الأمور الهامشية والجمهوريّة، يتنازعون في التعدد الديني والمذهبي والسياسي، ولكنهم يتفقون على أنني لقيطٌ أو (ابن زنا). وجدتُ الناس تناديني بالـ(ملقوط)، لم أكن أعرف مرادف الكلمة ولا مقصدها، أصبح اسمي عنواني الذي أحمله بهموه على كتفي. عملتُ مزارعاً وخادماً لدى أحد ملاك الحقول لثلاث سنوات، كانت سنوات مثمرة جزيلة العطاء؛ ازدهر فيها الإنتاج والحصاد. بعرقنا وكفاحنا كبر رأسُ ماله فاشتريّ مزرعة أخرى. كآل المديح لي ولأقراني. صارت كلماته أوسمة على صدورنا. اعترف - شاكراً - بأن الله منّ عليه بالخير الوفير جزاءً لإحسانه إليّ، كان يردد أنه حيث يوجد الماء يوجد المال، وحيث يوجد المال توجد الفتنة، ولكن لم تُمطر السماء ما يكفي خلال العام الماضي، ضنّت عليه بما تجود؛ جفت - تبعاً لذلك - بعض العيون صيفاً؛ ترقّب أزمة تلوح في الأفق؛ موسم جفاف يتبعه فحطٌ وضعف إنتاج. بحث عن مخرج يقيه شرّ الأزمة القادمة. اجتمع بنا يتباحث الأزمة:

قال: كانت الأمطار قليلة وعليه جفت بعض العيون.

قلنا: سيؤثر ذلك على المحاصيل؛ خاصة تلك التي تحتاج إلى الطمر بالمياه.

سألنا: ماذا تقترحون أيها الرجال؟

أجبتُ: بما أنّ العيون أصبحت شحيحة وشبه جافة؛ فقد تأثرت - تبعاً لذلك - الأنهار والجداول. أقترح أن نضرب في الأرض بئراً، نعوض به نقص المياه.

أعجب المالك كثيراً بالاقترح، ولكنه رأى صعوبة تطبيقه؛ الحفرُ بلا معدات ثقيلة يكون مرهقاً جداً. أبديتُ استعدادي وشففتي للحفر اليدوي. نحن نسعى ونطلب النجاح من الله تعالى الذي يُقدرُ الأمرَ ومنه التوفيق. رأى زملائي تلك المهمة فافتنعوا وتبنوا الفكرة. أبدى المالك رضاه عني، ووعد بأن يوفر لي مُعرّشاً سكناً في المزرعة ذاتها تعبيراً عن امتنانه. ثم تحدث لنا جميعاً:

- تعلمون أيها الرجال أنه في حال فشلنا في الزراعة هذا الموسم فإنّ الأمر سيصبح معقداً جداً. الأمر لا يقف عند الحرث والبذر ثم الحصاد فقط. إن لم تكن قادرين على دفع الضرائب المفروضة للحاكم فإنه سيعطي مبرراً للتجار لشراء المزرعة بثمن بخسٍ يُفرضُ علينا. الحاكم يريد الضرائب لا محالة، والتاجر يستثمر الفرص قبل أن تمرّ السحاب، يقتنها ويصطادها.

- لا تخشى، متى وُجدت السواعد حُلّت العضلات. سنجد مخرجاً يعوض نقص المياه.

ضربنا الأرض فانبجست منها عينٌ وافرة المياه. كانت المياه حية تحت القشرة، تترقب الفرصة لمن يفك قيدها؛ لتهب الحياة لكل شيء. أغرقت المزرعة، وفاضت لما جاورها. لم تعد المياه معضلة بعد، أسعدت غزارة المياه قلبَ المالك، رفعت العادة إلى عنان السماء، حرثنا الأرض وبذرناها في

انتظار موسم الحصاد القادم. وبعد شهر أو يزيد، جاءت المحاصيل على عكس المتوقع والمأمول، كان الخبر قاصماً؛ أصاب الدودُ والعفنُ مختلف أنواع المزروعات، وأصيت - تبعاً لذلك - جهودنا بخيبة أمل، وانتابت المالك نوبةُ حزن وخوف. صار يبحث عن السبب والتعليلات، لم يجد مبرراً لما آلت إليه الأمور. خسارة فادحة غير متوقعة ستجبره على التخلي عن مزرعته؛ قرر بعد طول انتظار أن يلتقي جميع المزارعين لديه ويطرح عليهم قراراته:

- بعد التوكل على الله، تمكنا من معالجة مشكلة شح الأمطار، واستخرجنا المياه من العيون. اتبعنا جميع الخطوات المعتادة، ولكن النتيجة كانت عكسية محبطة فعلاً. قمتُ باستشارات عدة حتى صرْتُ على يقين من الب.

ارتفع صوتُ المزارعين: وما هو الب؟ أين الخلل؟

أشار المالكُ ناحيتي، وقال: إنه ابن الزنا؛ الملقوط القابع بينكم. إنه يعمل بجد وإخلاص لا شك في ذلك، ولكنَّ البركة الإلهية قد سُلبت منه وبما تقع عليه يداه. لا يمكن أن تطأ رجلاه مكاناً إلا وتفترُّ من بين يديه الخيرات؛ وعليه - أيها الإخوة - قررنا التخلُّص منه، قررنا طرده من المزرعة ومن مساكنها.

أصبتُ بانكسار، ولكنني قررتُ التثبُّت بحبل الحياة. تقدمتُ لبعض النواخذة كي أعمل بحاراً، مساعداً، سيياً، أو طباًخاً... جاءني الرد سريعاً من النواخذة:

- لا مكان للملقوطِ بيننا، أنت لقيط ولا يُعرفُ لك أصل ولا فصل؛ لن يبارك الله لنا عملنا، وربما تجر لنا الكثير من المصائب والوبال، من مصلحة الجميع أن تبتعد، أن تهجر، أو تخفي؛ لعلَّ الله يجد لنا ولك مخرجاً.

بحثُ عن أعمالٍ أخرى فكانت النتيجة في محصلتها واحدة. قرارٌ جماعي واحد ومشارك؛ طردٌ مجتمعي. اتفاقٌ على أن الملقوط ليس له مكان بين الغير، وأنه لا بركة ترتجى من ورائه.

كنتُ أشعر أنه لا ملاذ لي إلا عند خالقي. إن الفقر قرينُ الكينة؛ لذلك يتجه أغلب الناس لوجه الله عند النائبات. منذ كنتُ صغيراً، أحييتُ المواظبة على الصلاة. أصغي حين يتحدث الإمام، التحقت ببعض بيوت تعليم القرآن الكريم، ولكن ما إن يعرفوا أنني الملقوط حتى... تعلمتُ بعض القراءة ولكن بعد هذه المتاهة والحلقة المفرغة، توجهتُ للمسجد الكبير، أردتُ الاعتكاف فيه، صرتُ في حاجة ملحة إلى أن أشكو همي للملاذبي الأخير؛ لخالقي الذي بيده ملكوت كل شيء. رأى قيمُ المسجد أن يؤويني ويوفر لي إحدى الغرف الجانية، على أن أقوم بتنظيف المسجد كل يوم، وأن أتغذى من صدقات المصلين وأوقافهم. نعم الربُّ الذي يكون إلى جوار عبده في ضيقه. تكونت لدي صداقات مختلفة مع المصلين والمتصدقين؛ حتى بدأتُ أجدُ نفسي. شكرتُ الله تعالى على كل نعمائه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. وفي أحد أيام الجمع التي لن تُنسى من ذاكرتي؛ جاءت صلاة الجمعة بوقعها الإيادي، تولى الإمام خطبة الجمعة قبل صلاتها:

أيها المؤمنون: قال تعالى، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾.
عباد الله، إنني ومن منطلق مؤلتي أمام الله تعالى وأمام المجتمع، أوصيكم خيراً. إن حكمَ الله واضحٌ جليٌّ، فيما يخص الكبائر من مقترفي جريمة الزنا،

1 - سورة النور: 2.

وبها أن الزناة رجس؛ فإن ما يأتي منه رجس آخر؛ والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا. لقد بلغني أيها المؤمنون أن هذا المسجد يضم بين جانبيه ذلك الخبث؛ يحتوي على لقيط يدنس أركان بيت من بيوت الله، في بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه، وقد كان للقيم على المسجد دورٌ بالغ الأثر في ذلك. اجتهد فأخطأ؛ وعليه التوبة النصوح، وعليكم أيها المؤمنون أن تطردوا ذلك (الملقوطة) من المسجد حتى تصان قدسيته، وتحفظ حرمة. أيها المؤمنون، أقولُ قولي هذا؛ لعل الله يغفر لي ولكم.

إن رجل الدين المريض هو من يتعقب أخطاء الآخرين. هكذا كانت النتيجة حتمية حاسمة. قذف بي المصلون خارج المسجد شتمًا، وضربًا، وتعرية. إنني الآن مُطارِدٌ من قبل المجتمع الذي قذفني الدنيا فيه بلا خيار مني. ارتأيت البقاء - بعيداً - في مزرعة الخيس على أطراف قرية عجاج جنوب القلعة؛ هناك يجتمع الشواذ واللصوص وقطاع الطرق وغيرهم. لم أكن واحداً منهم، وجدوا ملاذهم وغايتهم عندي. جعلوني أميناً على الخيس وعلى مقتنياتهم شرط أن يوفرُوا لي شيئاً من الطعام والمأوى. لستُ راضياً عن نفسي أبداً. خرجتُ - طريداً - من سجن مجتمعي فتلقتني سجنُ إجرامي. أراني يُزج بي قسراً إلى وإد لا أنتمي إليه أخلاقياً.

جاء اللصوص ذات ماء يحملون قطعة صخرية عليها الكثير من النقوش. هو حجرٌ ليس كبقية الحجارة، حليبي اللون كأنه حجر بحري يسمي محلياً بالفرش، توجد عليه نقوش باللغة العربية، وكأنها رسالة مباشرة موجهة من صاحبها. أودعُوا الحجرَ عندي، وغابوا عني وعنه بضعة أيام. احتجبوا عن الظهور لسبب مجهول. عادوا وقد ضربني الجوع وأضربني، ولم أبرح مكاني ثلاث ليالٍ سوياً. شربتُ من ماء السواقي

وأكلت من بقولياتها. حين عادوا؛ أخبرتهم عن جوعي، واقتراب هلاكي،
ودنو أجلي، فطلبوا مني أن أعملَ وأجني مالاً وفيراً.

- خذ ذلك الحجر لتبيعه في السوق الشعبي الذي يقام صباح كل جمعة.

- لا أعتقد أن هناك من يرغب في شراء حجر أصم.

- يبدو أن هذا الحجر ثمينٌ، وهناك من يقدر قيمة الآثار والتحف. عليه

الكثير من النقوش القديمة، عليك البحث عن الجنود البريطانيين

والأوربيين وحتى الرخالة وغيرهم. لا بد أن أحدهم يعرف القيمة الحقيقية

والرمزية لهذا الحجر. سيدفعون فيه الكثير.

- من أين جئتم بهذا الحجر؟

- لا عليك. ابحث عمّن يشتريه فقط. سراقبك أثناء البيع والشراء

وحينها تقبض ثمنه؛ منعطيك نصفه.

بما أن الخنوع هو أن تُعطي مجبراً؛ فقد كان الاتفاق مقنعاً ويستحق

العناء، اتفاقٌ سيحفظ لي زادي وقُوتي لفترة قادمة، قد تكون أياماً، شهوراً،

أو سنيناً. انتظرتُ الجمعة الموعودة. حملتُ الحجر على ظهري، كان ثقيلًا،

أسير به أمتاراً ثم أطرحه أرضاً، كنتُ أعاني منه حتى صار يتأفف من

تذمري. اقتربتُ من الباتين المجاورة للسوق. بتُ تلك الليلة في إحدى

السواقي جانب الحجر. اتخذت مدخل السوق موضعاً. وضعتُ لشامي

وجلستُ بالقرب من باعة البقوليات. أبدى الكثير منهم فضولاً لما أنوي

بيعه. سخر بعضهم، وتجهّم آخرون. اشتدت حرارة الشمس ولر يظهر أحدٌ

من المتوقين الموعودين. اقتربت صلاة الجمعة. حزم الباعة أمتعتهم... لا

يجوز البيع والشراء - شرعاً - إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة، ولكنني

خشيتُ أن أحمله مجدداً فيقسم ظهري. جاء رجالُ الحاكم وبعض عسـه.
أمروا الباعة بحزمٍ أمتعتهم إلى ما بعد الصلاة، أقبلوا في اتجاهي:

- هل هذا الحجر الأصم للبيع؟

- نعم.

- بكم تريد بيعه؟

- بما تجود به أنفكم.

- لأنه أثري ثمين؛ فلن تشتريه إلا من يد المالك.

- أنا المالك.

أوقعتني لساني في قضية قالوا عنها آجلاً إنها جنائية، اعترفتُ لرجال الأمن بصورة غير مباشرة بأنني سارقُ هذا الحجر، أخذوني على عجلٍ للسجن في انتظار المحاكمة التي تُقام صباح يوم الإثنين. هنالك جلس القضاة الثلاثة وعلى يمينهم كاتب العدل. للمحاكم مراسمٌ قدسية أيضاً. تبدأ طقوسُ المحكمة - عادة - بارتشاف ثلاثة فناجين من القهوة، ثم يُنظرُ إلى القضايا التي يمررها المترجم ويسجل أقوال الشهود والمتهمين فيها. كنتُ المتهم الأول وكان الشهود اثنين من رجال الشرطة. استمع القضاة لقصتي، ثم أعقبوه بتوجيه الأسئلة للشهود، وأطلقوا - أخيراً - قرارهم:

"حكمت المحكمة - حضورياً - بسجن المتهم ثلاث سنين مع النفاذ وحجز الحجر التاريخي".

لا زلتُ أتذكر تفاصيل تلك المحاكمة الجائرة، أخبرتهم عن حقيقة الحجر وكيف وصلني. لم يفتن القاضي بما أقول، ولم يبد استعداداً لسماعي منذ أن سألتني عن اسمي: الملقوط. كان اسمي تهمة في حد ذاته. واجهني

برجُلي الأمن اللذين ألقيا القبض علي. لم أكن أنوي المماطلة أو المرافعة، اعترفتُ - حينها - ونفيتُ الآن، أخبرني القاضي أن هذا الحجر يعود لمسجد سُرقت محتوياته منذ أسبوع ويوجد في إحدى القرى. إنه دليلٌ قوي على تورطي في السرقة. أكدت - معترفاً له - وجود اللصوص في مزرعة الخيس. أرسل في طلبهم، ولكن لم يكن هناك أحد، ولا حتى خُفي حُنين. يبدو أن اللصوص غيروا أماكنهم. اقترب الرجل الأوروبي الذي عرفتُ لاحقاً أنه خادم الحاكم ومستشاره، اقترب من الحجر، أطل النظر فيه، تحمسه وتلمسه، أخذ يشمه ويطرق عليه يمينه: يبدو أنه كتزٌ أثري قديم. من الأجدار أن يُعرض على آدم. لا بد أنه سيكشف الكثير من الأسرار عن حضارة دلمونيا وعن الديانات التي استوطنت هنا وصولاً للإسلام.

حكم القاضي علي بالحبس ثلاث سنوات مع النفاذ. يمكن نقض الحكم إذا ألقى القبض على أحد اللصوص الذين (زعمتُ) أنهم أعطوني الحجر. يقال إن مع العُسر يمرأ. صار الحكم بالسجن ثلاث سنوات مصدر خير وبركة بالنسبة لي؛ فمن يسافر لداخله يسعد. حصلتُ على المكان الذي يؤويني. أبات فيه غير مشرد ولا مُعرضٍ لحيوان ضالٍ أو شيطان آدمي. أستطيع في السجن الحصول على قوت يومي دون الخوف من انقطاعه. حمدتُ الله كثيراً. ألقى بي في السجن، وهناك سعدتُ - كثيراً - بالتعرف على شيخ السجن المحلية وعميدها... السيب يوسف.



(15) زوجة يوسف

مارس 1765

منذ اتهام زوجي بقتل ناصر واعتقاله فجرأ وترويح أطفالنا؛ أودع يوسف السجن قبل المحاكمة، تركوه عنوة لديهم، ثم البسوه بدقة ثوب جريمة، طال بنا الأمد، ولم نفقد الأمل بعد. أخذتُ صغاري الأربعة للعيش في البيت (العود)؛ كما تُسمى بيوت العائلات الكبيرة. انطلقتُ - حينها - لبيت العميد، أخبره عن تفاصيل الأزمة المُصطنعة، وحدثتُ عنده الرجولة كمعدنٍ ثمين وإن صهرته الحياة. أبدى مخاوفه وتعاطفه معنا، أكد أن الوقتَ كفيلاً بإيجاد الحلول لكل أزمة عالقة.

استحال عليّ العيش منفردة دون أسرة، الناس - هنا - تراقب بعضها حتى تصاب بالهَم، تختلق القصص وتحمك الحكايات. أصبحت عادة متأصلة لمزء الوقت وقتل الفراغ، يدفعون الإنسان للانتحار، والمتحرون هم الفاشلون في الحياة. ولدراء الألسن والفتن؛ انتقلت للعيش في بيت أهلي، هناك حيث نظام العائلة الممتدة. كل ولدٍ يتزوج فيني أسرته الجديدة داخل المبنى نفسه. مجموعة أسِرٍ وأجيال. منذ عدة شهور طويلة جداً لم نتطع زيارة يوسف، الأنباء المتضاربة لا تعطي دليلاً شافياً على مكان وجوده. هناك تفاوت بين الأخبار القادمة من سجن المحاكم وتلك الخاصة بحاشيته كالتاجر وسواه. أوشك الأطفال أن يعتادوا غيابه الذي قد يصل لدرجة الموت. كان لا بد من البحث عن مخرج لهذه الأزمة وقهر الخوف وتحريك المياه الراكدة تحت أرجل المحاكم. يقال إن أغلب الجبابرة كسور رجال لم يكن من حولهم رجال.

استطعتُ الوصول برفقة أحد إخوتي لرجالات القرية والمناطق المجاورة ولكن دون جدوى. قالوا إنني أبحث في السراب وإن أغلب الآمانيات سراب. الناس يعيشون حالة من الترقب والخوف الجماعي؛ تدفعهم للتفكير في مستقبل أسرهم والابتعاد عن مصادر اللهب. تراهم يمجدون مناسبات الحُزن؛ لأنَّ الحُزن الجماعي يجلب السعادة. الكل يتخوف من الدخول في موضوع سجن يوسف؛ ففي رأيهم أنَّ هناك قضايا مصيرية وجوهرية أكبر، مسألة الضرائب البحرية والزراعية وقضية محاولة الانقلاب على الحاكم، والتآمر مع قوى أجنبية. قضايا متفرقة تدفع الناس للابتعاد عن الشؤون الخاصة والتركيز حول المسائل المصيرية الكبرى وتجنب مكارهها والوقوع فيها. كنتُ أعرف أن أبا راشد سينزل قصارى جهده لإطلاق سبل يوسف. أخبروني أنه زار الحاكم في الفترة الأخيرة، ولكن تحولت القضية الجنائية - كما يُشاع - إلى قضية رأي وسياسة تمسُّ الأمن الوطني كما يزعمون.

قررتُ مع شقيقي الأكبر أن تتوجه للتاجر نفسه. إنه الرجل الأقوى في دلمونيا، لكنه يكره أن يُعلن ذلك على الملأ. إنه في الحقيقة المُدعي وهو صاحب القضية. قررتُ أن أتحدث إليه وأشكوله حال صفاري لعلَّ قلبه يرق لنا ويعفو عن يوسف ذلك المجرم البريء. كانت مواجته تحمل خطراً مزدوجاً، فهي من جانب، تحمل محاولة لمعرفة مصير يوسف وما آل إليه، ومن جانب آخر، مقاومة ومحاربة النزعة الشيطانية والدونية في صدره، فلا زلتُ أذكر نظراته الجنية الخائنة.

كان التاجر يسكن بلدة أبو جرجور الواقعة فوق رأس بري صخري في الساحل الجنوبي الشرقي قريباً من طبقة الميسورين. اتخذنا ذلك الطريق الصخري الضيق، معبر وحيد فقط يأخذك في اتجاه منزله، ذلك الحصن

الضارب لونه للبياض عندما تمطع عليه الشمس. نوعٌ من الفخر بالتمايز؛
فالأبيض مصدر الألوان والتميزُ بينها الأسود مقبرتها. في بداية الطريق
الطويل، أوقفنا الحراس يسألون عن وجهتنا:

- ماذا تريدون من وجودكم هنا؟

- سنزور التاجر.

- هل ينتظركم التاجر بناءً على موعدٍ سابق؟

- ليس لنا موعد سابق، ولكنه لقاءٌ ضروري جداً. نتمنى أن نلتقيه

لدقائق معدودة.

أمر رئيسهم أحد رجاله بمرافقتنا للمنزل الأبيض، أوقفنا عند المدخل
الثاني حراسٌ آخرون. غادرنا الرجل وذهب يتحدث معهم. ذلف أحدهم
للداخل وأغلق الباب الخشبي العملاق من خلفه. أمرنا الحراس - متجهماً
- بالجلوس بعيداً ريثما يعود الحارس. ما لبث أن عاد سريعاً. قام بتفتيش
أخي بدقة. سألتني إن كنتُ أحمل سلاحاً أبيض أو باروداً. أجبْتُ بالنفي
القاطع. العالم خارج الباب على النقيض لما في الداخل؛ طريق صخري
وعرٌّ، يقابل ممرأ عشياً زراعياً. النخيل الباسقة بأنواعها المختلفة متصبة
على جانبيه، المياه نقية جارية. أخذونا وربما اقتادونا لمجلس التاجر. أسدلتُ
العباءة على وجهي وأحكمتها، أخفيتُ ما ظهر منه وما بطن. لا زلتُ
أسترجع تلك النظرات القبيحة، صرتُ أعرف أن بعض الرجال يرون
المرأة، تعجبهم فيشتهونها.

وجدنا التاجر وقد اتخذ صدر مجلته مكاناً للزهو. كرسي مخملي عريض،
يقف على جانبيه رجلان، كلٌ واحد منها يحمل صقراً كبيراً. سيوف ورماح
لامعة عُلقَت خلفه. أشار لنا اشمزازاً وازدراءً بالوقوف بعيداً.

- لقد طلبتها زيارتي، تفضلاً. ماذا تريدان؟

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. ماذا بعد؟

- نبحت عن اليب يوسف.

- وما يدريني عنن تتحدثين أيتها المرأة؟ من يكون ذلك الـ(يوسف)؟

وماذا يمكنني أن أفعل؟

أخبرته أننا نمثل عائلة اليب يوسف، وأنه في السجن منذ ما يقرب من
الستين، ويحق لأسرته أن تزوره وتطمئن عليه. هناك أطفالٌ وزوجة بلا
عائلٍ لهم.

تساءل: لا أذكر أن لدينا سجيناً بهذه المواصفات؛ أيُّ يوسف هذا الذي

تحدثين عنه؟

قلت: ذلك المتهم بقتل ابنك ناصر في البحر.

أدرك الرجل أن لسان المرأة رمحها. امتعض وتقطبَ وجهه. ظهرت
الخطوطُ العرضية على جبينه، ثم وضع أصابع يده اليمنى على تلك
الخطوط. أخذ يمسح عليها ويباعدها عن بعضها، حتى عاد جبينه مستوياً.
قال:

- تذكرتُ الآن، ولكن؛ هل أنت زوجته أو إحدى أخواته؟

تذكرتُ بإحكام العباءة على وجهي.. وقلت:

- إنَّ زوجته ترفض لقاءك ومقابلتك، أنا شقيقته وهذا شقيقه أيضاً.

- تلك المرأة ترفض مقابلتي إذن. إنَّ يوسف مدانٌ بقتل ابني ناصر عن

قصد وتعمد، القصاصُ واضحٌ منذ تلك المحاكمة.

- لم تكن تلك المحكمة بأمر من الحاكم بل كانت محاكمة عرفية صورية.
- الخلاصة أن يوسفكم قتل ابني ناصر، وأن زوجته ترفض بغرورها
مقابلتي. لا صير في ذلك كله. أخبروها إذن بقراري هذا: سأعيد النظر في
أمر يوسف. أنتم تعرفون أن في جهنم طبقات عدة، كلها حارقة وأشدّها
حرقاً هي الهاوية. إني أعددكم أن أرمي يوسفكم في هذه الهاوية؛ حتى
تنطفئ النار التي في صدري.

وقفَ التاجر غضباناً. تلفظ بأروع الألفاظ شتماً، ثم أمر أربعة من
حراسه بربط أيدينا:

- أيها الحراس. أخرجوا يوسفهم من سجنه، وضعوه في السجن الأشد
ظلمة وقوة. اربطوه في سجن انفرادي، لا يرى فيه للنهار ضوءاً. لا
تُسقوه إلا بقدر ما يبدُ ظمأه، ولا تُطعموه إلا بحد ما يبقيه معذباً على قيد
الحياة.

قلتُ له: أيها التاجر، كن مشترياً في سوق المبادئ ولو لمرة واحدة.

أمر التاجر رجاله أن يضعونا في إحدى غرف مزرعته كتوقيف في سجن
مؤقت لحين الإنتهاء من شأن يوسف. بتنا ليلة رهية مفاجئة. عادوا بنا إلى
مجلسه ضحى. كان الرجلُ مزهواً بنفسه فوق طاقتها. رسم العُجب على
جناحيه فبدت الخيلاء عليه جليلة. كان مرحاً في مشيته كطاووس؛ وجدنا
سجينكم قد نُقل إلى أحد سجون الحاكم الرسمية، هناك وللأسف يتناول
ثلاث وجبات دسمة كل يوم. يُسمح له بالمشي في باحة السجن. يستحم
كل يوم ولكنه وقع في جريمة أخرى حرمته كل هذه المكتسبات التي تفضل
بها الحاكمُ عليه. تحول سجنه من انفرادي إلى جماعي، وهناك تعرف على
الملقوط، وقام بتدريبه وتجنيد لاغتيال الحاكم نفسه، وقلب نظام الحكم.

تأمر يطيح بدولة. لن يكون السجن المؤبد حكمه هذه المرة، بل سيكون إعداماً في ساحة المسجد الكبير بعد صلاة الجمعة.

لر يكن أسلوب التاجر مستكراً ولا مفزعاً؛ فلا تُضارُ الشاة بسلخها بعد ذبحها. لا نتبعُ أن يحولك الكثير من قصص الخيال، ولكنَّ الابتامة في وجه الظالم تهينه وترميه أرضاً. زبد وأرعد وأمر حراسه الغلاظ أن يرموا بنا خارج حصنه.

توجهتُ - مساءً - إلى بيت أبي راشد الذي كان في حديث مع آدم. الرجولة أن تستشعر المرأة الأمان في ظلك؛ هناك تشعر النفس بالطمأنينة في كنف شيخ مقعد. وجدني الرجلُ أوشكُ على البكاء والعيويل:
- ما خطبك؟

- زرنا التاجرَ نسالُ عن يوسف. لقد أضاف له تهمة التآمر لقلب نظام الحكم بالإضافة إلى تأكيد الحكم السابق بقتل ابنه ناصر. لقد نقلوه من سجنه إلى سجن التاجر البارحة، وقد توعد بذبحة انتقاماً.

- يا ابنتي.. لا يملأ جوف ابن آدم غير التراب. لا عليك، فمن جانبي زرتُ زوجك في أحد سجون المحاكم وهو بخير. سيوافق الحاكم - قريباً - على زيارتك له... إنه بعيدٌ عن يد التاجر الآن.

تحدث - بعدها - أبو راشد عن خططه الآنية. ذكر أن آدم كان ينوي أن يعث برسالة إلى المحاكم يخبره فيها عن المدافن الدولونية. سرفق تلك الرسالة بما قام به التاجر من مؤامرة جديدة، وسنحاول قدر المستطاع الوصول للمحاكم أولاً، ولكنني أتوقع أن سبقنا التاجر إليه بخبثه، ويخلق له قصة مؤامرة جديدة، ولكن لا عليك، لن نقصنا الحيلة وسنجد مخرجاً.



(16) آدم

أبريل 1765

ضمن برنامج العلاج المجتمعي بالحلب والقيم السامية الذي وضعناه وتبنيه معاً، أصبح أبو راشد قادراً على معاينة الضوء خلال الظلام؛ فالعقاب بالحلب أشد أنواع الابتلاء، كما أن البصيرة هي المنظار الأنجع لمقاومة وقهر القوى الشيطانية والظلامية في النفس. طرحتُ على أبي راشد أن أقوم بزيارة إلى الحاكم، وأن أحاول - جاهداً - في التقيب والبحث عن أقصر وأنجع السبل للوصول إلى قلبه، بينما اقترح من جانبه، وفي موازاة ذلك، أن يغتم الفرصة ويطلب زيارة السيد يوسف في سجنه. الفكرة صائبة راشدة، ولكنها محفوفة بالمخاطر؛ فربما يُزج بنا معاً خلف قضبان السجن ظلماً. كنا لا نأبه بالمخاطر، ولكن كنا نقب ناحية مصدر الضوء في قلب الحاكم. هناك - حتماً - جسٌ إنساني في قرارة نفسه، قد يتزاح ويتحنى أحياناً بسبب ما يُصبُّ في عقله من أنباء صحيحة وكاذبة. فالإنسان أياً كان موضعه؛ يعدّ وعاءً يَحْتَفِظُ بطعم ما يُملأ به. فهناك المتملقون والطبالون والمتفنون، كلُّ يمدُّ الحاكمَ بخبر أو رأي يتظر منه رشفةً ومصلحة. أصبحنا نخطط لزيارة الحاكم بعيداً عن معرفة التاجر وأعضاء المجلس العرفي في ديوانه. أحياناً تتقل وتزاح الحياة بفعل الأمكنة.

اتخذنا الطريق الصحراوية التي باتت معروفة لكلينا، وصلنا عبر أقصر الطرق بعيداً عن الأعين بقدر الممكن والمتاح، لقد كان استقبال الحاكم لنا أول مرة مليئاً بالترحيب والبشاشة، أما لقاءه هذا؛ فكانت ابتسامته صفراء مصطنعة، لا رائحة فيها ولا مذاق، كأنها ترعرعت وولدت من وراء قلبه.

أجلنا على يمينه. أقبل (الولد) كعادته يصب الشاي والقهوة العربية؛ تقليد يعكس روح الأصالة وجمال الضيافة. لم تكن النية لدينا للحديث معه حول القضايا الجوهرية التي انبثقت عنها أزمة ثقة بين مواليه ومعارضيه. لا نريد الحديث حول الضرائب المفروضة على الناس في الغيصة والزراعة والصيد وغيرها. إنّ الخطوة الأولى تدرج حول تحريك المياه الراكدة وإعادة الجانِب الإنساني والفطري في صدر الحاكم.

- سمو الحاكم. نعلم ولما يعرف العظمة بأنك والذُ الجميع، انكل يُقبل تحت رايتك حين تضيق بهم الدنيا. أنت الملاذ الآمن لهم؛ فالحاكم يحمل مسؤولية عملاقة على كتفيه؛ مسؤولية أمام نفسه وأمام الخلق وأمام الخالق. يتمنى الخير لكل شعبه؛ فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. هو الدور الأخلاقي والإنساني المنوط بسموكم. ندرك - جميعاً - أنك تطلب رضى ربك، ورضى شعبك ونفسك، حين تطبق القانون على الجميع يشعر الكل بالأمان والاستقرار.

انشرح صدرُ الحاكم فرحاً. ارتحنى في مخمّله، وأدار مباحه حول البّابة والوسطى. الكلمة الطيبة صدقة؛ بنى بها جسوراً متينة من المحبة... أجبنا بقوله:

- نأل الله تعالى أن نكون على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقنا خدمة لعامة الناس، وبها يرضي الله.

- يعرف سموكم، أنه من الحق الإنساني والديني للمسجين أن يتصل بالعالم الخارجي، وألا يُلقى به في غيابة الجُب محروماً من تلك الحقوق. من الضرورة أن يتواصل السجناء مع أسرهم ومجتمعهم حتى تنقضي عقوبتهم. لا شك أنّ سموكم أكثر دراية منا بذلك.

أبدى الحاكمُ امتعاضه، رفع حاجبيه حتى بانَّت خطوطُ جبهته المعتادة،
ثم تساءل:

- وهل يوجد في سجن دلويا من حُرِّم من هذا الحق؟

سؤال الحاكم فيه إشارة واضحة إلى الحس الطبيعي للبشر. حدثنا لا يزال في محله، فكما يجب على الناس ألا يستوحشوا ظلمة طريق الحق إذا قلَّ وندر سالكوه؛ فإنه يجب عليهم - أيضاً - ألا يضعوا أيَّ بشرٍ في خانة الشيطان وإنْ غلبت عليه الرذيلة وأخفت فضائله. الابتسامة والتواضع ولين الجانب عند الحديث يكرر الحديد في قلب المتلقي. معاناة الناس على هذه الجزيرة - في طريقة التعبير عن مطالبهم وإثارة الخطاب الرسمي - فعلٌ وفعلٌ مضاد؛ يربب أزمة حادة تجر خلفها أزمة ثقة. تلك المصيبة المفتعلة يترتب عليها الكثير من الخطوات غير المدروسة؛ حتى تتسع الهوة بين الجانبين؛ لتصبح جبلاً أملسَ يستحيل تسلقه. تحدثنا للحاكم حول رؤيته في حق اليب يوسف وإمكانية زيارة أسرته له وهو في سجنه، فأطال تنهداً، ثم أجاب:

- على الرغم من أن هذا الرجل شتمني، ودعا عليَّ بالموت وذنو الأجل، وكان - حسب حكم القاضي - مسؤولاً مباشراً عن مقتل ناصر ابن التاجر، إلا أنني لرا أمر - أبداً - بمنع الزيارة عنه، ولا التضييق عليه في سجنه.

لريكن من رجاحة العقل أن نتحدث عن براءة يوسف من دم ناصر. الأمة التي تريد أن تخرج من أزمتها؛ يجب ألا تغوص في الماضي؛ لأن القدرة على إفراغ الذاكرة تمنحك طاقة إيجابية هائلة. يجب أن تنسى الذاكرة السلية، ويجب أن تبحث عن أشعة الشمس في المستقبل الغائم. إن من يُجَلدُ

الذاكرة لا يشفى من مصائب الدهر ونكباته، فالإبحار للسلامة يكون فوق سطح الماء لا في أعماقه.

اغتنمنا الفرصة التي بدت مواتية. طلبنا من الحاكم أن يصدر قراراً يفضي بزيارة أسرة يوسف له بعد هذه الأشهر العجاف. ولكننا طلبنا - أيضاً - إمكانية زيارته اليوم. لم نكن نعرف أين يقع السجن المركزي. أمرَ الحاكمُ أحد حراسه أن يأخذنا لزيارة يوسف، ثم قال:

- أيها الرحالة. أريد معرفة تفاصيل ونتائج حفرياتك في مدافن دلونيا مساء اليوم. أريدها مدونة منك.

أبديتُ له صعوبة المهمة: لا يمكن ذلك اليوم يا سمو الحاكم؛ الطريق من المناطق الساحلية شمالاً وصولاً إلى قصركم في الجنوب بعيدة جداً، وتتفرق وقتاً وجهداً كبيرين. أمرُ يتصف بالاستحالة.

أشار الحاكم لأبي راشد وقال: بإمكان صديقك هذا أن يمدّ لك يد العون، ويرشدك إلى طريقة استخدام الحمام الزاجل؛ طريقة سهلة يسيرة ستوفر عليك الكثير.

أوماً أبو راشد موافقاً، فقلت للحاكم: خيراً، سيكون لموك ما طلبت. غادرنا مجلس الحاكم ونحن نستشعر حمن الظن منه. رافقنا أحد رجال الأمن الذين لا يتقنون العربية. سألت صديقي أبا راشد، بعد دقائق:

- أيُّ حمام زاجل هذا الذي يتحدث عنه الحاكم؟

- سيحين وقت الحديث عن ذلك الحمام. علينا الآن التوجه لقريبة (قرقرز) الواقعة في الشمال الشرقي لدلونيا. إنها تطل على ساحل الجزر الشرقية التي تشبه الكمرى في استدارتها.

استطعنا الوصول لقرقر بعد أن اتخذنا الطريق الشرقي للطعوس واتجهنا شمالاً؛ منطقة رملية مستوية. تحتوي على الكثير من الخرائب، تمسك بك الرهبة من نخيلها غير المثذبة. الناس لا يسكنون إلا أطرافها. هناك وفي قلب خرائب قرقر أقيم السجن / المنفى. لم يكن بإمكاننا اقتحام المنطقة مساءً. انتظرنا في ضيافة أحد المزارعين حتى صباح اليوم التالي. كان رجل الأمن وأحد الفلاحين دليلنا. غادرنا الفلاح حينما ظهرت معالم سور السجن المبني من السعف. تحدث مرافقنا للحرس هناك. أدخلونا المنطقة. لم يُسمح لنا بدخول السجن القابع على ما يبدو تحت الأرض. طلبوا منا الانتظار في معرش يطل على زريبة لتربية الدواجن. دلف الحارس إلى خلف غرفة علف البقر. سمعنا صرير بابٍ ثقيل. دقائق معدودة، وعاد الحارس، وجلس إلى جوارنا على جذع نخلة اتخذناه كرسيًا.

أقبل رجلٌ قوي البنية معتدل الطول أبيض البشرة، وهو يسند رَجُلًا خائر القوى، متهالك الجسد، يكاد يكون هيكلاً عظمياً. غطت التجاعيد وجنتيه وجبينه، وصار فكه الأصفر بارزاً. وقف أبو راشد على رجليه سريعاً، وجرى نحوهما وهو يهتف: يوسف. يوسف. ضمه إلى صدره وأخذ يقبل رأسه. لم تتوان الدموع عن السقوط من عينيها. استلم أبو راشد ذلك الهيكل الذي عرفت أنه السيب يوسف. أخذه إلى جانبه على جذع النخلة. عرفنا بعض. أبديتُ ترحيباً كبيراً وحرناً لما آل إليه الرجل. استعرتُ - ضمناً - رغبتهما في البقاء منفردين. سحبتُ الشاب المرافق من يديه، إلى حيث جدار حظيرة البقر. سألته عن سبب وجوده في السجن؛ فكان شفافاً؛ فالصدقُ روح الحب. أخبرني عن سجنه، وعن قصة الحجر الأثري الذي وقع في طريقه. الحوادث الطارئة تغير مجرى حياة الإنسان، أما ما يختاره قصداً فيبقى قليل التأثير... سألتُه:

- ما الذي أخذك لمزرعة (الخبس) أصلاً؟ لماذا انسحبت من المجتمع وآثرت الانزواء؟ أليس الغبي هو من يكره بابه؟

- يقول كل من القاه إنني لقيط، لا أصل يُعرف لي ولا فصل، يُحرم عليّ دخول الماجد شرعاً، ووجودي في أي عمل يضر صاحب العمل، ويمنع الخير والبركة أن تحمل به. هذا ما أخبروني به حينما كنتُ في المسجد الكبير، وعاملاً في إحدى المزارع. لم أقبل بالعمل في البحر خوفاً على صيدهم وسلامتهم. آثرتُ الانسحاب، وها أنا في السجن، وهو المكان الذي لم أختاره، ولكنه أفضل شيء ممكن أن يحدث لي، ففيه ملاذي وغذائي. أنام هائناً شعباً، أمأنتس بالحديث مع يوسف.

- وأين الحجر الأثري الآن؟

- احتجزته شرطة الحاكم.

بعدهما خرجت وأبو راشد عائدتين للقرية، تطاولت الآمال والمهام على جدول أعمالنا حتى صار مضموطاً. لا بد من حل مشكلة يوسف وما سينبثق عنه من انفراج سياسي بوصفه سجين رأي لا جنائية؛ فكما يقول أبو راشد إن الله لا يجاسبنا على آرائنا بل على أفعالنا. ثم علينا فتحصُّ الحجر الأثري، وبت الحياة من جديد في روح الملقوط ثم المسحور، والبحث في معضلة التاجر والقاضي والنوخذة وصولاً للحاكم نفسه. مهام إنسانية تمهد لحياة سعيدة، إن البقاء في القصور العاجية بعيداً عن الناس لا يبعث على الحياة، وإن رسم ابتسامة على وجه من حُرِّم منها هي السعادة المطلقة.

تحدثتُ لأبي راشد عن الحالة المزرية لذلك اللقيط. يقول إن الناس تصفه بأبن الزنا، وتشتهم بأبن الحرام. أدركُ وأنا على ثقة ويقين أن الإسلام - وكما أغلب الأديان - يحث على الحب والتواد، يرى القيم الإنسانية

منهجاً يفرز المعادة والترابط بين أفرادها، ولكنني لا أعرف بعد، كيف ينظر بعينه الدينية لذلك اللقيط أو ابن الزنا؟

أوضحتُ إلى أبي راشد بعضاً مما جاء في الكتاب المقدس: "أيها الرب الأب، يا إله حياتي، لا تتركني ومشورة شفتي، لا تدعني أطمح بعيني، والهوى اصرفه عني، لا تملكني شهوة البطن ولا الزنى، ولا تُكَلِّمَنِي إلى نفس وقحة"^(١)، ثم أردفته بنصٍ آخر: "الذي يُخَالِطُ الزواني يزداد وقاحة، السوس والدود يرثانه، والنفس الوقحة تُتَأَصَّلُ"^(٢). إن الكتاب المقدس واضح في نبد الزنا.

من جانبه، أوضح أبو راشد آية قرآنية فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). إن هذه الآية واضحة المعالم على عقوبة الزناة. لقد حدّد الدينُ نظام العلاقات الجنسية حتى يؤمّن نوازع الغريزة ويُلبي حاجاتها. لقد وضعها وفرضها في نظام شديد الحساسية يُعرف بالأسرة؛ فالخلل حين حدوثه يمس السيادة الأسرية والاجتماعية. وجاء العقاب على قدر الجريمة. أمّا العقاب في ذاته فإنه لا يتعدى الوالدين ليصل للمولود. ذلك شرع السماء، ثم جاءت التفاصيل من خلال السنة النبوية موضحة؛ فإن كان الزاني محصناً فإن عقابه الرجم حتى الموت، وعليه يُلاحظ أنه لا تختلف الدياناتُ في كراهة الزنا، ولكنها تختلف في الحدود المترتبة عليه. يقع الإشكال - هنا - حول الذنب والوزر

1 - سفر يشوع بن سيراخ 23: 6.

2 - سفر يشوع بن سيراخ 3: 19.

3 - النمل: 2.

الذي يُقذفُ به ابنُ الخطيئة الذي سقط إلى الدنيا عبر قنواتٍ غير شرعية. فهل يُوصمُ بالخبث، ويحمل إزر والديه وخطاياهم؟ علماً بأن الإسلام يقر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. هنا جاء التفصيل حول حقوق ابن الزنا؛ فلا يحق له أن يرث من أحد والديه؛ لأن الورث يعني إثباتاً للبنوة التي لا تميز - بدورها - زواج ابن الزنا من أمه، كما لا تجوز الصلاة خلفه، ولا تقبل شهادته، ولكنه وفي مقابل ذلك كله، له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات في المجتمع. لا يُمكن أن يُحرم من حقه في العمل والعبادة والزواج وغيرها، كما أنّ عليه حقوقاً تتمثل في الحفاظ على قيم المجتمع، والدفاع عنه، وغير ذلك الكثير، الكثير.

ينبغي علينا، ومن واجب أخلاقي أن نزرع تلك المعارف والقيم في المجتمع. إنّ اللقيط وإن كان ابن زنا، لا يحق لأحد أن ينفه من بيته ووسطه، حينها؛ قد يتحول ذلك الشخص من أداة مفيدة نافعة إلى آفة مضرّة مدمرة للمجتمع. غالباً لا يعارض الدين ما ترتضيه الفطرة السليمة. إنّ أهم مكان يُعاد فيه لذلك الفتى اعتباره ينطلق من أكثر الأماكن قدسية لدى الشارع العام كالمسجد، ثم تُؤطر تلك الحقوق بصيغة قانونية يصادق عليها الحاكم.

اقترحتُ على أبي راشد أن ينطلق إلى إمام جمعة مسجد دلمونيا. وجدتُ الفكرة قد استقرت في عقله قبل أن أكملها. كيف يمكن للإمام أن يرسخ خطبة جمعة ما حول حقوق اللقيط وابن الشبهة وابن الزنا؟ قال إنه سيكون من الأجدر أن يصبح ذلك الشاب حاضراً إبان الخطبة، حينها فقط يمكن أن يصفي ب كله لها مباشرة. استدركتُ أنّ ذلك يتطلب لقاءً جديداً مع الحاكم ليفرج عنه، ويفكّ قيد أسره. تساءلت مع أبي راشد:

- هل نتحرك باتجاه الإمام أولاً أم باتجاه الحاكم؟
- الحاكم ذاته يحتاج أن يستمع للإمام ليذكر أن قراره شرعي، قبل أن يطلق سراح الملقوط.
- والشاب المعروف باسم الملقوط، يحتاج أن يستمع للخطبة أيضاً حتى تُشَقِّلَبَ حياته.

- إننا ندور في حلقة مفرغة لا نعرف أين بدايتها.

طلبت منه ألا يقلق. النية الحسنة تجدد إشارات خيرة تحركها. إن صفاء النية يولد طاقة خفية قادرة على أن تحمل الغموض وتفرش الأرض الوعرة وروداً. عليك أن تحمل الأمل بداخلك يا صديقي، وهناك من يتكفل بفتح الأبواب لك وتيسير الأمور.

انتهى الأمر فيما يخص صديقي؛ فغادر إلى داره وأسرته لكنني أصبحت في هاجس آخر؛ هاجس الحجر الأثري، ربما يكون امتداداً آخر للحفريات الدلمونية التي قمتُ بها مؤخراً. أظنها إشارة أخرى استدلتني على أمر غامض، يحل الأحجية الدلمونية.



(17) آدم

مايو 1765

بناءً على الرغبة الجامحة للحاكم في معرفة خلاصة زيارتي وتجاربي لمداخن دلمونيا؛ فإنه أوصى أبا راشد أن يُعرفني على أبراج الحمام الزاجل المشهورة والمتشرة فوق الجزيرة. أوصاه بصيغة أقرب للأمر، فمن خلال هذه الوسيلة أمتطع أن أتواصل معه وأراسله عبر البريد الطائر، أخبرنا في لقائنا الأخير وبصورة لابس فيها:

- أريدك أن تأخذ آدم لأقرب برج حمام. أتمنى أن أتعرف عن قرب وبدقة على نتائج زيارة آدم لتلك المدافن التاريخية.

كانت التوصية واضحة. قمتُ - إثر ذلك - بجمع تفاصيل عامة، ورسومات تفصيلية للمدفن الذي وقع عليه الاختيار بالمصادفة. أوضحت في الرسالة الأولى الموقع العام للطعوس، وموضع ذلك المدفن فيها، ثم أوضحت - بجلاء - طريقة وآلية الفحص والحفر والتنقيب. وذكرت بعض أنواع المقتنيات التي كانت في الداخل، ولكنني امتنعتُ - عمداً - أن أوضح وأذكر ما قمتُ به من طقوس جنازية ومحاكاة داخل المدفن، وكذلك الحوار الطيفي مع ما يشبه الأرواح هناك.

توجهتُ وأبو راشد إلى المنطقة القريبة غرباً من بلدة بربورة⁽¹⁾. ذهبنا للبرج الطيفي المبني على أطرافها في منطقة صخرية جافة ومرتفعة نسبياً. هناك حيث تكثر أقباص الطيور ويتميز ما بينها الحمام الزاجل ببهائه وصفائه؛ ذلك النوع الذي يعدّ الأسرع والأكثر دقة للتواصل البريدي بين

1 - تُسمى المنطقة حالياً بهورة سند.

الحاكم وبين مناطق بلاده والأقطار الأخرى. وعلى الرغم من اختلاف سلالاته فإن الحمام الزاجل يمتاز بحبه الشديد وتثبته بتراب وطنه، وتزداد سطوة تلك الغريزة الفطرية إذا خلف وراءه صفاراً؛ حينها تتضاعف سرعته في طريق العودة للديار. قيل لنا إنه يستخدم مواقع الشمس لتحديد الاتجاهات، وقيل إن لديه حاسة شم تمكنه من معرفة تراب موطنه، كأن الحمام يحمل شيئاً من نكهة وطنه في أعماق جسده، يحنُّ بالألفة إليه؛ فمهما غير الحمام، والإنسان - أيضاً - وطنه إلا أن انتباهه يبقى معلقاً بتراب مسقط رأسه، والذي يعدُّ هوية روحية وليس ورقة فقط. ذلك التراب الذي يتمنى أن يتوسده بعد وفاته وأن يحتضن رفاته بعد مماته.

ولأن الوقت أصبح مناسباً لفتح باب المطالب والحاجات؛ فقد ذيلتُ الرسالة بطلب صغير في هذه المناسبة. أبديتُ الحاجة الملحة للملقوط حتى يساعدي ويدلني على موضع سرقة ذلك الحجر الأثري ومكان تخزينه، وأوضحتُ حاجتي الماسة إليه لحمله أيضاً؛ فالملقوط شابٌ قوي البنية قادر على إنجاز الكثير من الأعمال الشاقة. لريتوان الحاكم عن الرد والتعليق. جاء ردهُ بالموافقة سريعاً ومتوقفاً؛ إذ أخبرني برغبته في الزيارة القريبة لقصره يوم الأربعاء اللاحق.

توجهتُ على عجل لقصر الحاكم تنفيذاً لأوامره. أرسل رجاله في طلب الحجر التاريخي. لم تنقض غير ساعة واحدة حتى وضعوه بعناية بين يديه. كان - حينها - الخادم حاضراً، وأبدى تسجيل حضوره ورغبته في الحديث أولاً:

- إنني أول من أوعز لسمو الحاكم على الضرورة العلمية لكي تعاین هذا الحجر بنفسك؛ فقد توقعتُ أن هناك الكثير من الأسرار التي يحملها على ظهره.

أخبرته - وبعيداً عن إظهار الامتنان له - أن كل ما يخص العلامات على ظهر الحجر هي من صُلب عملي واختصاصي، وأني الأقدر على تقييم الفائدة المرجّحة من ذلك. لم أطل الحديث معه؛ فقطعتُ عليه تداعياته. أبديتُ لهم بعض المشاغل الملحة والتي لا حاجة لي في الخوض في غمارها الآن، وبذلك قطعْتُ عليه حبله وترفعتُ عن الحديث معه.

جاؤوا بالحجر ووضعوه وسط ديوان قصر الحاكم؛ ذلك الحجر الذي يبلغ طوله متراً تقريباً. نُقشَ عليه حفرٌ فيما يشبه الوصية باللغة العربية؛ إنه قام أحدهم بوضع الماء البارد قضاءً وقفاً للمصلين في مساجد المنطقة⁽¹⁾؛ على أن يقرأوا الفاتحة وشيئاً من القرآن لروح والديه.

كانت عند الحاكم رغبة صادقة في حفظ تاريخ بلاده وترسيخ هويتها العربية. يحاول أن يُدوّن حضارتها ويخرجها في أحلى صورة. لقد آثر أن يبذل جهوداً مضية ومخلصةً لذلك الهدف السامي. خلال ذلك كله، كنتُ أثق أن الحظّ لا يأتي إلا بغتة. عمّدتُ إلى تذكيره بضرورة زيارة الملقوط في سجنه، والحصول على مساعدته خارج السجن ولو لفترة وجيزة:

- سمّو الحاكم، أريد لقاء الملقوط في سجنه. أرغبُ في الحصول على بعض المعلومات عن المنطقة التي عُثر فيها على الحجر الأثري، ومعرفة إن كانت هناك صخورٌ وآثار أخرى يمكن الاستفادة منها لتدوين حضارة دلونيا.

- سأأخذك الحارسُ إلى سجن الملقوط. سيُفرج عنه إلى أجل محدد؛ شرط أن تضمن عودته مساء الجمعة القادمة؛ حيث سأكون في مسجد دلونيا لصلاة الجمعة. أتمنى أن يعود الملقوط لسجنه ريثما أعود لقصري. يمكن أن يكون أحد حراس القصر مرافقاً لك.

1 - كان يُستخدم لفظ ديوان بدلاً من لفظ منطقة.

أبدت موافقة على عجل، فجاء الحارس بالملقوط سريعاً، وكأنه كان يتوقع الأمر برمه. وقف منحياً شبه ذليل أمام الحاكم.

سأله: كيف وجدت زميلك يوسف؟

أجابه: إنه إنسان هاديء. حسن المعشر، ولكنّ حالته الصحية متدهورة، وقد تودي بحياته. حالته الصحية لا تبشر بالخير.

قلتُ: ولكن مشاعركم -- يا سمو الحاكم - واضحة أمام الرعية. إنها تبدي مدى المسؤولية والحس الوطني الذي يشهد له الجميع.

أردف الملقوط: نعم، فكما أخرجت يوسف من سجنه منذ يومين، ونقلته لسجن أكثر راحة ونظافة، ها أنت تسمح لي بالخروج مؤقتاً من السجن. الشكر بحجم السماء لله ولموكم.

انتفض الحاكم من مجلده ووقف مذهولاً: أنا لم أسمح ليوسف أن يغادر سجنه، لم تنقض مدة حكمه بعد.

تدخل الخادم وهو يصفي بخبثٍ للحديث المتوتر في ديوان الملك. أدركتُ أن الحيانة تبدأ بفكرة حين قال: لا بد أن الأجير يوسف قد أُجبر على الفرار. لا يمكن له وحده أن يسير مستوياً، فكيف له ان يفتح أبواب السجن، ويكر أبقالها، ويتلق الجدران ثم يهرب؟ لقد قلتُ ذلك مراراً. ليس يوسف إلا أداة تستخدمها الفئة المعارضة للضغط على النظام القائم. لا شك أنه يمثلهم من داخل السجن، ولا أستبعد أن يكون الملقوطُ هذا إلا أجيراً مثله، دُفع به لداخل السجن حتى يتمكن من تهريبه. ما كان يفترض أن ينقل من سجنه الانفرادي أبداً. إنه قاتل ومجرم خطير.

وجد كلامُ الخادم صده في صدر الحاكم. ترتج للخلف أربع خطوات. تحسّ كرسي الحكم من خلفه. اطمأن له فارتمى فيه. صرخ في عسه بصوت غليظ كالرعد:

- أعيّدوا الملقوط لسجنه في الحال، وأريد معرفة من أمر بنقل يوسف إلى سجنٍ آخر. هُبُوا في البحث عنه. لن تنقضي صلاة الجمعة القادمة إلا والاثنان ماثلان أمامي هنا.

آثرتُ - فعلاً - الانزواء والتلّيم لقرار الحاكم المفاجئ. كنتُ أظن أنني طرقتُ جانب الضوء في قلبه، ومعهُ ستسهل الأمور، ولكن وكما يُقال: لو اطّلع الناس على قلوب بعضهم؛ لما تصافحوا إلا بالسيف. إنها العودة للحقيقة الصادمة؛ فالإنسان لا يُسير نفسه مطلقاً. هو مزيج تلتقي فيه المشيطات والمحفّزات. لا تناقش شخصاً اعتراه مسُّ الغضب؛ فالتداعيات حينها تكون قاتلة.

أُعيد الملقوط لسجنه. ابتسمت عينا الخادم وهو يحرك رأسه مدندناً تعبيراً عن انتصار جولة. قام الحارس الموكل بمساعدتي بحمل الحجر على حماره. غادرنا مجلس الحاكم، ونحن نعاين حالة الاستنفار القسوي للبحث عن العميل المجرم يوسف... هكذا أضحي الرجل.

توجهتُ لمجلس أبي راشد عصرأ. استقبلني الرجلُ كعادته مرحباً مبسماً بهي الوجه. قيل إن البهاء نصف أمنية والآخر عزيمة. أفرد مجلّسه لثلاثة زائرين: الحجر، والحارس، وأنا. قرأ الضجّر والضيّق على ملاحمي. لم أعد في حاجة إلى أن أخبره عن مشاعري كلما جدّ أمرٌ ما. أسترسل في التفاصيل. لريعتني سعة من الأمر كي أنطلق فيها. أخبرني أن هناك شخصاً ما يتظرني داخل البيت مع خولة. يترقب عودتي على وجل، قلتُ:

- هل زوجة يوسف تتظرني في الداخل؟

- نعم.

أزددتُ يقيناً أن اليد التي تعني للخير تجد من يأخذ بناصيتها ويُسهل دربها. حينها يجتمع الرضا عن النفس وحب الخير فتولد العادة. بيدنا أن

نحلق فرحاً، بعزيمتنا نكون أطيافاً شفافة لا تقف عند أخطاء الآخرين؛ فنصنع تلال عقبات نعجز عن تسلقها. إن من يملك روحاً طاهرة يمكنه أن يُفسر أن زلات الآخرين هي عملٌ سيءٌ لفكرة ونية حسنة، عندها نتجاوز عمّن أخطأ، ونقذف الخير في قلبه قذفاً.

أقبلت خولة إلى المجلسِ قمرية الوجه تعكس نقاء سريرتها. كانت تقود خلفها امرأة يوسف. تمسكها من معصم يدها اليسرى. بدت المرأة الأربعينية عجوزاً وقد تنحنى جمالها مرغماً. أنهكتها السنون الطوال بالأمها. تجاعيدٌ طولية تغطي قسبات وجهها البيضاوي. برز فكها العلوي نتيجة لشحوبها. صار ظهرها مقوساً. نحافة حولتها لما يشبه الفزاعة. ألقت خولة تحيتها، فتقبلتها الأنفُس جميعاً:

- هذه زوجة يوسف. تمنى ألا يتطابق سجنه مع سجن النبي يوسف، فلا يبقى بعيداً عن أهله أربعين سنة. جاء بها الأمل تبحثُ عن زوجها. وجدتك في زيارة للحاكم؛ فانتظرت ليلتها مستيقظة. لم تغمض لها عين حزناً على بعده، وألماً على فراق ابنائها، تمنى أن تجد أبناء سعيدة لديك كي تعيد لهم الحياة.

تحدثت المرأة في حديث مشوش. خرجت كلماتها متضاربة تعبر عن أفكار متباعدة خائفة: يوسف مريض. زرتُ التاجر. الحاكم أين. أطفالٌ أربعة، هل...

وجدتُ من كلماتها المقاطعة ما ترمي إليه؛ أنتِ تسألين عن حال زوجك يوسف الذي تشعرين بمرضه، وهذا يزيد قلقك على أطفالكم، لكن ورد اسم التاجر..

- نعم. زرتُ التاجر منذ يومين، أسأله الرحمة بأسرتنا، فاشتد غيظاً وتوعدنا شراً. قال إنه سيغلظ السجن على يوسف، وسينكل به كيفما أراد

واستطاع. قال إن لديه الأدلة القاطعة على أنه قاتل ناصر، وأنه يتآمر لقلب نظام الحكم.

على الرغم من قوة الأخبار التي جاءت على لسان زوجها فلما نتي استبشرت خيراً. توجهت صوب أبي راشد: ألم أقل لك إن الجمال يقوم نفسه، وأن الظلام يستشرف الضوء، وأن الخير ذاته يسدد خطاه؟ هذه أحجية اختفاء يوسف تفك طلاسمها. لقد جئت اليوم من قصر الحاكم بناءً على زيارة مرتب لها سلفاً، وكان من المقرر أن ألتقي يوسف في سجنه للاطمئنان عليه، ثم أطلب أن ترتب زيارات أسرية له. كانت المصيبة كبيرة عندما اكتشفنا أن يوسف قد غادر سجنه دون معرفة الحاكم.

- هذا يوضح الحقيقة الغامضة في أن هناك أيادي خفية تعمل تحت مظلة الحاكم، وأنها تستخدم ثقته بها لتصرف من تلقاء نفسها، وتتحين الفرص لتحقيق مآربها ومصالحها الذاتية.

- إن صح ما تقول؛ فإنها أم المصائب. الدولة مثل سفينة في عرض البحر. لا يمكن لربانين أو أكثر أن يبحرا بها؛ سيكون الأمر مفاجئاً إذا كان هناك من يستخدم نفوذه بغير علم الحاكم.

أبدت خولة رأيها بوضوح:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم
المسؤولية واقعة على الحاكم أولاً وأخيراً. يزرُ وزرّه ووزرَ سواه؛ فبطانة الحاكم عليه، ينسب له نجاحها ويحجب عليه فشلها.

أخبرتهم أن التاجر متهم باختطاف يوسف من سجنه، وأن الحرس والشرطة يعملون ليل نهار على معرفة مكانه. لا تقلقوا فيوسف تحفظه

العين الساهرة. علينا الآن أن نعد العدة لخطبة صلاة الجمعة القادمة. إنها منعطف طرق للحياة القادمة. أبدت خولة رأيها:

- إذا كانت الخطوات القادمة مربوطة بالدين فإن لها تبعات عاصمة أو قاصمة. للدين وزنٌ في قلب الإنسان، حتى من لا دين له يتضرع لإله مجهله حين تعصف به الأزمات.

أبدى أبو راشد حماسة شديدة للتوجه إلى إمام الجمعة ومناشدته ضرورة توضيح الفكرة العامة للقيط وابن الشبهة وابن الزنا؛ ما هي حقوقهم؟ وما هي واجباتهم المجتمعية؟ يجب إقناع الإمام بضرورة طرح هذا الموضوع في خطبة الجمعة. إنها مهمة غاية في الصعوبة. استمعت خولة وأردفت:

- العزم على فعل الخير يسهل المهمات، ويفك العضلات قبل الشروع فيها. بالعزم نمر بالإنسان الذي من العار أن يُقدر بثمن.

توجهنا للإمام في مزرعته بعد صلاة العشاءين. استقبلنا برحابة صدر ووجه مبتسم. طالعٌ حنٌّ وإشارةٌ خير. أخذنا إلى مجلسه. لم يسأل عن طبيعة الموضوع المراد مناقشته. كان يعرف أن في الزيارة أمراً. من الكياسة أن تدع ضيفك يفضي بما يريد وكيفما يشاء. شعرتُ حينها بضرورة مغادرة المجلس، والانتظار في الخارج منعاً للخرج. ناظرني أبو راشد بطرف عينه واستلم هو المهمة.

انتظرتُ خارج المجلس وأنا أتقل بين أشجار النخيل، وأستمع إلى أصوات الحشرات والحوانات التي ما إن تشعر بحركة إلا وتصمت في خشوع. إشارةٌ أخرى إلى أنه ليس بالضرورة لكل فعل ردة فعل مضادة؛ فبعض الأعمال تتلاشى لأنه ليس لها فعلٌ مضاد. هل يجب أن يتحدث الخطيبُ يوم الجمعة حول الملقوط؟

خرج أبو راشد مُعادِلاً بين مشاعره وتعابير وجهه. صعب الأمر عليه. عليّ أن أستشف ما تمخض عنه اللقاء. كان صامتاً حدّاً أن يُنطقَ الحشرات والحيوانات. كدتُ أسأله، ولكنني تذكرتُ أن بعض الأعمال تختفي تحت سحر الصمت. سرنا نحو بيته، لا نسمع غير صوت خطواتنا. كنا لا ننظر لبعضنا فهناك أمرٌ قادم.

كان الوقتُ يسير سريعاً حتى اقتربنا من منتصف الليل. راودتني فكرة فجأةً. ارتديتُ معطفي. أو ما أبو راشد كعادته لخطوة لم أخبره عنها، فقال:
- من الضرورة أن يُفرج عن الملقوط ولو ليوم واحد فقط. توجهتُ ناحية أقرب برج للحمام الزاجل. هناك كتبتُ رسالة لعلها تصل إلى قصر الحاكم:

سمو الحاكم... يوسف في سجن التاجر، وأنا في حاجة ملحة للملقوط، ليوم واحد فقط. سأكون ممتناً ما حيت. آدم.



(18) خولة

مايو 1765

أقبل أبو راشد يبحث عني منادياً بصوت لتيّ حنون: خولة، خولة.
كنتُ إبان ذلك في مساعدة معتادة لأمي في مطبخها، أقبل فاتحاً ذراعيه،
وألقي التحية؛ وقفنا تقديراً له ول مقدمه. أمسكني من معصمي قائلاً لأمي:
أريدُ خولة في حديثٍ خاص. قرأتُ رضئَ وابتسامه في وجه أمي. طلب أن
أرتدي وشاحي، وأن أرافقه في الطريق إلى الشاطئ. بعد المرور بين الزقاق،
اتخذنا الطريق المرافق للنهر الصغير المُسمى بالـ(تَاب). سرنا على إحدى
ضفتيه؛ ذلك النهر يفيض بخيره وكرمه في البحر. لم تكن أشعة الشمس
حارقة؛ لذلك آثرنا الابتعاد عن ظل النخيل والأشجار. صرنا نسير على
الرمال الناعمة بمحاذاة الماء الجاري. كان يتحدث عن الأمور العامة التي
تحياها دلمونيا، لكنني كنتُ أترقب ما وراء ذلك.

وصلنا إلى البحر فاتخذ أبي الجانب الأيسر من الساحل ناحية الجنوب.
اقتربنا من أحد قوارب الصيد الجائمة على المياه الضحلة والمثبت بالمرساة
خشية فراره. اتجهنا إلى القارب الخشبي المتهالك، وأعانني أبي على الجلوس
فوق ظهره. ركب من الجانب الآخر، وجلس مواجهاً لي.

- خولة يا ابنتي.

أوماتُ للقادم من حديثه مصغية...

- القاربُ يا خولة يشبه الإنسان في دورة حياته الطبيعية، إنه يُصنع فوق
اليابسة، وهو ما يشبه حضن الأم، ومتى ما اكتمل بناؤه بعناية، وصار قادراً

على التفاعل مع الحياة، ومقاومة أمواجها وعدم الغرق فيها؛ يلقي به في البحر. الإنسان في دورة حياته لا يختلف كثيراً عن القارب؛ تكوّنهُ الأسرة على اليابسة، وفوق أرضٍ صلبة، ومتى ما اشتد عوده واكتملت بيته؛ ألقى به في بحر الحياة. الإنسان يُفطم مرتين؛ تفضمه أمه عن الرضاعة، ثم يفضمه أبوه بعد بضع سنين.

- كيف يفطمُ الأبُ ابنه يا أبي؟

- يفضمه حين يُلقى به في البحر الرَّحْب، في خضم الحياة ليعتمد على نفسه.

- أبي هل تريد أن تُلقيني في بحر الحياة. أن تفضمني... أن تُزوجني مثلاً؟

- يا لحدسكِ الفطري! هي سنة الحياة يا بتي.

تحدث أبو راشد بعد ذلك حول تجربته الحياتية، وكيف هيأه العميدُ للخوض في حرب الحياة؛ تلك التهيئة الطويلة الأمد، المتأنية العاقلة؛ فعلى قدر سلامة التنشئة تطر الحياة أقدارها على الأبناء. صرْتُ أنظر إلى قاع القارب خجلاً. وضع يده تحت ذقني، ورفع رأسي، وطلب أن أنظر للبحر الفضاء، للمستقبل وللحياة. صرْتُ أرغب بشدة في معرفة الرجل الذي أفتعتُ والدي أركانُ شخصيته ومقوماته.

قال: إنه ليس التاجر بالطبع.

قلتُ:....؟

أجاب: إنه الرحالة الشاب آدم.

أشحتُ عن النظر لوجه أبي راشد، توجّهتُ ناحية الأفق الذي أصبح قريباً على غير عاداته. وجدتُ الخطَّ الفاصل بين البحر والسماء على مرمى

حجر. تذكرت تلك الواقعة البغيضة. مسح والدي براحة يده على رأسي وهو يقول:

- تريثي في اتخاذ قرار حياتي حاسم. القرار يعينك أنتِ أولاً. أنا وأمسك نعينك عليه ونوضح بخبرتنا بعض الأمور التي قد تغيب عنك. لم يطل الحديث أكثر من ذلك، فعدنا سريعاً. اتخذنا الطريق نفسها التي مشينا عليها من قبل، أصبحت قصيراً جداً. ما هي إلا لحظات، حتى وصلنا الباب الدار:

- بيتي. خذي متعاً من الوقت، سأصغي لك حين تطلين.

طلبتُ منه - استذناً - أن ألتقي آدم في حوارٍ قصير، حوارٍ لا يشبه سابقه، لم يكن ذلك من عادات وأعراف دلمونيا، ولكنني أريد معرفة مشاعره وبعض الأمور الدقيقة. وافق أبي أن أزوره في مجلسه مساء اليوم التالي بعيداً عن مهمة العلاج. اختلف طعم الحياة برمته منذ تلك اللحظة الفارقة، بدأت أجدها مختلفة حقاً. كآني كبرتُ عقدين من الزمن، ازداد صمتي واعتكافي؛ فما زادني الأمرُ إلا حيرةً وذهولاً. تحدثتُ معي أمي حول الموضوع نفسه؛ فكررتُ رغبتي لها في لقاء آدم. ذهبتُ ناحية المجلس، طرقتُ الباب؛ فجاءني الردُّ بعد برهة:

- من؟

- خولة.

تأخر الردُّ لحظات، حسبتُ أنه يعدل في جلسته وهيئته قبل أن يسمح لي بالدخول، كنتُ أظنه سيقف مستقبلاً، لكنه ظلَّ في زاوية المجلس غارقاً في أفكاره قبل أن يرفع عينه، دعاني للجلوس على يمينه، ثم واصل استغراقه فيها يفكر، وقال:

- كنتُ أنوي أن أقضي بعض الليالي مختلياً بنفسي، ولكنتي لا أعرف أين أجد ضالتي.

- أقترحُ أن تذهب لأحد البساتين البعيدة، بضع ساعات وربما ليالٍ، وستجدُ ما ترمي إليه. إن عين الحب تُجمل المخلوقات.

كنتُ أعرف أنه لا يزال يبحث عن نفسه، يطمح في أن يتحرر من قيوده، إن من يتشعر جمال الطبيعة وإبداعاتها لا تخضع إنسانيته لتقاليد موقعه، لا تستطيع ذاته أن تسجنه أبداً. عندما يستعيد الواقعة الشيطانية بيننا؛ أجد فيه إصراراً كبيراً على التعافي من تلك اللحظة البائسة، من ذلك المشهد الأسود. أجد أنه خَلَقَ في داخله إنساناً مختلفاً؛ فالبداع هو الذي لا يتجمد في أمثاله، بل يتخلص منها الفرح والجانب المشرق.

قلتُ: ولماذا تُريد أن تختلي بنفسك؟ هل أنت عاشقٌ مثلاً؟

قال دون أن ينظر ناحيتي: الحبُّ الصوابُ - يا خولة - يمثل حيوية الإنسان المتجدد، يفتح إنانيتك ويخاطب عقلك قبل قلبك، يتمثل في الصفاء حيث يعيش الإنسان إنانيته في الآخر. حبٌ يدفعك للانفتاح على الكون دون ملامسة الغريزة؛ فالمرأة التي تحبها بصدق ليست كائناً يوحى بالجنس وكفى، الحب أن تقرأك امرأةً كرواية وأن تكتبها كحكاية، الحب يدفعك للاختلاء بنفسك، وبـ(آخرك)، قد يدفعك لتفكر بعيداً في اللانهاية واللامكانية، هذا الحب العطاء يدفعك لتحقيق تطلعاتك الواحدية والمجتمعية؛ فهو يدفعك لمواجهة موت الحياة.

لقد كان لقائي بآدم خطوة متقدمة في حياتي، كنتُ أستشق المعرفة من مخطوطات جدي وقراءات والدي، وأضيف لها معرفتي بالقرآن وتفسيره

الشفهية، تعلمتُ القراءة في الكتابيب؛ فمن لا يقرأ لا يرى الحياة، ولكن نوع المعرفة التي وجدتها عند آدم تختلف في منابعها ومصادرها، الإنسان وعاء كيفما تملأه تذوق سائله. كان في ساعة صفوه وهذيانته يتحدث بلغة مقارَنة، تتضح الأمور وتتجلى بأضدادها؛ رجلٌ عايش أنواعاً مختلفة من الأديان، مرّ بمسيح ويهود وصابئة ومسلمين وغيرهم، تجلّت عنده مفارقاتٌ، وتبلورت لديه معاني الانسانية؛ فقد حدّثني مرة في سياق أحاديثه المتنوعة عن النصارى الذين يرون مبدأ الجبر في حياتهم وخياراتهم، موضحاً - بمفارقة - مبدأ التخيير الذي وجدته عند المسلمين، ثم وجد تقيده هنا بنظرية الجعل والنص الإلهي.

رجلٌ حطّ رجلاه على الأراضي الخضراء والواحات والصحاري، فحدّثني عن ذلك مراراً، عن تأثير الأرض على قاطنيها، وعن مأساة المسافة بين النظرية والتطبيق، وكون أفكار الإنسان ليست ثمرة عقله فقط، بل ثمرة متأثرة بالمجتمع، وقال أيضاً - في سياق حديثه عن مقارنة الأديان - إنه لم تكن الإنسانية تتصور وحدة الإله كما لدى اليونان والرومان، وكان للعرب 365 صنماً، وهو دليلٌ على أن ليس كل متأخر أخذ عن المتقدم.

لقد ذكر في استرسالته أيضاً أنّ البيئة الاجتماعية تبدأ من الأسرة ثم المجتمع؛ حيث يتأثر الإنسان بطباعه، وأعطى مثالاً صادفه عن البيئة الطبيعية وتأثيرها على البشر. قال إن الإنسان الذي يعيش في الصحراء يختلف عن من يعيش في المناطق الخضراء. التقى رجلاً بدوياً، فأله عن اسمه، فقال إنه جازع بن ظالم بن غاوي. هذا اسمه؛ جاء نتيجة منطقة معيشته وهيئتها.

كان يتحدث - كثيراً - عن مصطلحات لم نعهدها من قبل، وكان يتوقع حدوثها. ذكر المثل العربي الشهير: البعرة تدل على البعير، وكثرة الظلم تبب الانفجار، ثم شرح البعد الفلسفي للأمثال.

وعن غرائب الجنس البشري وأحاديثه قال: وجدتُ في بلاد فارس ثلاث طبقات من البشر: طبقة العبيد، وطبقة الكتاب والمفكرين، وطبقة الأمراء ورجال الدين. وضعوا سنة وعرفاً يشبه القانون الجبري في الحياة: لا يحق لأي أحد من الطبقة الدنيا أن يدرس ويتعلم ليصل لطبقة أخرى. جاء ذلك في خطٍ متوازٍ لما وجدتُ في المجتمع الروماني القديم: إن طبقة المرأة والعبيد ذات عقل متواضع دوني، ويجب أن تبقى بعيدة عن الطبقات القيادية والسامية. المجتمعات المختلفة قد تتباعد جغرافياً، ولكنها قابلة للتزاوج الفكري المرّضي يسر وسهولة.

لقد ألفت تجارب آدم يحبه في قلبي، إن أجمل أنواع الحب هو القائم على بدايات امرأة ونهايات رجل تجريبياً، كان آدم في هذيانه؛ يمثل تاريخاً يوثق به بعض حضارات العالم؛ لذلك كان مشار إعجاب الكثيرين، كان يقرأ الماضي والحاضر لي طرح ويستنبط واقع المستقبل، أثارني ذلك النقاش فسألته حينها:

- هل توقع تغييراً في مكونات المجتمع الغربي لديكم؟
- أرى يقل العرب - يا خولة - إن البعرة تدل على البعير؟ هناك مقدمات توحى بتغيير مستقبلي.

- ماذا يمكن أن يتغير أو يحدث؟
- إن المجتمعات القائمة على الطبقية والتمييز بين البشر تعيش أزمة لا متناهية، تلك الطبقات التي تميز بين الإنسان حسب عرقه ودينه ومذهبه،

تجعل من الوضع القائم شرارة قابلة للانفجار. أتوقع أن تشور تلك الطبقات المضطهدة على الأقليات الحاكمة والتي تملك مقدرات بلدانها، ذلك الأمر البديهي تدرج مقدماته على الكثير من المجتمعات الأوسطية. إن الأنظمة الحاكمة لا بد أن تكون قادرة على استيعاب معنى التغيير والتباين التكاملي، عليها أن تدرك أن توطيد التشابهات أسمى من البحث في الاختلافات؛ فالحاكم ليس مندوباً إلهياً كالرسل، بل بشر وضع نفسه لخدمة شعبه، وليس التآمر عليه، من لا يؤمن بنهاية الظلم لا يؤمن بعدالة السماء.

كنتُ أصغي بكلي إليه، تعلمتُ أن فنّ الاصغاء أكثر تأثيراً من فنّ الخطابة والكلام، أدركتُ أنه يشعر بكلماته وهي تمسني وتهز داخلي، تحول ذلك مع الوقت لإعجاب متبادل، لم تكن لكلينا القدرة على البوح به، ولكنني أدركه بقلبي وأشعر به، لعل ذلك جزءاً مما دفعه لطلب الزواج مني، هل يمكن لهذا الرجل أن يكون قَدْرِي فعلاً؟

بعد ذلك اللقاء الناري بآدم، طلبتُ أن ألتقي والدي مساء اليوم التالي. أفردت أُمي لنا دارها. حملتُ ذات الهدف الذي يحمله آدمُ في صدره، ثم انطلقتُ في الحديث:

- أبي، أنا أقبل آدم زوجاً لي بعد أن يستمع لشروطي، ويكون قادراً على تحقيقها.

- إن علاقة الحب التغييرية قابلة للإجهاض يا خولة، يجب أن نحب الآخر كما هو، ولكن ما هي تلك الشروط؟

- لن أذكرها إلا إذا تقدم لي آدمُ بصورة مباشرة، على أن أتحدث له - في حضورك - وجهاً لوجه.

لم تمض ليلة أخرى حتى دعاني أبي لمقابلة آدم في المجلس. كان الرجل جالساً في زاويته. وقف وأقبل في اتجاهنا حين سمع نحنحة والدي، تقدم وراسه للأرض، بدا الرجل مختلفاً حقاً. امتلأ جسمه، واستدار وجهه، أصبح أكثر إشراقاً، لمحتُ فيه التواضع والرقة، دعانا والدي للجلوس، وقال:

- بنيتي. آدم يطلب يدك للزواج، فماذا تقولين؟

- ليعذرني آدم سلفاً في أن أذكره بالهواجس التي نعيشها في دلمونيا؛ فقد توالى الأحداث متارعة وتضاربت أشواك الحياة هنا؛ فهناك هزاتٌ اجتماعية جمّة تعصف بنا، وهناك مطالبات وجودية تتعلق بالحق في الحياة وتقرير المصير، وهناك عوائل متعلقة بطريقة تحسين الأوضاع المعيشية وإلغاء التمييز بين الطبقة الثرية والطبقات الكادحة. هناك رغبة في تبيض السجون وإصلاح نظام الحكم، والنظر في آلية تحسين الأوضاع المعيشية لدى الطبقة الفقيرة. في خضم تلك الأحداث جميعها، يريدُ آدم أن نقيم أفراحَ الزواج!

- وما علاقة زواجك بأحداث دلمونيا؟ هل نوقف عجلة الحياة حتى نُصلح الأمور كافة؟

- ليس ذلك كله يا والدي. نحن لا نزال نملك الرغبة والقدرة في الإصلاح. إنني أوافق على الزواج من آدم، بعد أن يُحقق لي أربعة شروط.

قال آدم: وماهي شروطك الأربعة؟

قلتُ: سأخبرك عن كل شرطٍ على حدة، فإذا تحقق السابق أخبرك باللاحق.

سألني: وما هو شرطك الأول؟

أجبتُ: أنتَ تعرف أنني خولة ابنة أبي راشد، وتعرف جدي عميد آل الجبور، وهو من سادة قومه وكبار رجال دلمونيا، يشهد لها القاضي والداني بذلك، فإذا أردتَ أن تطلبني للزواج؛ فلا بد أن تُحضر سادة دلمونيا ورجاها لحضور تلك المناسبة؛ فالزواج إشهارٌ أريده أن يكون على قدر من تُناسب يا آدم.

سألني: وما هو شرطك الثاني؟

أكدتُ له مرة أخرى: سأخبرك به حين يتحقق الشرط الأول. سيكون لقاؤنا مساء الجمعة القادمة أو ما بعدها، أو ما والدي بالموافقة فغادرتُ مجلته... وصوتُ الأنثى يحدثني: إن من تستسلم لرغبات رجل إرضاء له فإنه يسخطُ منها.



(19) الملقوط

منتصف يونيو 1765

صُعقتُ - فعلاً - حين جاءني حارسُ السجن بأمر مفاجئٍ من الحاكم، كان الأمرُ واضحاً جلياً لا شية فيه ولا لبس؛ أمرٌ مخططٌ له، وعليك اتباع ارشادته وتطبيقها بحذافيرها:

- سموه يطلب منك مغادرة السجن، والتوجه إلى بيت أبي راشد؛ حيث ينتظرك الرحالة الدنماركي آدم. ستكون بمعية أحد حراسنا، وعليك أن تكون على قدر نبل الموقف وتقدير المؤلية. عليك بضرورة العودة عند انتهاء مهمتك مع آدم، كما يجب أن تلتزم بعدم اختلاق المشاكل أو محاولة الهروب، سيضر ذلك آدم نفسه، حيث سيُلقي به في السجن عوضاً عنك. تلك كانت الضمانة منه حتى نفرج عنك ليومين، ستكونُ - أنت - في مهمة رسمية وتعود للسجن برفقة الحارس ذاته، مساء الجمعة.

كانت الرسالة واضحة المعالم دقيقة الإرشادات، تبعث على الكثير من التوجس. لم أعرف ما استجدّ من أمور تستطيع بها أن تشقّل الحياة بقراراتها، ما دام الأمرُ يتعلق بآدم وصديقه؛ فإن الفرَج لا ريب قريبٌ. إنّه من عند الله الذي نراه كما نرى أنفسنا، قيّدت يدي اليمنى بيد الحارس اليسرى من معصميهما، توجهنا راكبين ظهر بغلين متجاورين إلى بيت أبي راشد. صار المشهدُ استثنائياً يثير فضولَ المارة قبل الجالين، بعضهم يُقبل متائلاً متوضحاً - بدافع الفضول الطبيعي لدى البشر - عن هذا المشهد غير المألوف.

ما إن طرق الحارس الباب حتى جاءنا صوتُ أبي راشد من خلفه: مرحباً بك أيها الملقوط. ما يدريه أنني خلف الباب؟ كيف ولماذا توقعني؟ كأن الأمور ميسرة مباركة، وكان يبدأ تحرك خيوط الحياة وخطوطها، استقبلني الرجلان في المجلس مرحبين، أخبراني عن الواجب الأخلاقي الذي يتحتم عليّ فعله: لا تتوقع منك محاولة الهروب أبداً، نشق بأمانتك ونعرف أننا نضعها في محلها، أنت رجل في مهمة إنسانية ستجلبُ الخيرَ لك على قدر الخير الذي يزخر به قلبك... تساءلتُ: كيف؟

قال أبو راشد: لتعلم يا رجل أن من يُضمر الشرّية له ربهما تلعه نيران غدرها، ومن يُضمر الخيرَ فإنه يصابُ بوافر خيرها. قد يُعجل الأمر وقد يُؤجل، ولكنّ القضاء واقع لا محالة. القضاء الذي يدفعنا لحب الخير يجعل الدين ناضجاً نضراً، نتأذن الحارس الكريم الذي تحمّل عناء الطريق في مرافقتك؛ نتأذنه أن يفكّ وثائقك، وأن ترحل وحدك راجلاً إلى ساحة مسجد دلونيا؛ نستمعُ لخطبة وصلاة الجمعة، يجبُ أن تكون ملثماً متزويماً؛ كي لا يميزك عارفوك، لا تُوجه كثيراً من الأسئلة، بل كن على ثقة بأننا نتحرك في مجال مصالحك، ونعمل على تحقيق مآرب الناس التي تصب في نهر سعادتهم، قد نصيبُ التوفيقَ وقد يحكم القضاءُ بتأجيله، الواجب هو أن نتحلّى بالأمل ونُجمّله بالعمل.

لم يدع لي الرجلان أيّ مساحة للمناورة، كأنهما ملكان آيران، يمثل لهما الباقيون طوعاً. بثتُ تلك الليلة مغمض العينين ساهد الفكر. وفي صبيحة الجمعة الموعودة، خرجتُ باكراً قبل أن يتيقظ أحدٌ. خرجتُ ملثماً، بل وجدتنني متكرراً أيضاً، اتبعتُ التعليمات بدقة، ذهبتُ للمسجد عبر الطرق

الملتوية والبعيدة هروباً من أعين الناس، اقتربتُ من الحدود الجنوبية لقريّة البجوية^(١)، منطقةٌ تكاثرت فيها النخيل حتى ضاقت ببعضها بعضاً، اتبعتُ مسار أحد الجداول المائية حتى اقتربتُ ضحياً من ساحة المسجد من الجهة الشمالية، الجهة التي يمر منها بعض المصلين ليكثروا داخل المسجد، أو يتجمعوا للبيع والشراء في الباحة الجنوبية، عبّرتُ بمخيلتي فكرةً جميلةً تحقق الهدف، أكون فيها بعيداً عن الأعين قريباً لاستماع الخطبة. تَلَقْتُ إحدى أشجار اللوز المتشّرة، واستلقيتُ بين أغصانها العلوية. كانت مُعدّةً على شكل الرمز سبعة ((V). كان المكانُ فوق الغصنين مهياً ومعدّاً للاستلقاء والنوم كذلك، استشعرتُ تيسير الأمور لقضاء الحوائج. لا أعرف من أدخل الفكرة إلى قلبي، ومن هباً المكان فوق الشجرة، قررتُ أن أستمع للخطبة من هناك، وأن التحقّ بالصلاة بعد الركعة الأولى حيثُ يصعب على المصلين الالتفات والكلام، ولكن لا زال الوقتُ مبكراً.

لاحظتُ وجود حركة غير طبيعية تحوم حول منطقة الشجرة، أقبل حراسُ الحاكم الذين أُمِرُ بعضهم من وجوههم ومن لباسهم، استرقتُ السمع لرئيسهم يوجه تعليماته:

- سيتلثمُ الحاكم ويتكرّر في زي متسول، ويستلقي هنا في ظل هذه الشجرة، سنؤمّنُ المكان ونراقبه من بعيد دون أن يشعر بنا وبه أحد.

سأل أحدهم: ماذا يريدُ الحاكم من كل هذا المشهد؟

سمعتُ تمتماتٍ وأسئلة أخرى حتى علمتُ أنه يريدُ أن يتفقد رعيته، يستمع للإمام دون أن يعرف الأخير حضوره كي يتحدث بما يمليه عليه

1 - تعرف حالياً بالنابس.

دينه. يقتربُ أكثر من المحتاجين والفقراء. لقد سمعتُ آدمَ يحدثه مرةً: "إنَّ المسؤل هو الذي يتحرك في جوانب الحياة السلية قبل الإيجابية، لا بد أن تكون حركياً كي تفهم روح الحياة، أن تقرا مجتمعك بتحدياته ومتغيراته، حينها تبدأ مرحلة التحدي؛ مرحلة التغيير والنقل النوعي". إنها لفئة إنسانية جديدة على روح الحاكم.

بعد ذلك التمهيد المكاني، أفرغَ الحراسُ أماكنهم وابتعدوا، أقبلَ الحاكمُ متكرراً في شكل بائسٍ فقير، افترش الأرضَ المعدة له سلفاً، استند إلى جذع الشجرة نفسها، أشاهده يُحكِم قناعه وملابسه، لاحت لي وساوسٌ ربما تكون شيطانية: الحاكم بلا بطانة ولا حراس بشر لا يختلف عن غيره، لا يميزنا غير الله بالتقوى، لو أنني قفزتُ على هذا الرجل المسترخي، ثم خففته بيدي، هل يمكن أن أضع حداً لمصائبنا جميعاً؟ ألا يمكن أن يُبدلَ النارُ على مر حية من يُمون بالمعارضين لحكم الطاغية والموالين له؟ ألا يمكن أن نضع حداً للظلم الواقع على جميع الغاصة، والمزارعين، والصيادين، وغيرهم؟ أليس موته قادراً على تفريغ السجون وتبييضها من سجناء الرأي، والمظلومين على أقل تقدير؟ ولكن؛ هناك أسئلة مضادة تفرض وجودها بقوة: ألا يضع قتل الحاكم ورحيله البلادَ في مهب الريح، وتصبح جزيرة بلا قانون، لا يحكمها إلا قانون الغاب؛ حيث الحكم للأقوى؟ أليس القوي هو من بيده سلطة المال؟ هل يُعدّ فراغ القيادة أكثر نفعاً من جور الحاكم؟ إذا استزول السلطَةُ حينها إلى البطانة الفاجرة المتنفذة، إذا كان هناك خلل في النظام؛ فإن الإصلاح والرغبة المزدوجة في التغيير كفيلاً أن تكون نقلة نوعية، صرتُ بين نارين؛ اغتنام الفرصة أو التسليم بقضاء الله الذي يفعل ما يريد... تذكرتُ أبا راشد حين قال: إنَّ النبي (ص) كان مع ألد

أعدائه غايةً في اللين والمحبة. بالحب قويت شوكة وغلب أمره. إن التسامح أقوى بكثير من شوكة العنف.

كانت دقائق فارقة حين أيقظني صوت الأذان، زادت حركة المصلين باطراد، أقبلوا خفافاً من كل حدب وصوب، احتلوا المناطق المظلمة ثم غطوا المشمسمة تدريجياً، صعد الإمام على المنبر الواقع تحت تجويف المئذنة، هنالك يجتسب الصوت في تجويفها قبل أن ينفجر عبر ملاقف الهواء؛ تلك الفتحات التي كانت معدة لدخول الهواء وتلطيف الأجواء، يكون حينها صدئ الصوت الخارج منها قوياً يصدح نحو السماء. صعد الإمام فشكر الله في ديباجته وأثنى عليه، ثم بدأ خطبته التي دارت في محورين؛ الأول حول ظاهرة الفساد الإداري والمالي، والثاني حول ظاهرة انتشار السجون:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أيها المؤمنون، إنه من خلال التزامنا الأخلاقي؛ جدير بنا أن نأخذ العبر من الأمم التي مضت، وليس أحرى بنا أن نقتدي مثلاً بالرسل الذين لا يتحدثون إلا بما يفعلون؛ لا تجد فيهم تناقضاً بين ما يأتي على ألسنتهم وبين ما يأتون من أفعال. إنهم يمثلون إنسان المسؤولية الذي لا يفكر في المطلق، ولا يعيش في صومعة العلم، ويعيش بين مفرداته، لكنه إنسان المؤلّية في الحياة الجامعة، إننا في هذه الجمعة المباركة نتذكر موقفاً لنبي الله يوسف عليه السلام؛ فقد جاء على لسانه في حديثه التاريخي لعزير مصر: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾⁽¹⁾. إن يوسف - أيها المؤمنون - وعلى الرغم من كونه نبياً لم يُزك نفسه، ولكنه طلب الولاية على بيت مال مصر؛ لأنه وجد الكفاءة في نفسه؛ الكفاءة التي تُحفظ بها الأموال وتوزعها بصورة عادلة

1 - يوسف: 55.

على الرعية، ولأنه كان إنساناً ينشد العدل المطلق؛ فقد أظهر نفسه في موضع المسؤولية لكي يضع الأمور في نصابها ومساها الصحيح. كان يرى أنه لو أعطيت الولاية لغيره لفقدت الأمور حقاً، فقال عن نفسه إنه حفيظٌ عليم؛ أي أنه حريصٌ على المال العام، وعارفٌ بطريقة التصرف فيه، وقد اقترن كلامه بأفعاله؛ فبدأها بنفسه. ففي السنوات السبع العجاف؛ رفض يوسف عليه السلام أن يأكل حتى مرحلة الشبع. كان يقوم عن الطعام وهو يشتهي، وعندما استنكر عليه بعضُ خاصته قال: لا بد للحاكم أن يشعرَ بغيره وإن امتلك كنوزَ الدنيا كلها، وأن يتعد عن الاعتداد برأيه؛ لأن التعصب أحمق. على الحاكم الذي ينشد العدل أن يتذوق جوع الجائعين، ويشعر بؤس البائسين، ويكون مع المحرومين. كان ذلك مبدأ يوسف حينما قبل ولاية العهد وحكم مصر وما جاورها. ولنا في أنبياء الله ورسله أسوة حنة.

أيها المؤمنون... هناك أمرٌ آخر يجب الإشارة إليه والتنبه لمحتواه، فكما ضُيعَ شابُّ يوسف في الجُبِّ وفي سجنه ظلماً، وأزهقت طاقته في غير محلها أربعين عاماً؛ فقد أصبح انتشار السجن في بلادنا قضيةً ظاهرها خيرٌ وباطنها مفسدة. اكتظت ما بين جدرانها وامتلات بحقٍ وبغير حق، حتى قيل:

وَيَدُّ تَكْبُلُ وَهِيَ مِمَّا يُقْتَدَى وَيَدُّ تَقْبُلُ وَهِيَ مِمَّا يُقْطَعُ
وَبِرَاءةٍ بِيَدِ الطُّغَاةِ مَهَانَةٌ وَدِنَاءَةٌ بِيَدِ الْمَبْرُورِ تُصْنَعُ
وَيَصَانُ ذَاكَ لِأَنَّهُ مِنْ مَعَثِرٍ وَوُضُمَ ذَاكَ لِأَنَّهُ لَا يَرْكَعُ

لتذكر - أيها الأخوة - أن السجن ليس إلا مفردة للعقوبات الجنائية، الهدف منها قصاصٌ من الجاني وردعٌ للجريمة الراجعة، ومنعها من التكرار

بما يُضر الفردَ والمجتمع. غير أن الهدف الأسمى من ذلك؛ أن يكون السجن تهيئةً للسجين، وتوفير أرضية صلبة له، تجعله عنصراً منتجاً في محيطه؛ فإنه لا يعرفُ الصوابَ إلا من ارتكب الأخطاء. وكما أقحم يوسفُ عليه السلام في السجن مظلوماً؛ فإنَّ القيمَ الأخلاقية، والمبادئ الإنسانية ترفض وبشدة أن يُقحم سجينٌ رأيٍ وفكرٍ في زنزانة؛ فالرأي ليس جنائية والفكر ليس جريمة. إنَّ حرية التعبير عن الرأي حقٌّ مكفول للجميع، كما أننا نلطف الضوء ونؤكد أن السجن مقابرُ الأحياء، فلا يجوز - إنسانياً - أن يوضع شخصٌ ما في سجن انفرادي وإن كان مجرمًا؛ ففي ذلك سلبٌ لحرية المجتمعية، ولا يحق لنا أن نقطع عليه حقَّ اللقاء بالمحيط الخارجي الأسري والمجتمعي. إن تبيض السجن ضرورة لإسعاد البشرية وإن كانت في السجن خصالٌ مفيدة منها: تجربة الأصدقاء، ومعرفة شماتة الأعداء.

أبها الأعداء.... إن السجن قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً، وإنَّ السجن المعنوي لا يقل خطورة وتأثيراً عن السجن المادي، فلربما يكون الإنسان حرّاً في تحركاته، ولكنه سجينٌ في مجتمعه، وهنا تكون الطامة الكبرى، إننا حينما نقرر طرد إنسان من مجتمعه نتيجة لخطأ ارتكبه آخرون؛ فهذا ظلمٌ أسود مزدوج. هناك في كل المجتمعات تولد الخطايا، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون؛ فلا يحق لنا أن نُحمّل بشراً ما وزر من سبقوه؛ فالولد لا يحمل خطأ والديه. ولا بدّ أن تُصان حقوقه، ويكون له ما لنا وعليه ما علينا".

كنتُ أستمع لإمام المسجد مسترخياً على غصن الشجرة، وعيناي مركزتان على الحاكم المتكبر. وفي الوقت الذي تخيلتُ الخطبة موجهة لي، كنتُ أرى الحاكم يتحدث ونفسه، وكأن ما يسمعه موجهٌ إليه أيضاً. كنتُ

أرى أن حديث السجن يخصني ويسرد حالتي، فلا ذنب لي بما اقترف
غيري، أقحمتُ السجن قرأاً وطُردت من المجتمع ظلماً. أما الحاكم؛
فالملامة بادية عليه، فهو مسؤول عن المال العام وعن الفساد والسجون.
هي ذاتُ المسؤولية التي بناها النبي يوسف عليه السلام وقبلها الحاكم علي
نفسه. الفرقُ أن يوسف تعاهد علي تطبيق نظرياته بقناعة مخلصه، أما هذا
الحاكم؛ فهو في قرارة نفسه أبيض طاهر؛ حيث الضوء يعث علي الخير،
ولكن يُفرضُ الجانبُ الأسود عليه. إنها إملاءات دنيوية تساندها وتفرضها
بطانته وخاصته. بين هذا وذاك، وبين العسر واليسر، تنتظر الفرج.



(20) المترجم⁽¹⁾

الأسبوع الثالث من يونيو 1765

بناءً على الرغبة الصادقة والشروط التي أبدتها خولة لقبول الزواج بآدم، وتزامناً مع خطراته الفعالة التي يقوم بها وأبو راشد للخروج من نفق القضايا العالقة في دلمونيا؛ جاء لقاء آدم بالحاكم متاحاً في قنواته الطبيعية. أقبل على رغبة من الحاكم الذي أبدى شغفاً والباحاً للتعرف على التفاصيل الدقيقة لمدافن دلمونيا وما تحويه من أسرار تاريخية. توجه آدم - للمرة الأولى - إلى مقر مجلس الحاكم الرسمي في القلعة⁽²⁾ الواقعة على بُعد عشرات الأمتار جنوباً من مكتب الوكالة التبشيرية شمال الجزيرة الأم؛ ذلك الحصن الذي يتكون من أربعة أبراج دائرية متصلة؛ حيث يتم هناك تدريب رجال شرطة الحاكم من المحليين والأجانب. اتخذ الحاكم إحدى الغرف التي تطل على البحر شمالاً مركزاً لإدارة شؤون الجزيرة ومقرّاً للقاءاته الرسمية. كانت الدعوة مبقاً موجهة للقاء آدم هناك. أعد الشاب عرضاً وشرحاً تفصيلياً متأنياً للمدافن؛ أوضح طريقة بنائها ومحتوياتها ثم غلقها ورددتها. بعد ذلك أسبر في الحديث حول القضايا المصرية المشتعلة كالديون العامة، واليب يوسف والملقوط، وحادثة إطلاق الرصاص، لكن ذلك تنحى من بين يديه سريعاً. بزغ نجم خولة التي فرضت نفسها

1 - لم أستطع الحصول على مخطوطة كاملة للترجمة أو النقل في هذا الفصل. لقد جاء

نتاج قصاصات متناثرة واستجابات في السياق نفسه للأحداث السابقة. (المترجم).

2 - بُنيت القلعة عام 1750م على يد حاكم فارس تادر شاه.

وبقوة على فكر آدم؛ فلهج لسانه بذكرها والحديث عنها أمام الحاكم. كان من بين الحضور - في ديوان الحاكم - بعض الشخصيات المهمة كالتاجر والقاضي البلبول والخادم المستشار وبعض النواخذة، بالإضافة للميجور البريطاني المعتمد. أخبر آدم الحاكم عن رغبته في الحديث الخاص معه، توقع الحاكم أن يكون الحديث حول التحقيق في حادث إطلاق البارود، أو سجن السيب يوسف، ولذلك أصغى منفرداً، ولكن على مضض.

- سمو الحاكم. إن دلمونيا جزيرة صغيرة جداً على سطح الكرة التي تحمل العالم برمه، وهي لا تختلف في إنسانها عن سواها. صراع بشري طبقي طبيعي. هناك من يجره لعالم الكمال السماوي، وهناك من يجره لعالم الوضاعة الأرضي. لطالما تثبت الضعيف بالقيم الكبرى، ووصم القوي بصفات الطاغوت، بينما أبدى القوي سطوته وعلمه بما يحقق الخير والرفاهية للجميع. إنها سنة الحياة، ولكنني - استثناءً - وجدت فوق ترابها المقام الذي ينثر السعادة في القلوب. إن هذه الجزيرة أثمرت قلوباً طاهرة وضائرية. لذلك كله؛ وجدت - يا سمو الحاكم - على ترابها المرأة التي أرغب في الزواج منها.

- المرأة التي ترغب في الزواج منها! قيل إن الرجل يرى المرأة؛ فيشتهيها... هل؟

وقف الحاكم على رجليه وأخذ يدور كعادته في حلقة مكتملة حول آدم. صار ينظر إليه تارة ويعاين البعيد تارة أخرى. وضع أصابعه على لحيته كمن يشدبها، تذكر موقفاً مرّ بخاطره وقال:

- منذ بضع سنين، كان من ضمن الوكالة التبشيرية هنا سيدة نصرانية، وكان يساعدها أخوها في مهام التطيب والتعليم، ولما تعرفت السيدة عن

قرب على الكثير من نساء دلونيا؛ رغبت في تزويج أخيها بإحداهن، ولكن القاضي البلبول أوضح أنه لا يجوز تزويج المسلمة بغير المسلم. قبل كل شيء يا آدم، دعنا نستدعي الشيخ البلبول لمعرفة رأيه الشرعي حول المسألة التي تعتزم القيام بها، أظن أن لديه القدرة على استنباط الأحكام وتغييرها بناءً على المصالح العامة.

استدعى الحاكمُ الشيخَ البلبولَ الذي جاء لابساً معطفاً بنبياً وعمامة بيضاء. كان فارع الطول، نحيف الجسد، ذا وجه طويل، ولحية بيضاء كثيفة. استقبله الحاكمُ وأمره بالجلوس:

- أيها الشيخ الجليل. يريد ضيفنا الرحالة آدم الزواج بإحدى بنات دلونيا، وإنتي أباركُ زواجه ما دام ضمن النطاق الشرعي.

قال القاضي: إنه ومن خلال العنوان الأولي للحكم الشرعي؛ لا يجوز للمرأة المسلمة أن تتزوج من كتابي، بينما يحق للمسلم أن ينكح كاتبة، أما وقد بارك الحاكم هذا الزواج؛ فإنه يجوز أن يتزوج الكتابي بمسلمة من خلال العنوان الثانوي الذي يراعي المصالح الضرورية الفردية منها والعامة.

لر تصب تلك الحقيقة الدينية آدم بالإحباط أبدأ بل أفرحته تفاصيلها، كان يُدرك مما مضى ومما رسخ في عقله أنه ما وُجدت مشكلة إلا وكان حلها إلى جانبها، قد توصف المشكلة بالمعقدة، ليس في ذاتها، ولكن لأننا لنستطع البحث عن المفتاح الذي يأخذ بأيدينا لذلك الحل. ها هو الشيخ يضع الحل السديد كما يراه. سأل آدمُ الشيخ:

- هل يُعدّ زواج المسلمة بالكتابي خطيئة توجب العقاب ودخول

جهنم؟

أجابه: قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾. إن القرآن الكريم قادرٌ على شرح نفسه بنفسه في كثير من المواضع، ولا ريب أن الخطيئة الكبرى التي لا يغفرها الله تعالى هي الشرك به.

ضحك الحاكم وانفرجت أساريره، اتجه إلى آدم يربت على كتفه: ومن هي تلك المرأة التي أخذت لبتك وقررت الزواج منها؟ ألا تجد أنك من طبقة تختلف عن البقية فوق أرض دلمونيا؟

أجابه: إنه وبعيداً عن نظريات التمايز البغيضة، ومنها نظرية الجنس التي تصنف البشر حسب ألوانهم؛ فإن هناك إنسان أسود وآخر ملون وآخر أشقر. إن ذات النظرية تصف الأشقر بالأساس، أما الآخر فهي تسمية بالملون مجازاً، بينما التفسير العلمي والمنطقي يوجب وحدة المنشأ؛ لأن خلايا المخ ليس فيها تفاوت، بل يأتي مكتسباً من المحيط والتربية وغيرها. ولذلك كله أيضاً، وبعيداً عن تلك النظريات الباهتة الفانية؛ فإني وجدت شيئاً من الإلهام وبعضاً من الإشارات التي تدفعني للزواج في دلمونيا.

- الإلهام وحي توافقي، ولكنه يكذب أحياناً. من هي؟

- خولة ابنة أبي راشد؛ حفيدة عميد آل جبور.

توجه الحاكم إلى كرسي حكمه وكأنها حط على رأسه الطير.

قال: لا تنسى أن علامات الحب خادعة.

تقدم آدم في حديثه: ولا تنسى أن المرأة أبدع وأجمل ما في الكون، أتمنى أن يُشرفني سمو الحاكم وشيخ القضاة حين أتقدم - رسمياً - لخطوبة ابنة أبي راشد مساء الجمعة القادمة.

اعتذر الحاكم متلكناً عن الحضور، متعللاً ببعض الالتزامات المسبقة في يوم الجمعة، وعد بإرسال أحد أعضاء المجلس المعين والشيخ البلبول ممثلين لسموه. استأذن آدمُ الحاكم وتوجه بسؤاله للتوخذه والطواش؛ فتقبلوا الدعوة فرحين بها، أما صديقه الخادم الذي صار مع الوقت مستشاراً؛ فقد فهم أسباب امتناع الحاكم وآثر البقاء إلى جواره.

جاءت الجمعة الموعودة، ولتحقيق الشرط الأول لخولة؛ التقى سادة القوم أبا راشد في مجلسه. تصدّر القاضي الحديث قائلاً: قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١).

أبدى الشيخ القاضي حماسة ذاتية حين وجد تساؤلات في عيني آدم عن معاني الآية الكريمة. أوضح أن (للمجعل) نوعين؛ هناك الجعل البسيط؛ أي الخلق الأول، وهناك الجعل المركب؛ أي التحول، وأن الله تعالى خلق حواء كما خلق آدم من تراب، ولم يخلقها من ضلعه أبدأ؛ أي أن النفس واحدة المنشأ والأصل، وقد زوج النفس الأدمية من جنسها؛ أي من نوعها؛ ليتأنس بها، ويسكن كلُّ منهما للآخر، وكما تعرف؛ فإن الله تعالى أعطى خلافة للإنسان في عمارة الأرض بناءً على قابلية المحل العقلية التي أعطيت له، والتي أعطته القدرة على استيعاب رسالاته ومسؤولياته. إننا وفي نطاق الطبيعة البشرية للإنسان الكلي، وبناء على رغبة من الحاكم ومن آدم؛ نتقدم بطلب يد ابتكمم للزواج بضيف دلمونيا الرحالة آدم.

تحدث الجمع - بعدها - حول الكثير من المسائل العامة، ومنها قضية شرعية الزواج. أبدى أبو راشد موافقته المبدئية، ولكنه أكد - وعلى غير

١- الروم: 21.

السائد في المجتمع - أن حرية القرار المطلقة لابته، كما كان يُدرك أنها قادرة على حلّ المشكلة الشرعية في الزواج بالكتابي بطريقتها الخاصة، وبناء على الثقة والمعرفة الراسخة في عقلها وقلبها.

انفضّ الاجتماع بعد نحو ساعة، ظلّ آدم في المجلس وأقبل أبو راشد يخبر خولة بالجوانب التفصيلية لما حدث:

- لقد وجّه آدم - خلال الأسبوع المنصرم - الدعوة لكبار رجال دلويا كي يحضروا مراسم التقدم لخطبتك، أقبل عضو المجلس المعين ممثلاً للحاكم، وجاء بعض النواخذة والطواووش وبعض من رجال الدين. طلب آدم يدك للزواج، وسألني أن أعرف رأيك حول الموافقة والرفض.

طلبتُ خولة الدخول على آدم في المجلس، وقالت له ممتةً: لقد تحقّق الشرطُ الأول، وأقبل سادة دلويا إلى دارنا. ألا زلتَ على عشقك ورغبتك؟

- من لا يملك عيني مجنون فإنه لا يعشق.

قالت: أعرف أن المرأة السؤال أثنى منفرة يا آدم، ولكن... إنك تعرف حجم المآسي التي تمر بها دلويا؛ فالفتنة مستمرة والناس منقسمون بين مؤيد ومعارض. الضحايا في السجون، مصائب الغواصين والمزارعين وغيرهم تبحث عن حلول جذرية لتبث الأمن والسلام في قلوب الجميع. عليك يا آدم وبمعية الخيرين أن تقذف بالحب والخير في القلوب، وتؤاخي بين الناس، ومتى ما استقرت الأمور وصلحت شؤونهم؛ فإننا سنصبح على أبواب الفرح. إننا الآن لا نستطيع الزواج وقرع قيثارة الفرح ما لم يشاركنا الناس أفراحنا. حين يمكننا أن نساعد الناس على التخلص من ظلاماتهم

فإننا سنعزف الحياة بالفرح. إنَّ الشرط الثاني يكمن في القدرة على رفع
الظلم عن إنسان دلونيا.

لر تصب آدمَ الدهشة من مطالب خولة بل زادته تعلقاً بها، إنها تحمل
المسؤولية الإنسانية نفسها والهَمَّ البشري الذي يحمله وأبوها في صدريهما، إنها
تحمل علة غائية مقدسة، أبدئ استعداده وقبل التحدي مؤمناً بسمو الهدف
والقدرة على تحقيق النجاح.

أقلت خولة التحية عليه، وقالت وهي مفادرة: حينها فقط سأخبرك
بالشرطين الثالث والرابع.



(21) آدم

الاسبوع الأول من يوليو 1765

طلبني الحاكم في القلعة حيث مقره الرسمي، اعتدتُ دهاليز الحصن العملاق لأنها الزيارة الثانية، وكالعادة اصطحبتُ أبا راشد معي. سمح لنا الحرس بالدخول إلى مقره بعد عمليات تفتيش روتينية، ثم طلبوا منا التريث في قاعة الانتظار لحين وصول أصحاب الدعوات المشاركين في الاجتماع. أقبل - بعد دقائق - أعضاء المجلس المعين، يتقدمهم التاجر الذي لم يُلقِ التحية ولو مجاملة. كان المعتمد السياسي البريطاني المعروف باسم (الباليوز) ضمن الحضور. دُعينا بعد ذلك للدخول إلى غرفة الاجتماعات، وبعد أن اكتمل الحضور وأخذ كل منا موقعه المحدد سلفاً؛ أقبل الحاكم وخلفه بعض الحرس الشخصي، وعلى عكس هيئة التاجر، كانت الابتسامة مرسومة بدقة على محياه. وقف الجميع احتراماً وتقديراً لمقدمه، اتخذ مجلسه وأجلس الخادم المتشاور على يمينه، ألقى سلامه وتحياه، ثم دعانا للجلوس وقال:

- أيها الحضور الكرام. يرحب المجلس المُعين بكم جميعاً لحضور الاجتماع الاستثنائي، كما نرحب بالمعتمد السياسي البريطاني، وبالرحالة آدم، وكذلك بأبي راشد ممثل البحارة والمزارعين، يُسرني أن أخبركم - في هذه المناسبة السعيدة - بقرار قيادة جزيرة هرمز، وقادة القوتين البريطانية والفارسية هناك، حول إعفاء دلمونياً من أن تدفع ببعض رجالها للعمل تحت إمرة وقيادة جيش هرمز، وقد أبلغنا الباليوز الحاضر معنا هنا، أنّ بريطانيا العظمى ترغب - وفي موازاة ذلك - في أن نجد حلاً سياسياً للخروج

بالجزيرة من أزمته، ومعالجة انشقاق أطراف مكوناتها، وأن تُرضي الجميع ويعم الخير والاستقرار. إنه وبعد المشاورات المطوّلة مع الباليوز، ومستشار المحاكم الخاص؛ يُعدنا أن نخبركم عن تطلعاتنا المستقبلية، كما نعطي الحضور الكريم صلاحية أن يقدم المقترحات والتحفّظات فيما يصب في اتجاه المصالح العليا لدولنا.

أبدى المحاكم بعدها رغبة صادقة في ذلك، وبعيداً عن الأساليب المتتوية، وبمبدأ الشفافية أظهر رغبته في إنهاء الأزمة المالية أولاً؛ تلك الأزمة التي تعصف بالإنسان أينما ثقف. عيّن القاضي البلبول رسمياً رئيساً لمحكمة الدين العام، وأمر بأن تُلغى محكمة الغوص التي تُسمى بد(السافة)، حيث اعتاد القضاة العمل برأي النوخذة المُمول للطلعات البحرية، واشترط أن تُجلّ ديون (قروض) البحارة، وغيرهم بحضور ثلاثة غاصة كشهود، وأن يكون تديد الدين من خلال المحكمة، وبحضور الشهود جميعاً؛ لكيلا يضطر البحارة للغوص في ديونهم ويبيع ما يملكون من مزارع ومقتنيات خاصة. كما أصدر مرسوماً يسقط بموجه نصف الديون على أن ينفذ ويعفو التاجر والنواخذة عن ذلك، وأن يسقط الدين تلقائياً عن المُدان عند الوفاة، وتُلغى القانون انتقال الدين من البحارة لأبنائهم، وأن يُعلن - أخيراً - عن تلك القرارات التاريخية قبل صلاة يوم الجمعة القادمة.

استأذن أبو راشد واقترح بدوره أن يأمر المحاكم بتبييض السجن، وإطلاق عفو عام، ويكون السيب يوسف أول المُفرج عنهم؛ بوصفه قضياً أمداً طويلاً في السجن دون محاكمة حقيقية عادلة، وأبدى رغبته كذلك في إلغاء أسلوب السلفية المتبع بين البحارة، واستبداله بأسلوب الخياميس؛ أي توزيع الأرباح على خمسة يكون الخمس فقط للتاجر؛ إذ لربكن من الحكمة

أن يلف الريانُ الغاصة مؤناتٍ من السكر والأرز وغيرها، ثم يأخذ منهم ما ربحوه بعد الغوص، خاصة أن الغواصة في الواقع يكسب أكثر من دينه، ولكنه يبقى عبداً عند دائنيه أبد الأبدين.

أما الخادم المستشار، فقد اقترح أن يكون يوم السبت القادم إجازة رسمية، ويوماً وطنياً سنوياً تخليداً لهذه المناسبة السعيدة، على أن تُفتح المضايقُ العامة، وتُقدم الوجبات امتاناً وتقديراً للحاكم لتبني هذا الحدث المفصلي العملاق. لرأساً أخبره أن حبّ المناسبات نفاق، ولكنتي قرأتُ ما وراء ذلك؛ فتمنيتُ له طيب الإقامة عند الحاكم حيث جنة منتهاه.

وجاء الدور على الباليوز الذي نقل تحيات الحكومة البريطانية، وأبدى رغبتها في نقل بعض سفنها الحربية لترايض في (ميناء الدار) الواقع على الساحل الشرقي لدلونيا؛ ذلك الميناء الذي سيصبح قاعدة لتأمين الحركة المتصاعدة لسفن شركة الهند البريطانية الشرقية. كما يرغبون في أن تكون البوارج درعاً حصينة لمواجهة التهديدات التي تمس أمن واستقرار بريطانيا العظمى، وذلك بناءً على رغبة ملكة التاج البريطاني الذي جعله يفخر بتداعيات القرن السابع عشر الذهبي؛ تلك الحقبة التاريخية التي قادت بريطانيا - وبعد التحرر من سطوة الكنيسة - لثرت السيادة العالمية من العرب والعثمانيين، وتقود نهضة أدبية وفنية بعد شيخوخة المغول والأتراك، وذلك عبر المشروع العملاق لشركة الهند الشرقية البريطانية، بعدها أثنى على خطوات الحاكم الفاعلة، وأبدى سعادته الغامرة بحضور أبي راشد، وأوضح أن القومية الحديثة يُضاف لها المعارضة؛ بوصفها ظاهرة ملازمة وضرورة لتقويم نظام الحكم العشائري.

بعد ذلك تحدث القاضي بدوره وأبدى رغبته واستعداده لعقد جلسات المحكمة وفق رؤى المحاكم المستقبلية، وأظهر رضاه عندما وجد وعي المتحاورين ومعرفتهم الفرق بين النقاش والجدال. عندها أقم أمام المحاكم على أن يُراعى المائل الشرعية في استنباط الأحكام للقضايا المختلفة، وأن يطلع المحاكم على سير القضاء وقتها يرغب ويريد.

انفض الاجتماع، واصطف الحضور خلف التاجر للسلام على سمو المحاكم، ومباركة تلك الخطوات التاريخية. هناك من قبل المحاكم على جبينه، وآخر على كفه، أو ظاهر يده اليمنى، أما أنا وأبو راشد والبايوز فاكثفينا بالمصافحة، ومباركة خطوات المحاكم، ثم الدعاء لدلونيا بالتوفيق والسداد.

انفض الاجتماع فعادت خولة تفتز بين عقلي وقلبي. أمسكتُ أبا راشد من معصم يده اليسرى، سألتني: ما خطبك يا رجل؟ قلت: أنت تكرر دائماً مقولة أن (على نياتكم ترزقون). كنتُ أظنُ أنني لن أستطيع تحقيق الشرط الثاني لخولة بسبب ضخامة وتعقيداته، ولكن ها هي السماء تصافحني، وتأتيني بالحل الشافي من حيث لا أشعر، أتمنى أن ألقى خولة مساء اليوم؛ لأخبرها بقرارات المحاكم، وأسألها عن شرطها الثالث.

وكعادته، لم يُجب أبو راشد على سؤالي إلا بهز كتفيه ونظرات عينيه، ثم دعا الله أن يبارك خطانا. أقبلتُ - مساءً - وطلبتُ لقاء خولة، دخلتِ المجلس وألقت التحية قيادتها:

- تحقق الشرط الثاني يا خولة. لقد وعد المحاكمُ ببيض السجون وإلغاء بعض الديون، وبدء عصر إصلاح بيبي مستقبل دلونيا، ويأخذها في اتجاه ضوء الشمس، في طريق النماء والفرح.
- كيف حدث ذلك بهذه السرعة؟

- ذلك ما تمخض عنه الاجتماع الكبير الذي عُقد في القلعة.

ترزنت خولة بخجلها ثم أظهرت سعادة مكتومة وقالت:

- بناءً على ذلك الوعد الذي تمناه حقيقة، سيكون الشرط الثالث أكثر

سهولة يا آدم.

- وما هو؟

- عليك أن تُحضر أهلك وخاصتك لخطبتي، سيحمل أبنائي اسم

عائلتك، وسأعيش بينهم، فمن حقي وحقهم على حدٍ سواء أن يعرفوا أين
ستضع نطفتك، وكيف سيربين أبنائك.

تلك الخولة التي قلّ نظيرها، تكبر وتسمو في عيني كلما نطقتُ بأحد

شروطها؛ فالمرأة التي تتأمل الخاتمة هي من تهبك سعادة البدايات وفرح
المير. أكدت لها الموافقة المبدئية، وأني سأعمل بجِدٍ لغلُق ملفات دلمونيا،
والتوجه نحو كوبنهاغن، إلا أنها قالت:

- البعد آفة الحب يا آدم. قد تدفعك المسافات للبحث عن أخريات.

قلت: أليس من الجنون تجاهل حب حقيقي والبحث عن حب مجهول؟

بعد يومين من اجتماع القلعة، وبعدها استشر التاجر ميل الحاكم

للخروج من الأزمة ومصالحة الشعب كافة؛ أشاع بين العامة رغبته في

المساعدة الذاتية من منطلق وطني صادق. أبدى رغبته الملحة في الوقوف

ضد الظلم الواقع على الطبقات الكادحة، عرض على البحارة والمزارعين

وغيرهم أن يشتري كل ديونهم، ويقوم بتسديدها كاملة. وللخلاص من

الديون؛ اشترط أن يعمل البحارة كلهم تحت إمرته في موسم الصيد القادم

فقط، وأكد رغبته في شراء جميع أنواع اللؤلؤ من كل النواخذة، وبيعها

للتجار الهنود (البونيان)، وأوضح أن هؤلاء البونيان الحرفيين المهرة هم من

يصنعون من اللؤلؤ قلاداتٍ لبيعها بأسعار مضاعفة في الأسواق العالمية،
وتعهد التاجر - بعد ذلك - باستيراد البضائع وتوزيعها في الأسواق المحلية
وبأسعار زهيدة بعد دفع ضريبة 10% للحاكم، على أن يتحملها بنفسه فقط.
أقنع التاجر الجميع بفعالية تلك الخطة التي تضع الحل الأمثل بين أيدي
الناس، وترفع اقتصاد دلمونيا درجات.

استحسن الناس تعهدات التاجر وفكرته للخلاص من الدين كله أكثر
من فكرة الحاكم التي تُوجب إسقاط نصف الدين فقط. عمل النواخذة
وأتباع التاجر على تثبيت الفكرة في عقول الناس، وعلى فرصة الخلاص من
الدين بصورة نهائية بدلاً من الإبقاء على نصفه. انتشر الفرح والتفاؤل
بصورة مطردة بين الناس؛ فهم بين خيارين يحملان الخير برمه إليهم.

أقبل البتُّ الموعود، وأقبلت الأعداد الكبيرة من البحارة والمزارعين
على المحكمة الوليدة. أبدى الناس رغبتهم في إسقاط الدين كله في موازاة
العرض السخي للتاجر، إلا أن القاضي رفض ذلك، وتمسك بنص المرسوم
الذي أصدره الحاكم؛ وهو ما دفع بيوادر أزمة جديدة، من خلال السباق
المحموم الذي يبدو الخير في ظاهره بين الحاكم والتاجر.

وجدتُ أن الخطوات التي قام بها التاجر هي تحدٍ صارخ في وجه الحاكم
ومجلسه، أما أبو راشد فكان ينظر للبعيد حين قال:

- تبدو دلمونيا كأمرأة حامل، تكلمس جينها في بطنها، وتنتظر قابلة
بريطانية للبحث في طريقة مناسبة لتوليدها. ستكفل الأيام بعملية الفصل
بين الحق والباطل.

وفي سياق الليالي الملاح التي تعيشها دلمونيا منذ عشرات السنين، وبناءً
على المناسبة السعيدة التي وُلدت من رحم اجتماع القلعة؛ أقام المعتمد

السياسي البريطاني مساء الأحد اللاحق حفلة في الوكالة البريطانية، حضرها الحاكم وأعضاء المجلس المعين وكبار القوم في الجزيرة، وكذلك المجاليات الغربية، وغاب عنها التاجر بدعوى المرض والإرهاق. دعاهم المعتمد لحفلة فرح أسطورية. قدم وجبة عشاء باذخة في مقر الوكالة التبشيرية، ثم ختمها بحفل موسيقي لتصبح كليا أعياد الميلاد. وقبل ختام تلك الحفلة الساهرة، أقبل بعض رجال الحرس الخاص بالحاكم. رسم القلق فزعاً على وجوههم، هموا في أذنه، رحل معهم لغرفة خاصة، ثم عاد سريعاً؛ طلب الهدوء من الحضور قبل أن يتحدث:

- أيها الحضور الكريم. لقد جاءت الساعة أخباراً مؤكدة، تفيد بقيام مجموعة تخريبية، وعلى علاقة بالقوى الأجنبية المتحالفة معها. قاموا بنهب الأسواق، وتكسير بعض الجواليب (السفن)، وتوجهوا لمراكز التوقيف والسجون. أطلقوا البارود على الحراس، وحطموا الأبواب، وشرعوا في تهريب المساجين. لذلك كله؛ نعلن الآن حالة الاستنفار القصوى لمواجهة الخارجين على القانون، وتقديمهم للعدالة، وكشف علاقاتهم مع أعداء الخارج.

لم تمض غير بضعة أيام، حتى أُعلن عن إلقاء القبض على رؤوس الفتنة، ومعرفة نوع البارود، وتشابهه مع ذلك الذي استخدم في حادثة إطلاق النار على آدم قبل عام تقريباً. إنه سلاحٌ مرخص يعود للتاجر الذي ادعى أنه سرق منذ زمن بعيد. تم تقديم التهمين للعدالة، ثم جلدتهم عشرين جلدة علناً بعد صلاة الجمعة، وزجهما في السجن؛ لتطر دلونياً صفحة جديدة من تاريخها الأحمر.



(22) المترجم

منتصف يوليو 1765

دعا الحاكم آدم وأبا راشد لعقد اجتماع تشاوري في القلعة التي أصبحت مركزاً لإصدار القرارات المهمة والمصيرية. كان في ظاهره رغباً في الاستماع لصوت شعب دلمونيا، والاستشارة برأي آدم من خلال التجارب التي عبر بها وعصفت به. لم يكن الحاكم رغباً في إشعار وتنبه التاجر وأعضاء المجلس المعين بذلك الاجتماع لأنه كان يدرك حدّ اليقين وجود من ينقل أخبار القلعة والقصر برمتها وحذافيرها إلى التاجر. تلك المساعي التي كانت محمود الظاهر، وتهدف للحفاظ على المنجزات والمخرجات الحضارية لدلمونيا.

أقبل الرجلان فاستقبلهما الحاكم استقبالاً حاراً في حُصن القلعة الرّصين، انتقل بهما إلى غرفة الاجتماعات والتي يفصلها حاجز خشبي غير مرصوص عن مكتبه الخاص، تحدث الحاكم - بعد الترحيب - عن الهدف المُعلن لذلك اللقاء:

- لقد تبيّت - وكما تعرفون سابقاً - نظاماً إصلاحياً لدلمونيا، يسمو بشعبها ويخفف عنهم عناء الدنيا وأهوالها، وبما أن لأدم الكثير من التجارب التي صقلت عقلته، ولما لأبي راشد من اطلاعٍ واسعٍ على تجارب سابقة من خلال قراءاته؛ فإنني دعوتُ لهذا الاجتماع لعلنا نصل سويّاً إلى ما نصبوا ونرمي إليه، لا نريد الغوص في ظلمات الماضي، يجب أن نعاين نور الشمس القادم من السماء.

قال أبو راشد مستوضحاً:

- قبل أن ندخل في آليات برنامج التقويم والإصلاح لموكم؛ علينا أن نتخلص من دَرَنِ تلك العالقات التي أدت إلى انشقاقٍ في صف شعب دلمونيا. علينا توحيد الكلمة والصف ليعمل الناسُ جميعاً.

- ما الذي تريد أن تؤكدَه؟

- سمو الحاكم. إنك بلا ريبٍ تتذكر مأساة مسألة التحكيم التي رصدت مستقبل دلمونيا بتفاصيلها على رسم نخلة وكتابة لفظها، أجد أنها وصمة عارٍ في تاريخنا، فكيف لحقبة إصلاحية أن تحمل بين طياتها هذه الحادثة؟ إنَّ من يريد أن يلوح بغصن زيتون ويثر الحب بين عناصر شعبه؛ عليه أن يُثبِتَ دعائمه، ومن أسس ذلك - مثلاً - أن يُعِنه في الحصول على حق التعليم، فكما يذكر آدم؛ فإن التعليم في بلادهم هو الأداة الفاعلة للتغيير والإصلاح، فإذا كان الناس - هنا - غير قادرين على قراءة كلمة؛ فإنهم في ظلمات متعددة. إنهم لا يستطيعون أن يتواصلوا بلغة سليمة تحفظ حقوقهم، وتعينهم على حسن التواصل. إنَّ في التعليم مُخرجات لحفظ تاريخنا العلمي؛ فنحن بتراثنا وموروثاتنا لا ننطلق من الصفر. هناك الكثير من البيوت التي تفخر وتزخر بأعداد هائلة من المراجع والمصادر العلمية⁽¹⁾.

طلب آدم أن يشارك في الحوار إظهاراً لِحبه للجميع: في هذا السياق، يجب أن أتزود بمقولة شهيرة لأحد فلاسفة الغرب: "إنَّ التعليم يجعل أيَّ

1 - ضمت مكتبة الشيخ أحمد بن إبراهيم العصفور (1718م / 1131هـ) ميراث آل عصفور العلمي، ونقلها ولده الشيخ يوسف (صاحب الحدائق) إلى مشهد الإيرانية لما حفلت به من ذخائر وكنوز التراث العربي والإسلامي. (المترجم).

شعب سهل القيادة، صعب التسيير، من السهل أن تحكمه، ولكن من المتحيل أن تتعبده". إنني أجد أنها مقولة صحيحة، ولذلك أرى أنه من الضرورة أن يتحول شعب دلمونيا من غيابة الأمية إلى حقبة النور. لا بد أن نزيل ونمحو معوقات التعليم، وسيكون ذلك - بإراداتكم - أحد مقومات برنامجكم التغييري والإصلاحي.

في تلك اللحظة التي شهدت حواراً جاداً وأفكاراً مثمرة، طرق مستشار الحاكم (خادمُ الرحالة) الباب؛ يتأذن بالدخول، سمح له الحاكم - وبلا ترددٍ - أن يجلس في الجهة المقابلة له، ثم استدرك الحاكم حديثه. أوضح لهم جميعاً أن مسألة التحكيم كانت مرحلة بائدة، جاءت في سياق تداعيات سياسة أمية، وأنه يريد للأمة أن تتعلم من أخطائها، وتسلك بها طريق الحق، ثم قال:

- إن شيوع الحب بين الناس كفيلاً بترسيخ قيم الإنانسة كافة، ولا أرى ضيراً في أن يتمكن الجميع من تجاوز مرحلة الأمية، حينها سيعرف الفرد واجباته وحقوقه، ولن يستطيع أحدٌ أن يتلاعب بالديون العامة للفواصين وسواهم؛ لأنه يدرك دور الرقابة الشعبية للناس، ولن يستطيع المنظرون نفث سمومهم الفكرية في تلك العقول.

وأوضح أن العمل الصادق من أجل دلمونيا يدور حول عدة محاور، وأنه سيحاول بجهود المخلصين أن يتسلق - تدريجياً - ذلك السلم الذي يحقق الرفاهية لشعب دلمونيا، كان المستشار/ الخادم حينها يُصفي بانتباه شديد، ويومئ برأسه تعبيراً عن الرضا أمام المتحاورين.

تكلم آدم مرة أخرى حول مرض ما يُعرف بالأمية القاتلة، أوضح أن هناك بعض النظريات الفلسفية التي لا تقوم ولا تجا إلا في مجتمع أمي،

تبحث لها عن تربة جاهلة لتنمو عليها، فلقد ذكر أحد الفلاسفة - في سياق الحديث عن الشرق - أن نبي الإسلام استغل حاجة الناس وبدادتهم في الصحراء، فقال إنَّ الجنة هي الباتين والمياه والخور العين؛ لأنَّ أنفس الناس تهفو إليها وتجنُّ بها. إنه ما يُعرف بتطويع معتنقي الأديان لترَف الفلسفة، وإنَّ أسهل سلاحٍ لمحاربة هذه النظريات هو التعليم، إنني ونتيجة لترحالي وتنقلي؛ وجدتُ وبسهولة الفرق الشاسع بين مجتمعٍ قروي صغيرٍ مغلقٍ ومعتمدٍ على نفسه ومستقر، وبين عالمٍ غربيٍ نشط. بين عالمٍ أميٍ شرقي، وآخر متعلمٍ غربي حيث يسهل التعامل معه. تلك هي إحدى المسؤوليات الجمة التي يجب على الحكام أن يحملوها في نطاق العقد⁽¹⁾ القائم بين الحاكم والمحكوم.

تطرق الحاكم في محور موازٍ لذلك، إلى أنه يوجد هناك عقدٌ اجتماعيٌّ متوارثٌ وغير مكتوب بين الحاكم وبين شعب دلمونيا. إنه عقدٌ قائم على توفير الخدمات الأساسية، ومنها الأمن والمتطلبات الأخرى، وذلك كله مقابل أن يتنازل الشعب عن حقه السياسي والقبول والتسليم بنظامٍ أوتوقراطي⁽²⁾ لا يتمتع بأي تمثيل شعبي، ولذلك فإن فشل الحاكم في مهامه يضعف شرعيته، وإنه إذ يرفض رفضاً قاطعاً أن يوصف برنامج التغيير والإصلاح بالفشل والخنوع؛ أدرك - تماماً - أن هناك رأياً معارضاً، وأدرك - أيضاً - ما أوضَّحه آدم من أن المعارضة - هنا - توافق على نظام أبوي سائد، ولكنها تطالب بحرية أوسع في صنع القرار.

1 - يُعرف العقدُ حالياً بالدستور. (المترجم).

2 - أدخلت هذه المفردة على النص الأصلي لأنها الأقرب لشرح المعنى. (المترجم).

لريكن حوار الحاكم مع الرجلين وبحضور مستشاره يطفى شمعة إلا وتوقد شمعة أخرى. تحدث آدمُ حول أسباب التغير والتحول الذي أدى لبزوغ نجم الثورة الصناعية في الغرب. قال إنها نتاج أسباب مختلفة، ومنها انتشار الفلسفة التنظيرية، ووجود الأقليات التي تثرى المجتمع بالثقافات المختلفة، وكذلك البحث الدؤوب عن المصادر الطبيعية التي تغذي القطاع الصناعي بدعائمه. لقد تحول المجتمع الغربي إلى مجتمع صناعي تناسى في قمة ازدهاره الكثير من القيم الانسانية. ولذلك فإنه يؤكد أن معصية الآلة أصبحت حلالاً. تلك الثورة الصناعية التي ترفع نظريات إنسانية وشعارات فارغة؛ ثورة صناعية يمكن بقمامتها أن تسد جوع فقراء أفريقيا قاطبة! ثورة ازداد معها الفقير فقراً، والغني غنى، وكان لعصر الآلة اليد الطولى في انتشارها؛ ذلك هو التكريس الفعلي للطبقة البغيضة... ثم توجه بحديثه مخاطباً الحاكم:

- أيها الحاكم. إذا أردت أن تعرف أين أنت في قلوب محبيك؛ فارفع سوطك وسيفك عن رقابهم.

نظر أبو راشد إلى الخادم، وأفاض على حديث آدم. قال إن الشعائر الإسلامية قائمة على تذويب الطبقات والتقريب بين الناس، أما ترى في الحج، وصلاة الجمعة والجماعة، وغيرها من الشعائر ما يهدف إلى المساواة وردم الطبقة؟ تلك هي المهام التي تنتظر الحاكم ومستشاره في برنامج التغير والإصلاح الذي يتناه.

أضاف الخادم بدوره: أرى أن تقترحوا على الحاكم أيضاً أن يُفرج بكرمه عن السب يوسف المتهم بجريمة قتل وبمحاولة قلب نظام الحكم بالقوة.

أراد الحاكم أن ينهي الحوار المتشعب فقال:

- ختاماً. أيها الحضور الكريم، قلتُ إنني على ثقة بتعاونكم جميعاً من أجل تحقيق تلك القيم الإنسانية العظيمة، ولكنني أرغب في طلبٍ صغير منك يا أبا راشد.

أجابه باقتضاب: تفضل.

قال: بما أنك وعلى خطى والدك العميد رحمه الله، لا تتوقف عن تعليم من يطلبك، وبما أنك تقيم حلقات تعليمية في مجلسك؛ فلإنني أرغب أن تعطي دروسك تلك لأبنائي الثلاثة، بشرط أن تكون الدروس بعيداً عن البقية؛ حتى تصلهم الفائدة المرجوة حين تخصمهم بها.

أجابه: يا سمو الحاكم. لقد جاءت امرأتان إلى علي ابن أبي طالب تطلبان عطاءً من بيت مال المسلمين؛ فأعطاهما ما طلبتا، قالت أولاهم: أنا عربية أما زميلتي فهي أعجمية. رفع عليُّ التراب بيديه وسألها: هل تجدين فرقاً بين هذا وذاك؟ قالت المرأة لا، فقال لها: كلكم لآدم وآدم من تراب. يا سمو الحاكم. كيف يمكننا أن نلغي التمييز والطائفية بين الناس، ونشر الحب في قلوبهم، وأنت تدعو للطبقة في سلوكك؟ يجب علينا أن نتخلص من النظريات والشعارات الفضفاضة أولاً. يجب أن نبدأ التغيير بأنفسنا. إن ما تطالب به هو تكريس للطبقة البغيضة بعينها.

لم يرق للحاكم ما قاله أبو راشد: إن برنامج التغيير والإصلاح قائم وسيحقق أهدافه مجتمعة، ولكن لا يمكن أن نضع البيض كله في سلة واحدة. لا يمكن أن يجتمع أبناء الحاكم مع من سواهم في بيئة تعليمية واحدة تُعطي مخرجاتٍ متشابهة.



(23) خولة

الأسبوع الثالث من يوليو 1765

حتى كتابة هذه السطور التي جاءت بناءً على رغبة آدم في توثيق رحلته وزيارته لدلمونيا؛ لريكن الرجلُ قد أنهى - بعدُ - بحوثه ومبتغاه. لقد تحدث مرة عن أن الدراسات الإنسانية لا متناهية، وأن للتاريخ ذبلاً أزلياً ورأساً أبدياً، وأن الاستتار بأحد جانبيه يُضيق الماضي ويعيق المستقبل. لقد ركّز في وصاياه على أمور مختلفة، ومنها تدوين ما يجري فوق تراب دلمونيا، ثم حفظ أو تبادل تلك المخطوطات التي تمنّاها خالدة؛ لأن هناك من سيأتي ليدون كتاباتنا. ذكر أن اللغة الصادقة هي التي تنقل المشاعر والأفكار. ولذلك يأنس الإنسان بجنس من يحمل اللغة نفسها، وذكر أن اللغة التي لا تشعرنا بالأشياء تعدّ كاذبة، وأكد أنها الطريقة المثلى لنقل التجارب بين الأجيال. وعليه صار من الضرورة أن يُدوّن التاريخ لتتخلص العبرُ منه، ويُستفاد من عصارته. وبما أن الحياة قادرة على أن ترتبك حسب أولوياتها؛ فقد قرّر أن يقطع رحلته، ويعود لبلاده لكي يُحضّر أهله وذويه لخطبتي. كان مليئاً بالرغبة والحماس لتحقيق هدفه المعلن، والذي انتشر في دلمونيا كما تنتشر قطرة حبرٍ في نهرٍ جارٍ.

سألته إن كان حب الشهوات هو ما يحركه، كما يحرك الإنسان ويميل به للجنس الآخر؛ فطلب مني تعريف الشهوات أولاً، والوقوف على طبيعة معانيها؛ فإنّ التعيين هو وضع إطارٍ يقولب المفاهيم المطاطية ويحددها...
قلتُ مسترسلة:

- الشهوات هي مفاتن الحياة، ومتاع الدنيا، وهي التي تشمل - ضمن معانيها - النساء، والبنين والأموال وغيرها. قال:

- إنني وكسائر البشر أحب كل الذي ذكرت، إنها أمرٌ سهاوي أُلقي برمته في قلب الإنسان، وليس للإنسان حق الخيار فيما تهبه السماء، ما يجب على الإنسان أن يستوعبه ويتداركه هو أنه ليس بالضرورة أن توظف تلك الشهوات في حب الدنيا فقط، حينها تُصبح الشهوة هدفة وآخر متهاها، تسلط عليه متجبراً وتسيطر على مخرجات سلوكه، بينما شرعت الشهوات في غائتها من أجل حفظ النوع البشري واستدامة سعادته. ولذلك وُجدت الديانات من أجل تقويم السلوك البشري في طريقة الحصول على تلك الشهوات والاستمتاع بها.

- وهل تعتقد أن الدين ضرورة ملحة لحفظ النوع البشري؟

- تلك ضرورة ملحة ومطلقة لتنظيم الحياة وعبادة الخالق. لقد نادى كثير من الفلاسفة والمنظرين والياسين بضرورة وجودية الدين وسطوته التي تصل حدّ السلطة، وأن المجتمع اللاديني يكون بلا مرجعية وأقرب للهلاك، بل الانقراض⁽¹⁾.

لا تنتهي الحوارات مع أبي أو آدم وقبلهما العميد إلا لتبدأ حكاية أخرى أكثر إثارة وتشويقاً. لقد أشيع عن رغبة آدم في مغادرة دلمونيا؛ فتأهى الأمر كالبرق إلى مسامع الباليوز. أعلن عن تكريم له سيقام خلال بضعة أيام، وأبدئ رغبته في إقامة حفلة وداع على شرف آدم، انطلقت الدعوات وأقيمت الحفلة الصاخبة في القلعة، وحضرها لفيفٌ من سادة دلمونيا

1- لقد قال - لاحقاً - القائد الفرنسي الشهير نابليون بونابرت (1769 - 1821): لولم توجد البابوية لكتُ أوجدتها لأنها تفلل العقبات. (المترجم).

ورجالاتها، كما وُجِهُت الدعوة لعامة الناس الذين أبدوا تعاطفهم ومحبتهم لأدم الإنسان. وبعد الانتهاء من الحفلة، تغنى الحضور بمآثر الضيف الكريم ونبل أخلاقه. بعدها أهداه الحاكمُ معطفه ومبحة امتاناً وتكريماً لجهوده المثمرة إبان التقيب في مدافن دلمونيا. أما الباليوز فوعده بتوفير سفينة خاصة تنقله لشط العرب شمال الخليج العربي، على أن توصله - سالماً - قافلةً أخرى إلى القنصل الهولندي في بغداد.

كان لزاماً أن يضع آدمُ زميله الخادم ضمن خططه ويُشعره بانتهاء المهمة في مقابر دلمونيا، والبدء بخط العودة لكوئنهايغن. اقترب آدم من الحاكم وطلب من الخادم حواراً خاصاً، وجه له دعوة مباشرة للعودة إلى الديار، ولكنّ (المستأجر) رفض تلك الدعوة، وأثر البقاء في صحبة الحاكم، وقال:

- كنتُ أتمنى المجيء معك، ولكنني علمتُ أن لك عودة إلى دلمونيا.

- أتمنى ذلك.

- بل ستعود؛ لأنك أودعتَ قلبك هنا، وحينها فقط سأرافك في طريق

العودة النهائية.

انحسب آدمُ وغادر القلعة بانتظار ما سيمليه عليه الوقت. انتظر حتى أطبق عليه اليومُ الموعد، لا مفر. حينها قرّر آدم أن يقوم بجولة أخيرة في أحياء وزقاق المنطقة التي عايشها حول بيت أبي راشد. الأحياء دائماً ما ترسم ذاتها في أعماقنا فنحن إليها. تهيك المباني بعضُ أسرارها؛ فتشعرك بفراق دائم أو منقطع. رافقه والذي مروراً بالأسواق الشعبية؛ بائع أعشاب وآخر للخضروات والفاكهة المحلية، وآخر يفتّش لحومه على جذوع الشجر في الهواء الطلق. هناك كانت تُباع لحوم الحيوانات جميعاً؛ لحوم القطط والبقر والغزلان وغيرها، وكان يُشترط كقانون عرفي أن يُوضع

الرأس قرب الذبيحة ليميزه المشتري، وتكون له مطلق الصلاحية في اختيار نوع الذبيحة التي يرغب فيها. أصاب آدم شيء من الغبطة حين شاهد أن المسحور بين البائعين، والذي أحضر بدوره (مشرداً) بائناً ليعمل إلى جانبه. أصبح الرجل - على ما يبدو - عنصراً متجاً في المجتمع، تحدث مهتاً نفسه: نجحت المهمة.

استوقف المشهد آدم فأضحى متسماً في مكانه فرحاً بما صار إليه المسحور. استخرج - كعادته - ساعته المربوطة بسلسلة فضية من جيب معطفه الأيسر. أقبل المسحور وصاحبه بالقرب من آدم. أطال النظر تحديقاً في الساعة، طلب المسحور أن يعاين الساعة فأوجس آدم منها خيفة. أخذها منه صاحبه على حين غرة، أخذ يعاين بدقة ذلك الكائن الغريب، وجد ما بداخله يتراقص في حلقة دائرية، وضعها بالقرب من أذنه يصغي إليها، بدأت نبضات قلبه تتزايد، أصابه الهلع وضربه هاجس من القلق والريبة. انسحب للوراء، وآدم لا زال يقتفي أثره ناظراً. انتفض المشرد في محله، ووضع الساعة في إناء مليء بالماء، اقترب آدم منه منزعجاً، ولكن المشرد أشار إليه بيده لكيلا يقترب أكثر، سأله آدم:

- لماذا أغرقت الساعة؟

- أريد أن أغرق الحيوان الذي بداخلها... وأقتله.

- إنها آلة صماء ولا يوجد بداخلها أي حيوان.

- بل يوجد حيوان يعمل عن طريق السحر وبإمرة شيطان مريد.

ابتم آدم وقال: الآن عرفت أن خيانة الآلة سنة صناعية.

استمرت الساعة في عنادها ولم تتوقف عن الدوران، قذف المشرد بها أرضاً، تفككت وتحطمت أجزاؤها، قام يدعها برجله، أثاره مسّ وجزع

أكبر. لرتهداً، للملم أجزاءها ووضعها في قطعة قماش قدرة، ثم أخذ يجري سريعاً متعبداً بها حتى اختفى عن الأنظار. طلب أبو راشد من أحد الباعة المشهورين بقراءة الأثر أن يقودهم في تتبع خطوات المشرّد. أقبل الرجل متائلاً:

- كيف يمكنني ماعدتكم؟

- نريدك أن تقتفي أثر المشرّد ونعرف وجهة سيره.

تفحص قارئ الأثر خطوات المشرّد ثم أوضح:

- يبدو أن الرجل انتفض سريعاً وذهب يسابق الريح. أستطيع من خلال أثره أن أقول إنه خائف جداً. خطواته متباعدة ولا تُطبق على التراب بكاملها، فمن سرعته نجد أنها صغيرة تكاد لا تظهر غير أصابعه ومقدمة قدميه، ستبعه بكل سهولة ويسر.

وصل الثلاثة إلى أطراف المقبرة، وجدوا المشرّد داخلها، وقفوا خلف شجرة البوابة الغربية بالقرب من منزل السيب يوسف يعاينون ما يفعل. أقبل عليهم شابٌ ووقف معهم مراقباً. أصبحوا أربعة، قام المشرّد بمهمة دفن قُتات الساعة، حضر ما يشبه القبر وألقى (السحر) فيه.

تحدث الشاب مخاطباً أبا راشد: إنه ذات الرجل الذي دفن (عملاً) من قبل. العمل الذي أخذته والسبب يوسف إليك ثم للعميد، ولكن ماذا يحمل في ربطته هذه المرة؟

قال أبو راشد:

- قُتات ساعة وقطعة قماش، يحاول أن يدفنها ليخلص العالم من شرورها.

- وما هي الساعة؟

- آلة صغيرة لمعرفة الوقت وقياس الزمن.

انتهت حكاية الساعة البحرية، فعاد أبو راشد وآدم وقد استوعبا المفهوم الدارج للبحر والعمل. عادا وقد اكتست علاقتي بآدم شيئاً من الرسمية؛ حيث يتحدث الجميع عن الزواج المحتمل والمتنظر تحت مسمى (خولة لآدم). هناك الكثير من المحببات التي أرغمت البعض على توقع فشل المشروع، ومنها الاختلاف الديني والذي قد يُجبر أحد الطرفين لاعتناق ديانة الآخر. تذكرت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽¹⁾. اطمأن قلبي حين استذكرت أن القرآن يحارب الطبقة بكل أنواعها؛ طبقة الجنس والمال والمجتمع وغيرها، حتى قال الرسول (ص): كلكم لآدم وآدم من تراب. تمتُّ التوفيق والهداد؛ فمن مشروعية التزاوج أنه عملية لتدوير النظام الطبقي.

أقبل الرجلان معاً وقاما ببرد قصة المسحور والمشرّد ومقتضي الأثر الذي أوصلهم للمقبرة. حينها أوصيتها أن يحضروا لي رجُل الأثر في اليوم الموعد؛ في يوم رحيل آدم. دارت عجلة الأيام سريعاً، حتى حلت الليلة الأخيرة لآدم في دلمونيا. أطال آدم جلوسه مع أبي راشد الذي دعاني لمشاركتهم في آخر الحوار... سألتني أبي:

- يريد آدم معرفة شرطك الرابع قبل رحيله.

- لقد ذكرت ذلك سابقاً يا أبي. لن أذكر الشرط الرابع إلا بعد أن

يتحقق الشرط الذي يسبقه؛ أي حين يحضر بعض من أهله وذويه.

1- الحجرات: 13.

كانت ليلة قصيرة حقاً، لرتغفُ فيها العيون إلا مع مطلع الشمس، حينها بدأ الوداع. احتشد بعض الأهالي مع وفد رسمي يمثل الباليوز والحاكم لمرافقة آدم على ظهر السفينة البريطانية. طلبتُ من المسحور - وبعد الاستئذان من أبي - أن يطلب من آدم المشي حافياً في اتجاه السفينة. قام مقتفي الأثر بمتابعة خطاه لعلّه يصيبُ الطالع حين يقرأ الأثر. كنتُ لا أؤمن بقراءة الطالع ولا الأثر، ولكن بعض ممنوع مرغوب، وعند الضرورة تُلغى المنطق وملماته.

بعد الوداع الرسمي والشعبي لآدم، جاءني قارئ الأثر برفقة والدي...

سألته:

- بماذا أنطقك الأثر؟

- لا أستطيع أن أقرأ أثره إلا حين أقرأ أثركِ أنتِ أيضاً.

سرتُ أمامه حافية القدمين بضع خطوات. تقدم نحو أبي راشد، أسرّه بعض الأمور، وما لبث أن غادر المكان.

- ماذا قال لك؟ كيف قرأ الأثر؟

- قال: وإن عددنا المرأة شريكة وتمتد منها الحياة، إلا أنني قرأتُ من أثر خولة؛ أنها تميل إلى التفرد في أعماقها. أما أثر آدم فيميل إلى التعدد في أعماقه. وما بين التفرد والتعدد مسافة لا تستوي معها الأمور.



الفصل الثالث

(1) آدم

الأسبوع الأخير من يوليو 1765

قلمت السفينة البريطانية باتريك ستوارت من جزيرة هرمز؛ سفينةٌ تشهني في ترحالها. حطت رحالها، وغرست أوتادها على بعد ميلين بحرين شمال جزيرة دلمونيا، بقيت صابرة مرابضة لساعات تنتظر نقل المسافرين والأمتعة، أقلتنا القوارب الصغيرة للبحارة المحليين. أفرغت حملتها البشرية ووضعت على ظهرها حمولات ومؤن مختلفة: بريديّة وغذائيّة وعسكريّة وبعض الضرورات الطيبة. لازالت السفينة تحمل طابعها العسكري وترفع العلم البريطاني مرفرفاً عالياً، يعلن بقوة رغبة التاج الملكي في ببط نفوذه على المياه واليابسة - على حدٍ سواء - ومن الغرب الآسيوي وامتداداً لشرقه.

استقبلني الميجور قبطان السفينة بحرارة، أفرد لي موضعاً مريحاً يمكنني فيه الاسترخاء والتأمل والنوم، أحسّت بالاستقلالية ففتحتُ الخُرْجَ وبسطتُ ما لدي من مخطوطاتٍ وخرائط. وقع نظري على مخطط مدفن دلمونيا، عاينته مجدداً، أطلتُ النظر بين الجزيرة وبين الرسومات، تبدو دلمونيا كسفع جبل يرتفع ناحية القمة، تساءلتُ إن كان لبشرٍ كلّ الحقّ في أن يضيف تلك (الطعوس) لعجائب الدنيا السبع الفانية منها والقائمة،

أحسَّتْ بلوعة الفراق وصعوبته، تمرُّ حلقاتُ الذاكرة وتتوالى: خولة، المدافن، اللؤلؤ، والقائمة تطول... لا يمكن أن تبدأ مرحلة الذاكرة ما لم ينقطع المكان عن مرمى النظر.

أبحرت السفينة؛ فصرتُ كمن يتلُ خيطه من عجينة لذيذة تُسمى دلمونيا. كان مسار السفينة سيوارت يختلف عن مسارات المراكب الشراعية المتشرة بغزارة في الخليج العربي. تلك المراكب التي إن لم يُصادفها القراصنة المتشرون بكثرة فإنَّ قراصنة القلوب المريضة أقرب لها. في الكثير من الرحلات البحرية تتعرض سفن النقل التجارية إلى عمليات سطوٍ وقرصنة، وفي مواقف أخرى يقوم رُبان السفينة بعقد اتفاق مسبق مع القراصنة، يُعلن على الملأ ضياعه وفقدانه لخط السير البحري؛ فتيه في البحر عمداً، يتلقفه القراصنة فيفرضون على الركاب والبضائع ضريبة يقتطعونها حالاً، ويكون للربان المتآمر في تلك الخديعة ربع تلك الضرائب. حكايات الخليج الخرافية لا تنتهي، إنها أساطير يصنع أغلبها الإنسان، وتحالف الطبيعة معه في مقدار بسيط.

لم تستغرق السفينة في طريقها الكثير من الوقت حتى بدت ملامح جزيرة بويان شمال الخليج؛ الجزيرة الغنية بمختلف أنواع الطيور المهاجرة؛ جزيرة بيضاء مستوية تكتسي اللون الأبيض صيفاً والأخضر ربيعاً. إنها تقع على يسار سيوارت التي توصل إبحارها حيثاً في اتجاه شط العرب، يمكن معاينة بعض الحيوانات البرية من خلال المناظير. اقترب قارب شراعي صغير من السفينة البريطانية، تسلَّم البريد القادم من الشرق الأقصى ودفع الرسوم المتعارف عليها بكل الرضا.

توجهت ستوارت ناحية شط العرب، إننا نبحر في المنطقة نفسها التي جرت فيها مراسم التحكيم السياسي بين الفُرس وبين الشيخ سليمان الذي أتمنى لقاءه مجدداً في جنوب العراق. حتى المياه قادرة على الاحتفاظ بالأحداث فوق سطحها، تستطيع الياسة - غالباً - التفوق على الحلول العسكرية بشرط أن يمتلك المتحاورون القوة المطلوبة للمردع. ولكن لا أعتقد بوجود حل وسط يرضي أطراف النزاعات إذا كانت كفة القوى تميل لأحدهما، تمكن الشيخ سليمان من بسط نفوذه على المنطقة متاخماً ومزاحماً للقوى الإقليمية المتنازعة، رسم حدوده بين الفرس والأتراك والمؤجدين، إنه يضرب بجذوره في الأرض على خط نارٍ ملتهب، لذلك لا أتوقع لدولته الناشئة الصمود عقوداً طويلة.

بدأت ستوارت تقترب من المياه الضحلة وتحاول عدم الاحتكاك بقاعها، تحول لون المياه - تدريجياً - من الأسود إلى الأزرق القاتم، وصولاً للأخضر الذي يُبدي فتة تراب قاع الخليج. صار من الصعب أن تواصل السفينة سيرها، هنالك تلعبُ القوارب الصغيرة الدورَ المُنوط بها. تأخذ الركّاب والبضائع إلى الموانئ والمراسي الصغيرة المتشرة على ضفاف شط العرب وأهواره، ومن بين كل تلك القوارب؛ استطعتُ التعرف على تلك التي يمتلكها الشيخ سليمان؛ طلبتُ أن أزوره قبل أن أواصل رحلتي إلى بغداد، وافق قائد المركب مرحباً عندما عرف أنني لستُ عربياً، وأنني أودُ شكر الشيخ على حُسنِ كرمه وضيافته منذ ما يقربُ من العامين، كما أتفقُدُ ما حدث للأمانة التي وضعتها بين يديه.

لرستم المركب الصغير بمجادفه في الإبحار غير ساعة من الزمن عندما وصلنا لمناطق الأهوار، مناطق مائية ضحلة جداً تغطيها نباتات قصب البردي والسكر وأخواتها، من العسير أن تستطيع التمييز بين

النباتات التي تنمو فوق اليابسة وتلك التي تضرب بجذورها في المياه،
تختلف البيتان لحدّ التشابه، ولكنّ أهل الأهوار أدريّ بمياهها وترايبها؛
فبعد وقتٍ قصير طلبوا مني أن أترجل وأحمل أمتعي لأمتطي حماراً
سيأخذني لمجلس الشيخ الذي وصلناه بعد دقائق معدودة.

استقبلني الشيخ سليمان بالأحضان في عادة عربية أصيلة وعفوية،
قبلاًت على الوجتين واحتضاناً تشعر معه بدفء روح صاحبها قبل
جده؛ دعاني - كالعادة - للجلوس على يمينه. أقبل الصية بالقهوة
والشاي وبعض أنواع التمور التي تشتهر بها المنطقة، ثم تحدث:

- تبدو عليك السعادة وإنّ أعيالك تعب الترحال يا آدم.

- السعادة بلفائلكم مجدداً أيها الكريم.

- كيف وجدت دلمونيا، وهل طاب لك المقام فيها؟

- وجدتُها مثل امرأة شديدة الجمال؛ ذلك الجمال الأقرب للكمال، والذي
يدفع الرجل للبكاء.

ابسم الشيخ وهو يردد: تلك هي دلمونيا؛ أرض الخلود، امتداد أرض
سومر التي نحن عليها الآن.

استأذنته أن أفتح خراجي، أخذتُ منه (البشت) العربي الذي أهداني
إياه حاكمُ دلمونيا؛ بشتٌ غليظ النسيج، بني الصوف، مطرز الأطراف يدويّاً
على النمط الفارسي، ذهبي التقاطيع. تقدمتُ به ناحية الشيخ.

- أتمنى أن تقبل مني هذه الهدية المتواضعة عرفاناً لمواقفك السابقة معنا.

- إنني أوّمن يا آدم أنّ أقوى العلاقات هي التي تولد بالصدفة، ولذلك
كانت علاقتنا صادقة ليس فيها من المصالح شيءٌ يحقرها أو يسفها.

- إنها هدية متواضعة وبسيطة.

- وما المناسبة؟

- لا شيء، إن أصدق هدية هي تلك التي لا تعترف بالمناسبات، اليس كذلك؟

استمر حوارنا حول الخطة التي يمكنني بها الوصول سالماً إلى بغداد؛ حيث القنصل الهولندي الذي يمثل المصالح الدنماركية في المنطقة. تحدث الشيخ عن رغبته في مرافقتي لحين الوصول إلى بغداد درءاً للمخاطر المحتملة. اقترحتُ عليه أن يقوم بعض رجاله بتلك المهمة، إلا أنه أصرَّ أن يتبنى المهمة تقديراً للدور الانساني الذي تطلعُ به الحملة التاريخية برمتها. وبعد يومين من المبيت في منطقة (الحمار)؛ حيث تتشر قبيلة الشيخ وتتخذها مركزاً لها، انطلقنا في أحد القوراب الصغيرة المبنية من قصب البردي، والمعروفة - محلياً - باسم المشحوف، انطلقنا في الصباح الباكر من يوم سبتٍ دافئ، يرافقتنا فيه اثنان من رجال الشيخ وثقاته، كانت علاقاته قوية متينة مع شيوخ العشائر والقبائل الممتدة على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً وصولاً لمنطقة القرنة؛ حيث مُلتقى الفراتين. وذلك ما سهّل المهمة - حسب اعتقاده - ويوصلنا إلى برِّ الأمان.

التقينا الكثير من السكان المحليين لمنطقة الأهوار والمعروفين بـ(المعدان)، يعتمدون في حياتهم للعيش والبقاء على صيد الأسماك، وزراعة الأرز، وتربية الجاموس، بالإضافة للمهن الفرعية الكثيرة. وبعد أن قطعنا أغلب النهار في المشحوف، والذي يسمى - أيضاً - بالبلم؛ دعانا أحد شيوخ قبائل المعدان لتناول وجبة العشاء والمبيت في كوخ الضيافة. يُبنى الكوخ الواحد - عادةً - والمسمى بـ(أثنان) فوق جزيرة بحجمه فقط. تتناثر الأكواخ فوق أعداد كبيرة جداً من الجزر الرسوبية، والتي تكونت

بفعل المياه الجارية والمنجرفة من النهرين. وبعد أن قبّل الشيخ الدعوة أقيمت على شرفه مأدبة عشاء بسيطة، ولكنها كانت غنية بالحضور الدافئ لأهالي المنطقة. كان الودّ طابعهم والابتسام عنوانهم. وبعد صلاة العشاءين؛ تناولنا وجبة مليئة بالأرز والأسماك المحلاة وبعض التمور. انتقلنا - بعدها - للمبيت في أثنان الضيافة؛ كوخ يتكون هيكله من سعج حُزم من خيزران البردي ومثبتة في الأرض بإحكام. يغطي سعف النخيل المساحة الفاصلة بين الأعمدة، ويتخذ سقف الكوخ شكل قوس، وُضِعَ دلو ماءٍ خزفي خارجه بينما وُضعت دلة القهوة على الفحم داخله.

استلقى المرافقان في الزاويتين المجاورتين للمدخل الصغير للكوخ. اتخذتُ - منزوياً - الزاوية البعيدة موضعاً في مقابل زاوية الشيخ الأخرى، البقاء في الأطراف يهبك القدرة على التفكير وقراءة المساحة التي أمامك بشمولية أكبر. وضعتُ أمتعي وتوسدتها رغبة في النوم الذي اشتقتُ إليه بعد طول جفاء. وقبل منتصف الليل، استيقظنا جميعاً على صوت خشخشة مباغته قادمة من خارج الكوخ... تحدث أحد المرافقين:

- لا بدّ أنه أحد الجواميس النائية، سأبعده فلا تقلقوا. اعتاد أهل الأهوار هذه الحيوانات.

طلب الآخر مرافقه فرفض. خرج الرجل... ولربعد. حمل الشيخ سيفه ورافقه الرجل الآخر بهراوته. بحثا - قريباً - عن صاحبهم، لم يجدوه، وعلى حين غرة، انقضّ عليهم أربعة رجال ملثمين. طعن اثنان منهم المرافق فأردوه صريعاً، استلّ الشيخ سيفه فاجتمع عليه الأربعة. اقترب منه اثنان، أخذ ينازلهم... ولكن؛ انكر سيفُ الشيخ ولربيق في يده غير مقبضه. استداروا حوله في حلقة مكتملة، طعنه أحدُهم في خاصرته، كنتُ خلال

ذلك أراقب ما يجري. استلثت سيف المرافق الأول الصريع من بين مقتنياته، وأقبلت من خلف الكوخ، وطعنت أحدهم بقوة في صدره. أطلق صرخة كبيرة وهوى يتلوى على الأرض، لاذ الثلاثة بالفرار. أقبل الشيخ لرجليه وهو ينزف، جرح الأول... وقُتل الثاني.

استيقظ أهالي المنطقة على الحادثة الدامية. نقلونا على عجل إلى كوخ سيد القبيلة. قاموا بتطبيب الشيخ ومرافقه، ثم جاءهم خبر مقتل المرافق المصاب. ارتسم الغضب على ثنايا الشيخ سليمان. ثم تحدث بصوت أجش:

- بعد هذه الحادثة الأليمة؛ يمكنك يا آدم أن تواصل طريقك صباحاً، نحو (القرنة)، أما نحن؛ فنعود أدراجنا لقيلتنا.

- سأرافكما فأنتما جريحان.

- لقد أبلت بلاءً حسناً يا آدم، ولولا رحمة الله وشجاعتك؛ لكنك الآن مع الأموات على يد هؤلاء الجبناء.

بقي الشيخ ليلة أخرى في كوخ سيد القبيلة الذي أخذ على عاتقه مسؤولية حماية ضيفه بعد الحادث الأليم، تعهد أمام الله وأمام الشيخ أن يقتصر من الجناة، وأن يقوم هو ورجاله بحمايتنا في طريق العودة.

كان جرح الشيخ غائراً وغزيراً، لقد نزف الكثير من الدماء، أدرك أن جسده مقبل على الوهن، وأنه لن يستطيع الصمود طويلاً. لذلك سارع في العودة على الرغم من المخاطرة والإجهاد. قام الرجال بتأمين طريق العودة وتوقع المتربصين. ولكن تبدو الحادثة فردية؛ فلا تتشر جرائم السطو - هنا - إلا مع الغرباء، والذين يعاندون ولا يدفعون ضريبة الطرق.

وصلنا لقبيلة الشيخ سليمان بعد يومين، زاد وضعه الصحي خطورة، بدت عليه علامات الموت التي قرأتها وتفرتها على وجه رجال الحملة قبل

الوصول إلى دلمونيا. صرتُ لا أخطئ ملامح الموت أبداً؛ حشجة صوتٍ
وذذبة بصر. استشعر الشيخُ دنوَّ أجله، أراد أن يرصي. أمر أن يجتمع
برجاله مساءً، وقبل أن يتحدث المجتمعون، رفع أحدُ الشباب صوته:

- ألا يحق لنا أن نعلنَ الحربَ على من غدرُوا بشيخ قبيلتنا؟

تحدث الشيخ سليمان بصوت فيه لوعة وأنينٌ من يوشك على الفراق:

- أيها القوم. إن الحرب قتالٌ ينتهي، وهيبٌ يبقى مشتعلًا في الأنفس،
وهذا ما لا أريد ولا أطيق.

- ولكن تاريخ قبيلتنا وسيادتها يوجب علينا القتال.

- إن من يفخر بماضيه يُضيق مستقبله، إن الطعنة الغادرة آتت أكلها،
إنني أستشعر دنوَّ أجلي، وأعرف أن الموت قادم لا محالة. ولأن المريض
الذي لا يعلم بمرضه يعيش أمدًا أطول؛ غير أنني أعلم بمرضي ودنو
أجلي. إنها سنة الحياة، هناك من يريد أن يعث فيكم الأمل، ولكنني أدرك
من تجارب الحياة الكثير الكثير. أيها القوم. إنكم تعلمون أن الله تعالى لريمّ
عليّ بولد يخلفني ويحمل اسمي من بعدي. لقد وهبني خمس بناتٍ، وهنّ لا
يصلحن لقيادة قبيلتنا المترامية الأطراف؛ لذلك فإنني أوصيكم، وأنا أعلم
بمصالحك منكم بعد الله تعالى، أوصي أن يتزوج آدمٌ إحدى بناتي امتاناً
وتقديرًا لشجاعته في الذود عني، لقد أبلى الرجلُ بلاءً حسنًا، كما أوصيه أن
يكون حاكمكم؛ لعلَّ الله تعالى يهبه ولدًا أكون جده، ويكون شيخاً لكم في
المقبل. أعرف أن شغفنا في تخليد أسائنا هو خوف من الموت، ولكنني
أريد أن يبقى اسمي لترهبوا به أعداءكم.

لربعتُ الشيخ سليمان مساحة كافية كي أبدي رأبي في تلك القضية
المصرية ل قبيلة لا أتمنى لها إلا إنسانياً فقط. لرأعرف أهلها إلا مؤخرًا. أناط

الشيخ لي مسؤولية جمّة، فكيف ستكون الأمور؟ كيف أتزوج غير خولة؟ إنها خيانة عظمى؛ لأن أفسى أنواع الظلم للنفس وللآخر؛ أن تشتاق لامرأة وأنت إلى جوار أخرى. تذكرتُ لقائي الأخير بحاكم دلمونيا؛ حين عرضتُ عليه إمكانية أن يتخب الناس حاكمهم؛ فالحاكمة ليست سنة سماوية أقرت مصداقيتها وتغنت بإنسانيتها. ها هي الفرصة سانحة كي أصبح في موضع القيادة لعلي أدرك ما هيبتها. إنني لا زلتُ على يقين أن القيادة أو الحاكمة تشبه الأموال في تسلطها؛ فمن يجد الأموال أكبر منه يتبه معها عبادة، ومن يجد نفسه أكبر من الأموال تجده أكثر خلقاً وتواضعاً. يعدّها أداة للعيش والتغلب على الصعاب، هكذا تكون الحاكمة. إن الحاكم الذي الذي يجد كرسي الحكم أكبر منه يكون عبداً وأسيراً لشهوة السلطة، وأما من يجد الكرسي أداة لبط الرخاء بين الناس؛ فإنه يُجهد نفسه إرضاءً وخدمة لهم.

تحوّلت وصية الشيخ سليمان إلى واقع ملموس خلال شهر واحد فقط. الموت كالحب يصينا حينها لا نتوقع، ولكن لكل قاعدة شواذ. فارق الرجلُ الحياة، واجتمع أحباؤه لتنفيذ وصيته. عُيّن حاكماً لقبيلة لا أنتمي لها. إنه قانون وصايا ووصاية. اجتمعتُ برجالات وسادات القبيلة المترامية الأطراف، وقفتُ فيهم خطيباً:

- أيها الإخوة. إنكم على دراية أنني ما توليتُ حكم القبيلة إلا وصية من الشيخ سليمان، ولر تكن لي رغبة فيها، فمن رغب في كرسي الحكم يرفع يده متكرماً.

ليرفع أحدهم يده واكتفى كبيرهم بالقول:

- إننا ندرك أنك رحالةٌ وعابرٌ سبيل، ولكننا على يقين أن الشيخ سليمان قادرٌ على حكم القبيلة وهو في قبره. وما أوصى على الحكم لك إلا لقدرته على التواصل معك من العالم الآخر.

يعبر العرب عن العقل بالقلب؛ لذا قيل عنهم: لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعينٌ لا يبصرون بها. أيقنتُ أن الحاكم الناجح يشبه الزوج الناجح في القدرة على المناورة. لذلك صار لزاماً علي أن ارتدي ثوب الشيخ، ومن هنا بدأتُ الحلقة الأولى، وقلت:

- أيها الإخوة. لقد أوصى الشيخ أن أتزوج إحدى بناته، ولكنني أريد تأجيل هذه الخطوة؛ حتى يحين موعدها، وإنني وخلال الحقبة التي سأقضيها بينكم، أريد أن أضع إطاراً عاماً للحكم؛ نسير عليه وتقتفيه الأجيال القادمة، بشرط أن يكون لها الحق في إجراء التعديلات على القوانين التي نضعها الآن؛ لكي تواكب زمانهم ومصالحهم؛ فقوانيننا وضعية لا سماوية. يُمكنكم الآن يا سادة أن تعودوا لحياتكم الطبيعية، وأن تمارسوا نشاطاتكم في مساراتها التي كانت عليها، وأن تبقى الضرائب على المراكب العابرة في منطقتنا قائمة، ويبقى الجميع يتج في دائرة عمله؛ لأن الحياة لا توقف بعد موت أحدنا.

اجتمعتُ ورجالُ القبيلة بعد أسبوعٍ آخر لأخبرهم عن قرارات رئاسية ملزمة. توجهتُ إليهم خطيباً: أيها الإخوة، إنه وبناءً على رغبتني الملحة في العودة لموطني؛ فإنني سأشدُّ الرحالَ بعد غدٍ في اتجاه القِرنة، ومنها إلى بغداد، وسيكون معي عشرة رجال من قبيلتنا؛ لدرء الفتن ومنع المعتدين، وبناءً على المصالح العامة للقبيلة؛ فإنني قررتُ أن نتخب - في اجتماعنا هذا - شيخاً مؤقتاً للقبيلة، وسيكون الانتخاب على أساس التصويت، لكل

رجل منكم صوتٌ واحد. هناك من يرشح نفسه وهناك من ينتخب. الرجل الذي يجمع أكبر عدد من الأصوات؛ سيكون حاكماً يمثل الأغلبية إلى حين عودتي؛ وذلك بناءً على رغبتكم. أي أنكم ستحكمون أنفسكم بأنفسكم، وأما بخصوص زواجي بآبة الشيخ سليمان؛ فإنني سأعلنه بعد عودتي، حين يكون معي بعض أفراد أسرتي.

زادَ اللَّغَطُ بينهم. تداولوا أمرهم ثم تحدث كبيرهم:

- أيها الرَّحالةُ الشيخُ آدم. إن الأمرَ ليس بأيدينا وليس لنا فيه قرار، لقد قرر الشيخ سليمان أن تكون أنت الحاكم المطلق للقبيلة، ولك الحرية في سنّ القوانين وتنفيذها، علينا واجب الطاعة والتسليم. إن وصية الشيخ الراحل نافذة عليك وعلينا.

لقد رفض رجال القبيلة قانون الانتخاب، وظلت دار المعدان - كدلمونيا - على حالها. كأنها فُطروا على حب قانون الأقوي والممتد، أوصيتُ أحدهم أن يكون نائب الحاكم لحين عودتي، وانطلقت إلى بغداد لعلمي أصلُ مالاً.



(2) خولة

أغسطس 1765

إنها المرة الأولى التي يحنني فيها الحبرُ على التدوين منذ رحيل آدم. وجدتُ أن القلم الصادق لا يسيل بغزارة إلا في الكوارث، تدميه امراراً فيكسوها سواداً، أرهقني السيل في اختيار الكلمة الأولى للانطلاق، تشابهت البدايات مع النهايات من حيث درجة السواد في حلكته، لكنني تعلمتُ أن كتابة الرواية انتقام من الطغاة ولكن في الظل، وعرفتُ أن القلم المتردد لا يعرف أين يضع نقطة نهاية السطر.

منذ الاجتماع الأخير الذي عقده الحاكم مع خاصته والذي حضره الباليوز، وادم، والتاجر، وأبو راشد، وأعضاء من المجلس المعين - منذ ذلك الحين - لم يكن هناك صوتٌ يعلو على صوت ورغبة الحاكم، نية صافية طاهرة استبشر الناس بها ومعها خيراً، وأملوا في تغييرات إصلاحية مرتقبة، تقلهم لما يُعرف بجنة دلونيا الخالدة. أمالٌ صادقة لتغيير نظام الدين العام والمعروف بالخماميس لدى البحارة جميعاً، واكمه النظر في المظالم التي تفرق كاهل المزارعين من حيث الضرائب المفروضة على محصولاتهم، ورافق ذلك البدء بانفتاح الأسواق على المنتجات المحلية كالخزف، والغزل، وصناعة النسيج، وغيرها.

بعد رحيل آدم، طلب التاجرُ عقد اجتماع طارئ بالحاكم ومستشاره والمجلس المعين في القلعة الرصينة. سأل الحاكمُ إن كان حضور أبي راشد مهماً بوصفه يمثل الرأي الشعبي والرأي الآخر، لكن التاجر رفض وبشدة رفضاً قاطعاً أن يكون هناك حضورٌ لمن يمكنه أن يكون معارض رأي.

أخبرني أبو راشد عن تلك الاجراءات بعدما استقبل مبعوث الحاكم:
- يعلمك الحاكم عن رغبته في حضورك لاجتماع القلعة القادم، ولكن
بصورة مراقب لا مشارك.

- مراقب؟

- نعم. وبما أنك تمثل الشريحة العاملة والمنتجة والتي تطالب بتغيير
جذري في النظام القائم؛ فإن الحاكم يأمل حضورك بينما يمانع التاجر ذلك.
وعليه قرر الحاكم أن تحضر القلعة على أن يكون دخولك سرياً ومن الباب
الخلفي، يمكنك الاستماع لما يدور في الاجتماع الطارئ، ثم تغادر بصورة
أكثر سرية.

- وما الفائدة إن كان حضوري سرياً غير فاعل ولا مؤثر.

- يريد منك الحاكم أن تطلع على الأسلوب المتبع في قيادة دلمونيا،
وتدرك الصعوبات الجمة التي يواجهها للخروج بها إلى برّ الأمان، تلك
الآزمات التي ترتبط بالإنسان تكون أكثر تعقيداً.

ذهب أبو راشد للقلعة فيما يشبه الجلسة، أدخله المبعوث إلى الغرفة
الجانبية لقاعة الاجتماعات، كان بإمكانه الاستماع لكل ما يجري في الغرفة
الرئيسية والتي يفصل بينهما حاجزٌ خشبي، وكان بإمكانه المشاركة، ولكنه
قرر البقاء صامتاً حتى النهاية بناءً على رغبة الحاكم، واحتراماً للوعد الذي
قطعه على نفسه.

دخل التاجر أولاً، وأعقبه رجال المجلس المُعين فالبالوز. ثار شيءٌ من
اللَّغظ الجانبي بين الحضور قبل أن تتراجع الأصوات وتلاشى مع مقدم
الحاكم ومشاره الذي يسير على يمينه. اتخذ الحاكم صدر الاجتماع
كعادته، تراءته وبدأ مرحباً بالحضور، وأشاد بالخطوات البناءة التي يقوم بها

التاجر والمجلس المُعَيّن، ثم أفاض في حديثه؛ حيث الأولوية للأمن الذي يعمُ الجزيرة بفضل الوجود البريطاني، وحلقة الوصل مع تاجه عن طريق الباليوز، ثم أردف موضحاً:

- يأتي هذا الاجتِماع الذي قيل عنه طارئاً بناءً على رغبة ملحة من التاجر؛ لنتمتع إليه أيها السادة، ونرى ما يصبو إليه خدعةً لدلونيا وشعبها. عَقِبَ التاجر على الحاكم قائلاً: نعم. إنه وبعد الإعلان عن البرنامج الإصلاحِي الذي ينادي به سمو الحاكم، والذي نشي عليه وعلى نُبل أهدافه البعيدة؛ فإن رجالنا المخلصين والذين يحاولون - بكل جهدهم - حفظ الملف الأمني فوق تراب الوطن الغالي، يعملون بكامل طاقاتهم. إنهم يحاولون أن يبقوا ساهرين على مدار الساعة حفاظاً على راحة شعب دلونيا، ولقد بعثوا تقاريرهم الأمنية الأسبوعية، مُجمعين على أن هناك من يتربص بأمن الوطن، ويحاول أن يقصّ مضجع المواطنين، وأن هناك فئة مارقة خارجة عن القانون، متعاونة مع قوى أجنبية شريرة، لا يهمها إلا أن تُصبح دلونيا فوق صفيح ساخن.

قاطع الخادِمُ (المُتَشَارُ) حديثَ التاجر، وتوجه بكلماته للحضور: ولذلك كله، وبناءً على المعطيات الأمنية؛ فإننا نشمن عالياً الخطوات الإصلاحية للحاكم، ولكتنا نشدُ في الوقت نفسه على يديه؛ آمليْن أن يؤخر برنامج التغيير والإصلاح الذي يدعو إليه.

تساءل الحاكم: ولماذا تؤخره أو تأجله؛ إن كان في ذلك كله صلاح ورخاءٌ لشعب دلونيا؟

أجاب التاجر: إن شعب دلونيا - يا سمو الحاكم - لم ينضج بعدُ بما فيه الكفاية لنجعله يقرر مصيره بنفسه، إنه وكباقي شعوب شبه الجزيرة لا زال

عاجزاً عن إدارة حياته والأخذ بيده نحو الرفاهية المنشودة. ولذلك كله؛
فإننا نرجو سمو الحاكم أن يؤخر الخطوة الأولى للبدء ببرنامجه الإصلاحية.
ذكر أبي - لاحقاً - أنه حاول أن يُغير من موضعه وموقعه لعله يقرأ
الوجوه، ويرى ما لا تنطقه. العينُ حين التفرس فيها أشد بلاغة من اللسان.
تحرك خطوتين إلى الأمام ليقرب أكثر من الجدار الخشي الفاصل بين
الغرفتين، سمع صوت الخادم المستشار يعلو تدريجياً جريئاً على غير عادته.
- سمو الحاكم. يجبُ ألا نخالف المنطق فيما يذهب إليه العسُ
الريون حول أعمال بعض الفئات الضالة والتي تعنى لخراب دلمونيا.
هناك من يحاول جاهداً اغتيال سموكم واغتيال جهودكم. أليس ذلك
كافياً؟

أثنى التاجر على كلام المستشار؛ فاستببط أبو راشد أن هناك خيط دهاءٍ
محبوكٍ بين التاجر والخادم. كلٌ يعمل على شاكلته. توجهوا بحديثهم صوب
الباليوز الذي أبدى الرغبة الصادقة للتاج البريطاني في أن يُعمم الأمنُ
والسلام تراب دلمونيا وتزدهر تجارتها.

طلب الحاكم مهلة ليعطي قراره الفاصل قبل أن ينفص الاجتماع. غادر
الباليوز أولاً، وتبعه رجال المجلس المعين الذي يتسم بالصورية المناقفة؛
مجلس استشاري في ظاهره عقيم في اتخاذ قرار ما. بقي الحاكم على كرسيه
واقترب منه التاجر، وأما الخادم فأخذ يحوم حولهما متحدثاً:

- هل يذكر سمو الحاكم ذلك الكابوس المزعج الذي كان يراوده لأمدٍ
ليس بقصير؟

- بالطبع، لا زلتُ أذكره ولكن سلسلة انقطع منذ أن أخبرتك عن
تفاصيله.

- إن ذلك الكابوس الذي يكتم أنفاسك، ويحشم على صدرك عند النوم لا زال قائماً، لقد كنتَ تشاهدُ فيه قتيلاً يسبح في دمه، وهناك شابٌ وسيم يخرج من رأسه وينادي بأن يُعطى دماً؛ ليُقي به عطشه حدَّ الارتواء، ألا زلتَ تذكر ذلك الكابوس أيها الحاكم؟

- نعم. لازلتُ أراه ماثلاً أمام عينيّ حالَ أخبرتني به.

كان أبو راشد يجلس النظر للحاكم من بين شقوق الحاجز الخشبي دون أن يراه أحد. لقد وضع الحاكم رأسه بين كفيه وأغمض عينيه. استدار حوله الخادم الذي كان يحمل خيطاً دقيقاً، أخذ ييساره يربت على كف الحاكم، وأدار الخيط الحاد حول رقبته، وبحركة يديه الخفيفتين، شدَّ الخيط من جانبه على رقبة الحاكم وهو يقول: هذا تفسيرُ رؤياك.

حاول الحاكم أن يبدي مقاومة وتشبثاً بالحياة تُوقفُ اختناقَه؛ فرفع التاجرُ هراوته وألقاها بكل قوته على رأس الحاكم الذي ترنح على الأرض من ساعته، أطبق الخادم بخيطه على ما قبل الفكِّ حتى خارت قوى الحاكم، ونازعت روحه جسده. أثنى التاجر - مبتهجاً - على فعل الخادم:

- أحنت صنعاُ أيها الرجل، سيُجزلُ لك العطاء كما اتفقنا وستبقى مستشاراً لدلونيا.

- كيف يمكننا التخلص من جثة الحاكم الآن؟

- سنداريها في الغرفة الداخلية خلف الحاجز الخشبي كي نتمكن من إخراجها ليلاً.

سمع أبو راشد ما ينوي الرجلان فعله في تجريد للسياة الدموية القاتلة. لقد كان أعزل يُشبه في وجوده؛ لذا آثر الفرارَ من حيثُ أتى. فتحَ

الباب يريد الهروب فلمحه الرجلان، صاح التاجر في رجال الأمن وبأعلى صوته:

- اقبضوا على القاتل.

وتبعه صوتُ المشتار: اقبضوا على اللص القاتل.

تكالب رجال الأمن حول المُتهم، أوسعوه ضرباً كاد يودي بحياته، تدخل المشتارُ الخادمُ بين رجال الأمن والمُتهم:

- يجب ألا يُقتل أبو راشد هنا، عليه أن يمثل للقضاء، وأن يستمع القاضي البلبل للشهود قبل أن يُصدر حكمه العادل بالقصاص، وأن يُسمع للمتهم بلقاء أهله قبل ذلك، وأن يُدعى باليوز لحضور المحاكمة العلنية كطرف دولي محايد. ذلك هو ذات البرنامج الإصلاحية الذي كان يقوده الحاكم والذي يجب أن يبقى نبراساً سائداً صامداً في دلونيا.

وفي اليوم التالي، أعلن التاجرُ عن رغبة دلونيا في أن تُعقد المحاكمة يوم الجمعة اللاحقة، وبحضور القضاة الثلاثة والكثير من الشهود وعامة الناس. وأن توجه تهمة القتل العمد والسطو المسلح لأبي راشد الذي لم يجد نفعاً في دفاعه الأولي عن نفسه غير قوله للتاجر: لن تقتلني قتلة إلا قتلك الله بها، فلم يستطع من قبلك القرامطة، ولا الغزاة، ولا دول الاستعمار كالبرتغال، لم يستطيعوا جميعاً إركاع دلونيا وإخضاع شعبها.

تحدث التاجر لأبي راشد ولرجال أمنه ولمن حضر من الملائ:

- إن عدالة السماء نافذة؛ فلا يمكن لبشرٍ أو شيطانٍ أن يبطها ويكسر ميزان عدالتها، ها هي السماء تهب الحق لأهل دلونيا، إنها ستقتص ممن حرّض على قتل ابني ناصر غرقاً، وأثار الفتن بين العامة، ثم سطا على

القلعة، وقتل المحاكم عن قصدٍ وتربص، وحاول - جاهداً - أن ينال من
دلونيا التي ترعاها السماء لتبقى خالدة.

إنني - أي خولة - وبعد لقائي الأخير بوالدي؛ أدونُ تلك الجريمة
التكراء بحذافيرها ليحفظها التاريخ، ويفخر بها مستقبل دلونيا؛ فقد قيل
إن من يكتب التاريخ يمي به متصراً. كتبتُ هذه المدونة بدمي ودموعي
ومحبري. قد لا تكون المدونة المخطوطة مكتملة بسبب ما سال عليها من
فيض دموع، ولكنها - حتماً - ستجد من يحياها، ويضعها بين أيدي الناس
بعد قرون. تلك أمانة كبيرة على عاتقك أيها الكاتب، عليك أن تترجم
الأحداث والمشاعر على الورق، عليك أن تنقل معانيها وأفكارها، وأن تعيد
صياغتها بأسلوب أقرب لعصرك؛ لأنني أجد فيك الأمل الذي ستبقى به
دلونيا خالدة في قلوب من يتشوق هواها.



(3) آدم

منتصف أغسطس 1765

قطع رجال قبيلة الراحل الشيخ سليمان وعوداً على أنفسهم بأن يأخذوا بيدي سالمأ إلى ما بعد بلدة القيرنة ووصولاً لمشارف البصرة. كنتُ - خلال تلك الرحلة - رئيساً متوجاً لقبيلة لا أتمني لها أبداً، لم أشعر بالزهو بقدر ما شعرتُ بالرافة تجاه النفس العبودية الراسخة عند أغلب أبناء الشرق؛ شعوراً بالنقص والعجز واستعداداً فطرياً للانقياد. ولكن؛ لا عجب فبعض العظماء على مكائهم يعبدون بقرة، وعلى النقيض، شعرتُ بالأمان نتيجة ما قام به الرجال من مناوبات أمنية مخلصه حفاظاً على حياة رئيسهم غير المتخب. صرتُ أدون ما فاتني وأنا إلى جوار امتعتي. أغرف من مخزون الذاكرة وأصبه حبراً على الورق، مطمئناً يلأزمي النوم حين أرغب فيه بلا مجافاة. كانت البصرة - حينها - تحت السيطرة البريطانية من الناحية الرسمية، والتي أخذت على عاتقها تأمين الطرق التجارية والبريدية. سيطرة بريطانية يستشف منها الرغبة الملحة للإمبراطورية في البقاء هناك طويلاً. ولكنها لم تغامر - قط - بإقحام نفسها في الحياة اليومية للأهالي. إن إدارة العجينة من أطرافها تقيك مازق الانزلاق في مطباتها. إدارة خبيرة تحافظ بها على مصالح الإمبراطورية التي تأبى الشمس أن تغيب عنها أبداً. تلك الإدارة التي تشبه أسلوب بقائها في دلمونيا؛ الحفاظ على المصالح دون الانزلاق في المطبات الداخلية. سياسة واحدة ونتائج مختلفة.

سلمني الرجال أمانة ثمينة إلى أحد أعيان العشائر المنتثرة، والذي وعد بتأمين الطريق وصولاً لبغداد، ولما وجد لغتي العربية متقنة خبيرة لا عيب

فيها؛ طلب أن أُغَيَّرَ اسمي لحين تحقيق المُبتَغى والهدف المنشود. اختار لي عنواناً اسم (جعفر). لم أكن أعرف الحكمة من اختياره هذا الاسم، ثم عرض عليّ أن ارتدي الملابس البصراوية لكي أطلب السلامة ولا أثير الأطماع... سألته:

- وما هو المبلغ المادي الذي تريده في حال اكتمال المهمة؟
- لا أريد مبالغ مالية، بل أكثر من ذلك بكثير؛ فالمالُ دَرَنٌ إلى زوال.
- لا أملك أياً من المجوهرات والأحجار الكريمة التي ربما تسأل عنها... لا أملك سوى أمتعتي وهي غير قابلة للبيع والمساومة.
- أريد فقط أن أرافقك وحدي على أن تؤمن لي زيارة مشهد الإمام الحسين وأخيه العباس في كربلاء.

لقد أثار هذا الرجل حفيظتي بطلبه الاستثنائي، وكان الشرق لا ينتهي بمفارقاته، كان يتحدث بزهو منقطع النظر عن تلك الشخصيات، تبدو المعنويات والقيم المطلقة أسمى لمن ترك الدنيا. وعدته بتوفير طلبه حال الحصول على المعونات المرسله من كوبنهاغن إلى القنصل الهولندي في بغداد، وعلى أن يكون لي حق الاختيار في مرافقته لتلك المزارات، لعلني أوفق برسمها، وأضيفها لمجموعة كنوز الشرق، ولعلني أكتشف خصالاً إنسانية لا تُقدَّرُ بثمن. ربما تُضاف يوماً ما لعجائب الدنيا السبع.

انتحل ذلك الرجلُ صفة فلاح حكيم أحبته كثيراً. كان حسن المعشر ودوداً صادقاً. أسرَّ إليّ بالكثير من أموره الشخصية والاجتماعية. شعرتُ معه - لوضوحه - بأمانٍ نفسي، ساعدني أنني سأفارقه بعد أيام معدودات؛ فكنتُ معه كمن يختلي بنفسه. لم أجد ضيراً حين أجيبه بمطلق الصراحة؛

فأنا سأغيره بآخر بناءً على متطلبات الطريق.. لا ضير.. لأن من يغير الألوان
يعد، ولكنه فاجأني وصدمني حين قال:

- أشعر بأنّ في عينك عشقاً لا يشبه عشق الآخرين.

أذهلني الرجل الحكيمُ بفراصة غير تلك التي وجدتها في دلمونيا. هناك
من يقرأ الفردَ فيعرف إلى أي قبيلة يعود، ويقرأ تفاصيل وجهه ومشيته
وصوته؛ فيعيد فروعَ شجرته إلى تاريخها وتربتها الأولى. وهناك من يقرأ
الأثر فيعرف الطالع، وهنا من يقرأ العشق... فيرسمُ المستقبل!

سأله: وكيف يكون عشقُ الآخرين؟

- من اليسر أن أدرك أنك عاشقٌ؛ فالعشق الطبيعي قرينُ التفرد
والأنانية. أمّا أنت؛ فعشقتك إنساني وعطاء. لذلك لم تبخل عليّ حين
سألتك. أدركتَ العشقَ السماوي الذي في داخلي حين طلبتُك.

- أعرفتَ أنني عاشقٌ لأنني وافقتُ على تحقيق شرطك؟

- ليس ذلك كله يا رجل. إنني أرى جوعك للحنان أقوى من عطشك
للجنس، وقد جاءك هذا الطور بعد تجارب عديدة. حبك يا هذا بالغٌ خالداً.
لذلك قيل إنّ الحب البالغ هو الذي يأتي متأخراً. وضمن قانون الحياة
البشرية؛ فإن العشق لا يبقى قائماً بعد الوصال، ولكنني أرى عشقك بهياً
نضراً بروحك. ألا ترى أنّ العاشقين هم الأحياء؟ عشقك يا هذا لكل
إنسان.

أصابني صاحبي الحكيمُ بالذهول وأنا أصغي إليه وأتفرسُ في وجهه بلا
طائل. كاد أن يمحي ما بقي في رأسي من عقلٍ وفكر. كأنّ العشق أمرٌ إلهي
يختص به ولا يمكنُ تأطيره. أعادني حديثه إلى أرض كارينا وواحة خولة.
حب بدايات بلا تجارب، وحبٌ نهاياتٍ وغوايات. حبٌ قائم على دعائم

الجنس، وحب استوى على عرش العقل؛ بينهما حتماً بون شامع. يتأتى
أشاهما دون عضو العين؛ فالعاشق هو الذي - حتماً - لا يرى بعينه.

آه لتلك الخولة الفاتنة التي لم أتغن على العلى بجمالها مطلقاً، قالوا يقيين
إن المرأة التي تربكك لا تلامسك. إنني أميتُ أخشى أن حباً - ليس
الوصال أحد دعائمه - غير قادرٍ على البقاء، يترنح فوق جبل الفناء. لا زال
الطيب الأول للمقائها يداهمني، كانت تحتبي خلف الأطفال وتحفي نصف
وجهها، أتذكر لوزية عيونها وتقاسيم ثغرها. تلعثت حينها، وأعادني
والدها إلى واقعي. ألقى عليها التحية فأجابت بإيماءة خجلة، ذلك الجمال
الأخاذ. أما كارينا؛ فقد أخطت خصرها بيدي، ورغبت في قلة تقطع بها
الحواجز العاطفية وما وراءها... إنها مقارنة ظالمة.

قطع الحكيمُ جبل أفكاره مرةً أخرى وكأنه يقرأني، وقال:

- من لا يتغنى بجمال فاتنة فإنه لا يأتيها أبداً، تبقى راسخة في عقله
وظاهر قلبه فقط، يرفعه هذا الحبُّ للأعلى، أما باطنُ القلب فيدفعك أيها
الإنسانُ للوصال، يجرك للأسفل جرأً، الفرق بين الحيين كالفرق بين حرارة
سطح البحر وعمقه، أحدهما قريبٌ دافئٌ يشتهي السماء، والآخر باردٌ يجرك
للأرض.

دفعني حديثه لربطه بأحد كبار الفلاسفة المعاصرين؛ فأثرتُ سرده قصة
استشهاداً وتأكيداً، لما يقول الرجل:

- يبدو كلامك حقيقة، هناك في ألمانيا، يزرغ - حالياً - نجم أحد
الفلاسفة ويُدعى غوته⁽¹⁾، كان يتردد في بداياته على حانة؛ فوقع في عشق

1 - يوهان فولفغانغ غوته (1749-1832): فيلسوف وأديب وعالم ألماني. التقاه نابليون
بعلمها احتل مدينة فيمار، ولما انتصرف عنه قال نابليون: هذا إنسان. (المترجم).

ابنة صاحب المحانة التي هام بها شغفاً، تمنّاها زوجة؛ فتغنى بها في قصائده، وأطلق اسم (آيت) على ديوانه الشعري تيمناً بها، وما كادت الفتاة تقابل حبه بالمثل، وما لبث أن تمكن منها وأجاد وصالها، حتى انصرف عنها وتمنى غيرها. وبعد سنتين، عشق فتاة أخرى تُسمى (فيرتر) وتمّاها في سريره، ولما استحال الارتباط بها لأنها زوجة صديقه؛ كتب روايته الشهيرة (آلام فيرتر) التي انتحر بطلها في نهايتها انعكاساً لاستحالة ارتباط غوته بتلك المرأة ليثبت أن إدمان التمني يشبه إدمان القتل، أحدهما للنفس والآخر للبشر.

أجابني الحكيمُ مبتماً: ذلك هو حبُّ الوصال، أو الحبُّ الأرضي يا جعفر؛ فهو حبُّ لكل البشر. إنه الحبُّ العذري السماوي الذي تمنى فيه الموت بين يدي محبوبك؛ لتنعم بدفء دموعه. الحبُّ الذي يُشفي داء الكراهية، الحبُّ الذي يسهر فيه الحاكمُ على راحة شعبه، فلا تهجع له عينٌ إن كان هناك من يشن من الجوع.

سأله عن رأيه في العاشق الذي يبحث عن الحب ويريد أن يتعد عن الجنس؛ فأجابني سريعاً ومن حيث لم أحتسب: إنه كمن يريد أن ينقطع في الصحراء تعبدًا. تلك هي العبادة المتورة؛ العبادة القائمة على الشعائر دون الانخراط في معانيها الجوهرية.

وصلنا من حيث لا نشعر إلى الطريق التجارية التي تأخذنا إلى بغداد الواقعة تحت السيادة العثمانية. تصادفنا بين الفينة والأخرى بعض القرى المتناثرة والتي تعدّ استراحات للمافرين. قد يطلب أهاليها بعض الأموال للمساعدة في العبور، أو يستقبلونك كضيفٍ عليهم فيهبونك - بكرمهم - أئمن ما لديهم. مررنا بإحدى القرى النائبة عصرًا، تجمع الأهالي هناك حول ساحة رملية بين غابات النخيل وتقع على أحد طرفي النهر، اقتربنا نشارك

الناس ما يبدو عليه احتفالاً وفرحاً. أعدوا سباقاً فيما بينهم؛ سباقاً لقطع النهر ذهاباً وإياباً، وعد كبيرهم الفائز من المتسابقين بعملة محمدية فضية، واشترط أن يقوم الخاسرون جميعاً بطبخ اللحم والأرز للحضور والمشاركين في الاحتفال.

تسبق السباحون لقطع ما بين ضفتي النهر، واصطف الناس على الضفتين مشجعين، ولأن ماء النهر كان بارداً؛ قامت إحدى الأمهات بإشعال النار على إحدى الضفتين لتدفئ ابنها بعد انتهائه من السباق. استطاع ابنها أن يكون أول السباحين وصولاً وأن يغنم بالمحمدية⁽¹⁾. ما إن فرغ البطل من الماء البارد حتى ذهب لأمه يتدفأ. شكاه أحد المتسابقين الخاسرين عند لجنة التحكيم، اشتكى من الدور الذي لعبته الأم في تدفئة ابنها وتشجيعه، وعليه تعاطفت معه اللجنة وعدت دور الأم خروجاً على النص؛ فأعطيت الجائزة للمتسابق الثاني، على أن يقوم الفائز غير المتوج بالطبخ وإعداد الطعام مع بقية الخاسرين.

تذمر الخاسر فابتعد عن قومه، وجد أننا عابراً سبيل؛ فأقبل ناحيتنا يشتكي الظلم الواقع عليه، أسرّه الحكيمُ بطريقة مبتكرة لطبخ اللحم ربما تعيد الحق إلى نصابه، وبناءً على الوصية؛ وضع المتسابق اللحم في القدر وأشعل النار في الموقد إلى جوار نخلة صغيرة، ثم وضع القدر الأسود فوق النخلة؛ ضحك الجميع لفعلته وغبائه، طلبه رئيس لجنة التحكيم متائلاً:

- أليست حماقة منك أن تُشعل النار تحت النخلة، وتضع اللحم فوق

النخلة كي ينضج؟

1 - كانت المحمدية تساوي ربع روبية هندية.

أجابه:

- أليت حماقة أن تُشعل أُمي النار على ضفة النهر فأفوز أنا بالسباق لأنها أدفأني؟

أفزعَت حكمةُ المتابق لجنة التحكيم. استعادوا الجائزة الرمزية من صاحبها ليمنحوها المتابق الأحق بها، طلب منهم برهنة، جاء ناحيتنا مجدداً وطلبني:

- أقبلًا معي نتلم الجائزة معاً فلولاكما ما حصلتُ عليها.

- أنت الرابع الوحيد، ولا بحق لأحدٍ سواك أن يشاركك دور البطولة. ذلك إنجازك فاغتتمه وحدك.

رفضنا أن نقف إلى جانبه فهي فرصته التي يتميز بها. وجودنا إلى جانبه - عند التكريم - سيرق منه الأضواء، إنها إشارة أخرى تأتيني كالبرق حين يحدث شيءٌ لا أتوقعه، ولكن في بقعة ومكانٍ آخرين، طيفٌ يقول إن هناك أمراً جليلاً يعصف بدمونيا.

أعادوا له الجائزة فأقبل المتابق لنا شاكرًا ممتنًا، ثم سألني:

- ما اسمك أيها الضيف؟

- أنا جعفر، وهذا صديقي ومرافقي الحكيم.

- وما وجهة سفركما؟

- بغداد.

- إنني ابن هذه المنطقة، وأعرف الطرق السهلة والأقل خطورة إلى هناك. يمكنني مرافقتكما، ويمكنني الدفاع عنكما، ويمكنني عمل الكثير... ثم سأعود حين تنتهي المهمة امتاناً وتقديراً لموقفكما النيل معي.

أجابه الحكيم: الرجولة الفائضة كعلمها، تریث ولا یغریک شابک.
بعد ان أصبحنا ثلاثة: أنا جعفر، وصديقي الحكيم، وثالثنا الشاب
القوي، شعرتُ بأمانٍ أكبر. استرخاءً مرفقٍ أعادني إلى دلويا فأفقدني
الوعي بالمكان... سألني الحكيم:

- هل وجدتَ إشارةً سوء لما يجري في دلويا؟

- هناك من يريدُ أن يسرق الحقَّ من أهله، ولربما تتزامن أو تتعارض وتيرة
الأحداث والمكاره.

ما كنتُ لأصل لتلك الحكمة وقراءة الطالع باستخدام الطاقة التخيلية
لولا أحداث ومفارقات دلويا ومزاملة ومزامنة الحكيم. يقال إنها حكمة
فطرية، وأقول إنها مكتسبة تعليمية، تتأني نتيجة ممارسة القدرة على المناورة،
إن أقرب مثال للقدرة على المناورة تُمثلُ في حادثة التحكيم الشهيرة في
دلويا، عندما طلب الحاكم من الفريقين أن يوضحا معنى نخلة؛ فكتبها أبو
راشد (نخلة)، وقام قرينه برسمها؛ تلك الألاعب تظهر بجلاء أن الحاكم
الناجح هو الأقدر على المناورة... وإن كانت خاسرة.

ها نحن نقرب من بغداد بعد يومين من المسير على الدواب. استوقفتنا
مجموعة من الخيالة. يبدو أنها تعمل كبرج مراقبة وأمن طرق. اقتادونا ناحية
أحد المخيمات التابعة للقبيلة الأم. هناك طرحوا علينا بعض الأسئلة بعدما
أوصاني الحكيم بعدم الحديث إلا بعد أن يومئ لي:

- من أين أنتم قادمون، وما هي طريقكم؟

- من ناحية شط العرب. أما صديقنا؛ فهو قادم من دلويا؛ أرض
الخلود.

- وما اسم صاحبكم؟

تحدثتُ حينها قائلاً: جعفر.

أخذ رجال القبيلة ينظرون إلي بعضهم قبل أن ينطق أحدهم:

- بها أنك قادمٌ من دلمونيا، وما دام اسمك جعفر؛ فلا بدّ أنهم سألوك أن تدفع مبالغ إضافية ضريبة مرور، وضريبة استخدام مناطقهم في شط العرب... كم دفعتَ لهم؟

تذكرتُ لقائي الأول بالشيخ سليمان حاكم قبيلة بني كعب، والذي وهبني منصبه، وتذكرتُ أنّ رسوم السفن البريطانية والصديقة كانت ثلاث عملات عمدية. أما السفن التي يختلف أصحابها مع دين ومذهب القبيلة فيدفع سبع عملات عمدية، هنا أصبحت العملية التجارية عكسية. اختار الحكيمُ لي اسم جعفر فعبرتُ منطقة المرور دون أن أدفع أيّ مبالغ مالية... ها أنا بعد بضعة أعوام أجدُ الحَلَّ لإحدى طلاس مناطق شبه الجزيرة العربية وتوابعها.



(4) أبو راشد

سبتمبر 1765

تروج السلطات من على منبرها ومن على ماآذن دلمونيا لحادثة إلقاء القبض على أبي راشد، بينما يروق لعامة الناس إطلاق مسمى (اعتقال). تمثل تلك الحادثة / الفته منعطفاً مفصلياً في تاريخ أرض الخلود، إنها تمثل شريطاً دراماتيكياً يمر بمخيلتي المستقبلية، وكلها أغمضتُ عيني قادتني للآمام؛ فالحقيقة التي ترتدي ثوب النصيحة هي: إن المحاولة الدؤوب للهروب من مأساة عابرة عبر تناسيها هي محاولة فاشلة؛ فالتناسي يثبتُ الذاكرة ويقويها، لن تنسى حادثة مؤلة أبدأً إلا إذا تمكنت من الوصول إلى حلها أو علاجها والتغلب عليها. كنتُ منذ الوهلة الأولى التي اقتادوني فيها، وقيدوا معصمي، أبحث عما وراء الحدث. لم تهزني العملية المخبرانية الكيدية في طريقة إلصاق التهم المتنوعة بي، بقدر ما كنتُ أبحث بين أروقة المستقبل المظلم عن أسوأ سيناريو يمكن أن يصيب دلمونيا. لو لن تكون السجون يوماً ما أسلوباً ناجعاً لشي أهل الحق عن مطالبهم أبدأً، كانت دافعاً يجعل الحق أقوم وأحق أن يتبع.

بعد الاعتقال الكيدي؛ أخذوني إلى أحد السرايب التي لا أعرف مكانها، لا أذكر منها غير رائحتها، غطّوا عينيّ وكبلوا يدي إلى الخلف، انهلوا عليّ ضرباً. كنتُ أهرو ل عبثاً من بين أيديهم، هناك أعقابُ بنادق نزلت على رأسي، وعصيّ على ظهري ومؤخري. لم أعرف إن كنتُ راحلاً أم قداماً حين رفني أحدهم في صدري فأجلني على الأرض عنوةً، وبلا حراك..

- أيها المجرم القاتل، ستبقى هنا حتى يقرر التاجر موعداً لمحاكمتك.
ستكون محاكمتك علنية لضمان مطلق العدالة الإلهية على أرض دلونيا وفق
التشريع والقضاء الذي بسطته السماء.

أجبتُ ذلك الصوت الجمهوري: لا بأس، ولكن من أنت؟

قال: أنا حاجبُ التوقيف، والمسؤول عن سجنك المؤقت؛ خادم التاجر
وكل دلونيا. ألا تخشى العقاب يا أنت؟
قلت: ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قال: لفلنك وبناء على موافقة المستشار والمجلس المعين؛ فقد قرّر سموُ
التاجر أن تُعقدَ المحاكمةُ علناً في ساحة مسجد دلونيا، وأن يستمع القاضي
الشيخ البلبول إلى أقوالك وأقوال الدفاع والشهود. ستكون محاكمة علنية
شاملة يظهر فيها الحق ويزهق منها الباطل.

قلتُ: إنَّ الباطل كان زهوقاً.

بقيت وحيداً فريداً في سرداب ما قبل المحاكمة. كان السجن بجداره
وسقفه وجماداته جميعاً يعث الدفء، ويهب الطمأنينة، بينما كان إنسانُ
السجن بذيء اللسان، وقح السلوك، تخلت عنه جميع القيم الإنسانية التي
ترفعت عنه بدورها، وتعرّئ حين غادرها. أوكلت مهامَّ الغذاء والماء
وحتى الباب إلى حاجب السجن.

أبقاني معصب العينين مقيّد اليدين من الخلف وهو يقول: ستبقى هنا
حتى يوم الجمعة القادمة، سأكون نديمك في هذه الزنزانة، سأطعمك من
كل ما تشتهي نفسك... وما تكره.

قلت: لا رادَ لقضاء الله تعالى.

أحسْتُ بالعطش الشديد؛ طلبت شربة ماء، فقال: لن تشرب الماء إلا أربع مراتٍ في اليوم. سألته أنني أريد الشربة الأولى؛ فقد أضناني العطش وكاد يبطن بي. طلب مني الانتظار. سمعتُ صرير الباب وهو يُفتح، عاد بعد دقائق وهو يقول: جئتُك بالماء.

قلت: فُكَّ قيدي كي أشرب.

ضحك بصوتٍ هستيري مرتفع. لطم وجهي بالماء الساخن. لم أكد أستوعب الصدمة حتى قال:

- تلك هي الكأس الأولى وبقي لديك ثلاث.

أخرجتُ لساني لعنِّي أستطيع أن أرتشف تلك القطرات التي تتساقط من على رأسي وجهتي. استلقيتُ على ظهري ويدي مقيدتان للخلف. قلت: أريد الشربة الثانية. اقترب مني وهو يردد: افتح فمك، فتحتُ فمي فألقى بالماء على وجهي. ابتلعتُ قليله وسُكبتُ كثيره. قلت: جزاك الله خيراً فقد أنقذت نفساً من هلاكها، من أحيائها فكأنها أحياء الناس جميعاً. صمت الحاجب واقترب مني. أجلسني وأسد ظهري لجدار السجن الخرب، ثم قال:

- لماذا تدعوني بالخير؟

- لأنني أحب نفسي كثيراً.

- لا أفهمك!

- بقيالك إياي فعلتُ خيراً كثيراً أغبطك عليه، ولأنني أحب نفسي كثيراً فقد أردتُ بعض الخير الذي أصابك أن يُصيني، وما كنتُ أقوى على غير الدعاء لك.

خرج الحاجبُ من الزنزانة وعاد بعد دقائق. اقترب، وقال:

- اسمع أيها المجرم، سأربط رجلك.

- لا يضرُ الشاةُ سلخُها بعد ذبحها.

- سأربط رجلك، ولكن سأفك وثاق عينك ويديك، وسأضع بين يديك كأس الماء الثالثة وبعض التمر. تلك وجبتك نهار اليوم.

بينما كان يكمل مهامه، سُمع صوتُ التاجر يعلو مقترباً. قام على عجل. ترك الماء والطعام وهاوته الثقيلة أمامي سهواً ورحل لسيدة. تناولتُ التمر، وشربتُ الماء، وشكرتُ الله كثيراً. عاد الحاجبُ على عجل وهو يلهث. رفعت له المراوة الثقيلة، وقلت:

- هذه هراوتك، فلا تدعها في يد عدوك؛ فعدوك لا يصيبك إلا بماعدتك. أما ماؤك فما شربته، وطعامك فما أكلته ولا جُرْتُ عليه.

- ولماذا لم تفك رباط رجلك، ولماذا لم تغضب مني أبداً؟

- لم أفك رباط رجلي لأن ذلك سيعرضك لعقاب سيدك، ولأن إهمالك أوشك على إضاعة الأمن في دلمونيا. أليس ذلك ما يُشيعه التاجر والمشار؟ أما عن غضبي؛ فعليك أن تعرف أن الحِلْمَ ملحُ الحياة.

طلب الحاجبُ أن أفك رباط رجلي بنفسي ففعلت. وطلب أن أخبره إن كنتُ أريد أمراً آخر، فسألته:

- أنا لا أقرأ الحب في نفسك أبداً، فلماذا تؤدي عملك وأنت لا تحبه؟

- فيه رزقي وإرضاء غريزتي. بمهام هذه الوظيفة أستطيع أن أفي بمطالبات الحياة.

- إن الإنسان - أيها الحاجب - أكبر من الغريزة؛ فمن كانت همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها.

ولكنني بعد كل ذلك شكرته؛ فغادر الزنزانة وأغلق قفلها من الخارج
بإحكام.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، جاءني الحاجب بما كنتُ أترقب
وأحتاج، ثم سألني إن كنتُ أريدُ أداء الصلاة؛ فطلبتُ ماءً للوضوء، وما
لبث أن أحضره. جلس أمامي وأخذ يراقبني في صلاتي، ولما فرغتُ من
الصلاة، سألني:

- هل يمكن أن تكون - أنت يا أبا راشد - من قتل الحاكم وسرق
القلعة؟

- إن كنتُ سرقتُ فأروني ما سرقتُه، وإن كنتُ قتلتُ ففي القصاص
حياة لأولي الألباب.

أخذ الحاجب يُطرقُ، ثم أخفض عينه إلى الأرض، وسألني:

- هل تريد الهروب من الزنزانة مساء يوم المحاكمة التي ستقام قبيل
صلاة الجمعة في باحة مسجد دلونيا؟

- لا أريد ذلك. لا أخشى طريق الحق ولو قل سالكوه، وكما أن في
بقائي هنا سجن لجسدي فإن في هروبي سجن لنفسي. إن تقييد النفس أوقع
وأخطر من تقييد الجسد، كما أن في سلامتي قطع لرقتك.

كنتُ أدرك - فعلاً - دور الطاقة (الجَبَانِيَّة)، التي تحدث عنها طويلاً مع
آدم؛ طاقة تريك النصف الممتلئ من الحياة. لا تجعلك تكسئ على سليات
الأمور، ولكنها تدفعك نحو الخير والأمل. طاقة إيجابية فاعلة، تحرك
الصخر، وتلين الحديد، فكيف لا يتأثر بها قلب إنسان بسيط؟

مضت الأوقات على عجل وجاء اليوم الموعد. أمر التاجرُ الحاجبَ
وعنه بجري في الأسواق مثياً على الأقدام حتى مسجد دلونيا. رفض

المحاجِبُ مرافقتي وتعلل بمرضٍ طارئٍ الرّبه. أدركتُ ما يرمي إليه الرجل. سبق بي في الطرقات. اصطفت الجماهير على طرفي الطريق التي نمر بها. قرأتُ تعاطفهم في عيونهم. توجهتُ إليهم بابتسامة تكتم خلفها روح الانتصار، فكلما التقت عيناى بأحدهم إلا وأصبح يصفق مبتهجاً كالنسر. بعدها تحولتِ الجماهيرُ إلى ما يشبه المشاركة في مسيرة سلمية. سُم التاجر من الأمر. أمر جنوده بتغطية رأسي بوشاحٍ أسود؛ فتهكم الناسُ وازدادوا فخراً وتمكاً بقائدهم.

أقيمت المحاكمة ضحىً في باحة مسجد دلونيا. أقاموا المنصة أمام الغرفة التي شهدت واقعة التحكيم الشهيرة. جلس القاضي الشيخ البلول ما بين القاضيين اللذين صاروا على شماله ويمينه. رُبطتُ كالشاةٍ بجذع نخلة على يمين القضاة، بينما جلس التاجر والمستشار وأعضاء المجلس الصوري المعين في الجهة المقابلة. تحدث البلول:

- أبو راشد. أنت متهم باقتحام القلعة، وسرقة محتوياتها، وقتل الحاكم مع سبق الإصرار والترصد. ما هو ردك ودفاعك عن التهم الموجهة إليك؟
- أنت تتهمني وكأنك عليم بكل شيء ولكن توهم احتكار المعرفة مرض مزمن. إنني لم أقتحم القلعة وإنما دعاني الحاكم الراحل إليها، وإن كنتُ سرق شيئاً، فأين تلك المروقات؟ ولم أقتل الحاكم وما كان لي أن أفعل ذلك.

- هناك الكثير من الشهود الذين رأوك تجري هارباً من القلعة.
- كنتُ أبتعد عن جريمة كان يشرعُ التاجر ومستشاره فيها.
- التاجر ومستشاره يتهمانك بقتل الحاكم، والعس يتهمونك باقتحام وسرقة القلعة. لنسمع للشهود.

تقدم اثنان من العس. أقسما وشهدا أنها القيا القبض على أبي راشد أثناء محاولة الهروب من القلعة، ثم تقدم التاجر ومستشاره. أقسما أنها وجداني في الغرفة الداخلية للحاكم وفي يدي الهراوة وهي أداة جريمة قتل الحاكم. تداول القاضي الأمر مع متشاريه، وصدح - سريعاً - بالتالي: قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾. حكمت المحكمة حضورياً بإثبات التهم الجنائية الموجهة إلى أبي راشد، وأمرت بجنه مدئ الحياة. رُفِعَت الجلسة.

طلبتُ الحديث مع التاجر ومستشاره ولكن المستشار استدرك قائلاً:

- بناءً على المصلحة العليا لدلونيا، ولرخاء شعبها؛ فإن المجلس المعين يرفض الحديث مع المتهم بجريمة اغتيال حاكم دلونيا. إنه خطر منتشر ومتقل، ويرفض أن يُسمح له بالتواصل مع أبناء الوطن وعامة الناس؛ وذلك حفاظاً على الأمن العام ووحدة الصف. ولذلك فإننا - وباسم القانون - سنأخذه لسجن القلعة.

اقتادوني مشياً على الأقدام من مقر المحكمة المؤقتة في ساحة مسجد دلونيا وصولاً إلى سجن القلعة الحصين. كان يُمرَّرُ بي، وأجرُّ في الأسواق والساحات، وحيث ملاعب الأطفال. كنتُ مكبلاً بإحكام، جيلٌ في معصمي، وآخر في رقبتني، وسلسلة حديدية في رجلي. كلُّ جبل يمسك بطرفه رجل أمن، وهم يسيرون حولي فيما يشبه الحلقة الدائرية. كان أغلبهم لا يتقن العربية. أما الحاجبُ والذي ادعي المرض سابقاً فقد أقبل معهم. كان بلا جيلٍ ولكنه يسير إلى جوار الحلقة. صار يمترق النظر ناحيتي، ولكنه ينظر في اتجاه الأرض كلما التقيتُ عينه. فُتِحَ بابُ القلعة الثقيل ببطء

1 - البقرة: 179.

شديد. سُحِبْتُ للسطح العلوي على سُلَّم مبني من الطين وجذوع النخل.
وقف الجميع بانتظار المستشار والتاجر الذي تساءل:

- هل نضعه في السجن الانفرادي أم مع بقية السجناء؟

قال المستشار: ضعوه في السجن الانفرادي. ألا ترى تأثيره السلبى والتدميري على الحاجب. لقد تعاطف معه الرجل، ولو طال به المقام والمدى لأصبح أحد رجاله. إنَّ المجرم المدعو أبا راشد يحمل بين طياته قوة هائلة وطاقة جبارة لا أعرف كنهها، ولكنها قادرة على استمالة القلوب والعقول. أرى أن تُلقوا به في الزنزانة العلوية وتحضرون له صاحبه السيب يوسف.

وقفتُ مع رجال الأمن أعاين الزنزانة. كانت عبارة عن غرفة عمودية صماء لا تمع فيها غير طين البعوض. مدخلها الوحيد يأتي من سقفها. كانت مربعة الأضلاع. كل زاوية تبتعد عن شقيقتها قرابة المترين. أما عمق الزنزانة نزولاً من السقف فهو أربعة أمتار. أنزلوني على سُلَّم خشبي متحرك ثم رفعوه وأغلقوا سقف الزنزانة بإحكام؛ فأمت ظلماً حالكاً. لا يمكن لأي إنسان أن يتسلق الجدران الملساء المرتفعة. زادوها غطاء لا يحركه غير أربعة رجال أشداء. كانت الوجبات الثلاث المقررة تأتي في أوقات محددة مع قليل من الماء. تُربط المؤونة بحبل فتنزل إلى قاع الزنزانة الرملي. استدركتُ فسألتهم عن مكان قضاء الحاجة:

- يمكنك أن تحفر في إحدى الزوايا حفرةً وتستعملها كبيت خلاء.

استمر هذا الوضع المقرز والمريع لما يربو على أسبوع حتى جاء الحاجب:

- السيد أبو راشد.

- نعم.

- هناك ضيفٌ يودُّ زيارتك وقضاء ما بقي له من عُمرٍ في رفقتك... في زنزانتك.

- من هو ذلك الضيف؟

- السيد يوسف. اقترحنا عليه مرافقتك في سجنك؛ ففرح بالأمر كثيراً.

أنزلوا السُّلمَ المتحرك؛ فهبط عليه شبحُ إنسان، وهيكلٌ عظيمي قبل إنه السيد يوسف. أبقوا جزءاً من سقف الزنزانية مفتوحاً؛ فعابستُ الرجلَ بالضوء، وعرفتُ ما تبقى من ملامحه. كان نحيفاً تذرّوه الرياح. خلته كياً شفافاً يحمل عظاماً وبقايا لحم بين ثناياه. كانت عيناه بارزتين كضفدع بالغ، أما شعرُ رأسه ولحيته؛ فيشبهانه برجال البدو الرُّحّل. ما إن هبط من على السُّلم إلى قاع الزنزانية واستوى على الأرض حتى سقط عليها. أقلتُ إن هذا الكائن الغريب الذي تداركت بعض ملامحه؛ فوجدت صعوبة لتحديد المكان والموضع الذي أمسكه به. رفعتُه كتلة واحدة كما كان يرفعني من قاع البحر كتلة واحدة.

ولما هدأ روعه؛ أصغيتُ بعضنا لبعض كثيراً. كان فراقنا طويلاً فأسعدني لقاءه مجدداً. تحولت حواراتنا إلى ما يشبه الهذيان في أغلبها. يدير دفة الحديث تارة، وأناقشه في أمره تارة أخرى. سألته عن التّر الذي أبقاه على قيد الحياة، فقال: إنه صبر أيوب ويعقوب، وكان صبرهما جميلاً مشمراً.

قلتُ: إن الصبر يا يوسف قوة إلهامية روحية؛ قوة تدفعك للتمرد على شهواتك ونزواتك كلها. تتحنى معها لذاتك وعصياتك. يستطيع الصابِرُ أن يسيطر على نقاط قوته وضعفه ويُسيّرهما. يتزَنُّ حين يواجه التحديات بعقله وحكمته. ذلك ما وجدتهُ فيك يا يوسف؛ تُركِزُ صبرَ إرادتك على

التحمل. أصبحت لا تجزع ولا تتألم ولا تلين أمام الأزمات والصدمات والنكبات.

أراد اليب أن يجلس فأتكأ على يديه، ثم أصدر أنياً طويلاً. أسرع في اتجاهه، لكنه قال:

- لا عليك يا صديقي، ولكن ما خطبُ الحاجب الذي شعرتُ بحبه لك؟

- إنه كباقي البشر. كلهم سواسية في الإنسانية. تستطيع أن تتصرف في مواجهاتك مع الحجر قبل البشر. عليك أن تتقن حمل سلاح القيم الإنسانية. كن رقيق اللسان مع عدوك قبل صديقك، وكن رقيق القلب مع من يخالفك ويخالفك في الرأي. افتح صدرك للناس بالحب فتفتح لك قلوب الناس قاطبة. اخفض لسانك وشذبه تلمن مشاعرهم معك. كن مسالماً في طرحك ومطالبك. أما وجدت أن لفظ كلمة سلام ورد في القرآن ضعف كلمة حرب؟

كان الحديث مع يوسف يعيدنا لذكريات البحر واللؤلؤ. الجرائم الملققة تلقى وحدة المصير. لُفقت له تهمة قتل ناصر، ولُفقت لي تهمة قتل الحاكم، وبينهما كانت تُجهض أحلام شعب دلمونيا في الحصول على نظام حكم عادل. إلقاؤنا في السجن كان ضريبة مطالب عادلة يعرفها ويعيها الحاكم والمحكوم في دلمونيا، ولكنها سطوة نقطة الضياع الكائنة بين التجديد والتقليد. يُدرك الجميع - بلا استثناء - أن نظام الحكم السماوي العادل هو أن يحكم الناس بعضهم، حينها يكون الحكم قوياً لأنه نظام سلوكي؛ نظام حكم جمعي؛ فالجماعة تكون في حكمها أقوى، وأكثر قدرة على البقاء والمواجهة، ذلك النوع من الحكم قائم على احترام السيادة والخصوصية

للمجتمع والفرد؛ فالقانون القوي هو الذي يأتي من قوة الشعب ويستمد سلطته منه، لا يكون فوق آماله وتطلعاته وإرادته. إنه نظامٌ يسمح بالمشاركة، ويرفض الاستبداد والتقليد القائم على قوة الإجماع. يقابل ذلك نظامٌ باند لا يرى أن التحولات التكيفية للمجتمع ضرورة طبيعية ملحة.

صاح بي السيد يوسف: كُف عن ذلك يا رجل. ألا ترى أننا بالحرية نقع في السجون؟ إن وجود المظلوم والحق في السجن هو أقوى عقاب للظالم.

قلتُ: نعم يا يوسف. إن الله تعالى خلق الإنسان فأخرجه من العدم للوجود، وإن هذا الوجود يقتضي حق الحرية، وإلا فإنك تُعاقب حكمة الله وتنتفي عباده لعدمك. كأنك - بحماقاتك - تظن أن لك القدرة على وضع إطار لله تعالى. للإنسان حرية الحركة والتنقل، وللسان حرية الحديث، ولعينه حرية التمتع بمخلوقات الله، وللعقل والتفكير حرية الرأي، فكيف أباح التاجر لنفسه نفي من يخالفه في الفكرة؟ قد اختلف معك في فكرة ما، ولكن لا بد أن أبقى علاقتي الإنسانية بك في حدود الحب بدلاً من نهج فلسفة السجون لمعاقبة الخلاف في الرأي.

سألني يوسف عن أقصر الطرق وأيسرها للخروج من المأزق؛ المأزق الذي أطاح بنا معاً للبقاء خلف جدران القلعة الحصينة.

قلت: إنه القدرة على الحوار. لقد سألت التاجر والمستشار أن أحاورهما بعد النطق بحكم القاضي في مسجد دلمونيا فرفض الاثنان. إن الحوار الصادق يرتبط بالتكوين الإنساني لشخصية الفرد. من يبحث عن الحوار هو أكبر من يتمنى أن تتحول الأفكار إلى واقع ملموس، ومن يرفضه فهو يقصي الآخر. بالحوار نصل لقلب وعقل الآخر بدلاً من سياسة الإقصاء.

بالحوار الهادف والبناء يشعر الأطراف - جميعاً - بالاطمئنان بدلاً من تبني الروح الصّدامية الهدّامة. إن أغلب الحروب السياسية والطائفية هي نتاج سوء فهم لغوي، يقابله عُجبٌ عرضيٌّ زائلٌ، وشهوة فردية متقلبة.

تلك كانت نوعية الحوارات والأحاديث مع يوسف الذي شعر بدفء حياة السجون، والذي تغنى بما قاله العرب: العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم. صار يوسف ينامُ قرير عين حتى استيقظ وجلاً في إحدى الليالي التي بدت باردة، وهو يستعيد بالله من الشيطان الرجيم، سألته:

- ما الأمر؟ أراك في ضيق شديد.

- إنها المرة الثانية يا أبا راشد التي يأتيني فيها هذا الحلم. أظنه أضغاث أحلامٍ ليس أكثر.

- استعد بالله من الشيطان الرجيم، وأخبرني ما الذي تراه.

- إني رأيتك يا أبا راشد وأنت في بحرٍ لحي مظلم. تحمل شمعتين لا تيران لك الطريق. اقتربت السماء - بغيومها وأمطارها - من إحداها فأطفأتها. بقيت الشمعة الثانية تنيرُ الدربَ لك. بدت الأمواج تعلو وتقترب منها. تحاول جاهدة أن تلتهمها وتغرقك. قمتَ نداريها وتحميها بكل جسدك وطاقتك حتى أوشكتَ أن تسقطَ في البحر، وأن تنطفئ تلك الشمعة اليتيمة.

- الرؤيا يا يوسف تحمل تفسيرها بين جنباتها. أما أضغاث الأحلام فهي كالزبد. إن كانت الرؤيا صحيحة فهي إشارة لأمرٍ قادم سيوضحها. لا عليك إلا بالقناعة والعمل من أجل مستقبل أكثر ضياءً.

مضت ليلتان، حين استيقظ السيبُ يوسف فزعاً من نومه مرة أخرى.
اتبع طقوسه قبل أن يتحدث واصفاً رؤياه: لقد عاودتني الرؤيا يا أبا راشد
ولكن مع اختلافٍ بسيط. كنتَ فيما رأيتُ تحمل شمعتين، وأنت في بحرك
المظلم المخيف نفسه. انطفأت إحدى الشمعتين، وبينما أنت تُداري أختها؛
أقبل أبوك العميد، وأخذ الشمعة المطفأة، ووضع مكانها قنديلاً منيراً. أخذ
القنديل يضيء نفسه توهجاً حتى بدى منه طفلاً صغير يقول إنه ابنك راشد،
وما زال....

كان السيب يوسف مسترسلاً في حديثه يصف رؤياه، حينما فتح
الحجابُ جانباً من سقف الزنزانة؛ ليمحَ لضوء الشمس أن يدفنا و....
فقلنا معاً: لا تزال شمس دلمونيا هي الأجل.



(5) المترجم

نوفمبر 1765

استقبل القنصل الهولندي في بغداد آدم وصاحبه؛ الحكيم الفلاح، والشاب القوي. استقبلهم في مقر إقامته وسط العاصمة التاريخية. تميز مقر إقامته بروعة التصميم، والذي دفع آدم لقضاء أكثر من ثلاثة أيام يحاور بريشته المخطط العام، والشكل الخارجي للمبنى ليرسمه بحذافيره. ثم قضى يوماً آخر للتعرف على تفاصيل المبنى وأسراره من الداخل. انبهر آدم بالبناء الذي جاء على نمط هندسة العمارة العباسية. تميّزت المباني في ذلك الحى باقترابها من بعضها بعضاً، مكونة أزقةً يغلب عليها لون الطوب الأحمر. جُنَّ آدمُ بالهندسة التي قامت عليها الشناشير الخشبية والمعروفة بالمشربيات. كانت متقاربة وتسمح للضوء والهواء بالعبور السلس، ولكنها تحفظ في الوقت نفسه خصوصية المنزل؛ ولذلك طلب آدم أن تكون لقاءاته القصيرة مع القنصل في إحدى المشربيات. رحّب القنصل بالفكرة وبآدم وصاحبه، ثم طرح عليه أيضاً من الأسئلة التي كان يبحث عن إجاباتها الشافية منذ زمن بعيد:

- لقد اشتقتُ كثيراً للقائك منذ أمدٍ بعيدٍ بسبب ما أشيع عن أهداف الرحلة الاستكشافية للشرق ونتائجها المتوقّعة. تمتُّ حقيقة أن أكون أول من يبارك ذلك الإنجاز بعد أن تحققت أهداف الرحلة التاريخية على ما يبدو.

تحدث آدم بإسهاب بينما جلس صاحبه في أقصى المجلس بصغيان، وهو يعرف أن فخر الصامت أعلى شأنًا من فخر المتحدث. قال: لقد كان للرحلة

الاستكشافية التي بناها الملك الدنماركي فريدريك الخامس أهدافاً معلنة محددة ومساراً واضحاً فعلاً؛ فقد كانت الأهداف تدرج حول عدة محاور مختلفة؛ أولها: البحث والتقصي عن إجابات تُشفي غليل الأكاديميين الذين يبحثون في مساراتٍ شتى؛ كلٌّ في مجاله وتخصصه العلمي. وعليه؛ فقد كان من المتوقع والمأمول من الرحلة رسمُ الكثير من الخرائط التي تُظهر معالم الشرق، والطرق المثلى للانقضااض على كنوزه. تلك المعالم التي ترفع للعلني شأن الحضارات الإنسانية المختلفة، ويضاف لتلك المهام الجمّة نسخُ وتدوينُ وفك رموز الكتابات المسماية والسريانية (الكلدانية)، وكذلك الهيروغليفية وغيرها، والتي سيعتمدُ عليها لاحقاً؛ فهي كنوزُ تدوّن الماضي لترصد المستقبل. لقد كان لعلماء البيولوجيا آمنيات كثيرة تركز حول قدرة الرحلة على تزويد المختبرات بالموارد الطبيعية كعينات من العناصر المعدنية، والكائنات الحيوانية، والنباتية النادرة. ولقد أوصى الأكاديميون الرحالة ببذل الجهد الحثيث لجمع الكثير من المخطوطات التاريخية، سواء كانت معرفية دينية أم تصب في مجالات الحضارات المختلفة، ولذلك كله فقد ركزت الحملة - ضمن أهدافها تلك - على توفير معلومات جغرافية وتاريخية دقيقة تساعد الرحلات التجارية والعسكرية المتوقعة على إنجاز مهامها. وكان للمستشرقين والمهتمين بعالم الشرق رغبة خالصة في دراسة علم الأنثربولوجيا، والتي يُتوقعُ أن تعتمد - لاحقاً - على توصيات الحملة التاريخية. كل تلك الأهداف السامية مجتمعة لم تكن تتوقع أن تبدأ الرحلة بستة علماء وتنتهي سريعاً - وفي لمح البصر - بعالمٍ واحدٍ فقط!

أبدى القنصل سعادة غامرة تجاه تلك الأهداف، وتساءل إن كان تحقّق المرام من كلها أو بعضها. أوضح آدم أنها - ومنذ الخطوة الأولى التي انطلقت فيها الحملة الاستكشافية ناحية الضوء القادم من الشرق - أنها

كانت تجري بعزيمة خلف أهداف محورية معلنة، ولكن لريكن القائمون عليها على دراية تامة بما تخفيه رحلتهم من مخاطر محدقة تترصد بهم؛ فالنجيم محاولة يائسة لتفكيك طلاس السماء، لم يجد معها الإسطرلاب وسواه نفعاً. هناك أهدافٌ وضعها المنظرون والأكاديميون للرحلة، ولكن النتائج التي تحققت - وفي خطٍ متوازٍ لها - كانت أعلى كعباً وقيمة من الناحية الإنسانية؛ فالمصادفات مفاتيحٌ ذهبيةٌ للنجاح. كان خط سير الرحلة المقترح والأولي ينص على اكتشاف معالم مدينتي إسطنبول والقاهرة، وتفكيك ألغازها التاريخية، ثم الانتقال إلى شبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية اللتين تمثلان أراضي مقدسة، وطأتها وباركتها أرجل الكثير من الأنبياء والرسل. ولقد كان اليمنُ السعيدُ نقطة محورية في تلك الرحلة التاريخية، إلا أن الواقع الصحي لأهلها وانتشار الأمراض المعدية حال دون التغلغل في أراضيها من الداخل، والاكتفاء بملامسة سواحلها. لقد تحول خط سير الرحلة إلى مومباي الهندية، وهو أمرٌ دفعنا للتعاون مع تجار يهود وهنود، سمحوا لنا باستخدام الطرق ضمن شبكتهم التجارية، وإيجاد منازل ناوي إليها، ولكن مهيئة الحب في جزيرة دلونيا قطعت مسار تلك الرحلة، وعجل القدرُ رغبته في أن تكون دلونيا جوهرة الشرق التي ستبقى خالدة في مدونات هذه الرحلة الاستكشافية.

ثم تطرق آدم إلى الصعوبات الكثيرة التي تعرضت لها الرحلة؛ فبعد أن اقتحم العلماء أراضي الشرق؛ ما لبثوا أن تناقظوا تباعاً كأوراق شجر الخريف. كانت البداية بشبه جزيرة سيناء وصولاً لبحر العرب. تناثرت الأجاد وتوسدت الرمال والجبال والبحار. لريصمد في وجه القدر الأسود للحملة غير آدم وخادم الرحلة. ومنذ بدء خط العودة انطلاقاً من دلونيا؛ أخذ آدم على عاتقه جمع كل مدوناته، واسترسل يفرغ محصول

ذاكرته الوافرة على أوراقيه، حتى أُتخِمت وازدادت حمولته أضعافاً، وصار يضع أسفاره على ظهر ثلاثٍ من الدواب، ثم جاء المشهدُ التراجيدي ليلخص الصعوبات التي يعاينها من تطأ رجلاه أرض الشرق ثم يحاول أن يتلّ نفسه، وينأى بها بعيداً. قرّر آدمُ أن يغادر دلمونيا التي خلف فيها فؤاده حيث أُنشأه خولة، وكما قطع العهدَ على نفسه بالتواصل؛ فقد صار يرسلُ الحمامَ الزاجل⁽¹⁾ لبربورة في أرض الخلود كلما تقدم به المسيرُ نحو بغداد. لعلّ الزاجلُ يُقي خيطَ فيضِ المشاعر قوياً. انطلق آدم في خط عودته بعدما تخلف عنه مرافقه الوحيد؛ خادمه الذي أصبح مستشاراً لحاكم دلمونيا ثم لتاجرهما وسيدهما الأقوى. بقي الخادم جاثماً على تراب دلمونيا وعاد العالم بأسفاره. نقلته السفينة البريطانية ستوارت للعتق الشمالي للخليج العربي حيث حطّ رحاله في شط العرب والأهوار، ثم انتقل للبصرة التي كانت تحت السيطرة البريطانية؛ حيث يؤمّن ويرعى - من خلالها - التاج البريطاني خطَ بريد الصحراء الواصل لحلب. خطّ اختصر المسافة البريدية بين أوروبا والشرق لخمسة شهور بدلاً من أحد عشر شهراً، والتي كان يُقتضى بها عبر القرن الأفريقي في رأس الرجاء الصالح.

بعدها مكث آدمُ ورفاقه عند القنصل الهولندي، واستلم مسحقاته المُرسلة إليه من كوبنهاغن ذكّره الحكيمُ بانقضاء مهمته:

- لقد وعدتُك أن أصاحبك لحين دخولك بغداد آمناً، وقد كان لك ذلك.

1 - كانت الرسائل تُربط في رجل الحمام الزاجل، وللاطمئنان على وصولها؛ فقد استُخدم الحمام الذي خلف وراءه صغاراً.

- ولن أخلفك وعدي. سأهبك - غداً صباحاً - ما يكفيك للقيام بمهمتك الأخروية، ولكن أريد أن تهني مشاعرك تجاه ذلك القتل الخالد الذي تود زيارته في مشهده، ثم تهني قراءاتك للطالع وما يخفيه لي القدر.

- أما بخصوص زيارتي لكربلاء؛ فلإني وجدتُ أنك تحمل مضامينها وقيمها بين جنيك. إنك - ومن خلال رحلتك الاستكشافية هذه - أضفتَ الكثير من القيم النبيلة إلى قلبك وعقلك؛ تلك القيم الإنسانية المطلقة التي تجدها عندما يسمو الإنسان بعقله وروحه، ولكن من الصعب أن تجتمع كل تلك القيم والمعارف في إنسانٍ ما ثم تتحول عنده بأجمعها إلى سلوكٍ مطلق؛ ذلك السلوك الذي يُترجم ما يقتنع به الإنسان إلى واقع، حينها يُسمى الإنسانُ عظيمًا، يستحقُّ منا أن نقيه خالداً، يمثل الكمال المطلق الذي نأملُ أن نصل إلى بعضه. هو ذلك الإنسان الذي أعشقُ تراه.

- لقد استوعبتُ فكرتك وما ترمي إليه، ولكن كيف يجدُ الحكيمُ مقبلي وكيف يقرأ طالعي؟

- إنَّ حبَّك يا آدمُ لخولة ليس بجديد في نوعه أبداً، ولكنه يندرج تحت مفاهيم أكبر. إنَّ استيعاب تلك المفاهيم الدنيوية تمكن المتفكر من قراءة الطالع بسهولة ويسر، فلو تحدَّثنا عن الأديان السماوية مثلاً، وبوصف الأمور الدينية أموراً توقيفية؛ سنجد أن مصدرها واحد، والمرسلون ضروبٌ مشابهة لبعضها بعضاً، والمبادئ التي ينادون بها واحدة وأهدافها واحدة في الدنيا والآخرة. إنها تمثل وحدة المنشأ، ولكنها تمثل الاختلاف لحد التضارب في مجال التطبيق، لذلك زخر التاريخ البشري بالتزاعات والحروب بين البلدان والحضارات على أسسٍ دينية وطائفية نتيجة لقصر في

الفهم، وضعف في التطبيق. إنك حين تجد شخصية عظيمة تعرف أن تلك الاختلافات سنةٌ حياتية وأنها أيديولوجيا وضعها الخالق من أجل التكامل بين البشر، حينها يكون الرابط بينها مبنياً على الحب واحترام الآخر.

أبدى آدمُ عجزه عن فهم ما يريد أن يصل إليه الحكيم. سأله أن يكون مباشراً وأكثر وضوحاً؛ فقال:

- إن الحضارات البشرية تختلف عن بعضها بعضاً من حيث اللغة والمكان والزمان والثروات، وهناك أسبابٌ عديدة ولكنها تعتقد - أيضاً - أن اختلاف الأديان هو ضرورة حضارية ملحة، ولكن الأديان السماوية ليست بشرية لتختص بها أمة واحدة دون سواها. عند الاختلاف في الفكرة والرأي يجب أن نحتكم للحوار الإيجابي، نركز ونشدد على المتشابهات ونقزم المختلفات أيما تقزيم؛ ذلك هو الأمرُ العام، ومتى استطعت أن تقرأه بتفكير، فإنك ستقرأ طالعك الشخصي في محيطه الضيق. إن حبك لحولة حبٍ سماوي قل نظيره؛ حبٌ عطاءٍ ملائكي يسمو بالإنسان ولكنه لا يستطيع أن يعيش فوق الأرض. إن المرأة تشبه تفاحة نثيها كلما تذكرنا خطيتنا الأولى. ولذلك فإن الحب يأتي في غالبه على هيئة خطيئة. لقد وهبنا الله الحرية في الحب والقدرة على الاختيار، ولكن البشر يُضيقون على أنفسهم حين التطبيق. إن حبك لا يستطيع أن يقف في وجه الريح التي تديرها القيود الدينية؛ فهناك ضوابط تمنع ارتباطكما؛ لتقرأ ذلك الطالع الخاص عليك بفهم الوضع العام.

أدرك آدمُ ما يرمي إليه الحكيم فأصابه الغمُّ من كل جانب. تغيرت ألوانه وهو مقبلٌ على سفر طويل. أشار عليه الحكيم بتجنب المسار الصحراوي قدر المستطاع في الطريق إلى الموصل، وقال إن للماء قدرة على إطفاء عطش

الجسد، وله طاقة عملاقة على علاج العجز النفسي بشرط أن تعي فائدة التفكير فيه، وأن تدرك المعنى الآخر للماء، ثم تغنى بها قاله العرب:

إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يفسدُهُ إن سآحَ طابَبَ وإن لم يجرِ لم يطبِ



إنها المرحلة الثانية. انطلق آدمُ إلى موطنه عبر الطريق البرية المحفوفة بالمخاطر، من بغداد إلى اللاذقية الواقعة على ساحل البحر المتوسط. كان الطريق مهياً نحو الموصل من خلال اقتفاء نهري دجلة والزاب، وكما أشار الحكيمُ على آدمَ؛ فإنه أثر استخدام الكلك⁽¹⁾ عوضاً عن الطريق الصحراوية الوعرة التي تنتشر فيها وحوها اللصوصُ المحترفون. اقتحم الرجلان مياه دجلة في أول فرصة ممكنة. احتوت المياه آدمَ فتدفق تأثيرها داخله. إن اللقاء الذي جمعه صدفة بالحكيم جعل للماء معاني أخرى بعدما حثه على التفكير فيه. إن الماء - وبلا شك - عنصرٌ حيويٌّ للارتباط والاستمرارية في الحياة، وفي أصل الوجود وديمومته، ولكن آدم عرف أن الانبياية النفسية إذا توافقت مع خط جريان الماء وتدفقه فإنها تهب الاسترخاء الروحي، وتدفع للاستيعاب والإمعان في قدرة الخلق والوجود، حينها يُسلمُ الإنسانُ مصيره حيث تحط روحه. إنها مرحلة لا يصل إليها الكثيرون؛ لأنها تحتاج إلى عباتٍ من الرُقي الروحي والصفاء الذهني؛ تلك كانت من العبر والدروس التي جنى ثمارها آدمُ من الشرق.

أدرك آدمُ - حينها - أن الوقت قد قترَ بحبه ولا يريد له أن يفتك به. إن وراء كل رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ يهرب منها. جنّ عليهم الليل؛ فاقترح عليه دليله

1 - لوحٌ خشبي، يربط عليه ست عشرة دلوّاً خالية، وُسقف جزءاً منه، ويستخدم كالقارب النهري.

الشاب المبيت في ديار بكر. استاجر آدم ودليله معرشاً بالياً. استلقى فيه يريح بدنه بينما غطّ مرافقه في نوم عميق. تكرر مسلسل الأحداث المربعة من جديد؛ سمع صرير الباب يُفتح على مهل؛ فحسب القادم لصاً لا محالة. أغمض عينه حيث مضجعه، وأبقى نظره قائماً من خلال رموشه شبه المغلقة. وجد - وبلا مقدمات - بغلاً يدخل عليه بطيئاً. لم يتحزح آدم من مكانه، ولربنل الخوف منه. صبر على الأمر كي يعطي الوقت مفعوله مع الحدث، كما يفيض النهر بصبره على الماء كي يمارس حركيته وديناميكيته بانسيابه، ولذلك استشاط البغل غضباً. وقف على طوله، فوجده جد إنسان برأس بغل. فزّ آدم من مطرحه فهرب الواقف اهراء أمانه، وسقط رأس البغل متدحرجاً. استيقظ صاحبه فوجد إلى جانبه الرأس. تقدم آدم، ورفع، ثم رماه في اتجاه دليله يسأله:

- ما هذا؟

أخذ يعاينه: إنه رأس بغل صغير. يذبح اللصوص هنا الحيوانات ويقفون على رؤسها. تجفف وتملح وتوضع في الشمس؛ حتى تصبح جاهزة للاستخدام. حين يُصعق الضحية؛ فإنه يهرب من الخوف؛ فينقض اللصوص على ممتلكاته. إنها إحدى فلسفات السرقات البدائية.

ضحك آدم وعض على شفتيه وهو يقول: كم يروق لي عالم (البغلاء) !
توجهها صباحاً ناحية حلب في الطريق إلى اللاذقية. وجد أن الطريق النهري مجهدٌ ومرهقٌ وتحفُّ المخاطر حقاً. عدل عن رأيه وهو يتذكر مقولة أبي راشد الراسخة في عقله: لا تدع الحياة ترتبك حسب أولوياتها، بل أعد ترتيب فصولها كيف تشاء لتسعد.

انتقل للطريق البري بعدما استأجر صاحبه، كان دليله المرافق ذلك الشاب القوي يبدي بشاشة في وجوه من يقابلهم، ويتقن فن التعامل مع شيوخ القبائل والعشائر. نزلا ضيفين عند شيخ إحدى القرى المتأثرة الذي رحب بهم، لكنه أعد لهم كوخاً رديئاً، وطعاماً مجففاً، كما وعدهم بوصول الخيل صباحاً. كان الشيخ يدقق في ممتلكات آدم بإمعان؛ فأوجس منه خيفة. استوعب أن بين الصراحة والوقاحة خيطاً رفيعاً. طلب من صاحبه المناوبة. سهر آدم مراقباً حتى منتصف الليل ثم أيقظ صاحبه ليأدله المراقبة. مالث - بعدها - أن غطّ الاثنان في النوم. أحسّ آدمُ بيد تمتد لتخطف محبرته وصندوقه من خلف جدار الكوخ. أطلق آدم صرخة مدوية: حرامي.

ما هي إلا لحظات كلمح البصر حتى دخل الشيخ ورجاله الكوخ. سأل الشيخُ آدمَ:

- ما الخطبُ يا رجل؟

- هناك لصٌّ في المنطقة يريد سرقة ممتلكاتي. كان ينوي أخذ محبرتي.

أمر الشيخ رجاله بالبحث عن اللص المفترض في المنطقة ولكنهم عادوا بعد دقائق بإجابة متوقعة:

- لم نجد اللص!

وضع آدمُ يده على كتف الشيخ رابتاً، وهو يقول: لن تجدوا اللصَّ أبداً. يمكنُ للإنسان - أحياناً - أن يرى الأشياء البعيدة أمامه ولكن لا يمكنه أن يرى القريبَ من خلف ظهره!

أعطى آدمُ الشيخَ ثمن الخيل صباحاً وتوجه الصاحبان - بعد ذلك - إلى بيلان. هناك وعلى غير ما اعتادا؛ وجد بيوت المنطقة فارغة ساكنة، ورأى

وبصورة صاعقة بعض الجثث المتحللة والمتناثرة في الطرقات. كانت ريحُ الصَّبَا تأتيه من المشرق وقد تلوّث نسيمها. الرياحُ إما تأتي مبشرةً أو نادبة. استمع إلى أنيها، أرشدته - ضمناً - للابتعاد عن المنطقة التي كانت تربص بها حيواناتُ المنون التي تقتات على جثث الموتى. وجد بينها نباتِ آوى وكثيراً من الذئاب والثعالب والكلاب المسعورة، استنكر صاحبه وجود هذه الحيوانات فأجابه آدم:

- تلك الحيوانات تقتاتُ الجيف، وتستانس كثيراً بالجيف البشرية. أما رأيت ما فعل الطاعون بأهل هذه المنطقة، وكيف فتك بها؟

لم يُطق آدم البقاء في بيلان فانطلق إلى محطته الآسيوية الأخيرة. كانت الطريق إلى اللاذقية على سواحل البحر المتوسط أكثر اعتدالاً وأقل خطورة، انطلق ضمن قافلة تجارية بعدما أتعبه المسيرُ المنفرد. كان ممتأليد القافلة، ولكنه امتعض كثيراً عندما وجد أنها تحمل رجلاً أوروبياً مريضاً، كان المريضُ كثيرَ الوجع والأنين، خاف آدم أن ينقلَ له عدوى مرضه بعدما طفق هارباً من القرية المنكوبة بالطاعون. توقع الكثير من الصعاب نتيجة وجود ذلك المريض. أراد أن يدفع لصاحب القافلة بضع كرونات زيادة لعلهم يتركون المريض ومرضه، ولكنه خشي أن يثور عليه مرافقو القافلة ويُتهمُ بالأنانية واستئثار الخير لنفسه.

وقبل الوصول إلى اللاذقية بليتين من المسير؛ وقفت القافلة للاستراحة وقد زاد أنين المريض وارتفع صوته. حطت القافلة رحالها، وقيل الفجر أقبل اللصوص - كعادتهم - للانقضاض على القافلة. كان آدمُ يقضان نائماً. اختلط الأمر على اللصوص لما سمعوا أنين المريض. تراءى لهم أنّ هناك من يؤدُّ الانقضاضَ عليهم فهربوا وتركوا المهمة التي جاءوا من أجلها؛ كان الرجلُ على مرضه يحمل الخير المؤجل للقافلة.

وبعد ما يربو على شهر ونصف من مغادرة دلمونيا، ها هو آدمُ يودع دليله الشابَّ القوي وقد حانت ساعة الفراق. ذكّره بمباق النهر، وأوصاه بالحكمة والتريث عند اتخاذ قرارٍ ما. أهده بعض العملات المعدنية عرفاناً بفضله وتقديراً للدور الذي قام به، ثم سأله الشاب:

- هل ستعود في المستقبل لدلمونيا وتعتبر أراضينا مرّةً أخرى؟

- أنت تسألني عن دلمونيا التي وجدتُ العالمَ مخترلاً فيها بخيره وشره، بماضيه وحاضره ومستقبله، بالحب الذي يتشري في قلوب أهاليه وناسه، بخولة وأبيها، بالعميد، بالحاكم الذي يعترف بنقصه، ويبحث عمّن يديه السداد، وعن التاجر الذي يتربص شراً بغيره رغبة في بسط وفرض جبروته وسلطته، بالخادم الذي يمثل الشوكة التي خلفتها الرحلة الاستكشافية في خاصرتها لتكون رأس حربة جاهزة للطعن وقتما يشاء المتربصون. كنتُ ولا أزال متيماً بخولة دلمونيا، بالحب الذي يفرض على الإنسانية جمعاء أن يتامى بالحوار الإيجابي، بحوارٍ يكوه الحبُّ ليتجاوز العقبات الصعاب. حبُّ خولة وعلى الرغم من استحالة؛ يفرضُ علينا أن نعيد كتابة التاريخ بعين المستقبل، ولا نبقي أسارى لمخلفاته وتبعاته التي وُجدت للعيش في تلك العصور. علينا الحوارُ بروح الحِلْمِ فمن الغباء التحدث أثناء الغضب.

كان دليله مصغياً مطرقاً، ولكنه واقع خارج دائرة كلماته. لم يستوعب الكثير من أحاديثه غير المترابطة أحياناً، والتي تصل حدّ الهذيان أحياناً أخرى. دعا إليه بالتوفيق والسداد، ثم التحق بأول قافلة تجارية عائدة إلى بغداد.

ترك آدمُ اللاذقية متوجهاً بحراً إلى لارنكا. غادر الشرق بسحره، وها هو وبعد طول شقاء يعانق الغرب في عصر الصناعة وبزوغ الآلة. أقلته

سفينة تجارية تتخذ طريقاً تحميه وتؤمنه بعض السفن العسكرية. وعبرَ نهر الدانوب مقتحماً أوروبا، توجه بعدها لبوخارست، ثم وارسو وهانوفر، وأخيراً حطَّ رحاله في كوبنهاغن. كان يحملهُ الشوقُ أكثر مما تحمله السفن والحيل وغيرها. إنها الحالة العاطفية المتقلبة للمسافر، ففي ترحاله تجده لا يشعر بالغربة، وما إن يبدأ حطُّ العودة إلا ويدرك أنه لا يتمي للمكان نفسه. الشوقُ يداعب مشاعره ويُشعلُ عنده ألهفة بصور الذكريات.



حفل آدمُ باستقبال رسمي أقامته جامعة غوتنغن مهد الفكرة التي انطلقت منها الرحلة الاستكشافية. أعدَّ له حفلٌ زخرفي بحضور الكثير من الأكاديميين والسياسيين والدبلوماسيين وجمهورٍ من المتابعين. اصطفَّ الحضور أمام المبنى الجامعي الأثري؛ مدخلٌ يتوسط مبنى مربع الشكل له رأس مثلث، تزينه ثلاث نوافذ علوية، وأخريان جاءت واحدة منهما على يمين الباب الرئيسي، وأخرى على يساره، بينما تنزوي القاعة الأكاديمية خلف ذلك المدخل، اتخذت شكلاً مخروطياً ينحدر للوراء مكوناً شكل ذيل في مؤخرته. أخذ آدمُ يصافح الحضور قبل أن يتوجه برفقة أساتذته إلى القاعة الرئيسية العتيقة، ويعطي صورة موجزة عن نتائج الرحلة:

أيها الحضور الكريم. لقد كانت نتائج الحملة مغايرة ومتباينة بشدة بين المتوقع والمأمول. أضفت للأهداف المعلنة الكثير الكثير، وقوّضت أهدافاً أخرى بسبب ما طرأ على الرحلة من حوادث متجددة وغير متوقعة. ليس الوقت ملائماً لردّها جميعاً. إنني أعدكم بإصدار مجلداتٍ تؤرخ محطاتها لتكون نبراساً للمهتمين مستقبلاً، ولكن لا بدّ - في هذه الالتفاتة والعُجالة - أن أعرج على هدف كان خارج كل التوقعات والآمال، يرتبط بجزيرة

تُسمى دلمونيا. إنه - ومن خلال العديد من الدراسات والتحقيقات - وجدتُ أن حضارة دلمونيا تضرب عمق التاريخ، بثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد أو يزيد، وأنها جزءٌ وركنٌ فاعلٌ من أول حضارة عرفها الإنسان؛ وهي الحضارة السومرية. تلك العلامةُ الرائدة التي عُرفت بحضارة ما بين النهرين، لقد انبثق منها اختراع الكتابة المسمارية، وفيها أول إنسان بنى وَرَعَ وَنَظَّمَ الحياة المدنية. لقد أوضحتُ في دراساتي، وبمادونه رفاقي، أن حضارة دلمونيا جزءٌ أساسيٌّ من الحضارة السومرية، وأنها استخدمت كأرض للخلود. إنَّ لفظ دلمونيا يعني إله الخلود والديمومة، فإذا مات أحدهم هناك ودفن فيها فإنه يعيش خالداً بين الموت والحياة.

غادر آدمُ مبنى جامعة غوتنغن ليلتقي بأسرته. أصبح يحنُّ إلى حضن أمه كمن وُلد للتو، التقاها؛ فُبعثت روحه من جديد، استشفى بدفتها وحنانها. سأها عن كارينا فقالت:

- لقد تزوجت كارينا بالسماز جاكسون؛ فاستولى الاثنان على جميع أملاكنا في الريف. لربيق لنا غير ما نملك هنا في المدينة.

سأها: وأين حبُّ كارينا المزمع والذي كانت تتغنى به؟

- إنَّ الحبَّ الذي يُمسي متجمداً خارج سرير لا يُصبح حاراً بعد تسخينه بل يُضحى بخاراً. فكلما زاد عراك العاشقين كانت روحاهما أقرب.



(6) خولة

ديسمبر 1765

رحل العميدُ وغادر آدمُ شواطئي، ثم أقجم أبو راشد زنزاته ظلماً ليقين
خلف القضبان. نائبات الدهر لا تنقضي إلا برحيل الإنسان وفنائه. تعلمتُ
أن الفناء يأتي على خطواتٍ ومراحلٍ متراكمة. عليك أيها الإنسان أن تأنس
بقضائك لتسعد. خير القدر هو ما ظهر لك وأسوأه ما غاب عنك وبطن،
ولكن - وكما قال العرب - الناس لا يحتملون فيضَ النعمة؛ فمتى أظهرت
الأرض زهرتها ظهر الفساد، بينما بالرضا تتجمل بالحياة وتأنس الحياة بنا.

كان رحيلُ العميد يعني فناء جسد فقط، آثاره الفكرية والإنسانية باقية
تضرب بجذورها أعماق الأرض وبفروعها عنان السماء، زرع قيماً ومبادئ
أخلاقية جمّة، رسّخ تاريخاً، وأشعل نبراساً للحياة ينير ردهات الظلام، لم
ينقطع أثره أبداً لأنه فطن إلى أن المعاق هو من يسير في الصحراء بلا توقف.

أما والدي أبو راشد، فكان الكيدُ أصعبَ من الزج به خلف القضبان في
سياسة معادة ومفضوحة تُعبر عن العجز الحقيقي لقيادة التاجر المزيفة،
ذلك التاجر الذي يخشى سُنّة التغيير، ويحارب التغيير والإصلاح منذ أن
اقتحم دلمونيا عن طريق القوة والاستيلاء والاحتلال. يتمنى الجمود والبقاء
على الوضع الراهن. يرى أن البشر ما خلَقوا إلا في طبقاتٍ مختلفة ساكنة،
وأن الطبقة نفسها سُنّة حياة طبيعية تحافظ على موروثاتها. سُنّة حياة يضمن
بها الاستمرار بالسلطة والقبض على المال العام. قد يُتيح التاجرُ للشارع
حرية النقد والتوبيخ لأعضاء مجلسه المُعين ولعامليه، ولكنه لن يسمح

الماس بذات سموه المقدسة، ولن يسمح بتشريع وقضاء يسط فيه الله الرزق لعباده، أو يبيح لك الحوار المشروط تحت راية الحرية المطلقة اسماً والمقيدة فعلاً. إن السلطة داءٌ يصعب العيش دونه لمن تأصلت في نخاعه، وجبل عليها منذ الولادة، وكان سيادياً سادياً منذ نعومة أظافره. إن التغيير في مُعجمه كالموت، والموتُ في عقيدتنا يخطئنا دائماً ليصيب الآخرين، فدعوه يتغنى بموتنا!

إن السلطة التي يتأثر بها التاجرُ هي الوازع الخفي لتحريك لذته وشهواته. كذلك الغريزة الجنسية للمُتبد، لا تسلم من انحرافات وأطباعه، تجده ساديّ الهوى، لا يظهرُ إلا مكفهرَ الوجه بسبب إجهاد ما في جوفه. ينحرف المُتبدُ في ترفه إلى حيث تطمع خصيتاه، لذلك كنتُ ولا أزال أدرك رغائبه الجنسية حين طمع في زوجة السيب يوسف، وحين فُتن بجماها. كأنه يريد تكرار زلات تاريخنا الأسود؛ التاريخ الذي أباح لذوي السلطة الجمع بين الدم والفرج؛ فأنتج مصاهرة محرّمة؛ أنتجت - بدورها - سلاسل هجينة مريضة. كان التاجر يُشيع بين الناس أن دم ابنه ناصر أهدره السيب يوسف. حمل هذه الراية يلوح بها كقميص عثمان أينما رحل. أطاح بيوسف في سجنٍ ليس له قرار. ألبه تهمة جنائية خالصة وأخرى قضية رأي عامة، وكانت الخلاصةُ مشروعية حق الزنا في دلمونيا، وحق الدخول بزوجة يوسف بل واغتصابها.

لم تكن غواياته تنقطع إلا ليبدأ في حلقة أخرى. رغب في مصاهرة أبي راشد والزواج بي لعلّه يجد النسب والمصاهرة سبيلاً لإذابة الجليد بين شعب دلمونيا وقيادته. لا زلتُ أذكر الشريط المردي لتلك الواقعة حين أرسل موفده إلى والدي:

- التاجر يقرأك السلام، ويطلب الزواج من عقيلتكم خولة. سيكون مهرها إسقاط ديونكم وأحد بساتين منطقة بربورة المثمرة.

أجابه والدي بشموخ جبل يقف عاتياً في وجه الريح: نحن لا نقبل أن نجني أموالاً من وراء نائنا وبناتنا، تأباه أنفسنا بعزمتها؛ فالله أنعم علينا من كرمه وعطائه، ونرفض زواج من لا يُقي من دينه قياً ترفعه عن دناءة الدنيا وخبائثها. أنت ترغب في مصاهرة دم ونسب، ونحن نرغب في مصاهرة إنسانية تُرضي السماء لتبارك خطاها، وتُسعد الأرض لثمر جمالها. مثلنا لا يصاهر أمثالكم.

مُنح التاجر حكمَ الشأن الداخلي ولكنه استشاط غيظاً حين خالفه رأيُ الحاكم ومرامه؛ فقد كانت الموارد تقسم على الحكام وعامليهم والشؤون العامة. ولما أطاح بيده؛ استأثر بالحكم والملك كله. استبدّ بالسب يوسف، فما زاد زوجة السب إلا شموخاً وصموداً. أراد أن يُحكّم قبضته على دلمونيا فوجدها جمره تشتعل في قبضته وتتملص من بين أصابعه.

إنني - وبها عهدتُ لأدم - الوفاء بعهد التدوين؛ أقف عاجزة أمام القلم بمحبرته وريشته. لا أجدُ ضيراً أن أكاشف نفسي بصدق مطلق، ولكنني أشعر بالدوار والألم كلما نثرتُ ما بداخلي حبراً فوق أوراقتي ومدونتي. صرتُ أشعر - كما عبّر عنه آدم - بأن هناك من يقرأ ذاتي حال الكتابة، وبأن هناك من يقتفي أثرني ليضع جميع مدوناتي وكلماتي أمام العالم أسره. سيعيدُ كتابة التاريخ حسب لغة عصره. عليه أن يقرأ أفكاري وأفكار من سبقوني، ويترجمها بلغة تصل القارئ أينما حلّ ووُجد. أدرك أنها لن تكون مهمة سهلة، ولكن النجاح والتوفيق يكون مع المخلص المؤمن بعمله؛ لعلّه يُهدي حكاياتنا وروايتها إلى روعي التي تشتاق لعصرٍ لم يُخلق بعد.

لربق إلا أن أسرد حالي (الآدمية)؛ ذلك الرجل الأحمر الذي أحالته الشمس الأوسطية إلى سمرة أحد أبناء جلدتها. أقبل رحالة يكتشف دلمونيا، ويعاين مياهها وجبالها وهضابها، وماءها وسماها، آثارها وكنوزها المدفونة تحت وفوق رمالها. ما لبث أن أثاره إنسانها بخصائصه المنفردة. كان يقول إن إنسان دلمونيا يمثل شريحة شرق أوسطية تحتل العالم في جوانبها، إنسانٌ يحفظ بترائه وتاريخه، ولكنه يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً. يعيش فوق جزيرة صغيرة المساحة، ولكنه يرى دوره التغييري في المنطقة ريادياً. ما يحل بدلمونيا تجده - مع الوقت - يبسط ذاته على دول الجوار، يتأثر بها ويؤثر فيها. تتجاذبه الأقطار من حوله مجتمعة: فرس، موحدون، عثمانيون، بريطانيون. ومن قبلهم كان: البرتغاليون، واليعاربة والقواسم. ترفض تلك القوى كلها التغير أحادي الجانب. كلٌ يريد تغييراً على شاكلته، بينما ترغب دلمونيا - بكبرياتها ووجدانها - في أن تجود على المنطقة بدور ريادي مطلق.

جاء آدم كمن يشبه الغزاة. استقرَ فيها، وشرب ماءها، وأكل غذاءها، وتواصل مع إنسانها؛ فأصبح (آدمياً) دلمونياً. حمل الحب والنور والخير في قلبه. لا أخفي أن ذلك النور تطيرَ في داخلي وأصابني منه فجذبني إليه بلا تردد. كانت واقعة الخطيئة نبراساً لحمل الضوء أينما وطأت قدماه.

حاول آدم أن ينعم بدفء نصفه الثاني، وجد من يقاسمه المشاعر والفكر، كانت حالة الخطيئة الشيطانية مفردة نشاراً في سيرته، وجدته رجلاً مثيراً تمناه كلُّ حواء أينما ثقفت، كنتُ أواقفه في قبول طلب الارتباط والزواج بلا إجابات شافية؛ فالرجل يرى أن امرأة بلا إجابات خير وبمراحل كثيرة من حية بلا أسئلة، ولكنني كنتُ أدرك تماماً استحالة أن

تتكمّل الشروط الأربعة، واستحالة الارتباط بيننا؛ فالإسلام على الرغم من مساحة الحرية التي يتبناها؛ فإنه يضع قيوداً على الزواج بالكتابي؛ لأنه يتوقع أن يدين الأبناء بدين أبيهم؛ شرطاً لا يمكن القفز عليه ولا يمكن للكثيرين هضمه. أليس الحبُّ قضاءً محروماً يستحق أن تكون له شرائع أيضاً؟

وجدتُ أن الحب الذي بنعم به قلبُ آدم أقوى من القوى الشيطانية مجتمعة في أفئدة أهل دلمونيا. ربما تكون حالة من الأنانية الحنة. لقد أثرتُ أن أستخرج طاقة الحب التي تملأ قلبه، والتي تتلاقى في شكلها وأغلبها مع طاقة والدي أبي راشد. إن طاقة الحب التي تغمر الإنسان كقيلة بتغيير العالم من حالته الجهنمية إلى واحة خضراء تجمل فيها الإنسانية بصفات ملائكية. إن هذه الطاقة كامنة في قلب كل إنسان، ولكن المهمة الشاقة هي كيفية الوصول إليها في طريقة نبش الذات؛ لتدفق منها الطاقة (الحنانية)، وما لم تغمرنا تلك الطاقة الهائلة؛ فإننا نبقى أسارى شهواتنا ونوازعنا الشيطانية المريضة.

عليك أيها الإنسان أن تبحث عن الحب في قلبك، وتستمد منه تلك الطاقة، حينها تتسامى عن أساء إليك، وترفع عن استخدام بطش القوة الجسدية والإيذاء اللفظي وسواه؛ لأنك ستعلم أن الحب سيد الأدلة.



كلمة أخيرة

هذه الرواية تتقاطع في كثير من أحداثها مع حقائق ووقائع تاريخية، ولكن مكوّناتها برمتها من عنوان، وقصص، وحكايات، وأحداث، وحوارات هي محض خيال الكاتب، وأنّ أي تشابه بين شخصيات الرواية والشخصيات التاريخية أو المعاصرة هو من باب المصادفة المحضة فقط، ولذلك؛ فإن رواية دلمونيا في أصلها غير قابلة للتأويل والتحقيق، ولا يُعند بأحداثها لأنها ليست كتاباً تاريخياً أو توثيقياً.

كما يروق لي أن أعلن أنّ حقوق القارئ متاحة في الطبع والنسخ والتوزيع (الإلكتروني) فقط.

رسول درويش

2015/6/19

المراجع العربية،

1. د. معاوية إبراهيم، حفريات البعثة العربية في موقع سار، الجسر، البحرين، جامعة البحرين، وزارة الإعلام، دولة البحرين، 1982.
2. جاسم حسين آل عباس، موقع سنوات الجريش الإلكتروني.
3. أ. د. طارق نافع الحمداني، البحرين في كتابات الرحالة الأوروبيين، (1507-1914)، الوراق للنشر.
4. ج ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، إعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر (pdf).
5. بّام مرتضى، نظرة في الإلهيات، دار الرسول الأكرم، 1998.
6. روي فيريرا أندرادي، يوم سقط هرمز، إصدارات مؤسسة الأيام للطباعة والنشر، ترجمة د. عيسى أمين، 1996.
7. كارستن نيور، رحلة نيور الكاملة إلى العراق، مراجعة وتعليق وتقديم سالر الألويسي، الوراق للنشر، ط 1، 2012.
8. تاريخ الخليج والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تخيرا، ترجمة د. عيسى أمين، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
9. سمير عطا الله، قافلة الحبر، الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (1762-1950)، دار الساقى، ط 1، 1994.
10. عباس ميرزا المرشد، ضخامة التراث ووعي المفارقة، مجمع البحرين الثقافي للدراسات والبحوث، ط 1، 2003.

11. د. محمد الرميحي، البحرين: مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ط 2، 1984.
12. أشرف صالح، قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى، شركة الكتاب الإلكتروني العربي، بيروت، ط 1، 2008.
13. الشيخ محمد النهاني الطائي، التحفة النهائية في تاريخ الجزيرة العربية (البحرين)، فراديس للنشر والتوزيع، ط 1، 2007.
14. السير تشارلز بلغريف، مذكرات بلغريف مستشار حكومة البحرين سابقاً، ترجمة مهدي عبدالله.
15. ماكس أوبنهايم، رحلة إلى بلاد شمر وبلاد شمال الجزيرة، الوراق للنشر.
16. ولفريد ثييفر/ مبارك بن لندن، رمال العرب، الوراق للنشر، ط 2.

References

1. Sir Edwin Arnold, The Light of Asia,(1832-1904), book library, London.
2. Bahrain, The Civilization of The Two Seas, from Delmon to Tylos, institute Du Munde Arab, 1999
3. Henny Harald Hansen, Investigations in a Shia Village in Bahrain, The National Museum of Denmark, Copenhagen, 1968

لإضافة التعليقات والآراء والدراسات حول "دلمونيا"
يرجى زيارة:

<https://www.facebook.com/rasool.darweesh>

صدر للمؤلف:

رواية خطيئة الرداب - 2013



دلّمونيا

هي: أن أعود إلى الدنيا.
هو: تعودين للدنيا! لماذا؟
هي: شعرت بضرورة التكفير عن
الخطايا، فمداينات البشر هي أكثر ما
يتعبني ويرهق الإنسان عموماً حتى
في مماته. قد يغفر لك الرب أخطاءك
وزلك، ولكن تلك المداينات تبقى ديناً
عليك في رقبته. القصاص لها يضيرك
وعدم القصاص منك يتعبك أكثر.
هو: ولماذا تحملين مقتنياتك معك؟
هي: لا يحمل الإنسان معه بعد مماته
غير صالحات أعماله، هذه مقتنيات
مادية تمثل هاجسنا وقنارتنا الدنيوية:
رغبتنا في توريث وتخليد أنفسنا، الرمح
الذي تراد أحالني إلى عالم حيواني،
أخال به أنني الحق وسواي باطل أحاربه،
لم أكن أؤمن بالتعددية بين البشر
بوصفها عملاً تكاملياً.

نينوى

للدراسات
والنشر
والتوزيع



ISBN 978-9933-536-46-6



9 789933 536466